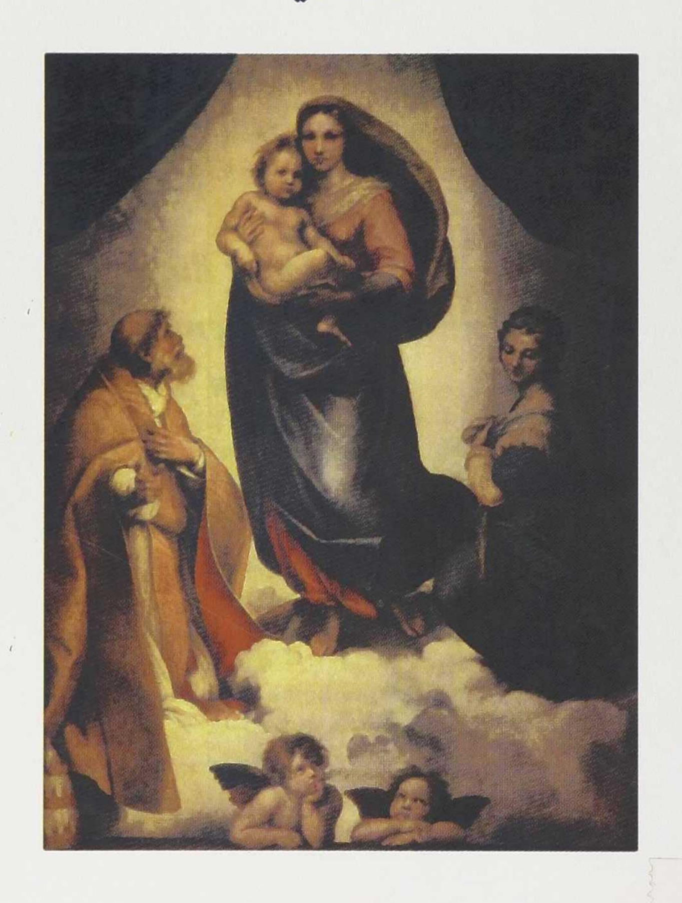
هيلين دوتش

عِلم نفس المرأة
الطفولة والمراهقة

ترجمة
اسكندر جرجي معصب





علـــم نفس المـــرأة

الطفولة والمراهقة

هذا الكتاب ترجمة

The psychology of women, volume one

By Helene Deutsch

١٥٥
دهع

هيلين دوتش

علم نفس المرأة

ترجمة

اسكندر جرجي معصَّب

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1428 هـ ـ 2007 م

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام ـ ص.ب. 113/6311

تلفون 791123 (01) ـ تلفاكس 791124 (01) بيروت ـ لبنان

بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

ISBN 9953-463-48 -4

علم نفس المرأة

الجزء الأول

الطفولة والمراهقة

المقدمة

منذ بداية دراساتي في علم التحليل النفسي، تركزت أبحاثي على مسائل علم النفس الأنثوي. وكانت أولى نتائجي موضوعاً لكتاب بعنوان " *التحليل النفسي للوظائف الجنسية للنساء*"[1]. وكان يعكف هذا الكتاب على تلمس، بطريقة قياسية، نمو الحياة الغريزية للمرأة وعلاقاتها مع الوظيفة التناسلية. ولم أكن أدرك تماماً عدم كفاية وثائقي. وكان لي نية في إغنائها في أعقاب ذلك. فتابعت منذ ذلك الوقت جمع مواد الملاحظة ورحت أنشر نتائجي من وقت إلى آخر. وأحس الآن بحاجة لإعادة النظر بأفكاري القديمة على ضوء هذه التجربة الطويلة، وإعادة التأكيد على الأفكار التي أثبتت جدواها، وتصحيح أو استبعاد تلك التي اتضح عدم دقتها.

وقد تبنّى كتّاب آخرون العديد من وجهات نظري وأغنوها بأفعال جديدة. هذا العمل الذي أقدمه الآن هو دعم لكتابي الأول ليس فقط بثمرة تجربتي الشخصية، إنما أيضاً بمساهمات هؤلاء الكتّاب، وقبل كل شيء بالمنشورات السابقة لفرويد حول علم نفس المرأة.

كما أثارت المسائل التي نوقشت هنا جدالات حامية. وأدت تباينات الرأي هذه إلى حالات من سوء التفاهم، وتعريفات غير دقيقة، كالحالة التي نشأت مثلاً بالنسبة لمبدأي " الذكوري – النشيط " و" الأنثوي – السلبي". وطُبق هذان المبدآن مباشرة على طاقة الغرائز الجنسية وأدى ذلك إلى تشوش بين الظواهر النفسية البيولوجية. واللوم الذي وُجّه إلى هذا التشوش للمجالين مبرر تماماً.

(1) Deutsch, H.: Psychoanalyse der weiblichen Sexualfunktionen. Vienna: internat, Psychoanal., Verlag, 1925.

ومن ناحية أخرى هناك ميل يشتد أكثر فأكثر لتفسير اختلافات سلوك الجنسين بواسطة التربية أو تأثير الوسط المحيط، على حساب العوامل البيولوجية والتشريحية الجسدية. إن علم التحليل النفسي لا ينكر أبداً أن الوسط الاجتماعي يلعب دوراً هاماً جداً، وأنه يخلق المشاكل ويوجد لها حلاً. ويعالج الباب الأخير من هذا الكتاب هذه المسألة ويعرض تصوراً تحليلياً نفسياً لعلم النفس الأنثوي في ارتباطاته مع الظرف الاجتماعي.

وإذا قام علم النفس التحليلي انطلاقاً من نظرية الغرائز، فستتوسع أسسه على نحو كبير. فغريزة المحاورة الذاتية، وغريزة العدوان، وغريزة الموت تتميز على الغرائز الجنسية، ويدأب بحث التحليل النفسي باهتمام متنامٍ بعلم نفس الأنا. وتُستخدم نظرية التحليل النفسي للغرائز في هذا الكتاب لتوضيح الخلفية البيولوجية التي تصدر عنها الشخصية النفسية للمرأة. وإذا كان للوسط الاجتماعي من ناحية، والعوامل البيولوجية من ناحية أخرى تأثير رئيسي على المظاهر النفسية، فالتشديد هنا على التجارب العاطفية الفردية والصراعات التي تنجم عنها. ولا ترتبط هذه الصراعات فقط بالأسباب البيولوجية أو الاجتماعية، طالما هناك علاقة وثيقة بين هذه العوامل.

وهكذا فهدف هذا الكتاب هو تفسير الحياة النفسية الطبيعية للنساء وصراعاتهن العادية. ونعلم أن الصحة النفسية لا تكون في غياب الصراعات، إنما في فعالية الطرق المستخدمة لحلها. ويمدنا علم الأمراض بالمعلومات حول الصراعات الطبيعية، ويساعدنا على فهم التطورات الطبيعية في ضوء التطورات المرضية. وقد اكتُسبت معظم معارف التحليل النفسي في علم النفس الطبيعي من دراسة حالات الانحراف والشذوذ. وفي دراسة علم نفس المرأة، يكون السلوك العصابي على نحو خاص جداً غنياً بالمعلومات. ولهذا السبب سيجد عرض الحالات العصابية مكانته هنا؛ إذ أن الظواهر التي تبدو فيه، مع أنها غير طبيعية، لا تمثل غالباً إلا تشويهاً أو تكثيفاً للطبيعي، وهي تمدنا هكذا بنوع من الرؤية المجهرية لما يدرسه علم التحليل النفسي بالمجهر.

لقد وُجّه اللوم لعلم التحليل النفسي لاستخدامه عدد محدود نسبياً من العبارات التقنية لوصف شدة تعقيد الحياة النفسية، والتقليص الدائم للمظاهر

المتنوعة لتطور ديناميكي وحيد. وتم دعم فكرة أن الوضوح الذي تقوم عليه نظرياته ينقصه الموضوعية.

فاللوم الأول ينعقد على عدم تفهم المهمة التي يمنحها علم التحليل النفسي لنفسه في الانطلاق. وتكمن هذه المهمة في العودة إلى مصدر المظاهر النفسية، واكتشاف الصلات الموجودة بين جميع المظاهر النفسية، وإيجاد أصلها المشترك في ميول غريزية محددة. إنما جهد كهذا في التبسيط والتعميم لا يعني علم التحليل النفسي على نحو خاص. إنه هدف جوهري لجميع الأبحاث العلمية، ويتعلق ذلك، في علم التحليل النفسي، في مجموعة المكتسبات التجريبية.

أما اللوم الثاني- الذي يتهم علم التحليل النفسي بعد قيام نظرياته على معطيات موضوعية كما هو الحال في العلوم التجريبية- فهو دقيق جداً. ومع ذلك، يسبر التحليل النفسي هذه المنطقة المظلمة من النفس. التي تكون دوماً- وستكون دوماً بلا شك- صعبة البلوغ لدراسة أكثر موضوعية. ومن ناحية أخرى، التحليل جدير الآن، لدرجة معينة، بتلافي هذه الصعوبة. ونظراً للطابع البيولوجي لنظرية علم التحليل النفسي للغرائز، يتبين أن تطبيق هذه النظرية على التطورات الجسدية كل يوم أكثر نجاعة، والاكتشافات الخاصة بالعلاقات بين العوامل العضوية والنفسية تعدّل مفاهيمنا بعضها عن بعض مشيرة إلى وجود قاسم مشترك. كما أن الوسائل الموضوعية نسبياً المستخدم لدراسة المسائل المرضية تتيح لنا موضوعية أكبر في تحليل العوامل النفسية.

إن المعطيات التي استخدمتها في هذا الكتاب ليست محددة بالملاحظات الشخصية لمعالجاتي التحليلية النفسية. فهي تأتي أيضاً من الملاحظات المقتبسة من- أطباء أو مساعدين اجتماعيين- آخرين ليس لهم أية سابق تجربة في النظرية النفسية. كما تبين أن الوثائق اليومية المقتبسة من المشفى إرشادية على نحو خاص. ومن البديهي أن استخدمتها عندما أعتبرها جديرة بالاعتقاد وعندما أستطيع مراقبتها مع رؤية المرضى بنفسي. كما استخدمت أيضاً مختلف الإستشارات الاجتماعية.

ولعل السعي للموضوعية هنا، لا يقنع تحيزاً مضاداً. كما ذكر فرويد[1] بلهجة من الدعابة قائلاً: " عبر الأجيال والعهود، أثارت قضية المرأة كل إنسان؛

(1) Freud, S. : Introductory lectures on psychoanalysis. Traduction anglaise de Joan Rivière. Londres : Allen & Unwin , 1929.

أنتم أيضاً انكببتم على هذه المسألة، لهذا السبب أنتم رجال. ولا نستطيع أن نقول أنتن النساء، لأنكن بحد ذاتكن ألغاز". ومع ذلك رغبة المرأة في أن تحل لغزها الخاص، وحاجتها للتأمل الباطني، والقدرة التي تمتلكها في أن تحل محل نساء أخريات، هي أمور يمكن أن تعوض موضوعيتها الدنيا.

كما اقتبست، في هذا الكتاب، معطيات مثيرة من الأدب والتي، مع أنها ذات موضوعية متدنية بالنسبة للملاحظة السريرية، تكون صحيحة أكثر كونها مستوحاة. وبنهاية الأمر، ليس هدف أي بحث يكمن في الموضوعية إنما في الحقيقة.

ونظراً للتنوع الكبير للمواد المستخدمة والضرورة المستمرة في التخلي عن سياق زمني للعرض، فالأبواب المختلفة لهذا الكتاب قد تشكل كلاً أقل انسجاماً مما نرجوه. وإذا تقرر سياق الأبواب والموضوع الرئيسي منذ البداية، فقد اتخذ كل باب إفرادية معينة. واعتبارات السياق العام كانت ضرورية أحياناً لتوضيح موضوع خاص. وآمل أن أكون بذلك قد حققت انسجاماً بين كامل المواد المستخدمة ومختلف المسائل المطروحة، رغم التكرار والتشابك الذي تتضمنه قضية ما.

ولم أكرّس باباً خاصة للطفولة الصغرى. ولفهم العلاقات الكائنة بين نفسية المرأة الراشدة وطفولتها، آثرت العودة إلى فترة الطفولة لما يخص المسائل الخاصة للراشدين.

وينبغي أن أشرح باختصار كيف صنفت وثائقي. فلقد كان لي اعتبار ثلاثة مواضيع متميزة بالرغم من أنها مرتبطة فيما بينها. يهتم الأول بالحياة النفسية الأنثوية في الفترة التي تدنو فيها الفتاة من الأنوثة، تلك الفترة التي تنتهي نفسياً بحلول الحيض. وترسّخ هذه المرحلة أسس الشخصية الأنثوية؛ بما أدعوه " جوهر الأنوثة" الذي يتشكل فيها حتماً. ويأتي الموضوع الثاني على تحليل الجوهر الأنثوي. وقد كُرّس باب خاص لكل من الملامح الجوهرية الثلاثة للأنوثة، النرجسية، والسلبية، والماسوشية، والنرجسية المترافقة بوصف الأنماط الرئيسية للنساء "الأنثويات". لكن الملاحظة تبين لنا وجود بعض أنماط النساء وسلوكيات أنثوية تبتعد عن مفهومنا للأنوثة. أما الموضوع الثالث فهو يعمد إلى تحليل ذلك المظهر الغير أنثوي للأنوثة. وحاولت العثور على الجوهر الأنثوي في مظاهر جعلت السلوك النفسي أو الجنسي ينكره أو أجبرت الضرورات الاجتماعية النساء على تمثل حرف الرجل. لقد عالجت الأبواب الثلاثة الأخيرة هذه المسألة.

وبالنظر لغزارة المواد، بدا من المحال دراسة المسألة المركزية للأنوثة، ألا وهي مسألة الأمومة، في حدود مجلد واحد. وهكذا قد قُسمت الثنائية الأساسية للأنوثة في مجلدين. درس المجلد الأول النمو الفردي وشخصية المرأة، ودرس المجلد الثاني دورها كخادمة للحفاظ على الجنس البشري.

وقد اقتضى عرض الحياة النفسية للمرأة في وظيفتها التناسلية مراجعاً متواصلة عن الصفات الرئيسية للأنوثة وعن النمو النفسي للفتاة كما تحددت في هذه الدراسة، وهكذا تكامل الجزآن. مع أن كل منهما يكفي نفسه في حدود الموضوع الذي عالجه.

كما شعر بالامتنان للسيد نوربيرت غيترمان لمساعدته التقنية في إنجاز الكتاب وإني مدينة للناشرين " La Psychoanalytic Quarterly " على الترخيص الذي منحوني إياه في تسميـــة حالتين مأخوذتين من عملي عن "المثلية عند النساء" .(vol. I, 1932)

هيلين دوتش

الفصل الأول

مرحلة ما قبل البلوغ

في كتابه "ثلاث تجارب حول نظرية الإحساس الجنسي"[1] عرض سيغموند فرويد المبادئ الإحساسية في التحليل النفسي من خلال الملاحظة السريرية المتفهمة والمعمقة والتي تناولت مرضى العصاب من البالغين واستنتج قوانين النمو الجنسي لدى الطفل . ومنذ ذلك الحين، أعطت التحليلات، التي أجريت على أطفال في دول مختلفة، لاكتشافاته تأكيداً بالملاحظة المباشرة، كما أعطتنا تفهماً تجاوز إلى حدٍ كبير الإطار الأولي لفرويد.

فنظرية فرويد التي تقر بأن المراحل الأولى " الفموية والشرجية" لنمو الطفل هي نفسها لدى الفتيان والفتيات يجب أن تعدل بموجب أبحاث أكثر حداثة. ولو أن هاتين المرحلتين تنطويان فعلاً على النوع ذاته من الإشباع الغريزي بالنسبة للجنسين، ولو أن المصادر العضوية للغرائز هي ذاتها، وكذلك شخص الأم الذي هو مركز العالم في إشباع الغرائز، يتبين للملاحظ الموضوعي فوارق جليّة بين جنس وآخر رغم التشابهات الظاهرية[2]. فالفارق يبلغ أقصاه عند المرحلة التي ندعوها

---

[1] Freud, S : Trois essais sur la théorie de la sexualité. Paris, Gallimard.

[2] أدرك مدى اللغط بين عبارتي " غريزي" و " جنسي" إنما سأحافظ على هاتين العبارتين حتى يتم الحصول على المعنى الأفضل. هاتان العبارتان استخدمتا هنا لتمييز الوظيفة التناسلية الممتعة للطفل، والتي تظهر وتندمج مع وظائف التغذية والإبراز وغيرها. واستعمال كلمة "غريزي " لا ينبغي أن يفهم منها كنفي لوجود ولأهمية غيرها من الغرائز.

"مرحلة الانتصاب ". ولعل اختلاف المظهر الخارجي في هذه المرحلة يأخذ معنىً خاصاً بالنسبة للجنسين مع أنه معروف مسبقاً لدى الطفل. غير أن الأهمية الكبرى هنا تكمن في الاعتزاز الذي يحس به الصبي الصغير بعضوه الذكوري ومخاوفه حوله والمقارنات التي يجريها بين ذاته والبين الفتيات والفتيان الآخرين. وتوجد لدى الفتاة الصغيرة تطورات مماثلة، إلا أن الاعتزاز عندها يستبدل بالغيرة والخوف إزاء افتقادها لهذا العضو وبرد فعل انفعالي معقد مرده السبب نفسه. فكليهما لديهما رد الفعل الانفعالي المرتبط بالأعضاء التناسلية وعادة ما نوجز ذلك بعبارة "عقدة الخصاء" .

وهكذا يبدو أن الأهمية الناجمة عن الاكتشاف الفرويدي في ميدان، لم يتطرق حتى ذلك الحين إلى الإحساس الجنسي الطفولي، مهدت السبيل شيئاً فشيئاً الآن لأهمية مستحدثة مرتكزة على نمو الأنا عند الطفل ومن هنا أيضاً يحين اليوم لميل مبرر في إقرار اختلاف واضح بين الجنسين. ولعل علم النفس الطفولي يركز جهوده حالياً على أنماط التكيف مع الواقع وعلى نمو العواطف والإدراك. وفي هذا الميدان نحن مدينون أيضاً للتحليل النفسي. إذ اكتشف أن عناصر ذات شأن في النمو النفسي والتي كانت تبدو ألا علاقة لها بالدوافع الجنسية يمكن في التحليل الأخير أن تكون فعالة فيه. وهكذا فالفضول الجنسي عند الطفل الذي يبلغ حده الأقصى خلال مرحلة "الانتصاب" ويتجلى قبل كل شيء باهتماماته المتعلقة باختلاف المظاهر الخارجية بين الجنسين يؤدي إلى نمو فضول أكثر عمومية. فهذه الأهمية الجنسية الأصل تمتد إلى تساميات لما نسميه " طور الكمون".

فالكثير من القدرات الاجتماعية والعقلية للكائن الإنساني الآخذ في النمو تصدر عن غرائز الطفل؛ بيد أن تطور التكيف مع الواقع يزداد حدة شيئاً فشيئاً وينفرج عند انتهاء طور الكمون إلى مرحلة ما قبل البلوغ .

وكما نعلم أن استقلالية الطفل إزاء الدوافع الجنسية أثناء طور الكمون ليست إلا نسبية؛ وعلى العكس، فمن المؤكد من جهة أخرى أن مرحلة الطفولة لا تُشغل فقط بالنمو الجنسي، فهناك التكيف النشط مع العالم الخارجي وحاجة بلوغه، وطبعاً أخرى غير جنسية موجودة لدى الطفل منذ بداية حياته . وتتضاءل خلال طور الكمون أهمية طرح الطفل لأسئلة جنسية إلى حد كبير لكنها لا تختفي

كلياً. فجميع الآليات الداخلية وجميع قوى هذه المرحلة من حاجات جنسية ضعيفة تسخر للنمو الحر للأنا. ومن جهتها، تعزز التربية الأنا في صراعه مع القوى الغريزية الطفولية وتفيده في التكيف مع الواقع ومع المقتضيات الاجتماعية. وفي الإطار العائلي، العناصر الجنسية بعيدة عن علاقات الطفل لأن الحنان يعوّض حاجات العشق كما أن الحيوية تعوض العدوانية الخ .

عندما يأتي التحليل النفسي على ذكر صدمات في تطور النمو فالمقصود دوماً تصعيد ثوري لارتقاء ما يزيد وما ينقص، فالتحليل النفسي هو بالأخص نظرية ارتقائية. فمثلاً، إن قلنا عن البلوغ أنه ثورة نفسية فنحن ندرك تماماً أن المقصود هنا صدمة نجمت عن مراحل تطورية سابقة. فتعريف البلوغ بأنه " إعادة نشر المرحلة الطفولية " قد أصبح كليشيه في التحليل النفسي. وهنا لم نولي انتباهاً كافياً للنشاط التحضيري الذي يتعلق به البلوغ تعلقاً كلياً وللحالة ما قبل الثورية، إن صح التعبير، التي تهيمن على النفسية خلال المرحلة السابقة مباشرة البلوغ ونعني بها مرحلة ما قبل البلوغ.

وهنا لابد من الاقرار بأن معرفتي لهذه التطورات لم تكن دوماً من الملاحظة الشخصية المباشرة. فمصادر معلوماتي كانت أولاً من النساء اللواتي عالجتهن بالتحليل النفسي واللواتي ما أمكن تفهم تصرفهن إلا كامتداد مباشر للبلوغ؛ وبعد ذلك كن عدة طالبات تستشرن محللين لمعاناتهن الصعبة في التكيف مع محيطهن، ذلك المحيط الذي يفرض عليهن أن تكن " متحررات " و "معاصرات".

وبالمحصلة، إنه تنازع واع وشعور بالضيق يصحبهن لاستشارة الطبيب النفسي؛ لمواجهة تلك الحالات المقلقة وذلك العجز في إنجاز الأعمال.

ولطالما أسعى خلال العلاج النفسي القصير الذي أطبقه على حالات ما أن أحصل معلومات مفصلة عن مرحلتي البلوغ وما قبله. ثم تأتي ملاحظات الفحص السريري المباشر وعدد كبير من الوثائق الخاصة بالفتيات اللواتي أصبحن مريضات نفسياً أو تعانين من صعوبات أثناء مرحلة ما قبل البلوغ. وغالباً ما أوضحت لي المظاهر المرضية التطورات الطبيعية. ثم تأتي بعد ذلك الأعمال الأدبية التي تعتبر مورداً لا يمكن إغفاله، إنها بداهة فنية غالباً ما تؤكد بوضوح لافت ما نكابد في التواصل إليه بملاحظاتنا الموضوعية .

ويمكنني تعريف مرحلة ما قبل البلوغ كجزء أخير من طور الكمون ويمكن أن نشهد خلاله بعض الدلائل المبكرة في السعي لمغامرات عاطفية تدل على الدوافع الجنسية المستقبلية، والتي برمتها هي المرحلة ذات الاستقلالية الكبرى في وجه الإحساس الجنسي الطفولي. مرحلة تكون فيها الغرائز الجنسية هي الأضعف ونمو الأنا هو الأشد. هذا التعريف لا يتوافق كلياً مع التعريفات التي أوردها مؤلفون آخرون والتي وصفت مرحلة ما قبل البلوغ برغبات جنسية شديدة تبشر ببزوغ البلوغ . وبالنسبة لحاجات بحثي، ارتأيت من المفضل وضع هذا النهوض في الإحساس الجنسي في سياق المرحلة المقبلة أي مرحلة " البلوغ الناشئ " وأقول أن البلوغ هو بلوغ ما قبل الثوري لأن القدرات المتآزرة، كما سأبين ذلك، فعلياً خلال البلوغ لمواجهة الدوافع الجنسية تتهيأ أثناء مرحلة ما قبل البلوغ، أي مرحلة الاستقلالية الكبرى في وجه الاحتياجات الجنسية. وبذلك فالطبيعة الإنسانية ذات صبغة حكيمة إذ تصنع أسلحتها قبل ظهور المعتدي.

وهكذا فمن الصعب تحديد مرحلة ما قبل البلوغ بدقة كما أتصورها. فالحدود الفاصلة بين المراحل المختلفة غير دقيقة. والتحديد القاطع فيه الكثير من الخطورة ويوقعنا في خطأ بالغ. ومن المحال مع ذلك إزالة هذه الصعوبة. إني أتطلع إلى تحديد مرحلة ما قبل البلوغ ما بين عمر10-12 سنة، دون أن ننسى أن إمتداداتها تذهب بعيداً حتى مرحلة البلوغ بل ويمكن أن تستمر حتى سن اليأس تماماً كمرحلة البلوغ نفسها. وبدرجات متفاوتة، نحمل معنا طفولتنا وما قبل بلوغنا حتى الشيخوخة. أما الطريقة الأسهل للكثيرين فربما تتشكل انطلاقاً من النمو الفيزيولوجي الذي يحدد بطريقة ذات أهمية خاصة للنمو النفسي لهذه المرحلة من الحياة، على اعتبار أن ظهور الحيض هو الحد الفاصل ما بين مرحلتي ما قبل البلوغ والبلوغ. ولعل تجربتنا تظهر أنه لا يمكننا إقرار تواز مطلق ما بين الحوادث الفيزيائية والنفسية مع أن الحيض هو مفتاح حل منازعات البلوغ وله معنىً عميقاً في علم نفس الفتيات. فبعضهن تبلغن الحيض قبل البلوغ النفسي والبعض الآخر تصلن للبلوغ النفسي قبل ظهور دلائل فيزيائية مطابقة. وكذلك الأمر بالنسبة لسن اليأس فما يحصل أن نساء طاعنات في السن ومنهكات ولازلن في الحيض وأخريات تبقين قويات وشابات بعد تجاوز سن اليأس الفيزيولوجي.

ضمن الإطار الذي نضعه عن مرحلة ما قبل البلوغ، كيف نتصور الفتاة الصغيرة في هذه المرحلة ؟ نحن جميعاً نعتقد مع فرويد أن التحول للمراهقة يبتدئ بتزايد فجائي في السلبية. ففي عام 1925، طرحت رأياً يفيد بأن "هبة النشاط" تسبق ذلك التزايد في السلبية. وتلك هي السمة الأساسية لمرحلة ما قبل البلوغ. وبذلك فالفتيان والفتيات يتشابهون أيضاً طالما أن المرحلة الأخيرة من طور النمو لدى الفتيان تتسم بنمو نشاط. بيد أن طريقة وأداة هذا النشاط مختلفان اختلافاً واضحاً لدى الفتيان والفتيات ويعطيان مرحلة ما قبل بلوغ الفتيات مظهرا مميزاً جداً. كما أعتقد أن هبة النشاط هذه تمثل ليس تنامياً في العدوانية إنما على الأصح طريقة حادة للتكيف مع الواقع وغزو العالم الخارجي، طريقة تمكن من نمو الأنا. أما أن يجعل هذا النشاط لبعض المخاطر في النمو الجنسي المستقبلي للفتاة أي السلبية المستقبلية فهو أمر لا يمكن إنكاره.

فالنشاط المتنامي الذي تتصف به مرحلة ما قبل البلوغ له مفعول في الارتقاء بالقابليات العقلية والفنية للطفل وكذلك تطلعاته وآماله وميوله في إثباتات جديدة لشخصيته الخ. ومرد ذلك القفزة الجوهرية للأنا باتجاه النمو والاستقلالية. فمنذ الطفولة المفعمة بالحنان، توجد لدى جميع الأفراد العاديين حاجة لأن يكبروا ويحققوا شيئاً ما. هذه القفزة تكون شديدة على الأخص خلال مرحلة ما قبل البلوغ، في حين أنا الفتاة الصغيرة في عمر الحادية عشرة سنة تعيش عالماً يقع فيما بين الماضي والمستقبل، ما بين الطفولة والمستقبل، ما بين الطفولة والنضج. وينبغي أن نشير في هذه المرحلة إلى ذلك الانعتاق من الارتباطات العاطفية للطفولة والاتجاه المتنامي نحو الاستقلالية وتحمل المسؤوليات. فالأهمية الكبرى لدى المراهق هي في التخلي عن الحياة الطفولية الخيالية. ويتحقق هذا قبل كل شيء في البحث عن أدوات جديدة في أي أشخاص جدد يكونون موضع حب أو كره أو اندماج.

فلعل الحاجة في أن يكون المرء ذو اعتبار كبالغ تكون كبيرة في هذا العمر والصراع من أجل الرضى عن ذلك يكون قاسياً وشاقاً جداً ويتأتى ذلك من شعور الفتى بعدم الأمان ورغبته اللاشعورية في أن يظل طفلاً.

فها هي ذي الفتاة الصغيرة إذن تظهر عدائية تجاه العالم المحيط، وسلاحها الرئيسي يكون في الجهد الذي تبذله للتكيف مع هذا العالم. ومن ضمن ذلك تجوالاً

متمعناً في الواقع، تمعناً يعد من صفات مرحلة ما قبل البلوغ ويرتبط على نحو ضيق مع نمو النشاط.

ويتكشف أن قوة الأنا يجب أن تبلغ درجة ما قبل إطلاق العدائية، ولعل من الصحيح أيضاً أن النشاط والجهد المبذول من أجل ضبط العالم الخارجي يؤديان لمنح الأنا قوة تقرّب الطفل من مرحلة النضج. وهناك مجاراة فيزيائية لهذه العلاقة التبادلية النفسية، إذ أن النشاط العضلي ينطوي على قوة ما ونموعضلي ما ويمهد السبيل للنمو.

كما تستخدم عدائية مرحلة ما قبل البلوغ وسائل مختلفة؛ ولعل هذه الوسائل تتنوع حسب بيئة الطفل وتربيته وعلى الأخص ماضيه النفسي. كما أن طرق ذاك التجوال المتمعن في الواقع يكتسب طابعاً فردياً بشكل واضح. ولعل أحداث الطفولة الأولى وتأثير المحيط، والمواهب الشخصية وبالمختصر كل العناصر التي تكوّن شخصية الفتاة الصغيرة تطبع هذا النمو بالطابع الفردي. ويحدد تشكيلها الوسط الثقافي والاجتماعي.

عندما ندرس تشكّل الشخصية خلال مرحلة ما قبل البلوغ فلابد من أن نعكف على مسألة الاندماج. فكلما كانت الأنا عند الطفلة أضعف وجب عليها المبادرة لاندماج أكبر مع البالغين بغية تكيفها مع عالمهم. وهذا التطور هو أعقد الآن مما كان عليه في الماضي. ولعلنا نخطئ كثيراً حين نعتقد أن الاندماج مع الأم ينمو بشخصية الطفل نحو الأنوثة أو مع الأب نحو الرجولة. كما أننا نميل لأن ننسى أن المجال الواسع للعلاقات التي تتطور بين الطفلة وأهلها لا تبني صورة وحيدة للأم أو للأب. فهناك أم غالية وأم مكروهة، أم مثالية سامية وأم محتقرة لميولها الجنسية؛ أم أفسدت الأب وأخرى أُفسدت من قبله؛ أم أقامت عالماً للأطفال وأم قتلتهم؛ أم غذتهم وأخرى سممتهم؛ هي الخصم وهي التجسيد للحماية والأمان. كما نرى آباء مختلفين يخلقون عالماً متكاملاً من الاندماجات الممكنة. فاختيار أدوات الاندماج أثناء مرحلة ما قبل البلوغ يرجع إلى حد كبير لخطوات النمو السابقة. وطريقة حل الطفل لمنازعات مشاعرها المتناقضة خلال مرحلة حياتها مهمةٌ جداً كذلك. فكل شيء سيكون مختلفاً حسبما سيكون في الإمكان الاندماج مع الأدوات المحببة أو أن

مشاعر العداء والذنب ستدفع بالطفلة للانخراط بأداة عدائية، أو قاسية، أو تعيسة أو حتى بشخص راحل.

أي من تلك الاحتمالات يمكن أنا يتعزز خلال هذه المرحلة حيث تبحث الطفلة بحثاً نشيطاً عن الوسائل التي تؤكد أناها والتي يمكن أن تحدد صفات مرحلة ما قبل البلوغ. وفي الوقت نفسه يلاحظ الميل لهجر الاندماجات السابقة. وتغدو الفتاة الصغيرة تنتقد أهلها بشراسة وعلى الأخص أمها؛ إنها تتجه بطريقة واقعية جداً نحو العالم الخارجي وتتخلى عن الطريقة التي بالغت بها في تقدير أهلها وغالباً ما تسير بجهود حثيثة للتميز عن أمها. وهذا الانتقاص من القيمة لا يسير بصورة منطقية. بل على العكس تماماً، فالفتاة التي تُنتقد بقسوة كبيرة في عائلتها غالباً ما تتحدث في المدرسة عن أهلها كأناس ذوي أهمية قصوى ونبل شديد إنها تروي حكايات ملفقة بالكامل لكي ترفع من شأنهم، حكايات لا يمكن لشخص أن يصدقها لدرجة يتضح فيها ميلها لتصغيرهم.

ومهما يكن الشكل الذي تتخذه خلال مرحلة ما قبل البلوغ ما سميناه "الرواية العائلية"[1] ، ففي حاجتها الاستقلالية تحاول الفتاة التخلص من كل الآثار القديمة للاندماج؛ لكنها لا تكون مستعدة للاستقلالية وهنا تلجأ لحلول وسط وتحاول مثلاً أن تقيم مقارنات بين عائلة صديقة لها وعائلتها وتروي قصصاً عن الأشياء المذهلة التي رأتها هناك دون أن تعبأ بمستوى الحياة المتدني للعائلة الأخرى. كما تستطيع تصوير المحبة الشغوفة لإحدى المعلمات والتي ترى فيها الأنا المثالي متجسدة والتي تعزي إليها كل الصفات التي تشعر بفقدانها في كيانها. لعل علاقة كهذه تثبت بشكل جلي استقلالية لا شعورية عن الأم. وغالباً ما نتساءل هذا لماذا تفضل تلك الفتاة معلمتها المعبودة عن أمها والتي ربما تكون متفوقة جداً عنها. وحتماً الجواب هنا أن العلاقة مع الأم متناقضة تماماً ويبدو أكثر " اقتصادية " من وجهة نظر عاطفية حل نزاع التناقض هذا بإقامة انفصال بين الأم والمعلمة. فالحب تجاه المعلمة هو أيضاً حل وسط وتسوية تتيح تجنب خطر التعلق الطفولي بالأم. لكن ترجيح الأم يعبر عنه في العالم الخارجي بالعلاقة مع هذه الأداة الجديدة.

---

(1) " هذه العبارة "الرواية العائلية " تنطبق على خيال طفولي يصادفه مراراً علم تحليل الشخصية: إذ يتخيل الطفل أن أبويه ليسا منجبيه الفعليين، فأبواه الفعليان قويان ومشهوران، وولادته يكتنفها الغموض".

ولابد من أن نشير أن التعلق بالأم خلال مرحلة ما قبل البلوغ لدى الفتيات يشكل خطراً أكبر من التعلق بالأب. فالأم تشكل عائقاً هاماً تجاه رغبة الفتاة في أن تكبر، وكما نعلم أن" الطفولية النفسية " هي النتيجة، لدى بعض النساء البالغات، لرسوخ ما في الأم حصل خلال مرحلة ما قبل البلوغ. ومع ذلك فتغير الأدوات القديمة للاندماج هو بحد ذاته تقدم ويخلق أحياناً سلماً جديداً للقيم الاجتماعية والإيديولوجية. ويمكن لأداة الاندماج الجديدة أن تمثل واقعياً عالماً أكثر تطوراً وأكثر مثالية. ولابد من الإشارة إلى الأداة المختارة فهي في حالات أخرى شخص ذو تصرفات جنسية محتقرة. وربما يكون هذا الاختيار رداً على فعل أو تخيلات لاشعورية جنسية شوهدت بها الأم والغرض من هذا الاختيار مواجهتها بها.

ومن الطبيعي أن تلعب العلاقات مع الأخوة والأخوات دوراً هاماً في شق الطريق نحو النضج. فخلال مرحلة النشاط المتنامي، تبذل الفتاة، التي ترعرعت قرب أخ لها، قصارى جهدها أحياناً ليس فقط لأن تبدو كبيرة إنما متصبينة. أما أختها الأكبر منها مباشرة فتكون إما موضعاً للازدراء والغيرة وإما في حالة أكثر ندرة قدوة مثالية. إنها في معظم الأحيان صديقة للأخت أو أخت لصديقة أو معلمة الصف تختارها لتجعل منها مثالاً يحتذى. اندماج كهذا يتم بسرعة واختياره يعبر عن معنى للواقع الذي يصف الفتاة خلال مرحلة ما قبل البلوغ.

فعلاقة كهذه مع فتاة أكبر سناً ليست بلا مخاطر إذ يمكن أن تحرض الأخت الأكبر الأخت الأصغر على القيام بأفعال ليست مستعدة لها بعد. وسنعود لهذه النقطة فيما بعد.

وإلى جانب الاندماجات الرئيسية هذه نرى ظهور، لفترة عابرة، صوراً لاندماجات أخرى بشخصيات روائية أو سينمائية أو مسرحية ستكون لاحقاً في مرحلة البلوغ آليات للدفاع[1] والتي نصادفها لدى الفصاميين كدلائل لحالة عاطفية غير طبيعية[2] تتوضح خلال مرحلة ما قبل البلوغ بكونها مميزة تماماً لهذه المرحلة.

---

[1] Freud: the ego and the mechanisms of défense. Londre, Hogarth, 1937.

[2] Deutsch, H.: Some forme of emotional and their relationship to schizophrenia, psychoanalyt. Quart, vol.

وهي تذكرنا تماماً بألعاب الأطفال وتمثل تفعيل الرغبات الواعية والعابرة التي تعبر عن فكرة " انظروا كيف أود أن أكون " وينبغي أن نذكر أن هذا التفعيل محسوس وواقعي ومختلف جداً عن الألعاب الخيالية البسيطة.

بهذا تبدو حاجة داخلية تدفع الفتاة للتصرف خلال مرحلة ما قبل البلوغ. فعليها أن تتوجه نحو الواقع ومن اليسير ملاحظة كيفية تناولها للأشياء بصورة واقعية. سواء جمل أو رموز وكل ما أوتيت به ذا قيمة واقعية كاملة وهذا الفعل المترافق مع رغبة في تجريب الأشياء تجريباً مباشراً يدفع الفتاة الصغيرة للتصرف بطريقة غريبة. ولنتوقف هنا على سبيل المثال لنصف حالة فتاة في الثانية عشرة من عمرها والتي كانت تستعد لأول حفلة تحضرها. لقد كانت تعاني من ضيق نفسي ومشاعر دونية، وتخشى على الأخص ألا تمتلك مظهر فتاة كبيرة إلى حد ما. فصففت شعرها تصفيفة معقدة توحي بأنها أكبر سنا، كما تعهد لها مصفف الشعر أنها ستلفت حتماً أنظار جميع الشبان. وظلت ساعات أما مرآتها تردد حركات "امرأة مشؤومة " بيد أنه آن أوان السهرة الموعودة، فقررت عدم الذهاب إلى الحفلة. لقد صعقتها فكرة أن "تلفت أنظار جميع الشبان" فأبت أن تحمل ضميرها الأضرار التي كانت ستسببها لهم. راحت تصرخ بيأس "نهاية الأمر لن أتمكن من الزواج بكل أولئك الذين سيقعون ضحية غرامي؛ ماذا سيحصل حينئذ لهؤلاء الفتية المساكين؟". إن الصورة التي كانت قد اقتبستها من معلومات خارجية قد تزودت بها بواقعية مباشرة، وتلقت جزاءً عملياً جراء رفض الانتقال للفعل. ونظراً لأن شخصيتها الصغيرة لا زالت محدودة جداً تلجأ الفتاة الصغيرة إلى كافة أنواع الطرائق لتشبع حاجتها في التصرف. فهي تضع لنفسها على سبيل المثال مخططاً تفصيلياً لحياتها، تسير فيه لفترة من الزمن ثم تستبدله بآخر. وهي تسعى جاهدة لقولبة كيانها طبقاً لشخصيات واقعية أو روائية. لدرجة أنها تستفيد أحيانا من الإعلانات في الصحف وهي تتمتع ببساطة بكافة إشاعات رغبة المرأة الرائعة الجمال في أن تستخدم بزهو بالغ مستحضرات التجميل.

ونجد في كتاب "La Junio Miss" لـــ سالي بنسون[1] أمثلة تثير الإعجاب لإندماجات لدى فتاة الثانية عشرة من العمر. إن أية دراسة عيادية أو إحصائية لن

---

(1) Benson S. : Junior Miss. New York. Random House, 1941.

تعطينا معلومات في علم نفس ما قبل البلوغ كما أعطتنا المراحل الدقيقة لحياة (جـــودي Judy) بريشة هذه المؤلفة المفعمة بالإحساس والموهبة. إن جودي تجعل من شخصيتها أداة للاندماج كلما تستطيع، بهذه الوسيلة، أن تلعب دوراً درامياً جذاباً. فبعد أن ترى، مثلاً، مسرحية بطلتها كانت فتاة قد كرّست نفسها من أجل أهلها، كما وتجسد فتاة تحب أباها كأفضل شخص في العالم ثم تحس بإحباط شديد عندما تسمع رداً تافهاً له. وفتاة أصغر عمراً دعت والدها لتمثيل كوميدية خيالية؛ وأخرى بعمر البلوغ تغذي حياتها الداخلية بخيالات محققة ذلك الموقف؛ إنما جودي التي "تتصرف" في مرحلة ما قبل بلوغها ولاحقاً عند اقتراب البلوغ تستبدل هذه القولبة للحدث التمثيلي برغبة في أن تصير ممثلة.

وهناك شكل آخر من الحدث التمثيلي للفتاة يكون في انخراطها بلا انقطاع بشؤون تخص الكبار. وتلاحظ، وهي مشحونة بفضول شديد، كل شيء وتترجمه على طريقتها، وتحول ما تراه في خيالها وتخص نفسها بموقف موافق أو معارض. إنها تندمج في معظم الأحيان مع أشخاص يعشقون بجنون أو مع أبطال يشعرون بالاضطهاد بفعل درامي ما، وليس في عالم خيالي صاف إنما في واقع يومي. ولمبادراتها غالباً طابع الهوس وهي بمجملها لا تحظى بإعجاب المحيط وخاصة عندما تترافق بميول عدوانية واضحة.

وعلى نحو آخر يلعب إيثار الأمان، الذي هو نقيض للفضول، دوراً هاماً خلال مرحلة ما قبل البلوغ. فالفتاة في الثانية عشرة تمتلك دوماً ميلاً لأن تكون محاطة بأسرار الآخرين؛ إذ أنها ترغب بمعرفة ما يدور في حياة كل منهم، في الوقت الذي تحيط شخصيتها بالأسرار. وهذا ما يدفعها لاقتناء شريك غالباً ما يكون فتاة من أقرانها. تلك حاجة امتلاك الأسرار هذه موجهة اعتيادياً ضد البالغين وعلى رأسهم الأم أو الشخص الذي يقوم مقامها. ولكي تثأر من الأسرار التي أخفتها الأم عن ابنتها فيما يسمى، التأنيب القديم، "لماذا لم تقل لي؟" لم يكن يتعلق بموضوع السكوت عن الحدث بقدر ما يتعلق بالحدث الغامض نفسه. وخلال مرحلة ما قبل البلوغ، ينتقل الرد العاطفي من الحدث إلى موضوع إخفائه. ونرى مثالاً نمطياً عن ذلك في الموقف الناشئ عن ولادة أخ صغير أو أخت صغيرة: إذ لا تلام الأم لوماً واعياً بسبب الولادة نفسها،إنما موضوع السكوت عن الحمل. فالأم

تحدثت مراراً عن الولادة القادمة لكن ذلك كان مجهولاً ومرفوضاً من قبل الطفل. وحالة مماثلة ستصدر لاحقاً عند الحديث عن الحيض.

وبالعودة إلى حاجة امتلاك الأسرار، غالباً ما يعبر عنها بصورة متناقضة ظاهرياً. فالفتاة تبوح لكل شخص قائلة:

"أنت الوحيد الذي أقول له ذلك. أقسم أنك لن تقول ذلك لأحد"، وسرعان ما تبوح بسرها بعد ذلك لأول شخص تصادفه.

فالحاجة لامتلاك الأسرار والكشف عنها يقود لاختلاق الأكاذيب حينما تقل الأحداث الواقعية. ويمهد السبيل إلى نوع بريء من حبك القصص أقل غنىً بالخيال ومع ذلك أقل تطوراً من حبك القصص في مرحلة المراهقة. ولا غرابة أن عدداً من النساء البالغات تحتفظن بهذا الدافع من حبك في إيداع الأسرار لجميع أصناف البشر.

ولنتدارس الآن ما يتوارد في الحياة العاطفية للفتاة خلال هذه المرحلة. إذ يترجم نبذ الطفولة بجهود كبيرة لتحجيم العلاقات العاطفية القديمة وعلى الأخص الهروب من رعاية الأم وأحكامها. إننا ندرك المصاعب التي تصادفها الأم عندما تحاول أن تشرح لابنتها أنها على أتم الاستعداد لمساعدتها في سعيها لأن تكبر (حتى حين تكون صادقة). فالنضج المكتسب بمساعدة الأم يبدو أقل جاذبية وما يجب تأكيده أنه رغم المساعي الحثيثة في تجاوز الطفل لارتباطاته، فالكثير من العلاقات العاطفية تستمر وتربط الفتاة بعائلتها.

إن ثمة عواطف تحوّل غالباً إلى أشخاص يكونون الخلف المباشر أو البدلاء لأفراد العائلة (الأساتذة مثلاً). وقد تنذر الفتاة نفسها لمحبة عميقة تحس بها إحساساً واعياً لصديقة ما ومن الممكن أن تكون أختها الأكبر وتمثل أناها المثالي، كما يمكن أيضاً أن تكون فتاة من نفس عمرها وهي تضحك معها في سرها وتنفرد بها في غرفتها، وتودع لها أسرارها وتمنحها الإرضاء الجنسي البريء الذي يتميز به هذا العمر.

ولعل اختيار هذه الأداة له أهمية كبرى فهو بديل للأنا كما هو امتداد لأنا الفتاة المندمج معها عمراً ومصالحاً ورغبات. وفي هذا الطور لا يكون الأنا جدير

بخلق علاقة عاطفية جديدة مع العالم المحيط وتجد نفسها ضعيفة لدرجة مفرطة لدى إحساسها بالاستقلالية فتسارع بمغامرة أن تتماهى بعدد من الإندماجات. وخلال مرحلة ما قبل البلوغ، تأخذ هذه الإندماجات طابعاً كوميدياً وتقليدياً. وتزداد أهميتها لاحقاً في تكوين الشخصية. وكقاعدة عامة يتخذ الاندماج رويداً رويداً شكلاً أكثر استقراراً ويتعلق بأدوات ذات قيمة أكبر. لكنها على العموم اندماجات يمكن أن تدوم وقد تقود إلى إفقار كبير في شخصية الفتاة في بعض الحالات وقد تكون غير مستقرة.

لا شك أنا هناك أساليب مختلفة للابتعاد عن تشتت الإندماجات. فالفتاة تتعلق تعلقاً وثيقاً وذلك أيسر الأساليب، بصديقة تجد أماناً أكثر برفقتها. وبالرغم من الاطمئنان الذي تظهره جهاراً، فهي تدرك عدم كفايتها، واحتياجها لشخص ليس ذا شأن مثلها تشعر تجاهه بقوة خاصة. واحتياجها لهذا الشخص لا يقتصر على مشاركتها المتعة وتحمل عبء الأسرار والفضول إنما يشاهها أيضاً في تحمل ألم الشعور بقلة الأهمية. وبسهولة نسبية يمكنها أن تتحمل عبء السر وشعور العداء للعالم المحيط وألم الشعور بالذنب لأنّها ليست مطلقاً الوحيدة في هذه المعاناة. هذه العلاقة " انفرادية monogame" تفرض على الصديقة الإخلاص والتميز وقبل كل شيء مشاركة ملزمة في الأسرار المشتركة. فعلى الشريكين مكاشفة بعضهما بكل شيء ونفي الآخرين كلهم وعلى الأخص البالغين وعم البوح لهم. كما أن الاكتشافات المحركة للمشاعر التي تتبادلاهما لها على الأخص أثر في المضمار الجنسي؛ في حين أن المرحلة الانتصابية للطفولة كانت أهميتها تتركز على النواحي الجسدية الظاهرية، فمرحلة ما قبل البلوغ تتعلق بالأطوار النفسية. فهي ليست مطلقاً مسألة اختلافات أعضاء تناسلية تستهوي فتيات هذا العمر إذ كن قد استعملن حول هذا الموضوع وتقبلنه بحدود متفاوتة. أو فضولهن تجاه وظائف الأعضاء الجنسية وأبعادها، وما بداخل أجسادهن ونمو الصدر الخ.. تلك أمور يحل محلها الآن الأهمية القديمة اللواتي قد تحملنها حول الفارق بين الفتيان والفتيات.

وفي هذا الإطار، تتناقلن معلومات صحيحة أو خاطئة وتختبرن العالم معاً من باب الأحداث الجنسية. وليس من المستبعد لإحدى الصديقتين أن تغامر بتجربة ما

لتحصل على سر تجاهر به. وفي فترة البعد عن بعضهما، تتبادل الكتابة حول جميع المعلومات الهامة وكل منهما تأتي بدفتر مذكراتها الخاص لتريه للأخرى.

وعبر هذه الحميمية الخاصة، يأخذ كل شيء طابعاً جنسياً. وكلمات بريئة مثل "هذا " و" ذاك "و" فعل " الخ تكتسب معنىً مزدوجاً.

ولعلنا نجد في الصورة الذاتية التي رسمها هـــوغ هيلموث[1] في " A young girl's diary" مثالاً متكاملاً عن هذا السلوك خلال مرحلة ما قبل البلوغ. وبعد وفاة المؤلف، اتهمه علماء النفس الرسميون بالكذب. وحجتهم في ذلك أن هذا الكتاب لم يكن متوافقاً مع طباع الفتيات اللواتي كانوا قد لاحظوهن. ومن أحد الأوجه فقد كان لديهم الحق حيث أن حياة الفتاة لم تكن تشمل فقط ما عبّر عنه في دفتر مذكراتها الخاصة إنما أيضاً المدرسة والرياضات والأذواق الموسيقية والأحداث العائلية الخ. ومع ذلك فأحد تلك المذكرات هو تعبير عن هذا المظهر من الحياة الداخلية للفتاة والتي لا تشارك به إلا صديقتها المفضلة أو مجموعة صديقاتها المختارات وتأتي أهمية كتاب هوغ هيلموث مما أعلمنا إياه حول هذا المظهر من حياة الفتاة والذي تخفيه عموماً عن المحللين النفسيين وعن أي بالغ آخر. إن السر هو عنصر أساسي للمتعة تتخذه الفتاة في خضم تقصياتها وتداولاتها الجنسية. ولا يخفى على من تعامل مع فتيات مهنياً ولأسباب علاجية كم هو من العسير الحصول من الطفل على رسم صادق لحياته السريّة. وتظهر أولئك الصغيرات ممانعة متعندة وعلى الأخص أمام أمهاتهن. ولا نتمكن من التوصل معهن إلى علاقة وديّة إلا إذا امتلكنا القدرة على تمثل دور صديقة.

وبالنسبة لي، أتقبل بالكامل صدقية دفتر مذكرات هوغ هيلموث. وهو برأيي مشابه جداً للحياة نفسها التي تمكن الفتاة من أن تحصل على تجارب موصوفة فيه وتسجلها بهذه الطريقة.

وفي العودة إلى الصداقة بين فتاتين، ذكرنا أن تقصياتهن الجنسية والتشاركية بالأسرار كان مقصده الإرضاء الجنسي. فواقعياً إنه الشكل الوحيد لإرضاء ما في

---

[1] Hug- Hellmuth H.: Tagebucheines halbwächsigen Müdchens (éd.2) Vienne, 1921. A young girl's diary. New York, Seltzer , 1921.

هذا العمر. كما أنه في الحالات الطبيعية لا نصادف فتيات تتشاركن بمودة قصوى تصل لدرجة الاستنماء المتبادل. كما أنه، من ناحية أخرى، من النادر تحقق أي نشاط استنمائي مباشر وواعٍ. لقد رأينا أن الحياة الخيالية للفتاة أثناء مرحلة ما قبل البلوغ، على خلاف مرحلة البلوغ، تفرز طباعاً يخرج العواطف وميلاً نحو الفعل في الحياة. فمسألة الحمل مثلاً، تلعب دوراً هاماً في هاتين المرحلتين. فالفتاة خلال مرحلة البلوغ، تدفع تخيلات الحمل وتعاني من ضيق وقلق إزاء الدلائل المرتبطة بهذه المسألة. أما خلال مرحلة ما قبل البلوغ فهي تنفرد في غرفتها مع صديقتها وكلتاهما تضعان وسادة صغيرة تحت ثيابها لتلعبان دور الحامل. وحتى بالنسبة لتخيلات تخص العهر، فإنهما تشغلان بهذا الموضوع وترويان أقاصيص عنه وتستخدمان مستحضرات التجميل لوالدتيهما وتضعان أحمر الشفاه وتمثلان تصورات خيالية، بينما في مرحلة البلوغ تترجم تلك التخيلات بتصرف صوفي أو ما ينم عن دلائل رهاب الخلاء والأماكن العامة.

ومن الواضح أن تلك التقصيات تتركز حول الفعل الجنسي، والحمل والوضع. وتضع الفتيات عدة نظريات عن الـ"كيف" والـ"لماذا" لكل هذه الأمور، وتستخدم أيضاً أداة مأخوذة من الواقع. إنهن على الأخص مستعدات لتلقي فكرة أن كل تلك الحكاية مرتبطة بعمل شائن يقوم به الرجل، وإن المرأة تعاني المشقة والعذاب. ومن اللافت ملاحظة أن الماسوشية تعبر عن ذلك في جميع مراحل حياة المرأة.

إن الصداقة بين الفتاتين تكتسب دوماً مظهراً تكاملياً إلى حد ما بمعنى أن إحداهن تكون أكثر نشاطاً والأخرى أكثر سلبية. مع شدة متغير، أي أن السلبية لإحدى الصديقتين لا تكاد أن تظهر أو على عكس ذلك يمكن أن تأخذ شكلاً إذلالياً مطلقاً. وعلى مشارف البلوغ، ثمة علاقات تأخذ طابعاً أكثر سادية-ماسوشية. ومن الممكن أن تكون خطرة على الصديقة الماسوشية بشكل خاص. إن الفتاتين تعانيان أحياناً كبحاً في دراساتهما أو عملهما حتى تصبحن غير قادرات على كل ما يتطلب ممارسة الجهد بالإرادة والمقاومة. وتفسر هذه الصعوبات بفعل التخيلات التي استحوذت على الفتاة. وكانت لي مؤخراً مناسبة في ملاحظة فتاة صغيرة كانت ترفض بعناد أن تفعل شيئاً مهما يكن. وكانت تعاف كل ما تستطيع

القيام به ما أن تجد به أدنى إزعاج. وقد أدركت أنها كانت خانعة بطريقة ماسوشية لفتاة صغيرة سادية من عمرها وأنها أصبحت عاجزة عن تحمل أي إزعاج لا يمثل لها متعة ماسوشية. إن علاقة سادية ماسوشية من هذا النوع من الممكن أن تمتد خلال مرحلة البلوغ ويكون لها تأثيراً حاسماً في أحاسيس جنسية شاذة لاحقة.

فالعلاقة التي أتينا على دراستها بين الفتاتين تتطور بطرق مختلفة. فإما أن تختفي أو إن الأدوات تتغير أو أن تؤدي في حالات نادرة إلى صداقة متسامية يمكن أن تستمر مدى الحياة. وتتعرض إحدى الفتاتين أحياناً لنمو جنسي أسرع من الأخرى. وبفعل الغيرة أو الاندماج تجبر الأدنى نمواً على اللحاق بالأخرى نحو شذوذ جنسي مع أنها لم تستعد الاستعداد النفسي الضروري أو أنها تخال نفسها فقط مستعدة لذلك. ويمكن أن يكون لهذا نتائج تثير الغضب وفقاً للبيئة الاجتماعية التي تنتمي الفتاة إليها. ولعل الكثير من الأعمال الإجرامية والفساد هي لدى الكثير من الفتيات نتائج انقطاع فج لمرحلة ما قبل البلوغ أو لهجر علاقات جنسية مثلية بريئة وتحويلها لشذوذ جنسي قبل أوانه. وهنا برأيي تكمن في كل سلوك المخاطر الواقعية لهذه المرحلة من الحياة. أو أن الفتاة تكون مختلفة في نموها الجنسي سبب الاهتمام المفرط من محيطها أو سبب تعلق مفرط خاص طفولي أو شعور بالذنب أو الخوف أو على العكس، تجارب في غير أوانها شوشت نمو كامل شخصيتها قد تؤدي للعصاب.

لا ريب أن طبيعة العلاقات مع الجنس الآخر في هذه المرحلة، سواء بالنسبة للفتيان أو الفتيات، ليست ذات طابع جنسي. فبالنسبة للفتيان المتفاخرون جداً برجولتهم يعتبرون صداقتهم مع الفتيات انتقاصاً لهذه الرجولة (وهذا يتباين مع حالة مرحلة البلوغ). أما الفتاة فتتخذ موقف "الأمر سيان بالنسبة لي" لكنها على قناعة في داخلها بتفوق الفتى. وهذا يصح على الأخص بين الفتاة التي تولي شأناً هاماً للمآثر الرياضية. أو فتاة ذات حيوية زائدة فتتقبل التحدي وتصير " فتىً منقوصاً " خاصة إذا كانت تقف على نفس طموحات صديقاتها. وهذا قد يجذب الفتيان والفتيات في هذا العمر إلى الانزواء في أركان هادئة أو على الأصح فضولية بعيدة عن التجاذبات الجنسية. ولو ظهرت بينهم أنشطة جنسية محسوسة فإن الفضول يلعب الدور الأول فيها. والمظهر " الصبياني" الذي يتجلى غالباً عبر هذه

المرحلة النشطة هو ليس طبيعياً فقط بل أيضاً مفيداً أكثر للصحة النفسية من مظهر سلبي لفتاة صغيرة حبيسة الأعمال المنـــزلية. ولعل الاستعدادات الفردية في هذه المرحلة تفضي على تنوع أكبر من مرحلة الطفولة. وبعض الفتيات " تظهر مفاتنهن" كما تبدين اهتماماً متصاعداً بالشؤون الأنثوية حتى أُهن تتصنعن العناء لتنلن معاملة أكثر وداً. وتبدي أخريات منذ البداية ملامح تنم عن مزاج أكثر صبيانية. إن تأثير المحيط، ومواقف الأهل والأخوة والأخوات يلعب بلا أدنى شك دوراً هاماً لتحديد طباع الفتاة؛ ولا شك أن كل تظاهر صبياني خلال مرحلة ما قبل البلوغ يخفي تعزيزاً بالدونية أو الانحطاط الخ فلا داعٍ للقلق منها.

وعند اقتراب مرحلة البلوغ تحس الفتاة بأولى علائم الضيق الجنسي أو تعاني من إحباط عاطفي ما، وهنا غالباً ما يكون الموقف الصبياني سلاحها تجاه الأنوثة وعلى الأخص إذا كانت تخيلاتها ذات طابع ماسوشي. فمن الممكن أن ضيقاً ما يتحدر بها نحو السلبية والمشاغل المنـــزلية، أو على العكس نحو الرجولة أو الحس المثلي، وهذه التطورات نراها في معظم الأحيان في مرحلة البلوغ.

وفي الحديث عن النمو المميز لمرحلة ما قبل البلوغ وصفته أكثر من مرة بالـــ"عدائي" ومن الواضح أن النشاط الزائد أثناء هذه المرحلة يتكون نتيجة لحاجة الأنا لأن تنمو وتستكمل عند الفعل.

ولبلوغ هذا الهدف، على الفتاة أن تتحرر من تعلقاتها القديمة. وتتوضع أولى العواطف ما قبل الثورية ضمن الإطار المتواضع للمحيط العائلي. وبالإجمال، في التكيف مع الوسط المدرسي خلال فترة طويلة. وغالباً ما يكون الفارق في السلوك ما بين المدرسة والبيت لافتاً، إذ نألف جميعاً نمطاً من الأطفال لا يطاق في البيت بينما هو حسن السلوك في المدرسة.

وعلى العكس نجد السلوك الحسن في البيت والشغب في المدرسة وهذا بنسب أقل. إن تحويل النـــزاع من البيت إلى المدرسة له علاقة وثيقة بالتطورات العاطفية المعقدة. وحين يؤثر الطفل الغياب عن المدرسة التي يخشاها ويحبذ البقاء في البيت فهذا ينذر عادة بدلائل عصابية خطرة جداً. ونحن نهتم في هذه اللحظة بالحالة العادية "الطبيعية" حيث تتطور الأنا فيها عند الفتاة لتتنامى استقلاليتها. إنما

حتى ما دون المراهقين عمراً والأكثر طبيعة لهم صعوباتهم. إن المظاهر الأكثر ألفة بين هذه الصعوبات هي عدم الخضوع، والموقف المتمرد إزاء التربية ورفض النظام الذي كان قد قُبل سابقاً. وهذا يترافق أحياً بأفعال عدوانية لأقصى حد. وما اكتسبته التربية خلال مرحلة الطفولة وما كان قد أصبح أتوماتيكياً منذ أمد بعيد يخضع الآن لتراجع. كما ألقيت بعيداً مسائل النظافة الجسدية وقواعد وظائف الإبراز وبالإجمال " النظام الجسدي الجيد" والذي يمثل الأم أو من يقوم مقامها. ويتجلى ذلك بشكل خاص بنوع من الاجتماع ضد التبعية الموجودة حتى ذلك الحين وعدواناً على التأثيرات التربوية، وبحالة ظاهرية، أسفاً دائماً يحس به الطفل إزاء طفولته الخاصة. وفي حالة معينة يقاومها الطفل بكل طاقته وفي حالة أخرى يسعى لإيجادها بوسائل ملتوية. وبتأثير هذا الحنين يحاول من جديد أن يترك لأمه العناية الجسدية. فالنكوص إلى عدد من الميول الفموية وخاصة الشراهة تشكل إرضاءً عدوانياً للشهية المتنامية مع تطور النمو. وتتصدى الفتاة في جميع وظائفها لـــ" تدخل " الأم؛ وتحس بكل حركة من حركات أمها تهجماً على نضجها؛ فالأم هي أقوى تجسيد للعلاقة التي تربطها بالماضي.

فالصراع من أجل الاستقلالية الذي يأخذ طريقه في هذه المرحلة يذكرنا بإلحاح بالتطور الذي ينحصر بشكل تقريبي ما بين عمر ثمانية عشر شهراً حتى ثلاث سنوات، تلك المرحلة عند الطفل التي ندعوها ما قبل الأوديبية. حيث يقوم الطفل الصغير بخطواته الأولى نحو العالم الخارجي خارجاً من تبعيته المطلقة في بداية عمره، كما عليه أن يتخلص من الأم التي حملته وغذته. إنه يرفض يد الأم التي تمد ويطالب رغم ذلك وبانزعاج بإصبع منها إذا سحبت تلك اليد عندما يبدأ بمحاولة المشي. ونراه يثور إن لم يعطَ ملعقته ليستخدمها بمفرده. ويماثل هذا تصرف الفتاة ما قبل البلوغ تماماً، فهي ترغب بالإفلات من تأثير أمها ويملؤها الحقد والغضب،رغم أنها غالباً ما تظهر بنفس الوقت حاجة متنامية وقلقة لأن تظل تحت الرعاية الأمومية.

كما نلاحظ لدى الأم تطوراً موافقاً، فخلال المرحلتين اللتين نحن بصدد مقارنتهما، ترغب في الحفاظ على رعاية ابنها وتعلم مع ذلك أن عليها التقليل من ذلك وفي نهاية الأمر تقطع هذه الرعاية. وكم من مرة ازدادت فيها مخاوف الفتاة

الصغيرة من خطر تهديد العالم الخارجي بفعل اشتراك أمها بذلك! وكثير من الأحيان يؤدي هذا الخوف عند الفتاة إلى الاعتقاد بأن مكروهاً ما سيحصل لها أو لأمها في اللحظة التي ستنفصل فيها عنها. ويندرج هذا الخوف مع الحالات المرضية. كما يمكن لفتاة طبيعية نسبياً أن تعاني غالباً من نفس الأمر إنما بشكل مخفف. فمرحلة ما قبل البلوغ لا تذكر فقط بالمرحلة ما قبل الأوديبية لهذا الصراع من أجل التحرر من الأم الذي يشكل نقطة الارتكاز في الحياة النفسية للفتاة في هذه الحقبة، إنما تذكر أيضاً بالمرحلة القديمة تلك بأشكال أخرى. ومن جديد نرى الأب المحبوب أو المنبوذ يقف خلف الستار كشخصية قادرة أو غير مؤثرة، إنه لا يمارس عادة تأثيراً ذا شأن على النمو النفسي للطفل في هذه المرحلة من حياته.

لقد تساءل فرويد بأي طريقة تنتقل أداة الحب عند الفتاة من الأم إلى الأب وهي أداة التعلق الوحيدة حتى الآن. إن غالبية التجارب تهدف إلى تفسير تلك الظاهرة، وإن تعلق الأمر بفرويد أو بغيره من الكتاب فقد ارتكزوا على افتراض أن هذا التغير يتم أثناء مرحلة الطفولة، إنما بالنسبة لي، فلا يتم ذلك بالكامل فيها أبداً. ففي كل مراحل نمو المرأة، ومن اليسير أن نلاحظ القسط الكبير الذي يلعبه التعلق بالأم في الحياة النفسية، وخلا هذا النمو، تظهر الكثير من المراحل كالجهود المبذولة للانفكاك عنه، والتوازن النفسي للمرأة وقدرها المتعلقان غالباً بنجاح أو فشل النجاح أو فشل تلك الجهود.

إن مرحلة ما قبل البلوغ تتصف بتحريض غاضب من نوع خاص كلياً في هذا الاتجاه، ولذلك فهذه المرحلة من النمو ذات أهمية كبيرة في تحديد طابع مرحلة البلوغ عند الفتاة ونموها اللاحق. إن جهداً مغيباً أو مفرطاً في الضعف للتحرر في هذه المرحلة يمكن أن تقف حجرة عثرة أمام النمو النفسي اللاحق ويترك علامة طفولية على كامل شخصية المرأة في نهاية المرأة. وفي بعض الحالات، لا تتضمن مرحلة البلوغ قفزتها الثورية الطبيعية وحاجتها الشديدة للاستقلال. فالعلاقات مع الأشخاص من كلا الجنسين تؤول للتبعية والضعف. وتستبدل الصداقة والحب بالتعلق السلبي والمطالبة بالحنان الذي يصعب إرضاؤه. وإذا أبدت بعض الفتيات الطفوليات بعد مرحلة ما قبل البلوغ تصرفاً أكثر حيوية فيوصف ذلك بهيئة "لعبة" نمطية نعرفها من مرحلة ما قبل البلوغ. وهناك فتيات تتخلين عن كل مشروع أو

طموح ما أن تصادفن صعوبات فيه، إنهن لا تفعلن شيئاً ذا عمق الخ.. إنهن تحصلن على نتائج طيبة في المجالات العقلية والفنية، لكنهن لا تعبرن عنها عادة بشخصيتهن الخاصة وتتبعن فيها بالكامل لمؤثرات خارجية. أولئك النسوة غالباً ما تقعن في الحب بحماس شديد، لكن هذا النشاط العاطفي ذاته محدود تماماً وله طابع كوميدي. وإذا لم تمتلكن الأداة التي تمنحهن الكثير من الحنان والرعاية الأمومية والتي أحياناً تحصلن عليها من أزواجهن – فإن الحياة تبدو لهن لا تطاق. إنهن عادة ممتنعات عن العلاج بالتحليل النفسي إذ لا تستطعن تقبل التخلي الذي ينطوي عليه التحليل. ومباشرة تفعّل العواطف التي يتطرق لها التحليل ويأخذ التحويل طابعاً واقعياً وعدائياً. وعندما تصبن بالعصاب فإن الدلائل تظهر عادة علاقة شديدة لدرجة غير طبيعية بالأم، علاقة أعيد تنشيطها خلال مرحلة ما قبل البلوغ. وهكذا فعلى سبيل المثال يمكن لاضطرابات غذائية مختلفة خفيفة أو قد تصل لدرجة الرفض المرضي للطعام أن تضفي على صراع شديد غير طبيعي طابع الموضوعية ما بين التعلق الطفولي بالأم والجهود العابثة للتحرر منها.

وغالباً ما يكون لمرحلة ما قبل البلوغ مظهراً طبيعياً، إلا أن ثمة موقف صعب ينشأ خلال مرحلة البلوغ أو بعدها يؤدي لانعكاسات مرضية. فعلى سبيل المثال، يمكن لجهد التخلي عن الإرضاءات الفموية أن يحدث تعثراً بالتغذية. ويحارب هذا التعثر بأكبر طاقة ممكنة ويُستنفر في هذه المرحلة الحنين الراسخ رسوخاً عميقاً للأم. كما يمكن لهذا الحنين أن يتخذ شكلاً طفولياً فريداً وإذا ما ترافق بعدوانية طفولية تجاه الأم فالغذاء المرغوب بشوق يبدو كالسم، وبذلك تطوراً لذهان.

في جميع هذه الحالات نكتشف الآتي، مع أن العصاب أو الذهان الغذائي يظهر في عمر متقدم (غالباً عند نهاية المراهقة) فالجهد الطبيعي لتحطيم الصلات مع الأم لاقى عقبات مبكرة أكثر خلال مرحلة ما قبل البلوغ. فالعصاب لا يكون ظاهراً منذ ذلك الحين، إنما من الواضح وبتطور لاحق أن "الهجمة ما قبل البلوغ " كانت مفرطة في السلبية أو في العدوانية ضد الأم.

وفي عرضنا لمرحلة ما قبل البلوغ، قد اقتصرنا على حالات طبيعية نسبياً، إنما يمكن أن نلاحظ كذلك في كثير من الأحيان مصاعب عصابية خلال هذه المرحلة. ويمكن أن تكون استمراراً لعصاب موجود خلال مرحلة الطفولة، أو تظهر نتيجة

صدمات كولادة أخ أو أخت، أو انفصال للأهل أو موت الخ... وتكون الاضطرابات معظم الأحيان عبارة عن حالة قلقة أو مشاعر دونية. ولا تشعر تلك الفتيات بسمو أعباء سن الرشد؛ إنما لو وُجدن بين مجموعة لطيفة أو كان لهن صديقاتٌ جدد لاختفى شعور الدونية. ويمكن لأسباب أكثر عمقاً أن تعرف عادة على خلفية مشاعر ما؛ كالشعور بالذنب الذي يمكن أن يشير إلى بداية تعقيدات عصابية.

لقد تقصدت في هذا العرض استخدام عبارة "هجمة" وحرصت على تحديد أن بعض حالات نمو الأنا تكون شرعية ففي حالة طارئة يمكن أن تتخذ آليات في الدفاع تنشأ خاصة بضغط أخطار غريزية كأسلحة ضد هذه الأخطار. وبرأيي، تبدأ هذه الآليات بالنمو قبل مرحلة البلوغ وهي أسلحة هجومية لغزو الواقع. وبالفعل فيمكن لجميع سمات الشخصية أن تكون آليات للدفاع كالذكاء أو البلادة والقفز نحو الواقع أو الهروب منه. فالعدوانية يمكن أن تكون دفاعاً إزاء السلبية والعكس بالعكس، وفي هذه الأثناء يمكن للرجولة أن تكون دفاعاً إزاء الماسوشية الأنثوية. إن حاجة أن يكون الإنسان راشداً تستخدم كدفاع إزاء أخطار الطفولة، والعودة إلى الطفولة يمكن أن تظهر كدفاع إزاء مرحلة النضج الخ....

وهكذا نرى أن اكتشافات عظيمة في علوم الكيمياء والفيزياء استخدمت كأسلحة في الحرب في حين أن هدفها الأول لم يكن عسكرياً. وقد حافظت على قيمتها عند انتهاء الحرب وأمكن آنئذ أن تستخدم لغايات خيّرة. وهذا يصح على بعض الوظائف الهامة للأنا، فهي تنجم عن نمو طبيعي ويمكن أن تستخدم كآلية للدفاع في حال الخطر؛ إنما تستعيد دورها الأكثر نجاعة في "زمن السلم" أي حين تستخدم مباشرة في غزو العالم الخارجي.

الفصل الثاني

مرحلة البلوغ الناشئ

عندما يشتد نشاط مرحلة ما قبل البلوغ، تسعى أنا الفتاة الصغيرة إلى تحطيم العقبات التي تصلها بمرحلة الطفولة. ويستمر هذا الوضع لسنوات طويلة تمتد لمرحلة المراهقة. إن صراع الفتاة الصغيرة ضد محيطها العائلي يعبر عن حاجتها المتنامية لفرض أناها الخاصة، كشخصية مستقلة عن الشخصيات التي تحيط بها. إن وعيها لذاتها نابع من أن الأنا تصبح قوية أكثر فأكثر وتنذر بحوادث مختلفة أكثر تعقيداً وأكثر إثارة ستحصل بعد ذلك في مرحلة المراهقة. ولعلنا نفرط غالباً في تناسينا لذاك المزاج المتناقض لدى الشبيبة، أو نعتبره سلبياً جداً في حين أنه ينبعث من قوى غير إيجابية. إن لدى الفتاة الصغيرة، التي يتأكد رباطة جأشها، انطباع، لفترة من الزمن، بأن محيطها يزعجها ويحاربها. ولكي تدافع عن نمو شخصيته، عليها اللجوء لأساليب ليست بحد ذاتها مؤشرات لتقدم ونضج إلا أنها تهدف للتقدم والنضج. وتبقى الفتاة في عمق كيانها طفلة خلال مرحلة ما قبل البلوغ ويمتد هذا طويلاً في مرحلة البلوغ. إن شعور عنصر الثقة المتنامية بنفسها من جهة وعنصر الشعور المتنامي بالضعف من جهة أخرى. وإلى تلك العناصر تعود حالات التقليد والاندماج ومراجعات القيم التي تكلمنا آنفاً. وتأتي كل تلك المناورات من الحاجة لسد الفجوات الآخذة في التوسع بين الإمكانيات المتنامية والمتطلبات ذات الشأن التي يحض الواقع عليها. الأمر ذاته الذي يعزز، عند الشخصية الفتية الشاعرة بقلة

الثقة، الحاجة الماسة للسيطرة على عدم شعورها بالأمان. وآجلاً، أثناء مرحلة المراهقة ستجد هذه الحاجة وسائل جديدة لبلوغ الأهداف.

حينما نتتبع نمو الفتيات من مرحلة ما قبل البلوغ إلى مرحلة المراهقة يمكننا أن نلاحظ بعض الخصوصيات، في المرحلة التي تلي مرحلة ما قبل البلوغ مباشرة، والتي تجعلنا نسمي هذا الطور بتسمية خاصة هي " مرحلة البلوغ الناشئ". إن الحدود التي تفصل هذه المرحلة عن المراحل السابقة واللاحقة هي حدود غير دقيقة. فالانتقال من مرحلة ما قبل البلوغ إلى المراهقة عبر مرحلة البلوغ ينشأ تدريجياً خلال نمو عضوي ونفسي للفتاة. إن الحدث العضوي الأهم لمرحلة البلوغ هو اكتساب النضج الجنسي. ويحدد هذا العامل البيولوجي بقوة العلاقة الموجودة بين الفتاة وجسدها الخاص؛ إن الميل لإهمال ظهوره، والذي كان نمطياً جداً في مرحلة ما قبل البلوغ، يتعدل بشكل لافت جداً؛ فالفتاة الصغيرة تبدأ بإيلاء عناية كبيرة لجسدها، فهي تستخدم البودرة والكريم وأحمر الشفاه، وهذا الآن ليس لتقليد البالغين إطلاقاً إنما لكي ترضي غرورها الخاص ورغبتها في أن تبدو جميلة. إن الأثواب والحلي وإكسسوارات الأناقة تصبح من الأهمية بالنسبة لها بحيث غالباً ما تقودها لاقتراف أفعال غير اجتماعية لكي تنل النقود اللازمة للحصول عليها. فخلال طور الكمون برمته، يتراجع اهتمام الفتاة الصغيرة بأعضائها التناسلية إلى آخر سلم اهتماماتها. ويدفعها خلال مرحلة ما قبل البلوغ، فضولها الشديد للتطورات الجنسية عامة للاكتراث أكثر بجسدها الخاص. ولعل رغبتها في أن تكون شخصاً كبيراً معترفاً به كغيره يوجه اهتمامها نحو النمو والتطورات الجسدية. فالفتاة الصغيرة بين 10- 12 سنة ترقب بفرح العلامات الأولى لنمو صدرها، وهاهي تحشو قميصها وتنسج تعليقات مبالغ بها لصديقاتها عن تقدمها في ذلك. كما قد تبدو أحياناً أكثر نضجاً وأكثر أنوثة من أختها الأكبر والتي سبقتها بالحيض، إذ أن هذه الأخت تكون قلقة وخجولة جداً من رغبتها الجنسية الناشئة والتي لا تشعر بأي تفاخر بنضجها بل أنها تخجل منه وتحاول حجبه بملابس داخلية ضيقة جداً.

غير أننا ندرك أن الفتاة خلال مرحلة ما قبل بلوغها تصرفت " كصبي منقوص" لتصد في البداية بطريقة سلبية ظهور صفات جنسية ثانوية أعطت جسدها

مظهراً أنثوياً أشعرها بالمهانة، كتغيرات شكلها ونمو استدارة أردافها أو انتفاخ نهديها الخ.. إنما يحدث أيضاً أن فتاة متصبينة تهجر فجأة موقفها الأول وتتأمل باهتمام وفرح أنوثتها الجديدة. وعلى العكس، فهناك فتيات في مرحلة ما قبل البلوغ تتصرفن على الأجدر بسلبية كفتيات صغيرات حقاً دون أي ميول إلى الموقف المتصبين واللواتي بالمضي في مرحلة البلوغ والأنوثة لأجسادهن تكتسبن هيئة أكثر ذكورية. أخيراً هناك أخريات يحدث نموهن باستمرارية من مرحلة الطفولة حتى النضج؛ وتقلن عائلاتهن عنهن: " أنها على الدوام امرأة صغيرة" .

وربما نتوقع أن نرى العوامل البيولوجية وبالأخص الهرمونية تمارس خلال مرحلة البلوغ تأثيراً حاسماً على العوامل النفسية وهذا صحيح إلى أبعد الحدود ومع ذلك فلا ينم دوماً هذا النشاط البيولوجي على قوة كافية للسيطرة على التعقيدات النفسية للسير بالتطور الأنثوي على الصراط المستقيم.

وها هو ذا اهتمام الفتاة الصغيرة بأعضائها التناسلية أصبح نشطاً الآن بفعل ممارسة الاستمناء وفترة الحيض بعد أن ظل متوارياً فترة طويلة. ولعل التحقق الملموس لنـــزف الأعضاء التناسلية وتسبب الآلام له نتائج نفسية شديدة ومتنوعة جداً. وسنكتفي هذا بالقول أن طريقة الفتاة في رؤية أعضائها الجنسية تختلف كثيراً عنها لدى الفتى فمعرفته بعضوه الجنسي قديمة بسبب الوظيفة المضاعفة له على خلاف الفتاة التي من الممكن أن تهتم مبكراً بالنمو والتفعيل المكثف لعضوها وتكون فخورة جداً بذلك.

إلا أن السلوك المتغير للفتاة في مرحل البلوغ يتعلق أيضاً بعوامل أخرى. فطباعها وتقلبات طفولتها وتأثير المحيط والوسط الثقافي الذي تعيش فيه وذكاؤها ومواهبها الطبيعية وأساليبها في التغلب على الضيق النفسي كل ذلك يحدد في تلك الحقبة تغيرات فردية في شخصيتها. بيد أن من الممكن رسم بعض الملامح العامة حيث منذ هذه اللحظة تكشف عدة أنماط عن توجهات الشخصية التي ستحدد آجلاً المرأة الراشدة.

ولقد ذكرنا أن مرحلة ما قبل البلوغ هي مرحلة مثلية طالما أن شريك الحب هو من نفس الجنس. وهناك حالتين تعبران عن هذا الاختيار فإما تعلق فعال بالأم

في النـــزاع الداخلي والخارجي معها وفي الرغبة في التخلص من ربقتها وفي اتجاه تحويل هذه المشاعر نحو امرأة أخرى مثالية تحل محلها. وإما العلاقة مع الصديقة. فصداقة فتاة لفتاة التي تبدأ خلال مرحلة ما قبل البلوغ تظهر ظروف طارئة مختلفة أثناء البلوغ الناشئ وهذه الظروف العرضية تتأثر تأثراً قوياً بالوسط المحيط. وغالباً ما تنتهي هذه العلاقة بين الصديقتين لمجرد مغادرة المجموعة التي تكونت ضمنها كتغيير المدرسة مثلاً، كما أن انتماء كل منهما إلى طبقة اجتماعية مختلفة يمكن أن يلعب دوراً هاماً أيضاً. أما إذا كانت الصداقة حميمة فقد تستمر رغم تغيير المدرسة أو أن الفراق يستفز مشاعر انفرادية تختلف شدتها. غير أن تغيير الوسط عادة ما يجلب مواضيع اهتمامات جديدة وسرعان ما تتوارى بقايا آثار آخر الصداقات. فهناك ثمة حل مرغوباً به يمكن في تحويل العلاقة إلى صداقة متسامية لا تقف حائلاً أمام النمو اللاحق.

وكما ذكرنا آنفاً أن المحتوى الجنسي لهذه العلاقة مع كائن من نفس الجنس أثناء مرحلة ما قبل البلوغ يتضمن فقط تبادلاً للأسرار وفضولاً جنسياً.

فالصداقات فيما بين الفتيات ذات أهمية كبيرة. إذ أن الاندماج بكائن له كيانه الخاص يمكن أن يعزز لدى الفتاة وعيها لأناها المستقلة. وتعد تلك الصداقات مصادر ثرّة لتجربة عاطفية تخفف مشاعر الإحساس بالذنب كما تمنح بعض الحرية في مجالات الأنشطة التي كانت مكبوتة بشدة. وعندما تقوم الفتاتان بأشياء تتجاوز الحدود المتعارف عليها، فغالباً ما نسمع تبادل الاتهامات فيمن كان المحرِّض ومن كان المحرَّض وهي عادة اتهامات متناقضة لدرجة أننا نجد كلتاهما ضحيتين وكلتاهما محرّضتين، وعموماً يستحيل حل الخلاف عندما يتضمن كل اتهام قسطاً من الحقيقة لأن كلاً من الفتاتين ما تخلّت عن اختراق الممنوع لو لم تشجعها الأخرى.

وعلى الرغم من بعض المخاطر في هذه الحقبة من الحياة فإن الصداقة تأخذ مظهراً إيجابياً واسعاً بل ومكمن الخطورة يكون في غيابها. فالصداقة النمطية لمرحلة ما قبل البلوغ أو المرحلة التي تعقبها مباشرة في فقدان صديقة سواء بالفراق أو في أعقاب اكتشاف عدم وفائها يكون في صالح فتاة أو فتى آخر. والفتاة المتروكة تتجه عموماً نحو صديقة أخرى. وأحياناً تعود إلى التعلق بأمها التي كانت قد دفعتها عنها

منذ فترة وجيزة. وهذا ما يمكن أن يحرّض نواح مكبوتة في نمو الفتاة وما يؤخر أو يوقف تماماً نموها النفسي.

قد لا تكون نادرة الحالات القلقة الخطرة والاضطرابات العصبية عند بدء البلوغ؛ فلقد لحظت عدداً من حالات الذهان لفتيات صغيرات كن قد فقدن صديقتهن واللواتي لم تجدن أي تعويض في أُمهن. وفي اثنتين من تلك الحالات كانت الأم متوفاة منذ أمد بعيد والصديقة كانت وفية ولم تنشأ الدلائل المرضية الاكتئابية إلا بعد فقدان تلك الصديقة. وفي حالة قلقة أشد خطورة ظهرت دلائل نكوص طفولي قاس. وتوجب لأولئك الفتيات إطعامهن كالأطفال الرضع وتلوثن ثيابهن وتتعلقن بثياب ممرضاتهن وتجري مخاطبتهن كأطفال أيضاً الخ..

في روايته " غناء برناديت "[1] وصف فرانز ويرفيل بشكل لافت نزاعاً من هذا القبيل واقترح له حلاً مثيراً. برناديت، فتاة في الخامسة عشرة من العمر تعاني من مر الربو وهي انطوائية ومكبوتة. وتخرج مع أختها ماري وصديقتها جان لجمع الحطب. إذ أن بيتهم بارد وبائس والأطفال جائعون وبرناديت المريضة ترجو أمها أن تسمح لها بالخروج. وانتهى الأمر بالأم أن أذعنت شريطة أن تتخذ الحيطة من البرد. وتصادف الصغيرات الثلاث جدولاً يفصلهن عن كومة الحطب وها هي ذي جان الممتلئة حيوية وطاقة تجتاز المياه الجليدية وتتبعها ماري. أما برناديت فتبقى منفصلة عن أختها وصديقتها على ضفة الجدول. فاجتاح برناديت فجأة شعور بالكراهية والاشمئزاز عند رؤيتها ساقي ماري العاريين وهذا شيء مستهجن طالما أنها تنام مع أختها في نفس السرير. أما جان النشيطة والعدوانية راحت تصرخ وتهزأ من برناديت الضعيفة قائلة: "ليأخذك الشيطان!" .

وهنا تحس برناديت بانفعال عنيف لدرجة أنها بالكاد استطاعت ضبطه. وأجابت على لعنة جان قائلة: " لست صديقتي مطلقاً".

كما أنها ترد على ترك أختها ماري بمحاربة عاطفتها بشعور الكراهية والذي لسنا بصدد تحليله هنا. ولعل برناديت لا تمتلك أي وسيلة تدرب بها إرادتها في التغلب على ضعفها الجسدي، طالما أن اجتياز الجدول الجليدي يخرجها عن طاعة

---

[1] Werfel F.: The Song of Bernadette. New York, Viking, 1931.

والدها بل ويعرّضها بعد ذلك للتأنيب والضرب من قبلها. وهكذا يبدو أن شعورها بالذنب يتنازع مع خضوعها لأوامر أمها فهي الأخت البكر ولا ينبغي أن تتخاذل في مهمتها ولا تقدم على جمع الحطب.

ولعل برناديت تميل بشدة لاتهام نفسها وهي تتمكن بمشقة تحمّل توتر هذا النـــزاع العسير الحل. وهي تعبر عن ارتباكها رمزياً بخلع أحد جاربيها والاحتفاظ بالآخر. وهي تستعين بوسيلة سبق واستخدمتها كلما بدا لها الواقع لا يطاق، إذ تضربه عرض الحائط وتلتجئ لمخيلتها التي راحت تتفاعل بهلوسة شديدة : الجدول ليس بجدول قط إنه طريق قذر صاخب وخطر. ويوحي لها المشهد بخطر داهم وقاتل يستجيب للعنة جان " ليأخذك الشيطان!" . ولسنا هنا بصدد تحليل هذه الرموز لكنّ المعنى الواقعي للصور كطريق قذر وخطر مألوف لنا في أحاسيس الضيق النفسي للفتيات البالغات. ومن ثمّ فإن برناديت تتخلّص من نفوذ الشيطان وهي تعرف المحنة الكبرى التي سوف تحدد مستقبلها " في مغارة ماسابييل المظلمة حيث تظهر لها السيدة العذراء ". وهكذا تستكمل حاجتها في حب امرأة تحل محل أمها وصديقتها المفتقدة في آن واحد، أمها التي لا يمكن أن تكون موضع حب طالما أنها تحرّم وتعاقب.

إلا أن برناديت لا تكرّس حبها المضطرم كما اعتقدنا ذلك من هلوستها بانخطاف ديني. بل إنها تتمثله بطريقة واقعية تماماً لمجرد أنه مثل العذراء مثل كائن دنيوي ستبدأ معه منذ ذلك التاريخ علاقة حب ورع . فعلاقة برناديت بسيدتها لا تختلف عن الحب العادي من فتاة لامرأة نموذجية إلا بأن السيدة هي من محض خيالها. ومن ناحية أخرى، ينبغي أن نذكر أنه في حالة حب الفتيات الأخريات لامرأة واقعية لا تمتلك هذه مطلقاً الواقعية الحقيقية الموضوعية طالما أنها لا تعرف إلا عن بعد ولا تمثل أحياناً إلا صورة بسيطة أو انطباعاً ذاتياً طارئاً. لكن الدور الذي يمثله نموذج مثالي هو الأكثر أهمية. كما في حالة برناديت، إنها الحالة التي تستبدل الصديقة المفتقدة وتشكل غالباً حلاً وسطاً مابين الحنين والنفور من الأم وين تعلقٍ غير مرضٍ بل ويبدو خطراً. لعل حب السيدة يحرر برناديت الصغيرة من مشاعر الذنب ناهيك عن أن السيدة بوسائلها الصغيرة من إيماء بالرأس أو ابتسامة أو حركة إنكار بسيطة تهدي برناديت إلى درب التحرر من كل شعور بالذنب

وترضي هكذا رغبة تشاركها بها الكثير من الفتيات. لعل أشد ما يمتع في أبطال فرانز ويرفيل هو السمة الواقعية لحب خيالي صحيح من الناحية الإنسانية وليس إلهي يتصف بما فوق الطبيعة.

إننا ندرك أن الصداقة بين أطفال من نفس الجنس تنطوي على الكثير من الأخطار. فحين يكون الشعور بالذنب خامداً يمهد السبيل للتحريض المتبادل للقيام بأفعال غير أخلاقية ولميول الجنس المثلي الذي يمكن أن يترسخ ويؤثر على المرحلة اللاحقة من النمو النفسي. لقد سبق أن ذكرنا أن الصداقة بين فتاتين تدوم غالباً إلى ما بعد ظهور الميول الجنسية الأولى الشاذة من مرحلة البلوغ الناشئ. فهناك موقف ثلاثي يتوطد ويسبغ هذه المرحلة بمظهر جنسي تبادلي. فالفتاة تتذبذب ما بين الأدوات المثلية والشاذة وبصراحة فإن ميلها الشاذ لا يتوطد إلا رويداً رويداً. ولعل الكوكبة الثلاثية هذه تظهر منذ مرحلة ما قبل البلوغ كما نرى في الحب المشترك الذي تحسه فتاتين لأستاذهما. كما أن الانطلاقات الأولى المترددة باتجاه الشذوذ الجنسي تباشر بشكل مشترك وبصورة مضحكة. وهكذا فإن الفتيات الصغيرات تلهين بتجارب تتعهدن بكتم أسرارها. وحينما تكبرن تنبثق تعقيدات مختلفة وسط هذا الثلاثي. فالكبرى من بين الفتيات تقع أكثر في غرام شريك من الجنس المعاكس والصغرى أو الأكثر سلبية تلعب دور الوسيط المتعاطف. وهذا ما نراه عندما قمتم أحد أركان هذا المثلث بأخ إحدى الفتيات. إذ نجد مثالاً رائعاً عن ذلك في رواية الحرب والسلم لتولستوي. فناتاشا تريد لعلاقة حب أن تربط أخاها نيكولاس بصديقتها سونيا:

" أنت تعرف أن سونيا هي صديقتي المفضلة. إني أحبها لدرجة أنه يمكن أن أضع ذراعي في النار من أجلها. تأمل". ثم كشفت كمها الموسلين وأرته ندبة حمراء على ذراعها الطويل النحيل. " لقد أحرقت نفسي لأبرهن لها عن حبي. إذ سخنت مسطرة وأطبقتها هنا... نحن أصدقاء لدرجة كبيرة، كبيرة... إنها تحبني وأنت سعيد بذلك ".

فها هي ذي ناتاشا تحب أخاها كثيراً وبديهي أن تخضعه لصديقتها بمشاعر متبادلة. وتلعب الدور الثالث في علاقتهما الغرامية، وتحافظ على الاثنين معاً وتحل

نزاعاً بهذه الصورة وبأفضل ما يمكن بمشاركتهما سعادتهما بزهدٍ مضني. ونلاحظ هنا بجلاء العنصر الماسوشي.

ولعل الارتياح الناجم عن الأحاسيس التبادلية الجنسية في مرحلة البلوغ الناشئ ستتعلق بالطريقة التي سيتم التغلب بها على التبادل الجنسي في الموقف الثلاثي. فهناك توافق لافت في مابين النمو البيولوجي والنفسي في هذه الحقبة من الحياة . بيد أن هذين الطورين لا يسيران حسب مخطط موضوع سلفاً. إنهما يتداخلان، فمن الممكن أن يظهر تصعيد الميول الجنسية خلال النمو البيولوجي وفي بعض الظروف بطريقة ارتدادية نكوصية.

وإذا نتجت مرحلة ما قبل البلوغ عن المرحلة الطفولية ما قبل الأوديبية فيكون الموقف الثلاثي لمرحلة البلوغ الناشئ نتج عن مرحلة في الطفولة تقع ما بين مرحلتي ما قبل الأوديبية والأوديبية. فالفتاة الصغيرة تحوّل التعلق الخاص الذي كان لأمها لصالح أبيها وهي تتذبذب بعلاقتها بين الاثنين راغبة في امتلاكها معاً ثم تحسم الأمر باتجاه أبيها مع أنه ليس شعور خاص. فهذا التبادل الثلاثي الجنسي يتولد في مرحلة البلوغ الناشئ فإن صدرت قوى نكوصية فتكون الفتاة الصغيرة في موقف مشابه للمرحلة التبادلية الجنسية من طفولتها. حين كان يتألف الثلاثي منها ومن أبويها؛ أما الآن فالأدوات قد تغيرت وتثير مسائل مماثلة.

في كتاب " الطفلة"[1] هذا المؤلف الجليل الجديد لـــ كارين ميكاييليس يرينا كيف تبادر حدس الشاعرة في اكتشاف الأطوار النفسية للفتيات. فاندريا " الطفلة" التي أحبها أحدهم والتي كانت على فراش الموت في السادسة عشرة من عمرها، إنها شابة حقيقية بيد أنها لا زالت طفلة في نموها النفسي، بكل صراعات ومنازعات فتاة مرحلة البلوغ. ومنذ زمن طويل وأبويها لا يجدان للتفاهم سبيلا؛ إنهما خصمان يعيشان تحت سقف واحد ويعرفان أن " أندريا تقرأ أفكارهما". ومراعاة لطفلتهما المريضة، يدخلان إلى غرفتها يداً بيد، وأندريا تتبسم قائلة: " كم هو قدومكما لطيف أنتما الاثنين !".

[1] Michaelis K: Das Kind. Traduit du danois en allemand par M. Mann. Berlin, Axel Suncker.

إنها تلعب معهما بينما هما يتصنعان عدم الكره مراعاة لشعور ابنتهما المحتضرة.

" ماذا ستفعلان عندما تكونان لوحدكما؟ لو كنت أعلم فقط أنكما ستكونان سعداء معاً... لو رغبتما تقبيل بعضكما كل صباح، ولو خلدتما للنوم هنا وفكرتما بي ... لو علمت ذلك فقط لما كان عندي أدنى خوف من...". تلك الأمنية الأخيرة لأندريا على فراش الموت كانت سبباً في مصالحة أبويها؛ وكما لو أنها وهبت حياتها لاتحادهما بعد موتها.

تعلمنا التجربة أن بعض الأطفال الأصحاء تماماً تسيطر عليهم بكل يسرٍ وقوة فكرة أن أهلهم لا يتبادلون الحب وأنهم لسوف يفترقوا. إن تلك الفكرة قد تكون خيالية بالكامل وقد تأتي مما شهده الطفل. فقد تبقى الفتاة بمحض إرادتها مع أبيها، لكن شعورها بالذنب يجعلها تميل إلى حسم الأمور لصالح أمها وهكذا فإن الشعور بالذنب يمارس دفعاً نحو سلوك جنسي مثلي أو على الأقل تبادلي، حيث أن الفتاة في نموها الطبيعي تفضل منح الحب لوالدها لكنها تشعر أنها ملزمة في أن تكون وفية لأمها.

فالشابة أندريا تشعر نفسها في السماء بين ذراعي والدها: " قبلني دادي يا أروع وأحلى أب، ضع يدك على جبيني ثم لنصمت معاً". وحين تتحدث عن العمى الذي يتهددها تقول : " إذا أصبحت ضريرة فعلياً فهذا يا والدي لن يكون له أية أهمية ألا يكفينا زوجٍ من العيون؟ " ثم تعبر عن حنينها العميق لوالدتها قائلة: " أنت لست بعيدة جداً يا أمي؛ فإذا أصبحت صغيرة ونحيفة إلى حدٍ ما فهل تتمكنين من القدوم إليّ ؟".

تأخذها الأم بين ذراعيها، كما لو كانت طفلة رضيعة، وأندريا تشدها إليها. وهكذا تفارق الشابة أندريا الحياة، وهاهي تحصل على تعهد من أبويها في لحظاتها الأخيرة بأن يتصالحا ويبقيا متحدين كذكرى لهذه الوفاة.

وها هي ذي الأم تكتشف فيما بعد دفتر مذكرات أندريا حيث تقر الطفلة بحبها الكبير لأبيها، وتذكر في كتاباتها أنها قد تتخلى عن الجنة ولا تتخلى عن أبيها. "لكن أمي الورعة تستحق الملكوت ... وعندما أضع يدي على جبين والدي أشعر

أننا متوحدين كعيوننا. فلنا مزاج واحد فيما نحب ونكره؛ وهو لن يأكل أبداً البازلياء أو الحساء بالخضر ولحم العجل". كما تعترف أنها تنصتت أثناء الليل وعرفت أن أبويها يناما متفرقين. "يمكن لوالدي أن يحب أمي قليلاً، فهي بالتأكيد تحبه كثيراً، إنما لا أتمكن من تحمل طرح الأسئلة دوماً حول ما قلناه أثناء تنــزهنا". أندريا ظنت أن لوالدها عشيقة وعرفت جميع ألوان عذاب الغيرة. وعندما علمت ببطلان هذه الظنون أخذها فرح ظافر. وهي ترفض الأزهار التي جلبها والدها إليها " لمجرد أنه لم يشتر وروداً لأمها أيضاً". وكتبت في مكان آخر: " لو أتيح لي العيش يوماً واحداً فقط مع أبي وفي اليوم الذي يليه مع أمي فكلاهما لطيفان جداً بمعزل عن بعضهما: إني أحس بالبؤس والوحدة فقط عندما يكونان مع بعضهما".

وعندما كبرت أندريا أكثر، ظهر الثلاثي ثانية بشكل آخر؛ فأداة الحب الآن هو أخوها: " ربما لا أستطيع أن أمس رجل آخر على الإطلاق ؛ العم ستيفن ربما، إذ أنه أخو والدي".

كان هذا الحب يمضي قدماً ويمنحها سعادة حقيقية عندما أرخى هذا الهوى الجامح للشابة جوس بظلاله عند ذلك استقر الثلاثي أندريا - الأب - الأم بمظهر جديد أيضا . حيث نقرأ في مذكراتها.

"ألا من شخص يتمكن من القضاء على جوس، إنها قوية لدرجة لا تصدق، لقد عضتني من رقبتي يوم أمس لأني كنت قد قلت أني أحب العم ستيفن بقدر ما تحبه هي. إنها تكره العم ستيفن بل وتتمنى موته؛ إنها لخسارة ألا يحبا بعضهما كما أحبهما!... جميع الرجال شيوخاً وشباباً يحبون جوس، إنهم لا يودون العيش بدونها بل يريدون أن يكونوا الغبار الذي تطأه خطواتها ... أما الآن فقد طرحنا رهاناً على من يفوز بقلب ستيفن. لقد كان ذلك خيانة من جانبي. لقد فرض عليها أن تمضي نحوه وتهديه تحياتي وفرض علي أن أبوح له بموضوع رهاننا. لقد تحدثنا عنه كثيراً وحل الظلام وأرسل القمر خيوطه المضيئة، ومن ثم اقتربت من جوس لأني كنت خائفة جداً. لقد تحدثنا عنه بكثير من الأشياء اللطيفة. ثم أردفت: "إنه ليس كالآخرين أريده أن يكون لي. " والآن أحبها مكرهاً. وقالت جوس أنها متأكدة من الفوز. لقد حلمت أنها عضت قلبي لأني فضلته عنها. والدم مسال. أمي، أبي، العم ستيفن، جوس، سوف أموت " .

لو كانت أندريا قد عاشت لانخرطت بمواقف ثلاثية متجددة بلا انقطاع. فبعد رغبتها العميقة في امتلاك والدها، أشركت ذلك بحب طفولي لأمها، ثم فرقتهما بمخيلتها لتعود وتجمعهما بعد ذلك بآلامها وموتها.

فعندما تشكل الثلاثي من جديد إثر علاقتها مع جوس وستيفن، كان حبها للفتاة الشابة عنيفاً ومسبوغاً بشدة حاجتها للتألم، وهذه المرة عوضاً أن تتخلى عن أزهار أبيها لصالح أمها، التزمت بإخضاع قلب من تحب لـــ" صديقتها " المكروهة والعزيزة بشغف. وهذا تمثل شاعري لترددات التطلعات الجنسية لمرحلة البلوغ التي ولدتها العلاقة القديمة بالأهل. وقد ماتت أندريا وسط التعقيد المأساوي لمشاكلها الثلاثية. ومن اللافت ملاحظة أن السيدة ميكاييليس وضعت بحدسها عنواناً لكتابها "الطفلة". فبسبب مرضها وبسبب اقترابها من الموت كانت أندريا بالتأكيد طفلة أكثر مما هو طبيعي لفتيات من عمرها لذلك أظهر تكرار الموقف الثلاثي لطفولتها طباعاً أكثر سذاجة وأكثر طفولية وأكثر نكوصية ولجأت في علاقتها مباشرة وبقوة مع أبويها. وعادة، يكون هذا التكرار في مرحلة البلوغ الناشئ أقل مباشرة وأقل شدة، وخاصة عند بلوغ الفتاة سن السادسة عشرة.

لعل الكثير من المهام تنتظر الفتاة في مرحلة البلوغ فعلاوة عن صلاتها العائلية التي لم تنحل بالشكل الكافي عليها أيضاً أن تتحرر من الصلات المتينة جداً التي تربطها بالفتيات الأخريات وتحطمها لصالح الرجل الذي سيدخل في الموقف الثلاثي الجديد. وبالقياس مع ظروف مرحلة ما قبل المراهقة حيث كانت العلاقات العاطفية تأخذ شكلاً أقل حدة يظهر موقف البلوغ الناشئ ساطعاً بحيوية أكثر باستثناء عدد من المخاطر. فهنا تتأكد الحاجات الجنسية إنما دون هدف محدد وكذلك تسرّع العلاقات جميعها خطر الأخذ والمنح الجنسي. والجو العائلي الآن هو أغنى بالمنازعات مما هو عليه في مرحلة ما قبل البلوغ حيث لم يكن هناك إلا مقاومة ساذجة ومجرد علاقة مع صديقات؛ كما أن الحب بالنسبة لامرأة أكبر سناً ينطوي الآن على خطر جنسي ومصاعب داخلية وخارجية تشكل عقبة في طريق التقدم نحو التبادل الجنسي. فعلاوة عن آليات الدفاع الفردي المتشكلة سابقاً[1]، توظف مرحلة البلوغ طرائق ذات طابع أكثر عمومية وتظهر أهمية أكبر.

---

[1] A. Freud : Le moi et ses mécanismes de défense.

وهكذا يبدو أن جو العائلة صار أكثر فأكثر مستبعداً ومقيداً لذا تشعر الطفلة أنها بحاجة لأن تتحرر منه وأن تنخرط بمجموعة مختلفة يتواجد فيها الجنسين معاً. وفي وسط اجتماعي متدن يمكن لفئة ما بدافع المغامرة أن تأخذ شكل عصابة فوضوية بل وإجرامية. كما ويمكن لهذه المجموعة أن تتصرف باتجاه التكيف الاجتماعي ومساعدة الطفلة على حل معضلاته الفردية ضمن أيديولوجية جماعية. ويظل هناك خطر كامل طالما أن هذا الحدث يؤثر بطريقة مثيرة للغضب على السمات الفردية والنمو العاطفي. وفي ضوء هذا نقول أن تصرف الفتاة في مجموعة ما من هذا النوع يختلف اختلافاً واضحاً عن تصرف الفتى. فهو يرغب منذ بداية بلوغه تشكيل شراكات ما تحت الثورية أو ثورية لإفشال البالغين الذين يضطهدونه حسب رأيه وهناك أحلاف عدوانية تتشكل أولاً ضد المدرس" الطاغية"، ويلهون بإثارته بتهجمات حقيرة ومزعجة. فيما سيكونون آجلاً زمراً سياسية وإيديولوجية. وإن لم تتدخل الفتاة في منافسة مع الفتيان فهي تظهر ميلاً في تكوين صداقات خاصة وتشكيل ثلاثي ضمن المجموعة. وهي بذلك تتجنب إلى حد ما الإساءة لصفاتها الفردية ونموها العاطفي.

فإحدى الطرق الأقل احتراماً في تحطيم الصلات العائلية تلك التي نراها تستخدم غالباً خلال مرحلة البلوغ وتكون في الهروب. هروب ينتهي غالباً بالعودة عنه والتصالح؛ ومع ذلك فأحياناً نرى منه ما ينتهي نهاية مأساوية. فيما تلجأ الفتاة إلى الهروب عندما تقطع علاقتها مع صديقة ما أو في حال لم تتوصل إلى الانخراط في مجموعة ما. وبعد التجربة وجدنا أنه من النادر أن يكون الحب التبادلي سبباً للهروب في مرحلة البلوغ الناشئ. ويحصل أن نعتقد بذلك السبب إذا ترافق الهروب بأفعال التبادل الجنسي. في الواقع، تثار الفتاة لارتكاب أفعال ما بسبب قلقها الجنسي العام، إنما دون تحريض جنسي تبادلي واقعي. وهذا من سمات مرحلة البلوغ الناشئ.

إن العصاب هو حل أكثر تعقيداً ويمكن أن يظهر في أحسن الحالات كاضطراب زمني مؤقت في مرحلة البلوغ كما يمكن أن يشكل مرضاً يدوم سنوات.

كما ترينا الملاحظات السريرية الصدمات التي يمكن للبلوغ أن يسببها وهي تجلي بطريقة موضوعية التأكيدات النظرية للتحليل النفسي.

إن الحالات التي تعرضنا لها قد ذكرت بقدر من الموضوعية من قبل أطباء ومرشدين اجتماعيين؛ أي أنها لم يتم اختيارها وإدراجها بغرض تفسير التحليل النفسي. كما لم نقدمها كخلاصة صغيرة إنما بمعزل عن باقي المعلومات مراعيين الشكل الأدبي. ولعل تعديلات بسيطة أدرجت بغرض إخفاء هوية المرضى تحت العلاج وعدم الإخلال بمتطلبات الرصانة بيد أن كل ذلك لم يمس الجوهر بشيء.

قصة إيفلين

ايفلين فتاة في الرابعة عشرة من العمر أرسلت للمعالجة من قبل دائرة الخدمة الاجتماعية لمشفى بوسطن. وكانت قد هربت من عائلتها لعدّة مرّات وأمضت لياليٍ خارجاً. وقد ذكرت هذه القصّة من قبل مرشدة اجتماعيّة.

ويذكران ترتيب ايفلين الرّابعة من بين سبعة إخوة وستضع امّها قريباً المولود الثّامن.ولها ثلاث أخوات أكبر منها وأخوين توأمين وأخت أصغر. وينتمي أبويها إلى الطبقة المتوسّطة وهما من أصل اسكتلندي ولا ريب أنهما يعانيان من مصاعب مادية. وتبدو الأم، التي لها كل السلطة ضمن العائلة، متعبة بحيث تعطى من العمر أكثر مما هي عليه في الواقع، إنها ذكية ويقظة وعالية الهمة وطموحة بالنسبة لأولاها إذ تحرص على أن ينهوا دراستهم الثانوية. كما أنها قاسية دون أن تحظر على أولادها دعوة أصدقائهم والرقص واللعب بالورق؛ وهكذا فالعديد من الفتيان يؤمون البيت. وتبدو الأم متساهلة في كل ما يمكن أن تراقبه ومع ذلك فهي حادة الطبع إلى حد ما بل وحتى نزقة أحياناً. وهي كثيرة التكتم مع أطفالها فيما يتعلق بأسئلة الجنس. كما لا تعلمهم شيئاً أبداً حول هذا الموضوع وتصدهم إذا ما لجؤوا للاستمناء الطفولي. وهاهي ذي تخفي عنهم خبر المولود القادم. وكثيراً ما تظهر استياءها من الحمل المتكرر ومن قدرها بأن تكون امرأة؛ ومن ناحية أخرى تبدو في غاية السعادة بأطفالها.

أما الأب فيبدو فتياً جداً وقليل النضج. وتعامله الأم كواحد من أولادها. إنه يبدو هادئاً أقل انفعالاً منها؛ ومع ذلك فعندما يحتد يصبح ثائراً بحيث يأخذ وقتاً طويلاً حتى يتجاوز مرارته وحقده. وكانت ايفلين البنت المفضلة عنده إلى حين ولادة أخويها التوأمين عندما كان عمرها سبع سنوات. وحتى ذلك الحين كان يدللها ويمنحها كل ما تشاء".

وبحسب أقوال الأم، فإن ولادة إيفلين لم يكن مرغوب بها إذ أن الأبوين كانا يرغبان بولادة صبي وقد أحبطهم ولادة البنت الرابعة. وكانت طفلة رضيعة نضرة ولطيفة. عدا عن أن نموها الجسدي كان طبيعياً أيضاً. وفي عمر العشر سنوات حصل لها سقوط أدى لجرح ذراعها ولعلاج استمر طويلاً. وأصابها حينها حالة قلق؛ وظلت لفترة أسبوع تصخ كلما خرجت أمها، وكانت تذرف الدموع مطالبة أن " تفعل على غرارها " . وماعدا ذلك كانت طفلة مطيعة وسهلة المراس. وجاءتها فترة الحيض لأول مرة في عمر الثانية عشرة. وسرعان ما بدأت بعد ذلك مصاعبها الحالية. وراحت تخرج لتمضي ليلها في الخارج. ولا تعلم الأم السبب. وعثر عليها رجال الشرطة في المرة الأولى وأعادوها. وتكررت حالات الفرار بعد ذلك؛ دون أن تتذكر الأم تاريخ كل منها. وحدث أن استمر غياب ايفلين ثلاثة أيام. وجرى البحث عنها في كل مكان ووجدت بنهاية المطاف مخبأة في السقيفة. دون أن تأكل طيلة هذه الفترة.

ثم سلكت بعد ذلك سلوكاً طبيعياً من نهاية عام1941 وحتى شهر آب عام 1942. وفي ذلك الحين كانت الأم غائبة مع أولادها الصغار فيما تركت إيفلين مع أبيها. وذات مساء رجعت الفتاة متأخرة جداً. فضربها والدها للمرة الأولى. وعلمت الأم فيما بعد أنها قد راقصت البحارة. " أما الفحوصات الممكنة والخاصة بالأعضاء التناسلية فكانت سلبية " . وعندما عادت الأم اختفت إيفلين لمدة ثلاثة أو أربعة أيام.

ولم تعلم الأم أين تذهب الفتاة وعما تفعله أثناء غيابها، إنما تعتقد أنها عادة ما تبقى لوحدها. تعود بعد ذلك إلى البيت أو يعثر عليها تتنـــزه في الشارع أو عند صديقة. إنها تحس بحاجة لأن تبقى غائبة حتى ولو تكن متعبة، إذ تعود منهكة القوى ثم تستغرق بنوم عميق. وآل الأمر مؤخراً أن تسرق إيفلين للمرة الأولى.

فقد أخذت عشرة دولارات من أم صديقتها التي تسكن في الطابق الأعلى. وقد أنفقت قسماً منها وأضاعت الآخر. وجلبت معها بعض الدولارات. وقد بكت وهي تقول أنها لم تكن تعلم لماذا سرقت هذه النقود. وقد وجدت نفسها تستجرها وتأخذها م لا تعلم ماذا تفعل بها. وفيما عدا تلك المرة لم تعد تسرق.

الأمر الآخر الذي رافق تلك الصعوبات هو لامبالاتها بواجباتها المدرسية وبالتالي تخلفها التحصيلي. ولم تعلم الأم كيف تفسر ذلك. وبعض الأحيان يأخذها الاعتقاد بأن أمراض إيفلين السابقة هي وراء سلوكها الحالي: "يعود ذلك عليها بالأذى فهي الآن في الرابعة عشرة من العمر" .

وفي مرة أخرى تأخذها الظنون أن ذلك كان يعود للانتقال من بيت إلى بيت الذي كانوا قد أقاموا به أو من أمراض طرأت عليها فجأة جراء استئثارها بالأطفال الآخرين أو بعد ولادة أخويها التوأم. وفي أحيان أخرى تقول أنها لا تفهم شيئاً وتطلب منّا مساعدتها في تفهم إيفلين.

وتقول الأم أن إيفلين لم تكن كسولة وأنها تسير بصورة مفيدة عندما تنوي ذلك. إنها تهتم خاصة بأمور الطبخ وتهتم كثيراً بأحد التوأمين عندما يعهد إليها بذلك. وتذهب إلى الكنيسة دون أن تقوم فيها بأي مقام. كما تحب السينما و"تعشق المجلات" ويبدو أن لها أصدقاء كثر من الجنسين وهي حيوية جداً ضمن المجموعة. ولما كان عمرها ما بين 3-5 سنوات كانت ترى في نومها كوابيساً وتستيقظ وهي تصرخ وكانت تحلم بالأفاعي وبالأسلحة النارية وبأناس مشوهين. أما والدها، والتي كانت دوماً المفضلة عنده لم يكن يبادر إلى تهدئتها فيما أمها كانت تنجح بذلك. وتلك كانت مقتنعة أن إيفلين لا تهتم بالفتيان فعلياً. فكثير منهم يأتون لرؤيتها بينما هي لا ترغب بالخروج معهم لأنها تجدهم عقلاء جداً. وهاهي ذي الأم تتساءل كيف أمكن لإيفلين تجنب المبادرة الجنسية في الوقت الذي عاشرت فيه البحارة. وهي تعتقد أن إيفلين استعلمت عن الجنس من الكتب ومن أطفال آخرين. وكان لها عددٌ من الأصدقاء حرمتها أمها من معاشرتهم لأنهم " من أولئك الناس الذين يجلسون على أروقة البيادر ويدخنون" . وقد اشتركت إيفلين في غرفة نومها مع أختها ميري ومنذ أن أصبح لها " boy friend " طالبت بغرفة بمفردها مما جعل أمها تخصص لها السقيفة.

استناداً لما ذكرته الأم، فالبنت البكر آنا هي ذات طباع حيوي وعصبي أما ميري فهي المفضلة عندها والمحبوبة من الجميع. ولوسي تشبه إيفلين لأنها كتومة فيما " يخصها " وتمضي لتقيم من وقت لآخر عند عمتها وعمها. وهي تقول أن إيفلين ولوسي يسببون لها المتاعب في أسرارهم. ومن جهة الأب، فهو غاضب جداً الآن من إيفلين وأدار وجهه عنها بالكامل بل ولم يعد يكلمها. لقد توقف عن منحها النقود معتبراً وجوب معاملتها بقسوة. أما الأم فهي تلوم إيفلين كثيراً وسلمت أمرها لأبيها طالما أنها عاجزة عن القيام بأي شيء. وتتشكى بأن إيفلين اللطيفة والمطيعة قد تحولت فجأة إلى فضولية للرجال وتعتاد التبرج ووضع المساحيق والاستهلاك السريع لأقلام أحمر الشفاه وقال لها والدها أنها تظهر بهيئة مومس على الأرصفة. لقد جربوا معها كافة السبل لكن شيئاً غامضاً لم يتوصلا إلى إدراكه.

وس هذه المناقشات نخلص إلى انطباع بأن الأهل رغبوا القيام بكل ما بوسعهم بيد أن حالة من التناقض الوجداني تجاوزتهم في مشاعرهم تجاه إيفلين. فتارة يستوعبونها تماماً ويلزمون أنفسهم على اتخاذ موقف متسامح، وتارة أخرى، يقررون ترويضها بقسوة. وتبدو إيفلين أحياناً تتكيف مع وضع البيت، ثم تهرب فجأة في الوقت الذي يتهيأ فيه أهلها لإدخال السرور إلى نفسها باصطحابها إلى السينما مثلاً.

ملخص لعرض المقابلات مع الطبيب

إيفلين فتاة ذات مظهر مضحك وشعر أصهب والتي تعطي، رغم أقراط الحلق والعقد والتبرج الشديد، انطباعاً قوياً متصبيناً. إنها كالحة، عابسة الوجه ومتوترة جداً إنما تتكلم بيسر وطواعية. وهي تصف الناس بصورة حيوية وتقيمهم بموضوعية متيقظة وناضجة نضوجاً تاماً. ورغم أنها حقودة وكثيرة الخوف لكن روحها تبدو ذات حس درامي. وتقول أنها أتت إلى العيادة بسبب مغادرتها البيت ولأنه قيل لها أن اصطحابها إليها يعود عليها بالفائدة. وقد خشيت أمها أن تصل الأمور بها إلى السجن أو دار الإصلاحية.

ترتيب إيفلين الرابعة بين أخوتها السبعة؛ حيث لها خمس أخوات وأخوين توأمين جورج وبيل وهما في السابعة من العمر. وأختها البكر آنا في العشرين من

عمرها ولوسي في السادسة عشر وهي المفضلة لدى عمها وعمتها؛ وقد ذهبت للسكن معهما ولم تعد إلى بيتها حتى من أجل الزيارة؛ وقد قالت لها أمها أنها يمكنها البقاء هناك شريطة أن تأتي لزيارة أهلها مرة في الأسبوع. " ألا تجدون هذا جدير بالضحك " قالت إيفلين" فقد غادرت ببساطة من اجل لا شيء" .

وأختها ميري في السابعة عشرة من العمر، وهي المفضلة لديها حتى غاية السنة الماضية عندما اتخذت صديقاً لها " boy friend " وقد كانتا صديقتين حميمتين. أما توم فقد زار ميري وجعلها تخرج كل مساء تقريباً، ولم تعد ميري وإيفلين تخرجان معاً قط وحتى في الهالوين عندما كانتا تنويان التنـــزه خلاله. ولويز لها من العمر أربعة أعوام وهي جميلة جداً ومدللة بإفراط وقد عهد بها بشكل خاص لآنا. أما جورج أحد التوأمين فهي محط اهتمام إيفلين منذ ولادته وكانت تحبه كثيراً. وهاهو الآن فتىً صغيراً قوياً ويقال أنه ما أحبها قط. أما بيل الذي عهد به إلى ميري هو فتىً صغيراً لطيفاً وذكياً جداً. وتصف ميري كم هو ودود ومجامل قائلة:" تخيلوا جورج يقول شيئاً كهذا. فالأمر سياناً بالنسبة له حتى لو كنت أعاني من مرض الشقيقة" .

وتقول إيفلين أن أبيها يعمل لدى " مونتغمري وارد آندسي" وأنه في التاسعة والثلاثين من العمر وأنه رجل جميل " هو ذو شعر أصهب مثلي " " فلويز وجورج وأنا أخذنا منه تلك الصفات. أما الآخرون فهم سمرٌ كأمي، لقد منحنا دوماً ما نريد. إنه كالآباء الآخرين. فهو لم يضربنا أبداً. بينما الآن هو قاسٍ جداً. وربما الآن أكثر شيخوخة وحكمة" .

وأمها امرأة هادئة ومرحة. " إنها عصبية في بعض الأحيان حيث تجادل كثيراً. ولا شيء يعجبها مما أفعله لقد أصبحت ثائرة جداً تجاهي حالياً" .

وعندما تسأل أمها عما يغضبها بشكل خاص فتقول إيفلين أنه برأيها الشلة التي تعاشرها. كما أنها لم تتوقف عن التفاهم مع أمها إلا منذ سنتين حيث ذهبت العائلة من شمال كامبريدج إلى جنوب بوسطن. وتأسف إيفلين على افتقاد أصدقائها إنما التقت أخيراً بشلة من الفتيان والفتيات كانوا أكبر عمراً منها بحوالي سنتين. وتلك الفتيات لم تكن تشتغلن شيئاً بل تلهين طيلة الوقت " بإمكاننا أن

نفعل كل ما يفعله الفتيان. وجان إحدى اللواتي تقدن الشلة. وتؤكد ظنها بأنها قوية إلى حد ما. وأنا قادرة كذلك على التقاتل رغم كوني صغيرة. "وتقول أن هذه الشلة كانت تجتمع في بيوت مختلفة وتذهب إلى السينما والحفلات وتلعب بالزلاجة الخ. ولا تجد ما يسلي في الذهاب مثنى مثنى فهي تفضل اللهو الجماعي. فقد يحصل أن ألاعبهم لعبة إشارات الحرائق ("لا تقولوا ذلك لأمي، فهي لا علم لها بذلك")، لكنهم لم يقوموا بشيء زيادة عن ذلك. فأحد أولئك الفتيان والذي كانت تحبه حباً خاصاً دخل البحرية في الأسبوع الماضي وهي لم تخرج عادة لوحدها مع الفتيان، مع أن أمها تسمح لها بذلك لأنها كانت تفضل خروجهم معاً. وقد أتى اثنان من الفتيان ليروها في بيتها ولم تفهم أمها لماذا لم تخرج معهم. وقد فسرت ذلك قائلة:" لو كانت تعرفهم مثل معرفتي لما سمحت لي بالخروج".

وتقول إيفلين أنها في السنة الثانية من التعليم الثانوي، وأن لها اهتمام خاص بالطهي وأنها حين ستحصل على درجاتها ستتابع الدراسة في مدرسة تجارية. وتقول بشكل عفوي:" أريد أن أكسب عيشي. لن أتزوج وأنجب أطفالاً. سيكون لي أشيائي الخاصة وستكون لي كما أصبو".

وفي جلسة أخرى، راحت تتحدث الفتاة بسرعة عن نقاش دار ذلك الصباح مع أمها. فقالت أنها احتجزتها في المنـــزل في عطلة نهاية الأسبوع؛ فرفضت أن تقوم بعملها." أعتقد أنها تكرهني وأنا أكرهها أيضاً". وأفادت أن الأطفال في مدرستها يجدون في كراهية الأم أمراً سيئاً ثم أردفت تقول: "لست الوحيدة، نحن نقوم بمشروعنا جميعاً في أن نمضي قدماً. فنحن لا نستطيع الانتظار قط".

كما تقول أنها أقامت مشروعاً مع أخواتها الثلاث بأن تسكنّ في شقة معاً وأن لوسي إذا غادرت المنـــزل فليس هذا عبثاً. إنها مستمرة في إبداء حقد شديد نحو أمها التي غالباً ما تضربها وأن والدها يصبح قاسياً أكثر فأكثر وأنها لا تستطيع الانتظار حتى تستكمل السادسة عشرة لتصبح قادرة على العمل ومغادرة العائلة. كما تنوّه بأن أمها قذفتها ذات يوم بالحذاء على رأسها؛ وقد أصاب الكعب صدغها فأصيبت بالدوار. وتقول بأن أمها حامية جداً وتتصرف بلا تفكير، لكنها أحياناً تفعل ما لا يجب أن تفعله عندئذ تفكر بذلك طيلة الوقت.

ثم تتحدث من جديد عن شلتها وبشكل خاص عن هيلين غرين التي تبلغ الحادية والعشرين من العمر والمتزوجة من بحار والذي خرجت معه مرتين.

وفي نهاية الجلسة، أصبحت لطيفة من جديد وبدت تخفف عن كاهلها بالحديث عن أمها بملء الحرية.

وفي مرة أخرى، وصلت إيفلين إلى العيادة متأخرة ربع ساعة. وقد تأسفت بالقول بصراحة أنها نامت نوماً طويلاً ولم تعط الخمسمائة التي تتلقاها كل أسبوع كمصروف جيب كما وقد منعت من الخروج. وأن الشيء الوحيد الذي منعها من الموت ضجراً هو زيارة فتيان ثلاثة. "ينظر إليّ والدي الآن شذراً. لا أملك إلا رغبة واحدة في أن أمضي. ولا أستطيع الانتظار حتى أصبح في السادسة عشرة ".

لقد تلقت من صديق بحار بطاقة. لكنه لم يعطها عنوانه وهو يتنقل كثيراً بحيث تعتقد أنها لا تتمكن من اللحاق به. وهي تتأسف من ميلها أن تكتب إليه. ثم تضيف: " أمي لم تعد تثق بي كما تعلم. كما هي لا تثق بي على الإطلاق. أنا لا ألومها، لكنها لو عرفت أن أصدقائي يثقون بي لكانت مندهشة من ذلك. إنهم يكسبون عيشهم من أعمال بسيطة، ويعطونني شيئاً أحتفظ به. وأتساءل دوماً عما ستقوله أمي فيما لو وجدت هذه النقود" .

وفي الجلسة التالية، قدمت إيفلين بهندام مهمل دون اثنين من أزرار قميصها؛ وتنورتها مبقعة وشعرها غير منسق وغير متبرجة. وقد تأسفت من ذلك قائلة بأن أمها حرمتها من التبرج وأنها تدرك أن هيئتها تلوح كشبح.

وعندما اختبرت من الناحية الجسدية أبدت استعداداً طوعياً بذلك واهتماماً بمختلف الفحوصات. وكانت عسراء بشكل واضح رغم أنها تكتب باليد اليمنى كما ترى بالعين اليمنى بصورة أفضل. وحين سئلت حول موضوع الطمث، أجابت أنها لا تعلم عنه شيئاً وعن اللحظة التي بدأ فيها وعندما سألت آنا عن ذلك أجابتها أن الفتيات جميعهن يتعرضن إلى ذلك وأن هذه الدماء اللعينة لا بد أن تتوارى بصورة أو بأخرى. راحت عندها إيفلين تضحك وتقول: " لقد أعلمني الطبيبة عن ذلك فيما عرفت أنا آنا كانت مخطئة" .

ثم استعدت إيفلين للاختبارات النفسية، وقد اهتمت بها كثيراً وسرّت بالقيام بها. لقد جرى الحديث عن المدرسة إذ دلّت الاختبارات النفسية عن إمكانيتها القيام بأعمال فكرية أكثر مما يطلب منها في الدروس التجارية وهي تعترف صراحة بميولها المطبخية وأن عملاً له علاقة بالطهي يناسبها دون أدنى شك، إنما لا نية لديها في التدرب على الفنون المنــزلية " رغم إمكانية التفكير بذلك " وأثيرت مسألة معرفة ما إذا كانت بإمكانها الشروع بمهنة أخرى مستخدمة ميلها للطهي، فأثار ذلك اهتمامها وعبرت عن مدى حبها لمتابعة دروس حول التغذية والأنظمة الغذائية.

وراحت إيفلين تتحدث حينئذ عن أمها بشكل عفوي، وعن استيائها لعلمها أن أمها تنتظر مولوداً " لم تذكر لي ذلكَ بوضوح. في حين ذكرته للوسي وميري".

لقد قالت لها آنا منذ بضعة أسابيع أن أمها كانت تنتظر مولوداً لكن أحداً لم يصدقها. " أجد أن سبعة كفاية، أليس كذلك؟ إنما فيما لو أصبح عندنا مولوداً آخراً فآمل أن يكون بنتاً " وتتحدث بعد ذلك عن مزاج أمها السيئ فتقول: "من الواضح، أنها لا تحس نفسها حالياً على ما يرام، فهي أكثر عصبية بسبب الطفل لكنها دوماً كالحة الوجه. وهي أحياناً تتشاجر مع آنا بشراسة. أنا لا أتفاهم حتى مع آنا، لكني أكره طريقتها في المعالجة. وفي يوم آخر، نهضت فيه آنا متأخرة، فأمسكتها أمي فردت آنا عليها، وما كان من أمي التي كانت تقطع الخبز إلا أن تناولت السكين وضربت بها آنا على كتفها. فسال الدم منها من ثلاثة مواضع. إن لها طبع رهيب " كما تشكت آنا بعد ذلك من مراقبة أمها الشديدة ومن سوء نيتها تجاهها. وقد سألت الطبيبة أنها لا تعتقد من المستحسن إعطاؤها حرية أكثر في شؤونها الخاصة. ودون انتظار الرد ذكرت أن لوسي ربما لا تسمح لأمها مثلاً في تفتيش أجندتها وأن الأم كانت تخشى لوسي قليلاً. وفي أحد تلك الأيام ذكرت إيفلين أن الجميع اتحد ضد أمهم التي يتمنون لها أن تذبح. وأضافت: لو أنها لم تتزوج أبداً. وسألت الطبيبة إذا ما كانت متزوجة. ولما كان جوابها بالنفي، قالت إيفلين: " حسناً أنت هكذا على أحسن ما يرام أليس كذلك؟"

وبعد خمسة عشر يوماً، أنهت إيفلين اختباراتها النفسية وبدت متعبة وخائرة القوى. والحدث الجديد الوحيد في البيت كان خلافُ نشب في الليلة السابقة بين

الأب والأم. وقد عاد الأب على العشاء متأخراً فأنبته الأم مطالبة إياه بأن يهتم بوجبته بنفسه. فاحتد كثيراً ومن بين الأمور التي قالها أنها كانت تدع إيفلين تخرج وتبقى خارج البيت؛ فلماذا تريد النيل منها بعد ذلك؟ ثم أردفت إيفلين تقول: "إنه كطفل. فعجباً أن يقول أشياء مماثلة. هل من الممكن محاربته؟ إن أمي تدير كل شيء في البيت؛ وهو يطلق يدها في ذلك".

لقد تحدثت عن هذا الحدث بازدراء، فيما بدت متناقضة في نفس الوقت. فهي لم تذكر شيئاً عن الطفل المنتظر إلا إذا أرادت النيل من الطباع السيئ للأم. كما تقول في هذا الموضوع أن الأم طلبت دوماً مراعاة شعورها بسبب حالتها.

"إنها لا تراعي شعور أي إنسان على أي حال. فلماذا علينا مراعاة شعورها؟".

كما وقد ضجرت إيفلين من دروس اللغة الإيطالية، فهي غير متفاهمة مع مدرستها التي هي، بحسب رأيها، غير منصفة معها، كما هي ترغب في قطع هذه الدروس. وتحدثت عن هذا الأمر للطالبة في السنة الثانية التي عليها الإجابة عنها، لكنهن لم تنجحن في إيجاد أي درس ممكن آخر يمنحها الدرجات الخمس التي تحتاجها. وقد أوحت الطبيبة أن إيفلين من الممكن أن تجد سروراً كبيراً في دراسة أكثر للغة الإيطالية، وفي أن تمتلكها وفي أن تطلق كذلك انطباعاً جميلاً عن مدرسة المادة الأمر الذي لم تعلق عليه إيفلين بشيء.

وبعد أسبوع، وخلال الجلسة التالية كانت إيفلين أكثر قدرة على ضبط نفسها وتكلمت بنضوج لم يسبق له مثيل... وكانت غير عابئة بمظهرها وهندامها بل ووجهها وعنقها غير نظيفين. وقد وضعت الحلي بأذنيها بالإضافة إلى عقد كبير. وقد تحدثت بعفوية عن الطفل المنتظر، متحدثة عن لهفتها لرؤية ولادته. وقد قامت بالتسوق مع والدتها وأعجبت كثيراً باختيار ألبسة الطفل. وهي ترى أن اهتمامها بهذا الطفل شيء جميل إذ لا يقوم بهذا العمل أي شخص من العائلة. بل يعتبر الأب ذلك نكبة ويشاركه بهذا الرأي بقية الأولاد. وهي تدرك أن أمها ليست متحمسة جداً إذ كانت خلال الحملين الأخيرين مريضة جداً وسيزيد هذا أن الطفل عملها كثيراً. وهي كذلك تدرك إلى حد ما الموقف الذي من أجله لا يجد والدها من المناسب مكاشفة سبعة أطفال به. وهي تأمل أن يكون المولود ذكراً لئلا يستقبل استقبالاً سيئاً.

ثم تتحدث إيفلين عن هيلين غرين، تلك المرأة المتزوجة وفي الحادية والعشرين من العمر والتي ذهبت معها عدة مرات إلى مكان مشبوه والذي بدا غامضاً ومثيراً للناشئة حيث يرتاده عاهرات وجنود. كانت إيفلين بالفعل فضولية جداً ومحبطة عندما رأته ليس سيئاً في شيء. وقد أعارت هيلين إيفلين وثيقة ولادتها للتخلص من قيود حظر التجوال. وقد دخلتا أحد مطاعم الشواء وشاهدتا فيه جنود وبحارة ونساء من جميع الصنوف لكن ذلك لم يكن مختلفاً عن أي مطعم آخر للشواء. " تضيف إيفلين: من الواضح أنه كان هناك عدد كبير من النساء من مستوى متدن. يا إلهي كم تضعن من مساحيق التجميل! فمن الممكن التعرف عليها على بعد كيلو مترات" .

ها هي تبتسم وتوافق الطبيبة التي تشير إليها بأنه لهذا السبب لا تحب الأمهات رؤية بناتهن تتبرجن بإفراط. ثم استأنفت وصف هيلين غرين حيث قالت أنه من غير اللائق نقص زر أو زرين في الهندام واستخدام البودرة والعطر عوضاً عن الاستحمام. لقد تزوجت هيلين غرين من بحار غائب وهي تخرج مع الكثير من الرجال وإيفلين تنتقدها صراحة. وتقول أنه برأيها ما كانت هيلين تحتاج للزواج إذا كانت تريد التصرف بهذا الشكل. وآنا أصبح لها علاقة غرامية جديدة مع رقيب في الجيش. إنه من " كاوبوي " أوكلاهوما ومن حامية معسكر" P" لقد أتى ليمضي إجازته في بوسطن مع آنا. وقد دعته أم إيفلين على العشاء ذات مساء وكان الجميع مسرورين بذلك. وقد وصفته إيفلين كشاب طويل خجول إنما لطيف جداً، إنه من صنف الرجال الذين تحب الزواج بهم إذا ما رغبت بالزواج. وهي ترى انه ليس بالرجل الذي " يأخذ الألباب " إنما زوج طيب جداً ويكون للمرأة مع زوج كهذا بيت هادئ ولطيف. وهي تؤكد أنها تؤثر بيت من هذا النوع وأنها إما أن تتزوج هكذا أو لا . فهي لا تريد المشاجرات ولا الصراخ فقد اكتفت منها. وهي مصممة على المضي في دروس اللغة الإيطالية على الرغم من عدم تفاهمها الدائم مع مدرستها.

وبعد بضعة أيام، غادرت إيفلين البيت في المساء وأتت إلى العيادة في الصباح التالي منذ ساعة مبكرة. وقد أقلّت الحديث وقالت فقط أنها لا تريد العودة إلى البيت وأنها جائعة. وبدت منهكة ومتجهمة ومنكدة ورافضة التواصل وتلح كذلك

على رفض العودة للبيت. وتقول أنه لم يحصل شيئاً يدعوها للمغادرة؛ في اليوم السابق أمضت الوقت في اللهو مع صديقتها روز. ثم ذهبت من عندها في الساعة الحادية عشرة ليلاً وصممت فجأة على عدم العودة إلى للبيت. فجلست تحت رواق بيت روز ومكثت فيه طول الليل، وعادت إلى العيادة لأنها لم تكن تعلم ماذا يمكن أن تفعل. وقد اتخذت تدابير لإقامتها عند عائلة بصورة مؤقتة وقد أعجب ذلك إيفلين.

وبعد انقضاء خمسة أيام، تعود إيفلين كالحة الوجه كعادتها متعمدة الكتمان. الشيء الوحيد الذي كانت متأكدة منه أنها لا تريد العودة إلى البيت. وسألت إن بالإمكان إيجاد نزل عائلي لها تقيك فيه نهائياً. فحدثتها الطبيبة عن الصعوبات التي من الممكن أن تصادفها عند التكيف داخل المنـــزل. فكررت رغبتها في أن تجرب لأن العودة إلى البيت غير ممكنة. ثم صاحت وهي تقول: " لا يريدونني هناك. ليلة أخرى كانوا يظنون أنني نائمة وسمعت أبي وأمي يتكلمون علي. وسألته أمي لماذا لا يريد أن يعيد لي مصروف الجيب فصاح أن لن يعطيني إياه مطلقاً" .

وبعد يومين، تقرر إيفلين استئناف واجبها الدراسي. لقد تاهت في الطريق في تلك الليلة ولم تصل إلى النـــزل العائلي إلا في السادسة صباحاً. وبالنسبة للنـــزل لا شيء لديها تقول عنه عدا عن شعورها بالوحدة فيه. وفي الليلة الماضية، عندما راحت كيت سميث تغني " Wite Christmas " أحست أنها بلا مأوى وصعدت إلى غرفتها للبكاء. وقالت بنبرة حادة تماماً أنها متأكدة من عدم القدرة إلى العودة إلى البيت وأنها بائسة لكونها عضواً فيه. وهي تلاحظ أن السبب ربما يعود لخطئها هي طالما أن أخوتها تشاركنها هذا الوجود وتتوصلن إلى احتماله. لعلها لا تعلم سبب إحساسها هذا بالوقوف ضد عائلتها وأمها. شيء يجعلها ثائرة، ربما يعود ذلك لأن أمها تقرأ أجندتها. " من الممكن أن تقرأ أسراري! أو ليس لها أسرارها الخاصة ؟! ها نحن لا نعرف كم عمرها إلا منذ سنتين" .

في ذلك اليوم، لم تكن متهجمة مطلقاً، بل على العكس كانت لطيفة وجادة. وتتحدث بملء إرادتها عن طبيبها عن معاناتها بالحاجة لفهم ذاتها بشكل أفضل واكتشاف القوى الموجودة داخل كيانها والتي تجعلها تسلك ما تسلك. ولما ذكرت لها الطبيبة صعوبة أن تمضي الوقت هكذا هاربة من كل شيء، ابتسمت وقالت أنها تعلم ذلك حق المعرفة.

وها هي إيفلين بعد انقضاء عشرة أيام منهارة وحالتها خطرة جداً. لقد قالت أنها ضاقت ذرعاً من النـــزل العائلي رغم قدوم فتاة جديدة ساعدتها قليلاً. إنها مقتنعة بدوام البعد عن البيت، لكنها تتأسف على الأطفال وعلى اللحظات المرحة. وهي تلح على صعوبة معاناتها في البقاء بعيدة عن بيت أهلها كما تكرر عدم مقدرتها العودة.

وبعد خمسة أيام، لا زالت إيفلين محبطة ومنهارة وتعترف بشعورها بالوحدة وبتعاستها في أوقات الفراغ إنما مصرّة دوماً على عدم العودة. إنها تكتب قصة حياتها. وهي عازمة على قول الحقيقة ما أمكن مع بعض اللمسات الخفيفة التي تجعلها أكثر تشويقاً. وربما ستتمكن من بيعها إلى مجلة ما. راحت تضحك لدى ذكرها ذلك ثم أردفت تقول بأنها بدأت بسيرتها الذاتية وأنها ولدت خلال السنة الأولى من الأزمة مع أنها ولدت واقعياً في الستة السابقة. " قالت إنما ينبغي أن نجعل الأشياء مثيرة في حال أردنا بيعها".

وقد أوحى الطبيب أنها فعلت ما بوسعها لتكون صادقة إذ أن كتابة قصة ما يمكن أن يساعدها على حل مشاكلها. وذكرت أنها تدرك ذلك وأنها تتذكر أشياء لم تكن قد فكرت بها منذ سنوات. فعندما كانت في السادسة من العمر كانت أمها قد أضاعت أجندتها. وقد نوقش الأمر ضمن العائلة ذات يوم عندما كان العم هنا. وبدا موقفه هزلياً بالنسبة لإيفلين وقد أضحكها ذلك. أما العم فحالما استدار نحوها قائلاً: " أنت سرقت الأجندة ".

وحالما استولت على الأم فكرة الاتهام رفضت جميع احتجاجات ابنتها. ولاحظت إيفلين بمرارة " حتى في تلك اللحظة، كما ترون، إنها كانت ضدي".

منذ دخولها النـــزل العائلي لم تداوم إيفلين على دروسها. وهي تعلم أن ذلك ليس بالشيء الحسن. لقد لزمها للصف عدة أشياء كانت موجودة في البيت. وعائلتها لم تجلب لها هذه الأشياء ولم توضح لأساتذتها أنها تعيش بعيداً عنهم. وبادرها القلق على مستقبلها وسألت الطبيبة إذا ما ستكون نافعة في شيء. وجرى الحديث عن أهمية العمل المدرسي من أجل المستقبل، فأكدت أنها لا تريد فقط إنهاء دراستها الثانوية بل الاستمرار وتتمة الدراسة في أحد فروع علم التغذية.

وقد سألها الطبيب إذا ما تريد العودة إلى البيت خلال عيد الميلاد فأجابت بلهجة متفاجئة: " آه نعم. إذا رغبوا بي. فالقرار يعود لهم" .

وها هي إيفلين قادمة بعد عشرة أيام إلى العيادة بمرح واضح. والسعادة والاطمئنان تبدوان على طالعها. وأفادت أنها أمضت ليلة الميلاد في بيتها. ومكثت فيه بلا تكلف انتظاراً لليلة رأس السنة. والجميع كانوا لطفاء معها بحيث أحست بحفاوة تُستقبل بها ملكة، إنما لا تعلم كم سيدوم هذا. لقد تشاجرت قليلاً مع لوسي لكن ليس إلى درجة الخطورة. وذكرت أنه من المستحسن أن يكون المرء في بيته وأنها لم تكن تدرك سابقاً كم أنها تحب بيتها. وأنها أسفت جداً لإليزابيت (فتاة في السادسة عشرة التي ألفتها في النـــزل العائلي) والتي ليس لها لا بيت ولا عائلة.

وتعتقد إيفلين أن السوء كله أتى مما قامت به من أفعال لم تناسب عمرها. ففي الصيف الماضي خرجت مع فتيان أكبر من عمرها في الوقت الذي كانت أمها فيه غائبة في عطلتها وهي ترى في ذلك الآن خطأ إنما ضجرت من معاشرة فتيان وفتيات أصغر منها. والكثير من وجهات النظر ترى أنها ناضجة أكثر من فتاة لها نفس عمرها. فمعظم المشاجرات الأخيرة مع أمها تعزى إلى خروجها مع فتيان أكبر منها، لأن أمها لم تكن تعلم أنها جديرة بالحفاظ على رصانتها. الآن وهي تعتقد بذلك ثانية تدرك إيفلين أن أمها كانت تملك الحق في قلقها. فلما كانت توعز لها بعدم الخروج، كانت تقوم بذلك عنوة. وكانت إيفلين لسبب آخر تحس بان عمرها أكبر مما هي عليه واقعياً، إذ كانت تشكل مجموعة مع أخوتها الثلاث الأكبر منها سناً. كما اهتمت كثيراً بالأعمال المنـــزلية في حين أنها لم تكن إلا طفلة صغيرة. وكذلك تفردها بالاهتمام بأخيها جورج أحد التوأمين، وكان لها دوماً مسؤوليات أكثر من غالبية قرينتها. ولا تتمكن إيفلين من الإقرار بخطورة الأشياء التي تقوم بها والتي ليست مناسبة لعمرها لكنها خلصت إلى القول: " لقد كنت مخطئة في كم كبيرٍ من الأمور" .

ثم مضت في الحديث عن أمها قائلة: مع أني لا زلت لا أحسها جيدة لكنها لم تعد كالحة الوجه كما في السابق. لقد ذهبتا معاً لشراء ثياب الطفل، وتقول إيفلين بتجهم وبحركة صغيرة من جسمها: " في الحقيقة، لا يمكنني على الإطلاق انتظار ذلك الطفل" .

إذا أقصينا بعض المغص والتشنج، فإن إيفلين لم تعاني من أي اضطراب خلال فترات الحيض. وكانت قد لملمت من المدرسة كثيراً من المعلومات الجنسية، لكنها إلى حين محادثاتها مع الدكتور "ت" لم تعرف "حقائق الأمور" . لقد تهجمت وقالت أنها ستبحث في الحال عن أخوتها لتروي لهن ما قاله لها الدكتور "ت" " أنني أول من عرف كل ذلك. ومن جهة أخرى أنا الأولى دوماً في كل شيء" . كما قالت أن أمها لم تكلمها أبداً بالمسائل الجنسية وأنها حسب رأيها على خطأ في ذلك. بالفعل، عن إيفلين تكفي نفسها بنفسها دوماً في الحالة العادية، أما هنا فأمها تُلام في حال حدوث مصيبة نتيجة الجهل. وبرأيها، على الأهل التحدث عن مسائل الجنس مع أولادهم ما أن يطرح أولئك أسئلة ما، لكنها تضيف: "مع ذلك لا أعلم ما سأفعل لو كنت مكانها. أنا أتفهم لماذا وجدت أمي الأمر صعب جداً" .

وبعد انقضاء أسبوع، بدت إيفلين سعيدة بقرارها البقاء في البيت. إنها تتحدث بطريقة متفهمة للموقف الاعتيادي لأهلها؛ وهي تعلم جيداً أن عائلتها لن تعاملها دوماً باللطف نفسه، لكنها اشتاقت لهم كشوقهم لها، كما تعتقد أنه في المستقبل ستسير الأمور على ما يرام.

ها هي القصة التي كتبتها عن حياتها تنتهي، لكنها في الواقع لا تبدو لها جديرة بالنشر. كما لا تعلم ماذا تفعل بها وتفكر بتمزيقها. ولما أوحى لها الطبيب عن إمكانية إعطائه إياها ليقرأها، لم تجب بالإيجاب أو بالسلب. ويتركز اهتمامها كله حالياً بالطفل المنتظر وهي تردد أن الجميع يرغب في أن يكون ذكراً ويسمونه أندرو. كما لا تعلم عما سيحصل فيما لو كان أنثى؛ إنها لا تحب اسم أندرو، لكنه اسم اسكتلندي وأبواها اسكتلنديان. إنها تود أن تقرأ أشياء عن اسكتلنده وربما الذهاب إليها ذات يوم.

ومن جهتها تحب الكتابة كثيراً وغالباً ما يقرأ أستاذها كتاباتها الإنشائية في الصف. ويؤنبها على الأخطاء الإملائية والتنقيط، لكنها معجبة بأفكارها. لقد سئمت اليوم من موضوع إليزابيت. لكن خفف عنها أنها لا زالت في النـــزل العائلي وأنها مرتاحة فيه.

وبعد مضي أسبوع، تبدو إيفلين مهتمة بنفسها أكثر من المألوف. حيث تبرجت بعناية؛ وهاهي نظيفة ومرتدية كنـــزة صوف وتنورة. كل شيء على ما

يرام في البيت. أمها مرضت يوم الخميس ولم تذهب إلى المدرسة لكن تتمكن من مساعدتها. كما كانت الأم قد طلبت المكوث من باقي بناتها، إنما كل منهن ساقت حجة ما للرفض. إن الرضى الواضح الذي تحس به إيفلين جزاء كونها الوحيدة التي يعتمد وضع على مدار البحث، ونلاحظ أنها كانت الوحيدة التي تقوم بمساهمات من أجل أمها. كما كانت حقاً متهيجة بخصوص الطفل. وقد وعدتها أمها بإمكانية الاهتمام بأموره بالكامل، وقد رغبت بفعل ذلك بطريقتها أو أن لا تقوم بشيء. إن التوأم ولويز هم أطفال مدللون وهي لن تفعل شيئاً مماثلاً للطفل. وقد قالت لأمها أنها تريد أن تكون الكلمة الأخيرة لها في كل ما يتعلق بالطفل وأمها رضيت بذلك. إنها تأمل أن يكون الطفل أنثى وتبحث لها عن اسم. إنها تؤثر الفتيات وتعتقد أن الذكر ستدلله العائلة كلها.

وها هي إيفلين لم تتحدث قط عن العشرة دولارات التي أخذتها من بيت صديقة أمها مع أنه سنحت الفرصة لأكثر من مرة للإفاضة في الحديث عن هذا الموضوع. وحين طرح الموضوع عنوة بدت إيفلين مرتبكة تماماً وقالت أخيراً: "أظن لدى كل منا أموراً نخجل من تذكرها".

لقد قالت أنها لم يكن لديها النية في فعل ذلك، لكنها رأت النقود على خزانة صحون الصديقة. وكانت مغمومة في ذلك اليوم فأخذت النقود لتمضي وقتاً جميلاً ينسيها كل شيء. وذهبت إلى السينما واشترت لنفسها أشياء صغيرة وعادت بالتكسي. وفقدت جزءاً من النقود. وهي لا تدرك كيف أمكنها فعل شيء من هذا القبيل. وأي شخص آخر لن يدرك ذلك أيضاً. لقد أرجعت كل ما تبقى إلى هذه السيدة وتقول " أسوأ شيء كان ذلك الذي أحببته كثيراً ".

ولما سُئلت إذا ما غيرت هذه السيدة موقفها تجاهها، أجابت إيفلين: " آه كلا، إنما أنا لم أعد أشعر بالموقف نفسه أمامها ".

ولاحظ الطبيب أن هذه المرحلة ليست إلا ناحية من مشكلتها كلها وتبين ربما عن نفس أسباب هروبها. وعلى ما يبدو أدخل ذلك فيها الطمأنينة وسرّى عن نفسها، لكنها ظلت منهارة حتى ختام الجلسة.

وبعد أسبوع كانت قد تأخرت فيه إيفلين عدة مرات ونوقشت هذه المسألة مع الطبيب جاءت في الوقت المحدد. وهذه المرة أيضاً، وكانت فيها واضحة جداً

وماكياجها مخفف وهندامها نظيف. وشعرت أمها بألم ما لكن ليس إلى الحد الذي يجعلها تراجع طبيباً. وإيفلين قلقة إزاء هذا الموضوع، وتقول أن أمها ربما لا تلزم الفراش ولو كانت حالتها تستدعي ذلك وكانت مريضة حقاً. وقد درست مطولاً مسألة إعطاء إيفلين مهمة الاعتناء بالمولود الجديد. وتعترف إيفلين بأنها دون شك لن تتمكن من تعهد كامل عبء المولود وربما تكون غير جديرة باتخاذ قرارات هامة، إنما ترغب بالاهتمام به وإذا توخت الحذر جيداً فستتمكن من منع المبالغة في تدليل هذا الطفل. كما تعتقد أنها إذا اهتمت كثيراً به فلأنها تحب الأطفال بشكل عام، وكذلك لأنها تحب أن تشعر بان هناك ما تمتلكه. وهي تعلم أن هذا الطفل لن يكون لها بالكامل، إنما سيكون لها أكثر من أي أشياء أو أشخاص هم في حياتها حالياً.

استفسرت إيفلين عن أوضاع إليزابيت وعلمت أنها هربت ثم أرسلت إلى لانكاستر. وهذا الموضوع يقلقها كثيراً، إنها تكره التفكير بأن إليزابيت في بيت الإصلاحية. وتعتقد أنها لو بقيت في النـــزل العائلي لما أدى بصديقتها إليزابيت إلى الهرب، وفي جميع الأحوال لن يطول هذا كثيراً؛ لكنها لا تعزي لنفسها لوماً حقيقياً، إذ لا يمكن أن تكرّس حياتها في الاعتناء بإليزابيت. كما تعتقد أن إليزابيت لم تكن قد هربت فيما لو عاشت في بيت تجد ما تفعله به ولو كانت مديرته متعاطفة معها. كما لا تعتقد مع ذلك أن إليزابيت قد تبقى لفترة طويلة ولو في أحسن نزل عائلي. فإليزابيت كانت تصرح عن رغبتها العيش في بنت وأنها تعاني بلا شك فعلياً من هذه الرغبة؛ لكنها الآن ترغب بالتسلية وقد تسأم من الموت في حياة هادئة في بيت سعيد. وتعترف إيفلين أن إليزابيت لا زالت صغيرة عن عمر الاستقلال بنفسها وتضيف قائلة: " وأنها لا تمتلك الذكاء الكاف ".

وحسب رأيها، أن إليزابيت لا تحب الفتيان لدرجة الجنون، لكنهم ينالوا إعجابها، فمن الممكن أن يصطحبوها إلى السينما أو حفلات الرقص ويمنحوها اللهو الذي تتطلبه. إنها مختلفة قليلاً عن إيفلين بالنسبة للفتيان. فإيفلين تقول: " بإمكاني تركهم أو اصطحابهم ".

ثم تطرح إيفلين أسئلة محدودة حول الوضع القانوني للفتاة، وحول دور الإصلاحية والنـــزول العائلية كما ترغب أن تستعلم حول السلطة والمسؤولية التي

تقوم بها عيادة ما مماثلة لتلك التي تهتم بحالة إليزابيت. كما تسأل عمن يختار القائمين على شؤون النـــزول؛ وتقول بأنه من الصعب العثور على أشخاص يناسبون فتى أو فتاة يهتمون بشؤونهم. كما صرحت أنها عندما تكبر ستلزم نفسها لمساعدة عيادة من هذا النوع.

ومنذ أن ذهبت إيفلين إلى النـــزل العائلي، اعتذرت عن الأساليب التي مارستها في البداية وأظهرت رحابة أكثر فأكثر تجاه طبيبها. وقد طرحت أسئلة استفزازية حول موضوع علبة عود الثقاب " لجيش القوى الجوية " الذي رأته على المكتب، ويبدو أنها وجدت راحة وأماناً في العلاقة التي أقامتها.

وتتوقف هنا الجلسات، إن اختفت إيفلين وكان من المحال اكتشاف أمرها على مدى الأسابيع التالية.

ولعل إيفلين بدأت بالحيض في عمر 12 عاماً أي قبل النضوج الضروري للاستيعاب النفسي لهذا الحدث النفس. ولا نعلم كيف كانت ردود فعلها المباشرة إزاء علامة النمو هذه، إنما ما علمناه بعد فترة وجيزة أنها بدأت تتصرف تصرفاً غير طبيعي. إن حدثاً نفسياً على محمل من الأهمية يفترض وجود تصرف عصابي ناشئ من مصادر أخرى. وما الموقف الباعث لإيفلين مما قبل فترة الحيض؟ للإجابة على أسئلة كهذه يمكننا سبر تاريخ حياتها.

إنها البنت الرابعة، وموقعها العائلي كان يطرح عليها أداة تعلق بفتاة أخرى لما يصف مرحلة ما قبل البلوغ. وكما قالت ذلك إيفلين نفسها، أن هناك في البيت شكل" لعصابة " صغيرة، أو مجموعة صغيرة ثائرة متحدة على الحقد المشترك ضد الأم. ومعرفتنا هنا قليلة، إلى أي حد موقف إيفلين هذا مبني على خيالها وإلى أي حد كان واقعياً. على العموم، فإن للفتيات الصغيرات أسرار فيما بينهن مما تم الحديث عنه في الجزء الأول إنهن يخضن تجربة الفضولية الجنسية وبنفس الوقت تأخذن على أمهاتهن في أسرارهن. يتضح هذا الموقف وضوحاً خاصاً في حالة إيفلين إذ أن أمها تحيط نفسها بهالة من الغموض التام. وهي تفرط بمظاهر الحشمة وتعزز بذلك لدى بناتها حاجة ماسة للأسرار. وإيفلين هي الأصغر من بين الأربعة ولهذا السبب تحس برغبة شديدة لأن تكون شخصاً كبيراً. كما أن الفرح بأقوال الطبيب عندما أمدّها بمعلومات حول الأحاسيس الجنسية كان بليغاً جداً عندما

قالت: "إخوتي لا تعرفن شيئاً من كل هذا؛ وسأكون بذلك الأولى كما أنا في كل شيء".

ولعل تلك الرغبة في أن تكون الأولى في اكتساب الخبرات انطوت على أخطار كبرى بالنسبة لإيفلين وبالنسبة لجميع أترابها؛ فيمكن أن يدفعهن ذلك على ارتكاب أفعال لا تعبر عن الحاجة الجنسية الصادقة إنما الرغبة في إظهار للكبار أنهن أصبحن أيضاً أشخاصاً كباراً. إن التوتر الداخلي الذي يحرض هؤلاء الأطفال على القيام بمغامرات مشؤومة يأتي غالباً من رغبتهم في أن يكونوا بالغين على أن يلبوا حاجة جنسية ملحّة.

بهذا يبدو أن علاقة إيفلين بأختها ميري خير مثال عن الموقف الذي تحدثنا عنه بين فتاتين، وقد لعبت في حياة إيفلين العاطفية دوراً يرجع بسماته إلى مرحلة ما قبل البلوغ. وخلال تلك العلاقة، تعرضت الفتاة لصدمة، فأختها الصديقة أقامت صلة مع بحار، وعوضاً أن تنتظر إيفلين بشكل لا شعوري الموقف الثلاثي تعرضت لقدر آخر مختلف تماماً. وقد أمضت ميري أمسيات مع صديقها في حين أنا إيفلين كانت منبوذة ترفض مشاركة أختها الغرفة. وبرزت هذه الصدمة بشكل أخف في علاقتها مع أختها الأكبر التي كان لها صديق أيضاً. ومن بين الأخوات الأربع واحدة أخرى فقط هي لوسي في السادسة عشرة من عمرها كانت تعاني نفس مصاعب إيفلين كما تحس بمشاعر مشابهة. وهي غير قادرة على تحمل بيت العائلة، وتذهب لعند عمها أو عمتها من وقت لآخر. إنه شكل مخفف من الهروب وأقل حدة بالطبع كمستوى عاطفي مما هو لدى إيفلين. وتقول إيفلين في ذلك، لوسي لها " كل ما تشاء " عند عمها وعمتها. ملاحظة تظهر تماماً كم أن إيفلين تفتقد لملجأ تلبي فيه رغباتها.

ومن الواضح أن إيفلين هربت من البيت لتعثر في العالم الخارجي على بديل لعلاقتها المدمرة مع أختها الصديقة. لقد تعلقت بهيلين، زوجة البحار، الذي مع أنه يكبرها بسبع سنوات، يعاملها بالتساوي وكأنها بالغة. ولتجعل هذا الموقف موضوعياً أعارت إيفلين وثيقة ولادتها لتسمح لها بالخروج مساءً. وزيادة على ذلك، فإن لهيلين صديق مثل أخت إيفلين وهو أيضاً بحار؛ وبالفعل أنها متزوجة منه طالما أن زوجها غائب، ويشبه موقفها وحدانية إيفلين ويقدم لها شروطاً أفضل من

صداقة أخوتما. وظاهرياً، فإن إيفلين قد انسحبت من الموقف الثلاثي الذي لم تتمكن من إقامته مع أختها، كما وجدت بنفسها صديقاً من البحرية. إنه شخص واقعي لكنه شاحب لدرجة أن يشبه شيئاً من محض الخيال. والتقته إيفلين كثيراً لكنه سرعان ما رحل كزوج هيلين ولا يعرف له مكان. ومن ناحية أخرى، فالصورة باهتة مثل الواقع، إذ أن إيفلين في أعماق نفسها، الرجال هم في آخر اهتماماتها. إن كل ما تطلبه، هو أن تكون شخصاً كبيراً ويكون لها ما لأختها التي غادرتها. إن الحرب يسرّت لها اختيار أداة خيالية، إذ أن جميع الأشخاص الذين لهم علاقة مع الناس الذين تعرفهم هم جنود أو بحارة. إن هيلين بقدر ما هي تشخيص لأختها وأداة اندماج بقدر ما هي خطرة جداً: فإيفلين ليست مؤهلة بعد بأن يكون لها رجل. وبالدرجة التي وصل إليها نموها، ويفترض أن تأخذ دور الشريك الثالث، واستقلاليتها الغير ناضجة لا يمكن أن تعطيها أية تلبية عاطفية. بهذا ترجع جميع الأخطار التي نراها في إيفلين إلى الفتاة التي لم تبلغ سن مراهقتها بعد. علاوة عن أن موقف كهذا أصبح مشكلة حرب فعلية. ففي أعقاب تأثيرات مركبة لاضطراب عاطفي خاص في هذا العمر وتهيج شديد للخيال بفعل الحرب غدت الحالات المشتتة والفردية فيما مضى وإلى حد ما الهروب المرضى تشكل الآن مشكلة جماعية. فغالبية الفتيات عاشقات "sweet-hearts" الجنود، اللواتي تتسكعن في الحدائق والفنادق المشبوهة ليس لديهن بأية حال " نضوج مسبق "؛ إنهن تتصرفن بأسلوب اللعب واللهو كما يفعل دوماً الأشخاص والفتيان من عمرهن، إنما واقع الحرب أعطى لسلوكهن هيئة أكثر خطورة. والفتاة الأكبر سناً، سواء الأخت أو الصديقة تقترن على عجلة بعشق، حتى ذلك الحين، أفلاطوني أو التي تجد نفسها حاملاً هي واقعياً مكتملة النضوج؛ إنها تهجر كذلك صديقتها أو أختها الأصغر، كما فعلت أخت إيفلين، والفتاة الصغيرة، المتروكة والغير راضية، تحس بحاجة للاندماج إلى أطياف جنسية. إن بعدهن عن الرقابة وعدم استقرارهن النفسي يعرض أولئك الفتيات الصغيرات لمخاطر جدية ويخلق مشكلة اجتماعية مستعصية الحل تقريباً.

وهكذا فثمة تخيلات تبدو مثيرة لإيفلين كتقليد هيلين بشعورها بالوحدة. وبجوها الخيالي (الذي سنتناوله لاحقاً) يتخذ شكلاً نصادفه بين مرحلتي ما قبل

البلوغ والبلوغ. إنها ليست إلى الآن إلا لعبة غير واقعية تأتي من دافع الفضول ومزاج الغموض، لكن هذه اللعبة ليست مشتركة مطلقاً ببساطة مع صديقة كباقي الفتيات. بل إنها تلعب الآن في الشارع وبشكل حقيقي. ويترافق ذلك بشكل واضح بعناصر خيالية أكثر نضوجاً، إنما ليست قوية حتى الآن بقدر كاف وليست خطرة إلى حد يستدع الردع. إنه عمل جدير بالذكر، فإيفلين ترفض الاعتراف بأي خطر في موقفها وهي لا ترى فيه إلا لعبة بريئة لأنها في الواقع لا تحس بأي رغبة في تجربة جنسية.

لعل هذا الشعور يمثل الخطر الأشد بالنسبة للفتيات: إذ ليس لديهن أية حاجة جنسية، كما لا ترغبن بأي إرضاء لتلك الطبيعة، وبناءً على ذلك تشعرن بالأمان. لكن هذه اللعبة تحريضية ومهيجة، فإذا كانت مساحيق التجميل وأحمر الشفاه لا تعني لهنّ شيئاً سوى أنها لعبة أمام المرآة فإن انعكاساتها في العالم الخارجي أكثر جدية. والسلوك المحرّض للفتاة غالباً ما يغري والعمر الذي تنسب إليه (كما كانت إيفلين تفعل بفضل صك ولادة هيلين) يحر الرجل من الوساوس التي تردعه فيما لو كان أمام طفلة. وتستيقظ أحاسيس الفتاة رويداً رويداً وتثار بفعل الشهوة الذكورية. إنها ليست في البداية إلا مقدمات لمظهر بريء، لكنها سرعان ما تفقد ضبطها لتهيجها وتغدو اللعبة أكثر جدية قبل أن تأخذ حذرها منها. وتلك التجربة الأولى غالباً ما تجر الكثير غيرها بمقتضى مقولة " أن كل شيء قد ضاع الآن على جميع الأحوال". إن النـــزوات التي لا تنقطع تدفع الفتاة مراراً نحو الأعمال الشائنة؛ والتجربة الجنسية تحل محل الحب، ونتائج ذلك، الدعارة والسيفليس، والحمل، وتشكل كلها نكبات لا مجال لإصلاحها.

وهكذا فإن الموقف الغير طبيعي لإيفلين سوف يتيح لنا ملاحظة عدد من الظواهر الأخرى. وبرأينا، الذي ذكرناه، أن نموها الطبيعي تعرض للاضطراب جراء الخزي الذي ابتليت به بصداقتها مع أختها. ونحن نعلم أن ثمة تجارب لا يكون لها تأثير صارم إلا إذا نشأت من أرضية مهيأة. لقد بلغت إيفلين حد التساهل في الوقت الذي ظهرت فيه أوائل فترات طمثها؛ إنما هناك عوامل أخرى تفسر سلوكها المرضي. وبعض من هذه العوامل يتواجد في موقفها الحاضر، فعامل خسارة صديقة وحده لا يجعل ذلك الموقف خطيراً. لقد رأينا كم من إرضاءات

الاستبدال التي وجدت خارج إطار العائلة استخدمت في تجاوز الصعوبات النفسية. وضمن مجموعة من الفتيات أو الفتيان يجري الحديث كثيراً عن الأمور الجنسية دون القيام بشيء منها، كما تجري ألعاب في وسط متجانس وتنطوي على فرص إشباع الحاجات النفسية أكثر مما قد تفعله الوسائل الفردية.

وتسعى المؤسسات التربوية والاجتماعية الحديثة إلى تشجيع ما أمكن من تشكيل مجموعات متشابهة، لاحتواء روح المغامرة الطبيعية حتى أكثر مما كانت عليها إيفلين (فالميل للمغامرة لدى الشبان له قاعدته) فالمجموعة تقدم كثيراً من الإرضاءات. وإيفلين عثرت على ذلك الحل؛ وقد افتكرت من ذاتها موقفاً معتبراً ضمن المجموعة وتمتعت فيه بالثقة التي أنكرتها عليها أمها في البيت. لقد استطاعت استبدال المجموعة غير المرغوب بها في العائلة بمجموعة أخرى أفضل. وقد وجدت فيها فرصة لترضي رغبتها في التحكم وفي "معرفة" أمور قبل الآخرين. وتبدو بذلك تعلق أهمية كبيرة في أن تكون " فتاة متصبينة " لتتساوى مع الفتيان.

إن حاجة أن يكون معتبراً ويوحي بالثقة هي ذات شأن متميز لدى إيفلين ولدى جميع أترابها من الفتيات. إن رغبة الاستقلالية تترافق عادة بشعور من عدم الأمان. وامتلاك الإحساس بالمسؤولية والنقد الذاتي في البداية يجعلان استحسان العالم الخارجي أمراً ضرورياً محتماً. إن طموح إيفلين في أن " تكون الأولى " وأن تلعب دور القائد وأن تشعر أنها مهمة ومعتبرة هو عموماً أحد صفات هذه المرحلة من النمو. ودون أدنى شك إن موقف إيفلين ضمن عائلتها لم يعزز لديها هذا الطموح. ولعل رغبتها في أن تكون صبياً تغذى هو كذلك من أسباب شخصية، لكنه نمطي جداً في هذا العمر الذي نتوخى فيه تعميم الأسباب. وكذلك إدانة المجموعة من قبل الأم (بمقتضى معايير اجتماعية) حرم إيفلين من هذه الإمكانية وشكل بالنسبة لها صدمة ثانية.

كل ما يحرم على الفتى يكون مخرجاً طبيعياً يولد عنده انعكاساً نفسياً في العودة إلى الماضي، وبعبارة أخرى، يعزز ذلك لديه الشعور الطفولي الذي لازال شديداً فيه. وقد رأينا أنه خلال فترة ما قبل البلوغ والبلوغ تعاني الفتاة من رغبة كبرى في أن تتحرر من الوصاية الأمومية في الوقت الذي تتعلق فيه كثيراً بأمها. إن إيماءات الحقد الحامية التي تحس بها تجاه أمها لا تأتي من الموقف الأوديبي بقدر ما

تأتي من رؤية أمها تمنعها في أن تصبح شخصاً كبيراً. إن الانطباع القديم بأنها مرفوضة ومحتقرة يشترك الآن مع شعور قوي من الحقد والرغبة في الثأر. ويستخدم هذا الحقد بعد ذلك كوسيلة للتحرير. إن إيفلين الذي يتأثر تفكيرها تأثراً قوياً بالروايات البوليسية تقول دون أدنى ارتباك أن العصابة العائلية أي أخوتها، سوف تقتل أمها.

مشاعر أخرى امتزجت بلا شك رويداً رويداً مع ذلك الحقد. لقد رأينا تنامي هيجان إيفلين عندما كانت أمها حامل ويمكننا أن نستنتج من هذه التصريحات أنها تحمل على أمها كثيراً على إحساسها الجنسي، كما تشعر بالغيرة من المولود القادم، وخاصة أن هذا الحمل أثار رغبة خاصة عندها في أن تحمل. ومن الجائز أن إيفلين هربت لأنها تشعر أن أمها لم تكن تحبها الحب الكافي فرغبت بالثأر؛ ومن الجائز أيضاً أنها كانت تخشى الإذعان لرغبتها في قتل أمها.

لقد وضعتنا إيفلين على درب اكتشاف ما جرى في داخلها. كما وضعت لنا واقعياً التطورات العاطفية لفتاة أخرى ونمط مغامر مثلها؛ هذا الوصف يعد اعترافاً حيث خانت العواطف التي أثارتها لكنها لم ترد كشفها بشكل مباشر. وكما تقول إيفلين، رحلت إليزابيت من بيتها لأنها أحست فيه بالوحدة والفراغ والسأم؛ إن شعور السام هذا، الذي يجب التغلب عليه بالعمل على تجنب الاكتئاب، مألوف ونمطي جداً لدى الشبان والذي يمكن أن نؤكد وجوده لدى إيفلين. إن التطورات النفسية لكائن شاب يعاني من الاكتئاب تمثل الموقف "المؤقت" لأحد ما، يغير إقامته وغادر شقته و لم يقم بعد بالشقة الجديدة. وتعرب هذه المرحلة الانتقالية عن نفسها ببنىً غنية خيالية، ونزوات غريبة الأطوار، وآليات مختلفة في الدفاع الذي ليس بالضرورة أن تؤدي لدلائل مرضية خطيرة. كما لا ينبغي علينا أن ننسى أن إيفلين لها ماض عابئ خلفها. فقد شهدت في بيتها سلسلة من الإحباطات في الحب، هي التي كانت الأثيرة لدى والدها تجد نفسها الآن مهملة من قبله لدى ولادة طفل جديد؛ و لم تخف أمها عنها أبداً أن ولادتها لم تكن مرغوبة وأنه كان يؤمل أن تكون ذكراً. كما نعلم أنه قبل سنوات قليلة كانت قد أظهرت حالات من الضيق النفسي عندما لم تتحمل الانفصال عن أمها. لكن

إيفلين تغلبت على كل ذلك إلى حين ظهر لديها فرط الحساسية من البلوغ كما وقفت الظروف الخارجية حائلاً أمام الحلول الطبيعية التي ترغبها.

وأيضاً هناك أسباب أخرى بلا شك، لم تعد إلينا مباشرة، دفعتها للهرب من البيت ولأن تصبح "ساندريون" المرتعشة والمتعطشة. لقد أمضت عدة ليال في هذه الحالة البائسة على درجات منـــزل غريب. هذا السلوك ربما كان يعرب عن شعور قوي بالذنب نجم عن الرغبات العدوانية إزاء أمها، وأتت ربما عناصر أخرى لتعزز هذه الآلية. وكل ما نعلمه عن هذا العمر يسمح لنا بالمضي في هذا الافتراض، مع أن قصة إيفلين لن تدلنا على ذلك بيقين. فالحيض يؤدي لدى كل الفتيات إلى توتر نسائي تناسلي وإلى حاجة الاستمناء. وقد قالت أم إيفلين أنها لم تشهد في عائلتها "أموراً مماثلة" وأنها " أمور أكثر قذارة وفظاعة من أن يتصورها إنسان". وقد قامت بها لوسي في إحدى المرات لكنها نالت توبيخاً قاسياً بحيث لم يعد يتكرر ذلك مطلقاً. ولوسي هي أخت إيفلين التي لم تتحمل معاناة البيت والتي كانت تذهب عند عمها وعمتها من حين إلى آخر. أما إيفلين التي عانت من شعور الفراغ والوحدة لم تتمكن دون شك من التهرب من توترها الجنسي، وهذا لم يجعلها إلا أن تندفع أكثر في تجريب الاستمناء وهي تأمل أن تغبط هذا الشعور بالفراغ في البحث عن تسليات خارجية فتتجنب بذلك الفعل الممنوع. وهي تحس نفسها جديرة بالانضباط في العالم الخارجي المليء بالمخاطر الواقعية أفضل من أن تظل في بيتها تجابه هذه القوى المظلمة.

ذكرنا آنفاً، أن هذا الأمان ينطوي في الواقع على أشد الأخطار سواء لإيفلين أو لجميع الفتيات من أترابها. وهكذا فمرحلة البلوغ الناشئ تتصف بإفراط في قابلية التهيج النفسي وحاجة لقاطرة إفراغ تلك الشحنات، إنما الرغبات لا تكون في هذا العمر قد بلغت الإدراك الكافي. ومن هنا تأتي خطورة تلك المرحلة؛ إن آليات الدفاع النفسية التي تكبح الرغبة الجنسية لم تستقر بعد كما هي عليه في مرحلة المراهقة. فالفتيات من عمر إيفلين تنطلق غالباً من مواقف جنسية لا تمثل لهن إلا لعباً بريئة خالية من الميول القوية، لأنهن تشعرن بالحماية الكافية بإدراك لامبالاتهن الجنسية. إن الفعل الجنسي في المقياس الذي يكون فيه كاملاً، يعبر قبل كل شيء، كما رأينا، عن رغبة في تقليد الأخوات أو الصديقات الأكبر سناً، كما

يعب عن الحاجة في أن يكون المرء كبيراً، أو عن انطباع الوحدة، أو الرغبة في الثأر من الأهل، الخ . ولعل أجواء الحرب تهيج بشكل خاص هذه المظاهر في مرحلتي ما قبل البلوغ والبلوغ الناشئ وتضفي عليهما خطراً واقعياً.

ولمثل هذه الحالات حلان ممكنان: إما العلاج الفردي من قبل شخص مؤهل اختير اختياراً موفقاً (فموقف الأم نادراً ما يكون فعالاً لأن رفضها القاطع هو حالة عامة في هذا العمر، وغالباً ما نحصل على نتائج أفضل مع موقف صديقة) أو تبني الفتاة من قبل مجموعة منظمة تنظيماً جيداً خارج نطاق الأسرة. وبإلقاء الضوء على التطورات النفسية، يكون التحليل النفسي في وضع يمكنه من تشخيص مختلف أنماط الصعوبات والتوصل إلى نتائج هي الأفضل سواء من وجهة نظر العلاج الفردي أو في اختيار مجموعة موافقة.

لقد خدمتنا حالة إيفلين في إغناء دراستنا عن التطورات الطبيعية، مع أن هذه الحالة لا يمكن أن نعتبرها طبيعية. وبينت لنا إيفلين، المشوهة مرضياً، نموذجاً كأنما نراه من خلال عدسة مكبرة. إن الفارق كمّي بين السلوك الطبيعي والمرضي. وفي هذا الإطار، يمكن للتطورات التي لاحظناها في هذه القصة أو التي أعدنا بناءها أن نعتبرها كأنماط لتلك المرحلة من البلوغ الناشئ.

قصة نانسي

نانسي فتاة في الثالثة عشرة من العمر وتدخل المشفى بسبب أزمات غريبة تبدو جسدية الأصل.

لقد كانت دوماً ذات قابليات عقلية لغاية ما قبل خمسة أشهر من بدء فترة الحيض؛ وبدأت تشتكي عندئذ من آلام بطنية عنيفة. وكانت تسطر هذه الآلام بعد تدريب ما؛ وبعد ذلك، عندما ظهرت فترة الحيض صدرت هذه الآلام مباشرة قبل الطمث. ولم ترد مع ذلك مراجعة الطبيب رغم إلحاح أختها (والتي تقول أنها عانت من نفس الشعور وجهاً لوجه أمام الأطباء). ومنذ عدة أشهر،اشتكت الفتاة أحياناً من آلام جبينية مترافقة مع آلام بطنية حادة. وقد شخص مرضها بالتهاب الزائدة وحالما أجري لها عملية. وإجراءات ما بعد العملية كانت بسيطة.

وعندما نقلت نانسي إلى المشفى من أجل ذلك، لم تكن تعلم إذا كان سيجرى لها عمل جراحي أم لا. وقد قيل لها أنه لن يكون قبل صباح اليوم التالي، لكنه بالواقع أجري لها بعد ساعة ونصف من تصديقها. وقد فزعت على طاولة العمليات إذ كانت تخشى الموت. لكنها ثارت ثائرتها عند علمها أنها خدعت وأن العمل الجراحي أجري " بغتة " دون سابق إنذار. وقد عبرت أيضاً عن الخوف من أن: "ينتزعوا ما لا يجب انتزاعه، أو ألا تمرر المرضة الأداة المناسبة للأطباء أو أن أولئك لا ينتبهون لذلك " وبعد العملية كانت ممتعضة من الممرضات. وكانت تعتقد أن عليهم فحصها أكثر وبعمق قبل إجراء العملية. كما كان يقلقها أيضاً أن تعلم إذا ما استؤصلت الزائدة بكاملها تماماً؛ فربما ترك منها جزء قد يؤدي لالتهاب، أو من الجائز أن استأصلوا عضواً آخر للخطأ.

ثم أخرجت وذهبت في نقاهة عند أختها المتزوجة آنا في " س" إذ هناك عانت من أول أزماتها. لقد كانت الساعة التاسعة والنصف صباحاً، وتناولت فطورها قبل ساعة وظلت جالسة فأحست فجأة" بسخونة شديدة " وتكدر في المزاج وتعب شديد. فخافت جداً، ثم أصابها غثيان ودوار فاستلقت على السرير ونامت عدة ساعات. وفي تلك المرة لم تكن فقدت وعيها. وهاهي نانسي تذكر التاريخ الدقيق لتلك الأزمة لأن صهرها لزم الفراش أحد عشر يوماً على إثر حادث، وفقد استخدمت تلك الحادثة كمرجع زمني. أما الأزمة التالية ففاجأتها وهي وحيدة ترعى ابنة أختها في الشهر الثامن عشر.وهي لا تذكر تماماً ما حصل، غلا أنها عانت من نفس أحاسيس المرة الأولى. وعندما أفاقت، كانت كل العائلة تحيط بها وتجلس على أطراف السرير.

ثم أصبحت أزماتها شيئاً فشيئاً أكثر عنفاً وتكراراً وتترافق بفقدان الوعي. ولم تتمكن من توقع ذلك، مع أنها غالباً ما تنشأ عندما تأتي لشرب الماء. وبعد فقدان غير متوقع للوعي، تقول لنا الفتاة " تحس بشيء غريب وتتصرف كمجنونة" وتنادي لأخيها ديك " بطريقة مضحكة" حتى أنها أحياناً تضرب أفراداً من عائلتها. وعندما تعود لصوابها تحس دائماً بألم شديد في جبهتها. وتذكر ذات مساء أنها سقطت أرضاً، وحاولت أختها إيقافها من جديد، إذ أن رأسها صدم قدم أختها. كما تذكر أنها سقطت أيضاً من على سريرها عندما كانت في المشفى.

أما عائلتها فقد أخذها خوف كبير لئلا تكون قد انجرحت خلال اضطرابها؛ وبروي أهلها أنهم حاولوا إمساكها بأيديهم وأرجلهم. ولم يتمكن من السيطرة عليها وضبطها إلا والدها وأخاها معاً. وعند الخروج من أزمة مشابهة، كانت نانسي تبدو واعية بشكل جزئي؛ ولم تتعرف على أي شخص وغالباً ما تتصرف بطريقة رعناء؛ وكانت تضحك وتقفز حول السرير كأنها حيوان. وزحفت ذات يوم على مكتب صغير وألقت على الجدار مصباحاً كهربائياً معلقاً بخيط؛ كما حاولت في يوم آخر أن تقلب دلو الماء؛ ومزقت ورق عدة قطع ثم طلبت عود ثقاب. أما الأسرة فقد هالها فكرة إشعال البيت وتملكها الفزع. وبعد اثنتين من تلك الأزمات كانت نانسي قد نسيت مباشرة ما حصل سابقاً. وعلى سبيل المثال، كانت آنا أختها ذات يوم قادمة مع زوجها، ومع أن نانسي كانت قد رافقتهما طيلة فترة الصباح بالسيارة. جاءتها الأزمة بعد الظهر وتحدثت بعد ذلك إليهما كأنها تراهما للمرة الأولى في ذلك اليوم وأحياناً كانت تغضب وتقول لذويها أنهم ضربوها، أو يريدون التخلص منها، وأن أحداً يحاول جرحها وأنها تريد أبوين خاصين بها. ومرات أخرى عند خروجها من الأزمة، تعانق أبويها وتضمهم بانفعال، وهو شيء لم يكن من عاداتها. ونادت أمها ذات يوم بـ"الجمال المعبود" وأباها بـ" الغصن العجوز" .

إن الأب الإيطالي الأصل، هو الشخصية المميزة في العائلة. وهو يوبخ أولاده إنما لا يضربهم أبداً. ومع ذلك فهم يخشونه ويطيعونه.

أما الأم، فهي إيطالية أيضاً، وتعاني من مرض الشقيقة الصدغية الرهيبة عندما كانت حامل بنانسي، وفي الشهر الخامس أو السادس من الحمل. وقد نقلت آنئذ إلى المشفى وتمت تغذيتها لمدة ستة عشر يوماً عن طريق شرجي بسبب إقياءاتها المتكررة. تحسنت بعدها حالتها تماماً على مدى خمسة أو ستة أشهر. شعرت بعدها بأزمات دوار كانت خلالها تسقط أرضاً إن لم يكن أحد بجانبها. وعندما وضعت نظارة واقتلعت أسنانها شعرت بكثير من التحسن. ومنذ عدة سنوات، حرق ابنها الأصغر جورج نفسه بالمطبخ مما أدى لوفاته؛ وعلى أثر ذلك أحست نفسها وحيدة جداً وفي غاية العصبية وتبكي كثيراً من الحزن وتؤنب نفسها؛ ولا تتمكن من الأكل إنما تلتجئ للنوم العميق. ودام الأمر على هذا المنوال ستة أو سبعة أشهر.

واعتقد الكاهن أنها قد تكون أحسن حالاً فيما لو ربّت طفلاً آخراً، أتتبنى ولداً صغيراً أيضاً ؟

وهكذا فإن العائلة تضم أربعة أولاد بالإضافة إلى نانسي؛ وآنا البكر، تكبر نانسي بخمسة عشر عاماً. وتوم، الأصغر، وعمره أربع سنوات.

أما آنا، فهي الأخت المفضلة لدى نانسي، وهي متزوجة وتعيش في مدينة صغيرة مجاورة. وعلى حد قولها أن نانسي كانت طفلة هادئة على الدوام، ومطيعة وصاحبة فضل. ولا تغضب أبداً كما لم تكن وقحة مع أخوتها الكبار. لذا فهي متفاجئة جداً بمسلك أختها الأخير.

وكانت الأختان آنا ونانسي متعلقتين جداً ببعضهما بعضاً وخلال السنة الأولى من زواج آنا كانت نانسي تأتي لرؤيتها كل يوم تقريباً كما تمضي معها أيام العطل. ومنذ سنتين تقريباً أصبح عندها طفل. ومع أن نانسي كانت تأتي لرؤيتها كل يوم تقريباً لكن آنا لا تعتقد أنها على علمٍ بالطفل القادم. وعندما كانت آنا تشتغل بثياب المولود، سألتها نانسي إلى من كل هذا. فردت آنا بنيتها شراء طفل. وقبلت نانسي تلك الإجابة بدون تعليق يذكر وقد ولد الطفل قبل أوانه في الشهر الثامن وكانت آنا قد أمضت بضعة أيام في مدينة أخرى ووضعت فور عودتها ولم تراها نانسي في الأيام التي خلت، لذا كانت مفاجئتها كبيرة عند رؤية الطفل. وقد أحبت كثيراً ابنة الأخت هذه وغالباً ما اهتمت بها. وكانت تنام عموماً في غرفة الأصدقاء مع الطفل. ولا تعتقد آنا أن نانسي شهدت قط مواقف غرامية مع زوجها.

وقد أحبت نانسي دوماً " ج " صهرها وأبدت دوماً استعدادها لإطاعته في كل شيء. كما وتأثرت تأثراً مذهلاً في اليوم الذي احترق فيه بالمدخنة وكان حينها في زيارة عندهم بعد عمليتها. وقد نذرت نفسها بالكامل له وأمضت ساعات في لعب الورق معه؛ وكانت تعشق " لعب دور المجنونة " معه، والتقاتل معه واستفزازه. وفي تلك الآونة تعرّضت للهجمة الأولى، كما تروي أختها أنها كانت جالسة على كرسي في المطبخ فاشتكت فجأة من دوار وجعلت تتعرق وتحمر. وقد جعلتها آنا تستلقي للحظة على الأرض. ولم تجد نانسي في تلك المرحلة إلى النوم سبيلاً ورحت تقرأ كثيراً ولا تنام إلا أربع أو أربع ساعات ونصف

عند الصباح ثم تستيقظ في العاشرة. وبعد عودتها إلى بيت أهلها بدأت أزماتها تصبح أكثر عنفاً، لكن أختها لم تشهد ذلك إلا منذ عدة أشهر عندما كانت بزيارتها. وقد صحبت آنا وزوجها نانسي إلى الكنيسة ثم إلى المطعم. وقد لهت الفتاة وتسلّت كثيراً، ولدى عودتها إلى البيت، شربت كأساً من الماء، فسقطت أرضاً في أزمة تشنجية ولم تستعد وعيها إلا بعد مرور عشر دقائق. وقد هللت حينئذ لآنا وزوجها وسألتهما متى وصلا وأنها بانتظارهما. ولم تتذكر أي من أحداث ذلك اليوم. وتلك هي الأزمة الوحيدة القاسية التي شهدتها آنا.

وآنا هي الشقيقة غير الأخت لنانسي، وقد جاءت من الزواج الأول لأمها. ولم تكن على تفاهم أبداً مع زوج أمها الذي كان يلجمها ويمنعها من الخروج عندما كانت فتاة صغيرة. وقد التقت بخطيبها خفية وعقدت قرانها معه سرّاً لمدة عدة أشهر. ونانسي كانت هي الوحيدة على علم بما حصل وعندما علم الوالد بالأمر كان مشهداً فظيعاً. ورفضت آنا إثارة هذا الموضوع لمدة عام. كما كانت نانسي تتكتم عن الزيارات التي تقوم بها وتعتقد آنا أن الفتاة الصغيرة تحمّلت أعباء كثيرة من مصاعب الأسرة في تلك المرحلة. وطيلة تلك المرحلة، عانت آنا نفسها من أزمات مشابهة لأزمات أختها؛ وكانت حادة الطبع، وتعاني من مرض الشقيقة والدوار. وتكون أحياناً عنيفة جداً. ومنذ حملها كانت فترات حيضها أكثر تكراراً وغزارةً. وهاهي اليوم أيضاً تشتكي من دوار وآلام في الرأس.

ونانسي، حسب أقوال الأهل وآنا، هي طفلة لطيفة جداً هادئة، مطيعة، ورعة، مفضالة. وإلى حد ما خجولة ومنطوية كما أنها دوماً صعبة بخصوص الطعام بينما تبدي محبة فقط للسكاكر الذي تمصها بكميات كبيرة. وبناء على ذلك، فهي دوماً سليمة الصحة والتربية، والتي لا تجلب المتاعب أبداً كالغضب وقضم الأظافر والسلس البولي أو الإغماء، إلى أن حصلت أزماتها الأخيرة. كما أنها عاطفية ودؤوبة وجديرة أكثر من غيرها من الأطفال في أن يعهد لها التسوق. وهي تسير في طريقها متجنّبة أي حادث في حين أن الآخرين يتشاجرون فيما بينهم أو مع الجوار الصغار. كما تبدو متفاهمة بأفضل صورة مع أقرانها في الصف وهي تضحك وتبتسم غالباً. وتهتم لدرجة كبيرة بأخيها الصغير توم وتعتني به وتعامله كطفلٍ واعٍ.

والشيء الخاص الوحيد الذي روته لنا أمه يعود لأربع سنوات خلت. فقد أجرت في ذلك الحين أختها كلارا الأكبر منها عملية التهاب الزائدة. والحادث الذي أودى بحياة أخيها جورج يأتي تقريباً في نفس الفترة الزمنية.

كما قالت لنا أمها، أنها كانت تحب التعليم الديني في المدرسة وكانت تتمسك كثيراً بترداد صلاة السيدة العذراء في الآلام. كما قدّمت كقدوة للأطفال الآخرين. ومدرستها التي كانت فيها تلميذة نموذجية تابعة لدير نظامه صارم بشكل لافت. والأطفال ملزمون فيه بارتداء جوارب طويلة؛ وعليهن أيضاً ارتداء قمصان بأكمام طويلة. وهذه المؤسسة هي حصراً للفتيات.

وبرأيي الراهبة، كانت نانسي دوماً " آنسة متكاملة " لكنها كانت مجبرة أن تعمل بجهود جبارة لتحصل على درجات جيدة، لأنها محدودة الإمكانيات. وكان الانطباع عند الراهبة أن أم نانسي تعمل خارج البيت، لذا كان على الفتاة أن ترهق نفسها في البيت وتصل متعبة إلى المدرسة. وخلال الشهر الذي سبق عمليتها، لم تكن على ما يرام؛ وكانت تشتكي من ألمٍ في جنبها وتبدو كأنها " متغيبة " وقد أعيدت ذات يوم إلى البيت مع تحذير لأمها بأن في الأمر شيء ما على ما لا يرام .

ومن جهة أهلها، لم يقدموا لها أي نوع من التربية الجنسية. وهم لا يعلمون شيئاً عما يمكن أن تفكر به أو تفعل بهذا الشأن. وعندما بدأ معها الحيض للمرة الأولى كانت عند أختها آنا التي حاولت أن تفسر لها الأمر، وقالت لها آنا ذلك أمر طبيعي لدى كل فتاة من عمرها وأنه لا داعي لأن تخشى من أي شيء، غير أنها كانت تبدو فزعة وأختها لم تلح في الأمر. ومنذ ذلك الحين استمر هذا الخجل معها ولم تفاتح أمها أبداً في الأمر.

مقتطفات من الملاحظات الطبية

في البداية، كان تصرف نانسي عدوانياً حيث نضع ملاحظات وقاحة ومباغتة، الغرض الواضح منها هو إثارة السخط. وكانت مهتمة جداً بأفكارها الخاصة والتي هي تخيلات تخص مسائل الحب والأطفال.

وغالباً ما كانت تشتكي من بطنها. وصرّحت ذات صباح أنها كانت قد ابتلعت بنساً. وجرى لها تصويراً إشعاعياً إذ بدا أن الأمر مشكوك به. وطلبت في

ذلك المساء الصورة الإشعاعية. (وكانت مهتمة بشكل لافت إلى ما بداخل جسدها؛ وأسباب هذا الانكباب ظهرت آجلاً خلال العلاج الذي أجري لها في العيادة النفسية). وذات مساء، طلبت أن تراني وأتت إلى مكتبي في الساعة التاسعة والنصف وموقفها كان قد تغيّر كلياً فكانت هادئة، ودودة، عاطفية، طبيعية تماماً، وتختلف اختلافاً مطلقاً عن الفتاة الوقحة التي كانت سابقاً. وكانت قلقة جداً من احتمال إعادتها إلى البيت وتريد معرفة ما قد أقوله لأهلها. فأكدت لها أن هذا غير مطروح الآن حيث أنها تتألم من بطنها من جديد. فقالت أن ذلك خفف عنها الكثير إذ لا أحد في البيت يهتم بها، بما أن أمها تشتغل، كما لا تريد أن يضجر والدها من كونها مريضة في حين خرج الآخرون. وتقول أنها تظل مستيقظة طيلة الليل طالما تشعر بالألم وأنها تريد أن تتسامر معي كل الليل فتركتها تتحدث على راحتها. وتقول لي أن لديها تجربة كبيرة، وأنها تعلم كماً كبيراً من الأشياء التي لا تعرفها غالبية فتيات عمرها. ولم تجعلني أشاركها معرفة تجربتها، لكنها تقول أنها لم تغادر أختها منذ زواجها. ولّما دفعتها في هذا المنحى، شرحت لي أنها تزور آنا باستمرار قبل أن تضع المولود بفترة وجيزة. ومع ذلك، وفي غضون أيام قبل الحدث، لم تكن تشعر بالمزاج الذي آلت إليه. ثم جاء شعور فجائي بأنه قد حصل شيء ما لأختها وعلمت بعد ذلك بأن الطفل قد ولد. كما تحدثت عن صهرها واصفةً إيّاه بـــ " نمط جيد ".

وألمحت إلى مختلف المرضى الآخرين وأظهرت تجاههم مزاجاً ناقداً وغيوراً. وقالت أن " السيدة ف كانت تقلد القط ثم تقوم بشيء يثير الاشمئزاز ". وخلُصت إلى إدراك الحديث الذي جرى عن الأطفال وعن أن السيدة ف تدّعي أن لديها طفلاً. وتعتقد نانسي أن هذا شيئاً فظيعاً، وأن السيدة ف لم يكن عليها أن تفعل ذلك.

وتقول أنها لا تفهم لماذا يتزوج الناس البؤساء. وأشارت إلى التصوير الذي كان على مكتبي: " لقد قلت لي أن هذه الصورة التقطت منذ خمس سنوات. أليس لك خمس سنوات في الزواج؟" .

وأجبتها أن الصورة التقطت طبعاً منذ خمس سنوات، لكنّني لم أتزوج إلا منذ حوالي سنتين ونصف. فقالت: "هذا يفسر الأمر إذاً لأن أغلب الناس المتزوجين منذ سنتين على الأقل لديهم طفل " .

كما رددت نيتها في البقاء يقظة طوال الليل وأظهرت فضولية شديدة في أن تعرف أين كنت أنام عندما أكون الطبيب المناوب في الليل؛ وهنا سبب آخر لئلا يقترن المرء بالأطباء؛ إنهم ليسوا في البيت مطلقاً. وألحت أن أمضي الليل في المكتب معها وأشارت إلى الأريكة التي من الممكن أنا أنام عليها. فأكدت لها أنني أحبّذ كثيراً سريري المريح، وعلى ذلك قالت أنه مهما يكن فإنها ستمضي ليلها في التأكيد في المكتب وألحت على الأريكة فقلت لها أنني ذاهب لأنام وأطفئ النور لدى مغادرتي الغرفة.

وبعد تلك الليلة، أظهر سلوك وأحلام نانسي وجود مشاعر عدائية جداً تجاهي.

وجعلت تخلق الصعوبات، واستمرت في التشكي من مرض الشقيقة ومن الآلام البطنية، كما ظهرت غالباً حادة الطبع. وكانت غيورة لأقصى حد من المرضى الآخرين وخاصة الفتيات، وكان واضحاً أن تلك الغيرة وشعورها بالإهمال من قبل الطبيب أدى بها إلى غضب جامح. لقد أفضت للطبيب وحده ما رويناه آنفاً: إنه السر الذي يدور حول زواج آنا، الأمر الذي جعلها تشارك أحداً به والذي كانت تشعر بعبء تحمّل مسؤوليته. وكانت تريد الذهاب إلى نزل إنما شريطة ألا يكون به أطفال آخرون.

فخلال إقامتها في المشفى ، أظهرت خصومة عنيفة تجاه المرضى الآخرين ومزاجاً سيئاً صرفاً تجاهي. وشعرت بتحسن فيما يخص أزماتها، واعترفت أنها ربما بالغت في تألمها وأن ما كانت تحتاجه بالواقع هو التعاطف. وبعد مضي شهرين، صرّح لها بالخروج وتابع معالجتها طبيب نفساني في خدمة المرضى الخارجيين.

وما أن غادرت المشفى، حتى أقامت في نزل عائلي بموافقة أمها. وكان هناك فتاة أخرى من عمرها الأمر الذي كان مناسباً جداً، إذ علقنا أهمية كبيرة في أن يكون لها رفيقة. وفي اليوم الأول ، بدت حائرة؛ ونامت متأخرة في الصباح ولم ترد النهوض. وأوضحت بتعنّد : " أي شخص لن يزعجني " .

وفي البداية، كانت صعبة جداً، وتشتكي من أننا أغفلنا أمرها ف بوضعها في هذا المكان الخ. ولم تكن مسرورة من الطعام وتدّعي ألماً في المعدة. كما أثارت مأساة بخصوص الكلاب التي تخاف منها الخ.

وبدأت تحب النــزل شيئاً فشيئاً والمدرسة الجديدة التي كانت تذهب إليها، وخاصة لأنها كانت مدرسة مختلطة. وقد قدمت لها صديقتها الجديدة لويز فتى "السيد جونز" ولويز تهتم كثيراً بالجنس القوي. ويأتي فتى من الجوار ليراها بصورة منتظمة. وفتى آخر في الثامنة عشرة من العمر يراها في أحيان كثيرة. وتثرثر الفتاتان بشكل لا متناه عن هذين الشابين وتشجع مديرة النــزل ثرثرتهما. ونانسي التي كانت ترفض التّنــزه تفكر الآن أن ذلك قد يعجبها لان السيد جونز ربما سيأتي لمساعدتها. وهاهي تهتم بمظهرها، فترغب أن يكون هندامها مرتباً وأن تكون نظيفة في عملها المدرسي. وتمضي الفتاتان وقتاً كثيراً في تصفيف الشعر، الفن الذي تبرع به لويز. وتضع نانسي الحلق. وهاهي على سجيّتها وتهتم بالتدبير المنــزلي. وفي أوقات نادرة تظهر أزمة ذات طابع درامي، منطلقة من عاطفة ما. وهاهي في فترة الحيض. وتوجهت هذه المرة إلى المديرة وسألتها. لقد كانت راغبة جداً في الاستعلام عن الحمل والولادة.

وبعد انقضاء عدة أسابيع، شعرت نانسي أنها سعيدة وأنها تغيرت تغيراً خارقاً. وقد تكيفت تكيفاً حسناً في النــزل وصارت تأكل كل شيء. وتعمل بجد في المدرسة والحديقة.

إنما بعد عدة أسابيع أخرى كان للمديرة صعوبات جديدة مع نانسي، فبمناسبة الزيارات التي قامت بها لأهلها أرادت العودة إلى البيت، وقالت أنها سوف تكون على ما يرام وأنها تشعر بالتعاسة في البعد عن عائلتها. وكان لنانسي ولويز مواعيد مع الفتيان مما يبدو أنه كان له فعلاً سيئاً على نانسي، فلقد غدت غيورة وتعتقد أن لويز تسخر منها. وقد تابعت علاجها عند الطبيب النفسي الذي كان قد التزم بها طيلة إقامتها في المشفى. ومن هنا سوف نتعمق بحالتها. وما سوف يتبع عبارة عن مختارات من وثائق العيادة.

وثائق من العيادة المفتوحة

تشتكي نانسي بأنها لم تعالج علاجاً حسناً من قبل أطباء الخدمة حيث كانت تقيم؛ إنهم لم يفهموها وسخروا منها. وهذا يجرح باستمرار مشاعرها وأنفتها؛ وربما انطلق كل ذلك من لا شيء. فهي لم تتوصل إلى تفهم ذلك أو تجاوزه. وإن

هي تخرج كما تفعل، فذلك لأنها لا تحب أن يُساء لها أو تسيء للآخرين. إنها تحس أن معنوياتها منهارة جداً، وقد تعتبر ذلك مساوياً للموت: " ذات ليلة، صرخت بأني أريد قتل أحد ما، أريد قتل أبي، لكن هذا ليس صحيحاً،فأنا لا أملك الشجاعة، أريد أن أصبح صحفية" .

وها هي تعترف بأنها وقعت بغرام الدكتور " م " وأن أزمة حصلت لها في الأسبوع الماضي. كما حصل مع أمها منذ سنتين، وكانت نانسي شاهدة عند الأزمة الأولى : " لقد كانت مثل أزماتي... كان عليها النوم، ثم الصراخ ... مثلي. أصبحت شاحبة كالعادة أثناء أزماتي، أما أمي فربما أزماتها بسبب قلقها لما حل بي، كما حملت هموماً بشأن أخي الذي توفي. إنني أؤنب نفسي في الواقع لتلك الوفاة" .

لقد دخل أخوها المطبخ مع إحدى صديقات نانسي وهو في الرابعة من العم. وباب الفرن كان مفتوحاً فصاحت نانسي لتنذر صديقتها. فاستدارت الفتاة مغادرة للحظة كان فيها الولد الصغير قد ارتمى على اللهب. فاشتعلت ثيابه ثم لم يتبق منه شيئاً ذا شأن، عبارة عن قطعة لحم محروقة.وقد اصطحب إلى المشفى. ومنذ ذلك الحين وتحلم نانسي وتخشى الموت. وتتحدث عن عمليتها وظلت مقتنعة بأنهم أخطأوا معها، وأن الممرضة لم تعط الطبيب الأدوات اللازمة، الخ.

وها هي ذي نانسي بعد يومين تبدو مرتاحة؛ ومع ذلك، إذا ما طرح عليها سؤال لا يروق لها تتحول إلى حيوان ثائر، العيون مثبتة والفكين منضغطين كأنها تستعد للعض. ولم يحصل لها أزمات في ذلك اليوم، إنما تعاني من الشقيقة كل يوم وبلا انقطاع، لدرجة أنها ترى الأشياء مزدوجة؛ إنها أقل انحطاطاً لكنها دوماً لا تريد أن ترى إنساناً. وهذا أحد الأسباب الذي من أجله تفضل أن تلزم الفراش أو تستلق ثانية عندما تنهض. إنها تغتاظ بسهولة وهكذا عندما نادتها الممرضة على سبيل المثال بـــ " الجدة " لأنها لا تنهض (ونانسي لها غالباً هيئة المرأة العجوز) حينئذ تنهض وتحس نفسها مكدرة. وهي لم تتقيأ طيلة ستة أيام، وقد أرجعت وجبة عشائها في ليلة الأمس. " يمكنني القول أن الطعام لا يعني لي شيئاً " هكذا صرّحت. وفيما مضى كانت تقدم عليه.

وعندما تلزم الفراش في المساء، تستعرض دوماً أحداث اليوم. وكلما طرحت على نفسها أسئلة حول طبيبتها الجديدة، تسأل نفسها إذا ما تعتبرها كصديقة

للدكتور" م" . وتعتقد نانسي بكثير من الاشمئزاز أن الطبيبة انخدعت بشكل رهيب عندما صدقتها بأنها عشيقة الدكتور " م "، إذ أن الأطفال لا يجيدون العشق. وهي لم تسمع بشيء من هذا القبيل. وبجميع الأحوال، هي لا تحب الناس. فلماذا تكون عاشقة؟ إنها لا تنشغل حتى بأي شخص.

وبعد حوالي شهر، غزت رأس نانسي ظنون خطيرة. فالدكتورة الجديدة لها أسرارها؛ إنها تفكر بكل ما يقول الطبيب لتكتشف خلفيات الأمور. وقد تود نانسي نيل الثقة إنما لا يمكنها أبداً قبول كل ما يقال لها. لقد خدعت مراراً كما يخامرها الشك فهناك أناس نكثوا بوعودهم لها. وقال لها أحدهم ، على سبيل المثال،أنه بإمكانها المجيء إلى مكان ما وأن شخصاً غيرها كان كذلك مدعواً إليه؛ إذاً احترست للأمر. وفتاة دعت أربعة أولاد، غير أن المكان لم يكن يتسع إلا لثلاثة. وقالت حينئذ أن الأولاد الثلاثة الآخرين قد لا يرغبون بصحبة نانسي. فهم يفضلون صداقاتهم الخاصة.

وبعد أسبوع، بدت نانسي ودودة أكثر وأقل تأزماً وانغلاقاً؛ وعندما سُئلت اعترفت أنها أكثر سعادة الآن. وتتحدث عن حلم رأته في الليلة الفائتة. لقد كانت في سريرها في المساء. وفتى صغير كان في سرير قرب سريرها. فدخل الدكتور "م"؛ ثم طلبت منه إحدى الممرضات أن ينـــزل لإجراء عملية توليد. فتساءلت نانسي من يشبه الطفل فور ولادته؛ وطلبت من الدكتور " م" إذا بإمكانها الذهاب لرؤيته. فرفض في البداية ثم وافق. فكان الطفل كقطعة طويلة لشيء ما، ومطوي كغطاء، وبشرته غريبة، كبشرة السلحفاة، وبين الثنيات كان يُرى " كل ما لديك في ذاتك، هذا الشيء الفظيع قلب معدتي" وهكذا خرجت من الغرفة. والفتى الصغير خرج راكضاً ونانسي خلفه لترى ما قد فعل. لقد سحب الغطاء من الطفل فسقط كل شيء على الأرض. وفتح كل شيء، كل شيء على المكشوف ونرى كل شيء، أشياء رهيبة حقاً، أشياء من جميع الأنواع. "لا أعلم ما هذا. لقد لملمت كل ذلك وأعدته في الغطاء بحيث لا يبدو شيئاً مطلقاً وجاء الدكتور " م " وأخذ هذا الشيء" وهنا استيقظت نانسي.

وتشتكي نانسي من ذاكرتها؛ فهي لا تتذكر ما حصل قبل ثلاثة أيام. كما لا تحب إعادة التفكير في حلمها؛ إذ كان مرعباً جداً؛ وتسأل لماذا حلمت به.

ولديها انطباع بأنها غالباً ما تعلم ما سوف يحصل لها ولغيرها من الناس. وفي الليلة السابقة تملكها شعور أنا العالم يفنى ويتلاشى، وأن كل شيء كان بعيداً جداً. كما لو أنها ميتة (ذلك في الوقت الذي رأت فيه مريضة أخرى تخرج من مكتب الدكتور "م" الذي لم يكن قد كلمها). ثم صحبت مريضة أخرى وهي تطلب الماء. وذهبت الفتاتان لجلبه، ولدى عودتهما أغمي على نانسي قبل أن تصل إلى سريرها؛ وهاهي ذي لا تتذكر إغماءها.

لعلها تتفجر حقداً من الطبيبات النساء. لقد وجدت متعة أكثر مع الدكتور " م " الذي ليس لديها أي علم عن حياته. لكنها لا تحبه كما تظن طبيبتها الجديدة؛ بل ترغب أن تكون طيلة الوقت في مكتبه وأن تراه أكثر مما يراه غيرها من المرضى.

نادراً ما تقول لنا عن طيب خاطر اشراكاتها بشأن حلمها؛ إنما تقول بعفوية أنها رأت ابنة أختها عندما كان عمرها اثني عشر يوماً. وكانت مفزعة بهيئتها المرعبة كطفل (مثل جرذ محشو بالقش)، لا يشبه الإنسان بشيء، وبشرته مذهلة إنما ليس كبشرة طفل الحلم الذي لم يكن له أطراف أو رأس. لقد كان الأمر مضحكاً لما أمسك أخوها الصغير توم الطفل، لأن الطفل في أغطيته كان كبيراً بحجم توم. إنها تظهر شيئاً من الاشمئزاز بخصوص الولادات.

وبعد عشرة أيام تسكن نانسي نزلاً عائلياً. وتأتي إلى العيادة بحالة من التوتر والغضب الشديد؛ لقد شعرت أنهم سخروا منها في إرسالها إلى الريف. وتقول أنها لم تعط سابق إنذار بذلك، ثم تضيف أنها سئلت إذا كانت ترغب في تجربة ذلك. إنها لن تبقى فيه..."إذا دام ذلك أكثر من أسبوع بعد الأحد، فشيء ما سيحصل" .

وقد ألمحت للانتحار. الناس لطفاء هناك، " أهل " النــزل ولويز، الفتاة الأخرى لكنها شعرت فيه بوحشة شديدة، إنها تخشى الكلاب والخيول؛ أما الماعز والدجاج فيشعراها بالقرف. ثم جعلت فجأة تثير مشاعرها؛ وتقول أنها تبكي كلما سمعت من الراديو أغنية " آه يا أمي " إنها تحس بالغربة عن أمها. وعندما تكون في المنــزل، تجد طبيعي جداً أن ترى أمها، إنما ما أن ترحل حتى تأسف لذهابها؛ وكان الأمر ذاته عندما كانت عند أختها. وفي المرة الأخيرة التي كانت فيها هناك،

"كنت آخذ على نفسي إنما كنت أبكي عندما أكون وحيدة، ثم بدأت الأزمات، بذاك الشعور أني سوف أموت".

وعندما عادت إلى بيتها بعد ثلاثة أسابيع، وجدت ذلك "رائعًا"، وعادت حتى إلى المدرسة لمدة أسبوع، وبعد ذلك " حصلت لها الأزمات وأصبحت تعيسة من جديد " ولذا نسي دوماً شعور أن شيئاً ما ينقصها وهي تعتبر محيطها الذي تكون فيه، مسؤولاً عن مصيبتها. وتخشى على أمها من هجمة جديدة تودي بحياتها.

وها هي ذي تتحدث عن صهرها والحادث الذي حصل معه. فهو وهي كانا مريضين وأجري لهما عملاً جراحياً. ويقلقها دوماً أن تعلم إذا ما استؤصلت كل زائدتها، ومن الجائز أن يكونوا قد تركوا جزءاً منها سيسبب لها التهاباً؛ أو يكونوا قد استأصلوا عضواً آخر بالخطأ. لقد أضحكت الممرضات تلك المخاوف، لكن بما أن أي شخص لم يق لها الحقيقة...بادروا في التوضيح لنانسي أن تلك الفكرة هي موضوع مبتذل من أفكارها،أن تظن طيلة الوقت أن الناس يخفون عنها شيئاً ما. ولم يحصل لها أزمات منذ أن أصبحت في النـــزل، إنما أحياناً تحس بدنو أجلها. إنها أقل توتراً، وأكثر لطفاً.

سبعة أيام خلت، تغضب نانسي لأنهم جعلوها تنتظر، ثم تهدأ بسرعة. وهي تبدو أكثر تعقلاً، وأكثر ارتياحاً، وأكثر اهتماماً بالعالم الخارجي. وتقول أنها ثائرة ضد أختها إيما، الأصغر بسنتين، إيما تريد أن تكون " شيك "فهي تستفزها وتنكد عليها، وتأخذ أشياءها.و إيما حصلت دائماً على أشياء أكثر من نانسي، ورغبت نانسي دوماً أن تقطع إيما إرباً؛ وحلمت دوماً أن تلوح بها ثم تحطمها على الأرض. ولديها رغبات مماثلة تجاه ابنة أختها، رغم أنها تحب تلك الطفلة أكثر من أي شيء في هذا العالم. في الصيف الماضي، كانت تلعب معها وفجأة أحست نفسها ثائرة بحيث لم تكن تفكر إلا بقتل الطفلة. ولحسن الحظ أن آنا وصلت في تلك اللحظة. وقد لا تريد نانسي أبداً أن تكون أختها بصورة الأفكار التي تراودها. وبعد هذا الحادث بقليل، ذهبت إلى المطبخ وضربت الهر مع أنه لم يقم بأي سوء. إنها غالباً ما تحس بداخلها بحقد إزاء الأطفال مع أنها تعبدهم.

وتقول بعفوية أنها علمت بحمل أختها آنا قبل أن تضع بقليل، إذ تفاجأت بمحادثة بين آنا والأم. وسألت نانسي حينئذ عن صحة ذلك؛ فأجيبت بالنفي؛ مع أن نانسي كانت مقتنعة أن أختها تقول لها الحقيقة دوماً. ومع ذلك، لم تبلغها بموضوع حملها إلا قبل الوضع بخمسة عشر يوماً وبدت نانسي متأثرة ومنفعلة عندما قالت لها ذلك؛ فاحمرّت وجنتيها، وأسندت وجهها بين كفيها وراحت تحكّ رجليها.

وها هي تسأل الطبيبة إذا ما انتبهت لتسريحة شعرها، إذ قصت شعرها وتدّعي أنها لا تكترث لما تفكر به، مع أنها تكترث بذلك كثيراً. حيث أبدت رغبتها في الذهاب لقسم الخدمة في المشفى لتتعالج هناك، وترى المرضى. فقالت لها الطبيبة بل برأيها ترغب أيضاً رؤية الدكتور "م" لتريه تسريحتها. فقالت نانسي بتفاخر أنها ستبلغ الرابعة عشرة من العمر بعد خمسة عشر يوماً. وبعد مضي أسبوع، تقول نانسي أن لها فتى عشيقاً في الرابعة عشرة وتحبه جميع الفتيات؛ وهو يأخذ نفس الحافلة التي تأخذها هي ولويز.

كما جعلت تغضب وهي تكلّم أستاذتها بأنها لم تعطها مقعداً في قاعة الصف؛ وقالت أن مكتبها " مغطى بكتب تخص غيرها من الأولاد ". وحين ناقشنا الأمر، جعلت تعتذر من أستاذتها. وها هي ترغب في تغيير الصف لتكون مع صديقها. إنها لا تعرف إلا اسم عائلته " سميث " كما تعتقد أن اسمه " ديك "؛ إنها لويز التي قالت لها ذلك. لكن لويز أسكتت نانسي بقولها أن " ديك " يخصها هي، وأنها تظلّ معه طوال اليوم .

وبعد مضي أسبوع، كان عيد ميلاد نانسي. وكانت سعيدة ولطيفة، وتتحدث كثيراً عن " السيد سميث "؛ لقد اكتشفت أن اسمه " آرثر " .

وبعد أسبوعين، لم يكن هناك أية أزمات. لقد كانت إلى حد ما عدوانية وحادة الطبع إزاء القطط والحيوانات الصغيرة الأخرى، غير أنها تصرفت تصرفاً حسناً مع " أهل" النـــزل وباقي الأطفال إنها ودودة وعاطفية، وتبدي دعابة، وتضحك من أشياء سببت لها المرارة أو الهيجان سابقاً. وستتابع المجيء إلى جلسات المعالجة النفسية مرة في الأسبوع.

وبعد أسبوع، دوماً بلا أزمات. وعانت من بعض الضيق عندما ذهبت للسباحة، للمرة الأولى هذا الأسبوع. لقد كانت عاطفية مع محيطها ومع الطبيبة. لقد انتبهت أنها تغيرت: " أربع عشرة عاماً، تحدث فارقاً كبيراً ".

لفتت الطبيبة انتباهها لئلا تتصرف مطلقاً بنفس الطريقة مع الآخرين. وألحت نانسي على نقطة أنها لم تكن أبداً مع إنسان من عمرها. فأنا أكبر منها، وإما أصغر، وصاحبتها لويز التي تكبرها بسنة كاملة جعلت حياتها محببة؛ فأدركت الطبيبة حتماً ما تريد أن تقوله. إنها تود البقاء في النـــزل طيلة فصل الشتاء لتستدرك دروسها.

وبعد نهاية عدة أسابيع، بدا كل شيء على ما يرام (لويز رافقتها). هي ترغب أن تكون صحفية بعد انتهائها من الدراسة. إنها تنام جيداً، وبلا أحلام، وتقول أنه سمح لها بالعودة إلى البيت في شهر أيلول إذا رغبت بذلك (الأمر الذي ليست متأكدة منه). ولا تبدو لها أية مشكلة تستدعي النقاش. ولها مع لويز مواعيد مع فتيان؛ كانت في ذلك اليوم في السينما.وقالت لدى مغادرتهم بطريقة تقليدية جداً " لقد سررت كثيراً برؤيتكم ثانية " ولم نتحدث إلا عشر دقائق (أو بالأحرى حديث متقطع) إذ لم يكن لديها أشياء هامة تقولها وكان يبدو كل شيء يأخذ مجراه الطبيعي.

مضت ثلاثة أسابيع، وهاهي تشعر بالتحسن؛ بل وستمضي فصل الشتاء في النـــزل؛ سوف تذهب بعطلة نهاية أسبوع طويلة عند أهلها. وعلاقتها جيدة مع الجميع. بيد أنها تثور أحياناً، إنما بدرجة أقل. " أنا في غاية السعادة لأني كنت مجنونة ".

وبعد عدة أسابيع، استولى على نانسي إحباط قوي، فشلة من الفتيان يأتون تقريباً كل مساء لرؤيتها هي ولويز. ومنذ بضع أيام، قالا أنهما قد يأتيان، فارتدت الفتاتان ثيابهما لاستقبالهما، لكنهما لم يأتيا. وقالا بكل بساطة بعد ذلك أنه كان لديهما أعمالاً أخرى. فشعرت نانسي أنهما سخرا منها ومن لويز.

وذات يوم، صحبتها " الأم " في النـــزل إلى حفل راقص. وكان لـــلويز فارسها وكذلك الأمر بالنسبة لفتاة أخرى أخذتها أثناء الطريق، لكن نانسي لم يكن

لها ذلك وأحسّت ببعض الاستياء. ولكن، لا أزمات، ولا دوار، ولا ضعف وحتى جسدياً كانت على ما يرام.

وبعد أسبوعين، دبّ في قلبها من جديد الحقد والكراهية؛ فقد نالت توبيخاً في النـــزل، وهي تعلم أنها كانت تستحقه إنما لا يحق لأي إنسان أن يقول لها أي كلمة. وتعتقد أن والدها قد أهين في المشفى ولن تستطيع تحمل ذلك. وأحد أسباب استيائها يعود إلى أنها معيدة في الصف وجميع رفاقها هم أصغر منها سناً.

وبعد أسبوعين، تتحدث بالتلميح أن شيئاً بداخلها ليس على ما يرام؛ وقد أحدث ألماً في نفسها، لكنها لا تريد البوح به.وهي تريد الآن الاحتفاظ به لنفسها، طالما أنها كلما أفضت بسر لـــ " أم " النـــزل، أو للطبيبة أو لأي كان فيخون الأمانة عاجلاً أو آجلاً. وهناك كذلك سر بينها وبين لويز. وهي تتحمل بذلك كل اللوم لكن هذا ليس عادلاً . فنانسي تعرف حق المعرفة أن لويز لطيفة؛ بل تشعر أنها هي جديرة بالعقاب في بعض الأمور؛ إنما لا تستطيع تحمّل الزجر لأمور أخرى لا تحس بالذنب تجاهها. وهي تتحدث كثيراً عن إحباطاتها وعما تتحمله كلما تحاول أن تكون لطيفة مع أحد ما، الخ.

ها هي ذي لويز سوف تكون مجبرة على الرحيل وتعتقد نانسي أنها ستكون حزينة جداً بدونها.

وبعد شهر، سئمت نانسي كثيراً من فقدان مسامرتها مع لويز " لقد كنت أماً بالنسبة لها" .

لقد بدت حزينة وشاحبة رغم سعيها لأن تتصرف كمن يجيد الاستمتاع بوقته. وقد نالت عدة مرات عقوبة الاحتجاز في المدرسة لأنها أحدثت ضجة وأغضبت المدرس. وكانت تسلك سلوكاً جيداً إلى حين عاملها الأولاد الآخرين معاملة " الجبانة " . فراحت تريهم أن بمقدورها أن تكون غير محتملة مثلهم وحتى بدرجة أكبر. ومنذ تغيير موقفها، مال الأولاد لصالحها؛ فاتهمها أحد المدرسين بأنها على علاقات غرامية عابرة مع الفتيان. فانقادت لميولها في نهاية المطاف، كما راحت تشتكي، أن لويز تركتها، ولم تعد تفضي لها بأسرارها أو حتى تكلمها، وأنها لا تنشغل إلا بالفتيان. وهي تنال إعجابهم كثيراً ويجدونها أكثر جمالاً من

نانسي. ونانسي الآن تنال رضى " أهل " النـــزل بينما تمثل لهم لويز " الشأن السيئ ".

وبعد ثلاثة أسابيع، كان مزاجها في أحسن حال. إنما تظهر بعض الحقد تجاه " أم " النـــزل وتجاه لويز، وهي محبطة لعدم وجود فتيان في صفها. أما علاقاتها مع أسرتها فليست في أحسن حال، إنما تأخذ الأمور بالدعابة وتدرك تماماً مسؤوليتها.

ويظهر بوضوح، في درس المحادثة، أن نانسي تثار ثائرتها في كل موقف يُساء فيه لثقتها، وخصوصاً إذا اتفق وجود لويز فيه. وبنفس الوقت تغار من لويز لأقصى حد بخصوص الفتيان وبخصوص " أم " النـــزل. وعندما تتوصل للانتصار على لويز بالقرب من الأم ، تشعر تبكيت الضمير يعذبها.

وها هي ذي نانسي لا تعاني من أية أزمات، وتسير في تحسن واضح. وتتابع علاجها بنتائج ممتازة.

وبالعودة إلى موضوع إيفلين نجد أن نانسي، رغم أنها أصغر منها بسنة، فصورتها النفسية تتضمن عناصر أكثر تنتمي إلى مرحلة البلوغ المتقدم. فإذا استخدمنا حالتها لنلقي الضوء على تطورات لنلقي الضوء على تطورات مرحلة البلوغ الناشئ، فذلك لأن جزءاً كبيراً من سلوكها لا زال يصدر عن هذه المرحلة. فحالة نانسي تعتبر أشد مرضاً من إيفلين بالمعنى السريري للكلمة. ومن وجهة نظر العلم الخاص بالأعصاب، كان هناك دلائل على اختلال دماغي في فحص التوتر العالي، وفي الأمواج البطيئة للتخطيط الكهربائي للدماغ، وفي تبديلات المنعكسات في الجانب المستقيم بعد إحدى الأزمات فوراً. كما تصف الملاحظة السريرية بعض الأزمات. والانطباع كان مع ذلك أن غالبية هذه الأزمات هستيرية. فالـــ I.Q. لم يكن إلا 94.

أن ينطبق التشخيص المرضي للصرع أو لا على مريضتنا فهذا لا يهمنا كثيراً هنا. فضغط الصراعات النفسية يجعل الدماغ غير الطبيعي يضطرب بقدر الدماغ الطبيعي أو أكثر ويمكن أن يُطلق أزمات مع آفة عضوية أو بدونها. إن الصراعات النفسية لنانسي ناتجة بشكل نمطي عن صدمة مرحلة البلوغ.

لعل هيئة نانسي عند دخولها إلى المشفى أخافت كل الناس. بجسد صغير نمى نمواً سيئاً، ورأس امرأة بالغة وشريرة. وسرعان ما اعتقد أن هذه الطفلة عانت كثيراً

في السابق. لقد كانت حذرة بشكل استثنائي، ولا تريد أبداً الكشف عن حالتها العقلية، وموقفها إزاء العلاج كان سلبياً تماماً. وما كانت تقوله يتعلق فقط بعملية التهاب الزائدة. ثم بدأت أزماتها بعد هذه العملية؛ وقاومت التخدير بشدة؛ وأيدت فكرة أن العمل الجراحي أجري لها على حين غرة، وأنها كانت مرغمة؛ وكان حقدها ينصب على الممرضة المكلفة بالإعداد للعملية. وكانت تبرر اضطرابها بعدم إخبارها متى قد يجرى لها العمل الجراحي؛ وهكذا فعنصر " المفاجأة ط إذاً أدى إلى غضبها وخوفها.

وبتعبير آخر نقول، من الصعب أخذ أقوال عن حياتها الخاصة. لقد كانت تبدو بحالة جيدة في بيت أختها المتزوجة. وهناك عاشت قبل إجراء العملية، ولهناك سترغب العودة بعد ذلك. لقد تحدثت كذلك عدة مرات عن ابنة أختها، التي ولدت قبل العملية بقليل، وأعطت انطباعاً عن حبها الحنون لتلك الطفلة.

وكان من الواضح منذ البداية عدم رغبتها بالشفاء وعدم ثقتها بالعلاج الذي يقدم لها. وقد وقعت في غرام طبيبها وعبرت كل تصرفاتها في المشفى عن الرغبة في أن يعالجها ويحبها بمقامه الكبير. وقد أظهرت حالات من الغضب والأحلام التي تكشف عن ميلها العدواني الشديد تجاه هذا الطبيب. ويمكن التحقق من وجود ترابط بين أزماتها وحالات غضبها. إن مظاهر حبها كانت متوافقة مع التعبير المسبق لوجهها بالنسبة لعمرها. كانت تهاجم بلا حشمة، وتسعى لأن تبقى وحيدة في الغرفة مع الطبيب "م "، وتؤكد له أنها " تعرف كل شيء " وتحرص على إغوائه بهذا التأكيد. وتمثل دور الغيورة من زوجته التي رأت صورتها على مكتبه. وطلبت منه أن يمضي الليل قربها، على الأريكة، كما كانت تغار من المرضى الأخريات، الخ. ومع ذلك فقد انطبع هذا الحب دوماً بطابع مسرحي؛ كما نشعر أنها لم تعطي لقدرتها على الإغواء درساً حراً إلا لأنها متأكدة من ممانعة الطبيب له. أما ما يبدو صادقاً فهو رغبتها في أن تنال اعتباره كشخصية هامة، وغضبها وإحباطها عندما رفض اقتراحها، وغيرتها كامرأة.

إن قصة نانسي تظهر وضوحاً (أقل بسبب ندرة المعلومات التي أدلت بها لنا قياساً بما أدلت به عائلتها) بأنها كانت، قبل مرضها، في موقف نمطي من البلوغ الناشئ. فهناك مقطع قصير من هذه القصة يذكرنا بحالة إيفلين. فقد كانت على

صلة خاصة، مثل إيفلين، بأختها الأكبر ثم وجدت نفسها في موقف ثلاثي عندما تزوجت (كما جرى ذلك لإيفلين عندما أخذت عشيقاً). لكن إيفلين عانت وقتئذ من اضطرابات لأنها طردت باكراً جداً من هذا المثلث، أما نانسي فقد أخذها المرض لأنها بقيت فيه لفترة طويلة جداً. لقد استمتعت مع أختها بأسرار جنسية مشتركة تلك الأسرار التي ألهبت، دون أدنى شك خيالها. والعلاقة الغرامية للأخت أخفيت بعناية عن العائلة عدا نانسي التي كانت في الصورة. فكل مرحلة الخطوبة، ثم الزواج المكتوم الخ. أعطوا لنانسي متعة شديدة أنها كانت " ضمن السر" وبعد ذلك كشف أمر الزواج، فأمضت نانسي جزءاً كبيراً من وقتها في بيت زوجين شابين. ونحن لدينا معلومات ضحلة عن علاقاتها بصهرها، عدا عن أنهما كان يتقاتلا من أجل اللعب وأنه كان يسيطر عليها ويجرها على الأرض. إن زياراتها المتكررة إلى بيت أختها أعطتها بالتأكيد فرصاً عديدة للمشاركة، في خيالها، بالتجارب السرية لأختها وصهرها، وأن تستمر هكذا في مثلثها بصورة أقل واقعية.

وهكذا يبدو أن علينا أن نبحث عن عنصر الصدمة في مكان آخر. فأخت نانسي أصبحت حامل وفقدت هنا عنصر المشاركة في هذا السر. ورفضت من دائرة الأشخاص الهامين، ولم تُدخل في هذا الطور الهام والجديد في حياة أختها. لقد لاحظت الاستعدادات لاستقبال طفل وسألت أختها التي رفضت أن تحدثها عن حملها وأخبرتها فقط بنيتها شراء طفل. ونانسي لم تستطع تحمل الحط من كبريائها حين أخفي عنها موضوع الطفل وشعرت بالخديعة. وأول رد فعل لإحباطها كان بلا شك في غضبها الشديد من أختها ومن الطفل الذي كانت تنتظره.

فالصورة تتكشف الآن ذات طابع مرضي ونمطي لعصاب هستيري لمرحلة البلوغ. ولكي نفهم جيداً السلوك المرضي، علينا أن ندرك أولاً النمو الطبيعي. فبالحالة العادية، نانسي هي الشريك الثالث بالمثلث، تقع وهي مدركة على نحو أو آخر بغرام زوج أختها، ثم تتحرر من هذا الحب في الاتجاه نحو أداة جديدة. أو إذا لم يكن يشمل المثلث أخت أكبر وصهر فمن الممكن ملاحظة منافسة حادة، واعية أم لا، والتي قد يختلف الخروج منها بحسب الحالة. فالفتاة تتخلى عن الرجل، وتتركه لصديقتها، وتتحرر من المثلث على نحو أو آخر من الصعوبة. أو أنها تنتصر

وتفوز بالرجل وتتخلى عن الصديقة؛ وحتى في هذه الحالة، فالخصم المنتصر يمكن أن يحتفظ بأثر يسبب له شعوراً بالذنب تجاه الصديقة، وأثر كهذا يمكن أن يبقى مؤلماً مدى الحياة.

ثمة مثلث يؤدي غالباً على إحداث موقف لاحق غير محلول حلاً كاملاً. ويكون ذلك في نساء ل تتمكن من الوقوع إلا بغرام أزواج صديقاتهن، أما للاستيلاء عليهم وجذبهم نحوهن، أو للتخلي عنهم؛ وأخريات هن بحاجة دوماً لصديقة لتكون علاقتهن بزوجهن مرضية. أكثر من زواج احتُمل رغم مساوئه لأنه تعوض بعلاقات أقامتها الزوجة مع صديقة.

إنما لنعود لنانسي إلى فلك قصتها التي تسلط الضوء على نمو الفتيات البالغات. إنها مسألة لا نستطيع الإجابة عليها بسبب نقص الوثائق والدلائل الضرورية. هل كانت نانسي عاشقة لصهرها بلا وعي أو إدراك، في هذه الحالة، لأي درجة من الحب توصل الأمر؟ إن وجود هذا الشعور، خلال إقامتها في المشفى، مثبت بحقيقة أن نانسي أظهرت قدرة فريدة في بناء موقف ثلاثي، أو على الأجدر، حسب رأينا، في تكراره. فعند رغبتها في أن تكون شخصاً ذا شأن، لعبت دور عشيقة الطبيب وغيورة من زوجته. لقد كانت فضولية جداً في التدخل بأبوته المحتملة. ونحن مقتنعون أن لعبة الحب هذه كانت تعبر عن صورة نمطية كانت فعالة في بيت أختها. لكن غيرتها من الطفل هي التي أثارت بها هذا الغضب الجنوني، الذي أشعل ثانية كل تحريضها العدواني القديم ومشاعرها بالذنب. لقد عوملت كطفلة، وحرمت من إرضاء رغبتها في أن تكون شخصاً مهماً، ثم الحب الذي كانت تطالب به مُنح لطفل آخر، إلى هذا المولود الجديد. فغيرتها كانت في أساس هذا الهياج ضد الطفل، وأزماتها كانت تظاهرة لهذه العدوانية ونوعاً من العقاب الذاتي. فلم تكن مصادفة أن تحدث الأزمة الأولى فجأة في اليوم الذي احترق فيه صهرها كاحتراق أخيها منذ عدة سنين. وقد رعت نانسي صهرها بتفان خاص وحصلت أزمتها بعد ذلك. وفيما بعد علمنا من نانسي نفسها، أنا كلما نذرت نفسها لأحد، فيكون ذلك إخفاءً لعدوانيتها ضد هذا الشخص. فصهرها ، وشأنه شأن الطفل حرمها من حب أختها آنا؛ لقد كان شريكاً لآنا في " السر" الذي أقصيت نانسي منه.

ويمكننا إدراك كم كانت نانسي في المشفى غيورة من "الأطفال" الآخرين في قسم الخدمة. وكانت تكافح بعنف من أجل الإرضاء الذي مُنع عنها وتفرغ انفعالاتها العاطفية في هجمات عنيفة. واستناداً لأقوال أمها، توضح أنها كانت تزج نفسها بلا انقطاع في منافسات غيورة مع أخوتها وأخواتها.

وقد أظهرت الملاحظة المباشرة للعلاج النفسي أن نانسي بأعراض مرض عصاب البلوغ، كانت تكرر بالفعل تجاربها الطفولية. إن إحباطها أمام سحب الثقة من قبل أختها، مضافاً إلى قابلية سرعة التأثر القصوى التي تصف مرحلة البلوغ، كان صدمة؛ وعوضاً أن تنمو نانسي نمواً طبيعياً، عادت إلى ماضيها، أي علقت بتجاربها الحالية المعنى العاطفي لحدث عاشته قبل زمن طويل. وقد اعترفت للطبيب أن أخاها الصغير احترق بحادث عندما كان عمرها خمس سنوات، وأنها كانت مذنبة في موته. وككل فتاة صغيرة، كانت نانسي غيورة من أخيها الصغير وتغذي أمنيات بموته، في الوقت الذي لم تكن فيه هذه الأمنيات واعية بالتأكيد. لكن تحققها الغير متوقع كان صدمة قاسية وأدى بها إلى مشاعر بالذنب عنيفة.

كما يحق لنا الاعتقاد أن نانسي غضبت وأحبطت، بعد موت أخيها الفتى، حينما تبنت أمها طفلاً غيره عوضاً أن تمنح كل حبها إلى نانسي. ومع ذلك يبدو، استناداً لأقوال أمها، أن سلوكها تحدد نتيجة شعورها بالذنب أرجح من أن يكون نتيجة الغيظ والعدوانية. لقد اهتمت بحنان الطفل الجديد. ونحن لا نعلم بدقة كيف كان رد فعل نانسي لدى حمل أمها الجديد، عندما كانت في الخامسة من العمر، لكن تجربتنا في حالات مشابهة تسمح لنا بافتراض أنها عانت بذلك من هاجس قاتم وردت عليه بمشاعر ممتزجة ، حتى ولو لم يكن هذا الرد مدركاً بالكامل. عن دوار وأزمات نانسي تذكرنا، بكثير من النقاط، بالأعراض التي عانت أمها منها خلال الحمل الذي أعقب موت ابنها الصغير. وينبغي أن ندوّن أن آنا، بعد حملها، تصرفت مثل أمها وبيّنت لنانسي هكذا نوعاً من النشر الجديد للدلائل الأمومية. وقد علمت نانسي دون شك أن أمها كانت قد عانت من " الدوار الذي جعلها تسقط " عندما كانت حامل. وقبل زمن قصير من بداية مرضها، كانت نانسي قد رأت أزمات أمها " من نوع أزماتها " واعتقدت نانسي أن أمها عانت من أزمات لأنها كانت قلقة بشأنها؛ ونانسي كانت مغمومة بسبب موت أخيها: " في الواقع

أنّبت نفسي لوفاته" هذه الملاحظات تجعلنا نفترض أن نانسي كانت تأمل من أزماتها، إثارة اهتمام أمها، وتحصل على حبها كما تحب أخاها. إن اللوم الذي كانت توجهه لنفسها بلا انقطاع، وزعمها أنها قد لا تستطيع أبداً التخلص من ذكرى ذلك الحادث المشؤوم، ويثبت أنه، منذ سنتها الخامسة، تعذبت هذه الفتاة من مشاعر الذنب. وأنشأ ذلك فيها تصرفاً خاصاً. فخلال طور الكمون، ثمة تصرّف يتجلى غالباً بنمو الشخصية مزوداً بردود فعل نمطية. لقد أصبحت طفلة ورعة، وسهلة المراس لأقصى حد. ويمكن أن نفترض أنها، لو لم يكن نموها مضطرباً، لردت عند المراهقة بتصعيد لهذا الموقف، وتبدين ومعنى للواجب أكثر تميزاً. لكن أحداث حياة أختها أدت بالضرورة لإعادة فتح جروحها القديمة، والذي يطرأ خاصة، في المرحلة الأكثر هشاشة من مرحلة بلوغها.

وهكذا فإن الصدمة التي عانت منها نانسي نشأت عن إصابة اعترت موقفها الثلاثي، وحميمية السر الذي لبى احتياجاتها ورغبتها في أن تكون شخصاً ذا شأن. كانت تردد باستمرار أنها قد خُدعت، وأنها تلقت وعود باطلة، وأدى ذلك بها إلى هيجان أدركته تماماً. علينا التبصر كذلك، بعلاقة نانسي بأختها، رغم الفارق الكبير بالعمر، كنوع من علاقة بين فتاتين. فالعلاقة الغرامية لآنا منعت مما توجب أن تكون " سرية "، وهكذا، فالأخت الكبرى اتخذت دور الفتاة التي تحرم من أمور كثيرة. وفي علاقتها مع أختها، كانت نانسي تتلذذ بإرضاءات مختلفة، والتي كان أحدها ذا شأن كبير بالنسبة لها. وبمشاركة الحياة مع هذه الأخت الكبيرة، مقيدة مثلها في حريتها، وبالتمتع بنيل ثقتها، استطاعت نانسي أن تساوي نفسها بالأشخاص الكبار وساعد ذلك على تغذية وعي " أناها ". وما أن أقصي هذا الموقف المثبت، حتى اتخذ اندماج نانسي بأختها طابعاً نكوصياً، وتوقفت عن إمكانية التكيف مع الواقع وسقطت مريضة.

وبشكل طبيعي، قد تمكنت نانسي من إيجاد فرص، في حمل أختها، على إرضاء تخيلاتها بالحمل بشكل جزئي (تخيلات توجد دوماً في الحياة النفسية للفتيات البالغات). لقد تفاعلت بأعراض أقل حدة بانتظار ولادة الطفل، وكأختها نفسها، بفضولية شديدة. لقد أحبته بعد ذلك واهتمت به مع أمه. لكن فشل المثلث كان صدمة أولى؛ ثم أتى حمل أختها، وولادة الطفل؛ والغيرة والعدوانية تجاهه ظهرت

وتفاعلت مع الشعور بالذنب. فالحادث الذي جرى للصهر وتشابهه مع حادث أخيها الصغير، أحيا ذكرياتها القديمة وأضاف عبئاً على التوتر الداخلي الذي سبق وإن تفاقم لدى نانسي. وقد عانت من ثورة نكوصية لدى كونها محبطة، ثائرة، شاعرة بالذنب، عوضاً أن تترك حياتها الخيالية تنمو بأنوثة طبيعية، أي أنها اندمجت اندماجاً لا شعورياً مع أختها الحامل وقد ولّد ذلك في أعراضها المرضية بعض العناصر من علاقاتها الطفولية مع أمها.

لقد قامت بما كان ينبغي بالنسبة لإجراء العملية إذ أمكنها أن تعبر عن غضبها الشديد ومخاوفها. واستهدف هذا الغضب على نحو خاص الممرضة التي تحضر العملية وتزاوج ذلك بطريقة متميزة مع عنصر المفاجأة. وهكذا فقد احتجت على الطريقة التي أخفي بها الأمر عنها وعن الأسرار التي حجبت عنها. ومن المهم ملاحظة أن أختها قد تفاجأت أيضاً بالولادة المبكرة لطفلها.

وبعد ذلك أدركنا أن تفريغ شحنات العدوانية والخوف بخصوص العملية لم يفِ بالغرض فقد بيّنت الأزمات التالية استمرار وجود حقد كبير غير مَشفي. وشعرت نانسي، بعد العملية بخوف ترك في كيانها شيئاً كان يهدد صحتها.

غير أن الرغبة في إجراء العملية معروف جداً لدى الفتيات البالغات؛ وما نعرفه كذلك أن عملية تجرى في هذا العمر تولّد حاجة لاحقة لتكرارها. فعدة عمليات هي ضرورية لتلبية تلك الحاجة، والزائدة هي العضو الذي يلعب عادة على أحسن وجه دور " العامل المحرّض ". وهذه العمليات تشبع تخيلات الاغتصاب، والحمل، والوضع؛ وهي فعالة وناجعة لأنها تجارب واقعية حيث يجد الضيق النفسي ما يفرغ به شحناته. وأحياناً تنجز العملية ما ينتظره مجريها منها؛ وأحياناً أخرى لا تؤدي إلا إلى تفاقم في التوتر النفسي الذي يؤدي إلى رغبة في عملية جديدة. ولو لم يحصل أزمات لنانسي أمكنها بها أن تفرغ شحنات عواطفها لكانت بلا شك إحدى أولئك المرشحات لعمليات متكررة.

وهكذا يبدو أن أحلام نانسي تؤكد ترجمة العملية كولادة (فقد طلب من الدكتور" م " أن يذهب " ليجرِ عملية تخرج طفلاً إلى العالم ") وفي هذا " الطفل الذي تقطع إرباً " تظهر ثانية فكرة الإتلاف التي نجدها في تخوفات نانسي بعد

العملية. إنها تغذي دوماً تلك الفكرة أثناء إقامتها في المشفى، وإذا ادّعت أنها ابتلعت بنساً، فذلك بلا شك لكي تتوصل إلى تصوير شعاعي لبطنها. وكما تأكد بعد ذلك، تشعر أن جسدها مهدد بالإتلاف، وكذلك طفلة أختها. وقد اعترفت للطبيب النفسي أنها كانت تكره ابنة أختها وأنها قد واجهت تحريضات مميتة ومدركة إدراكاً كاملة. إنها نفسها تفاجأت بذلك لأنها تحب الفتاة الصغيرة " أكثر من أي إنسان في العالم ".وهي تتهم نفسها كذلك بالقسوة تجاه الحيوانات الصغيرة وتجاه أختها الأصغر، وبتحريضات كراهية تجاه الأطفال، الذين تحبهم مع ذلك في الوقت نفسه، الخ. كثير من الأمور كانت تقولها وتفعلها أثبتت كم كانت منهكة بمشاعر الذنب. واللوم الذي كانت توجهه لنفسها كان غالباً بتناقض لافت مع أولئك الذي توجهت بحديثها لهم.

إن ما يبدو خاص جداً في تصرفات نانسي يمكن أن يفسر بسهولة. فمتناقضاتها تتعلق بالفعل بأن ردود أفعالها العاطفية، المتجردة من عامل الزمن، تأخذ مكانها بشكل متزامن في مختلف أطوار حياتها النفسية. ففي البداية كانت تريد أن تساهم في عدد من الأحداث بصفة شريك ثالث، ثم تحب وتعتني بطفلة كما قد تفعل امرأة ناضجة جنسياً. هذه الفتاة المحبطة كانت غيورة لأقصى حد من المولد الجديد لأختها. لقد قتلته في مخيلتها بنفس الشراسة التي كانت قد شعرت بها شعوراً غير واعٍ، في سن الخامسة، إزاء أخيها الصغير. ففي لا شعورها، قطعت جسد أمها أو (أختها)، ومع ذلك كانت تحس من جهة أخرى بالرضى عن الولادة، وبالرعب من أن تقطع هي إرباً، ومن تهديد الموت الذي تضمنته عمليتها. إن خوفها من أن ترى موت أمها أو أختها كان مدركاً؛ إنما العدوانية المستبطنة خلف هذا الخوف كانت غير مدركة وتفرغ شحناتها بأزماتها.

وبعنصر آخر أيضاً، فتاريخ نانسي نمطي في المرحل التالية العملياتية للبلوغ. هذا الشعور بأن الزائدة دوماً هنا، وان شيء آخر غيرها قد استؤصل، وأن " هناك شيئاً ليس على ما يرام " في داخلها كل هذا من سمات الفتيات اللواتي تعتقدن أن جسدهن قد انهار. والطفل الذي قتلتــه" نانســي كان فتىً وهذا شيء مرجّح في هذا الطور حيث الفوارق الجسدية الجنسية تلعب دوراً هاماً في غيرتها، إنه رد الفعل القديم الذي ظهر من جديد في عقيدتها أن هناك " شيء ما ليس على ما يرام ". إن

ملاحظتنا لا تؤكد هذا الافتراض، إنما تسمح لنا مع ذلك في ترجمة عدد من دلالات نانسي على أنها تكرار لتجارب طفولية.

ومن المحتمل جداً أنه رغم خيالاتها بالحمل توجهت نانسي نحو علاقة مع أمها، ثم نحو علاقة مع أختها. كانت تكره ابنة أختها كما كانت تكره أخاها الصغير لأنها كانت تريد أن تكون الطفلة المفضلة لأمها. وعند خروجها من المثلث البائس، تحولت إلى طريق طفولتها، أي نحو أمها بكل ما في الموقف من " حقد وحب " الفتاة التي، رغم صراعها من أجل التحرر، تظل متعلقة بأمها بصلات قديمة وبالشعور بالذنب.

إن الواقع، الذي أوقع نانسي في تعقيدات الموقف الأوديبي والذي نجم عنه كثيراً من عناصر مرضها العصابي، لم يكن متناقضاً مع ما أتينا على ذكره. فالموقف الثلاثي يستمر في بقائه، إنما في الوقت نفسه نصادف بعثاً جديداً للموقف الأوديبي في العلاقات التي كانت لنانسي مع صهرها، ثم مع الطبيب. ففي قصة طفولتها، يظل أبوها طيفاً فعالاً.

وسوف نرى في الحالة التالية تطوراً نمطياً آخراً لمرحلة البلوغ.

هيلين فتاة في الخامسة عشرة من العمر، جميلة جداً وموهوبة جداً، ترك أبويها بعضهما منذ سنتين وهي تعيش مع أمها وأختها سوزي، التي تكبرها بثلاث سنوات. والدها وأخوها الأكبر غادر المنـــزل وكانت سوزي دوماً المفضلة لدى والدها في حين أن هيلين كان لها علاقة حنان وانسجام مع أمها. والأخت كانت هادئة دوماً، وميولها هاجسية مرهفة، وتصبو نحو الكمال. وهي تلميذة نموذجية في صفها، وكانت إحدى الطالبات المتميزات في مدرسة الموسيقى التي كانت بها. أما هيلين فهي فوضوية، وتعتبر سوزي قدوتها، وإن افتراق الأهل قد عدل موقف الأولاد، إذ أن الأم، عادلة ومتفهمة لأقصى حد، وتدرك أن عليها الاهتمام أكثر بسوزي التي تشتاق كثيراً لوالدها. ولم تظهر هيلين أي غدة واضحة إزاء ذلك، وفي غضون السنتين الأخيرتين، أصبحت علاقتها مع أختها محصورة جداً. إنها تحب أختها كثيراً، وتأخذ طوعياً نصائح منها أكثر من أمها، كما تنوي دخول المدرسة التي اكتسبت سوزي فيها سمعة مرموقة.

وكان لسوزي منذ بضع سنوات، صديق تشترك معه بحب الموسيقى. لقد عقد خطبتهما، وحبذت هيلين هذه الخطبة لأنها كانت تحب بيل كثيراً. وقد تغيرت منذ ذلك الحين لدرجة أن شعرت أمها أنها تحتاج لمساعدة طبيب نفسي. وفي البداية، ودون أسباب ظاهرة، أصبحت هيلين عدائية مع أختها. وكلما كانت تأتي سوزي من المدرسة إلى البيت تبادر هيلين بابتسامة ذات معنى لأمها، تعني بها أن "أشياء دنيئة " سوف تحصل، إنما دون أن تذكر أي تفاصيل. ولم تكن تبدي أي ميل في أن تقع بغرام أحد، على عكس سوزي، لقد كانت محبوبة دوماً ومحاطة بالمعجبين والعشاق دون أن تظهر تفضيلاً لأحد منهم. وقبل وقت قصير من آخر زيارة لسوزي، قالت هيلين لأمها أن لها الآن صديقاً. فكان انطباع أمها أن لا تعير اهتماماً خاصاً لهذا الفتى وأنها وقعت بحب أول عابر سبيل. ولما وصلت سوزي، كان هناك زوجين من الشباب في البيت. وكان سلوك سوزي متكلفاً، بينما جعلت هيلين ترتاد الحانات الليلية مع صديقها. وعند كل لوم من أمها أو أختها، كانت هيلين تجيب بغيظ أنه يكون الأحسن الاهتمام بما تفعله سوزي. كانت تسير مع رالف بعلاقة متحررة تحرراً ظاهرياً وفي مواقف جداً حميمة، وكلما لامتها أمها على ذلك، ترد عليها بأن تراقب سوزي. لكن الأم شعرت بالقلق الحقيقي عندما جعلت هيلين تكذب وهي المعروف عنها بأنها كانت صادقة دوماً. وراحت تكذب دون أي سبب وترتاد الحانات أكثر فأكثر، وتعرض بذلك سمعة العائلة المحترمة جداً للخطر.

بعد مضي خمسة عشر يوماً من العلاج، اكتشفت أن انفصال أبويها والرعاية التي أظهرتها أمها لسوزي هيجت لدى هيلين ردود فعل عاطفية شديدة. لكن غيرتها لم تظهر ما دام حبها وإعجابها بأختها مستمراً. ويمكننا القول أن هيلين كانت تحارب مشاعر الغيظ لديها معاهدة أختها سوزي بخضوع متنام جاعلة إياها الشابة المثالية. وبالتأكيد خلقت خطوبة أختها موقفاً مماثلاً لما حصل مع إيفلين بسبب عاطفة أختها تجاه صديقها.

ويكمن الفارق بين هاتين الحالتين أولاً بأنهما تنتميان لطبقتين اجتماعيتين مختلفتين. زيادة عن أن علاقة هيلين بسوزي تقوم على أنها مثلها الأعلى. ولدى رؤيتها لسوزي وبيل في تبادل نظرة رقيقة أو قبلة، سرعان ما تنسج خيالات

جنسية من ابتكارها موجهة على أختها. وخلال الفترة الأولى، استخدمت عليها فكرة: " ماذا يفعلان معاً؟ " ثم تتخيل المواقف الجنسية الأكثر تفاعلاً؛ وعندما تراهما بعد ذلك متحفظين عاديين، تفكر باحتقار قائلة : " أية ممثلة هي أختي! " وتشفق على أمها المسكينة، التي برأيها، خدعت من سوزي بادعاءات الفضيلة والعفة وحينما تعذر اندماجها مع سوزي، بوجهها المثالي، جعلت تندمج بسوزي التي أنزلتها بخيالها إلى درك الكذابة الفاسدة. واستطعت بعد حين أن أثبت للأم أن علاقة هيلين بصديقها لم تنطو على أي شيء من الخطورة، وأن هيلين ظلت طاهرة وعفيفة وصادقة كما كانت في الماضي، وأن كل سلوكها قد كان حادثاً عابراً. وقد تحقق وعدي، عندما أدركت هيلين حالتها الخاصة إدراكاً كاملاً، وهاهي اليوم معاونة استشارية في معسكر للفتيات، ورهن أوامر الرئيسة التي تحبها حباً كبيراً. كما هي سعيدة مع ذاتها وتمثل قدوة للأصغر منها.

وكقاعدة عامة، فإن هذا النوع من الاندماج مع قدوة مثالية يؤدي إلى نمو نفسي ملائم. أما هيلين فقد شفيت بسرعة،ما أن أعطيت الفرصة للعثور على اندماج مشابه.

فخلال مرحلة البلوغ، يكون الاندماج تطوراً معقداً ومختلفاً ويلعب دوراً هاماً في تحسين واثبات الأنا. إنه يأتي لإغاثة شخصية لا زالت ضعيفة أو على العكس يؤدي إلى التخلي عن الشخصية. لقد رأينا نانسي تقع مريضة بالعصاب لأنها كانت قد أسبغت جنسياً اندماجاً مع أختها الأكبر؛ كما رأينا أن رغبة إيفلين في أن تكون شخصية هامة وفي أن تحصل على نفس التجارب الصعبة التي وضعتها أختها الأكبر منها. حتى الاندماج الأنسب ، بالامتثال الذي يعبر عن نفسه بالتمني " بأن يكون جيداً مثلك "، يمكن أن يصبح خطراً وقصة هيلين خير مثال.

نحن نعلم أن تطور الاندماج يعد جزءاً هاماً من علاقة الطفل بأهله، وفيما بعد جميع تجاربه التربوية. إن مراقبة الراشدين تعلمنا هناك قليل من الشخصيات القوية إلى حد ما تتمكن من تجنب الاندماج مع القريب. إننا نفعل ذلك عندما نفكر، وعندما نتصرف، وعندما نبتكر، والناس الذين تكون حياتهم العاطفية مضطربة يندمجون أيضاً مع آخرين في عواطفهم. فالأصالة المطلقة هي دون شك

وقفاً على نبوغ وحيد. فطوال البلوغ والمراهقة، يشغل الاندماج مكاناً ما سينبغي علينا العودة إليه أيضاً وأيضاً.

وبما أن الاندماج، في مثلث مرحلة البلوغ الناشئ يمكن أن يستمر لزمن طويل. على اعتبار أن تعبير تبادل الإحساس الجنسي، يمكن أن يصبح ساحة للصراع بين الميول التبادلية الجنسية أو المثلية الجنسية، وتهيمن على توزيع التناقض الوجداني (كالحب والحقد) وينسق الدوافع الذكورية النشطة والأنثوية النشطة في كل متناقض أحياناً لأبعد حد.

لقد درسنا المثلث التبادلي الجنسي لنسلط الضوء على التطور التصاعدي للصداقة المثلية الجنسية والتبادلية الجنسية. لكن المثلث يمكن أن يتوقف كذلك في مرحلة وسيطة، ويمكن للشركاء الثلاثة أن يكونوا فيه من نفس الجنس. وغالباً ما نرى فتاتان تحبان، بغيرة أو بدونها، نفس المرأة سواء كانت (مدرسة أو فنانة، الخ.) وكذلك هي نمطية الصدقات التي تتحالف فيها فتاتان ضد ثالثة، إنما بأدوار قابلة للتغير ضمنياً، لدرجة أن المظلومة لا تكون دوماً نفسها. أما المثلث المختلط (مثل حالة ناتاشا) هو طبيعي أكثر، وعدواني أكثر؛ والزاوية الذكورية لمثلث ما يشغلها غالباً أخ أحد الفتاتين.

لعل ظهور ميل جنسي تبادلي بزمن قصير قبل صراعات المراهقة، أي عند بدئها هو محط صد لدى الفتيات بأقل منها لدى الفتيان. ففي هذه المرحلة من الحياة تحب الفتيات استعراض رجولتهن في حين أن الفتى يخجل من أنوثته وينكرها. فـــ " الفتى المنقوص " غالباً ما يكون مديحاً وإطراءً أما كلمة " مخنث " فهي شتيمة. إن هذه المرحلة من التبادل الجنسي توفر لنا فرصة لمراقبة المركبين، المثلية والتبادلية الجنسية، قبل أن تكون مسألتهما مكتملة في طور النضوج. ولعل التفكك التدريجي لمركب المثلية الجنسية أكثر ملاءمة من انقطاعه الجائر نتيجة إحباط ما. فالنمو الجنسي للفتاة الصغيرة يمكن أن يكون كذلك مؤثراً بشكل غير ملائم إذا سحبها، قبل الأوان اعتداء تبادلي جنسي شديد للعالم الخارجي، من صداقة مثلية جنسية. فليكون الوصول ملائماً، ينبغي أن يمضي التطور رويداً رويداً.

إذا كانت الفتاة، بسبب الكبت أو الظروف الخارجية غير قادرة على أن تعيش مشاعرها تجاه الجنسين، سواء كان ذلك بعلاقات مباشرة أو بتساميات معينة

فميولها في التبادل الجنسي يمكن أن يظل مصطدماً بعدم وجود أداة في علمها النفسي. وفي هذه الحالة الخطرة لا تكون مشكلتها: " أ أحب الرجال أم النساء ؟ " أو " كيف أزاوج هذين الميلين العاطفيين ؟ " إنما " هل أنا رجل أم امرأة ؟ " . يعبر هذا التردد عن نفسه بخيال نمطي حيث تلعب الفتاة أدوار الذكر والأنثى بشكل تبادلي. هذا الخيال له خلفية في الطفولة الأولى، خلفية تستمر بشكل متأصل أو معدل: " فيما مضى كان لي شقيق (غالباً شقيق توأم)؛ فقدته لكن أتذكره تماماً". وغالباً ما تنمّق الفتيات هذا الطرح. ويكون الأخ مزيّن بكل الصفات التي تحب الفتاة امتلاكها، أو يكون مشحون بكل التحريضات التي يصدها أناها ويدفعها. ولدى الحديث عن إساءاتها الطفولية، تدعم فكرة أن " هو الذي كان شريراً جداً، وقذراً جداً وليس هي. ولدى الكثير من الأطفال هذه الازدواجية تأخذ طابعاً واقعياً جداً بحيث أنهن تعطينه اسماً، وتتحدثن معه، وتتصرفن بطريقة عامة كما لو أنه كان موجوداً بالواقع. وغالباً ما يصبح ذلك أسطورة نألفها لدى أخريات كأنها حقيقة. والمستمع يعلم بقدر هذا الأخ المفقود، وأنه قدر مأساوي. عرفت فتاة كانت تذرف الدموع المريرة عندما كانت تصف الموت المبكر لأخيها المحبوب جداً الذي لا مثيل لوجوده أبداً. هذا الشعور لوجد أخ في الماضي يتخذ غالباً مظهراً لذكرى غامضة، وهنا نجد مثالاً مثيراً للإدراك الحسي الداخلي أن لدى الفتاة رجولتها الخاصة.

وبخصوص هذا الشعور للرجولة المفقودة، يوجد أحياناً خيالاً يعبر بوعي أكثر عن شعور الحنين. إذ تتخيل الفتاة أنها فتى، أو تستجيب لسؤال: " هل أنا فتاة أم فتى ؟ " بصورة تشبع الميلين. إنها تسهر أو تنام أو تبتكر موقفاً على نحو أو آخر وهمي حيث تظهر أحياناً كفتى وأحياناً أخرى كفتاة. أو بحالة أكثر واقعية، تعبر عن رغبة التبادل الجنسي بتنكرات بسيطة.

ونجد تصويراً كلاسيكياً لذلك في حالة "بيتي" كما وصفها "بيتر بلوس"[1] والتي كانت أحياناً في أحلامها ترتدي زي فتى وأحياناً أخرى زي فتاة. وإن جاز القول، لا توجد فتاة ليس لها ثمة خيالات لمرحلة تطول أو تقصر. إنهن لا تقبلن ذلك بنفس صراحة " بيتي "، وإنهن لسن متساويات في إدراك ذلك. نمطية جداً

---

[1] Blos P. : op. cit.

كذلك الطريقة التي كافحت "بيتي" بها تلك الخيالات، إذ فرضت على نفسها التمارين الجسدية الأكثر تعقيداً لكي تخور قواها منها لئلا يتشوش نومها كما علمت، العديد من الفتيات اللواتي تراودهن مثل هذه التخيلات، كان يمثل هذا السعي في الواقع صراعهن ضد الاستمناء. فالخيالات تغذي نشاط التبادل الجنسي بالاستمناء؛ وتستخدم التدريبات لإشباع ومحاربة تلك الرغبات في آن واحد.

وبالعودة إلى قصص الفتيات الثلاث التي درسناها آنفاً، نلاحظ أن اثنتين منهن، إيفلين ونانسي، عانتا من صدمة خلال الموقف الثلاثي النمطي؛ وهي التي دفعت بالأحرى إيفلين لارتكاب أفعال سابقة لأوانها عن أن تجنح بالخيالات. وقد حاولت إيفلين في فرارها أن تحقق خيالات العهر دون أن تحس بأي اكتراث واقعي لنشاط جنسي ما. وكانت ردة فعل نانسي بتصرّف عصابي أكثر تعقيداً. إن الخيال اللاشعوري بالحمل والموجود طيلة فترة مرحلة البلوغ أثير فيها، وبطريقة مرضية، بواسطة الظروف الخارجية. لقد عبرت عن هذا الخيال بطريقة نكوصية، أي بانبعاث مشاعر قديمة من الحقد والغضب والضيق النفسي والشعور بالذنب. وبفعل هذا الضغط ظهرت أعراض مرضها، من أزمات وردود فعل عصابية أخرى. لقد أتت صدمة هيلين من انتقاص قيمتها ومن الأداة التي كانت بحاجة كبيرة للاندماج معها. هذه الحالات الثلاث سلّطت لنا الضوء على تطورات مرحلة البلوغ.

إن المعارضة التي صورتها هذه الحالات سواء المرضية منها أو الطبيعية ليست بلا خلفية.إنما حاولنا أن نعرض الطبيعية خلف المرضية ونرى في ردود الفعل المرضية النتيجة لعدد من الاضطرابات المميزة لنمو الفتيات.

ومن المستحسن أن نسوق علاج عدد من الحالات ولو أننا لا نريد أن نغمض أعيننا عن التصرف الطبيعي بخصوص هذه المرحلة من نموها. وإذا ما بدا ضرورياً على سبيل المثال أن نضع فتاة بالغة في وسط جديد، فخيارنا لا يجب أن يتجه بشكل استثنائي آخذاً باعتبارات المستوى الثقافي، أو الجو المناسب الفعال، أو التأثيرات الملائمة، مع أن هذه العوامل تستحق، طبعاً، أن يكون لها شأنها. إنما سنتجه قبل كل شيء بفحوى أن الأمر يتعلق باضطراب ما أو بكبت صادم لبعض الميول المحددة من النمو. وغايتنا العلاجية أو التربوية يجب أن تكون في إعادة ضبط هذا النمو المضطرب. ففي حالة نانسي، يمكن العلاج في خلق مثلث قديم حيث

تجد الفرصة في التصرف كفتاة ذات نمو طبيعي. إن تفهمنا للموقف النمطي للبلوغ يبين لنا الطريق الصالح: كان ينبغي منذ البداية فتاة من نفس عمرها، ثم علاقات مع فتيان ضمن ظروف منافسة طبيعية، وإعداد تدريجي لاستدراك النمو المؤجل. وقد حصل، كما أمكننا أن نتوقع، أن نانسي ارتكست بشدة لهذا الموقف، لكنها كررت بعد ذلك صدمتها بصورة مخففة، أي وجدت نفسها منخرطة في منافسات عنيفة ولدت في نفسها حقداً مستعراً. هذه الصراعات تحققت بصورتين: غيرة من صديقتها بخصوص حب أمها (أم النــــزل)؛ وغيرة من الصديقة بشأن حب الفتيان. لقد أحست نانسي بخيانة جديدة من صديقتها والموقف الصادم المتأصل تولد ثانية بصورة مخففة. والعلاج النفسي المستمر بادر إلى شفاء الطفلة من ذلك الميل العصابي بالتكرار: وقد أصبحت في مأمن من أزمات جديدة بالعلاقة الطيبة التي أقامتها مع طبيبتها وبالوسط الملائم الذي وضعت به.

أما في حالة إيفلين، فقد تعثر العلاج نتيجة صعوبات خارجية ولم يؤد لنتيجة طيبة. فاستناداً لما علمنا من موقفها النفسي، فقد توجب إعطاءها فرصة، في مجموعة أكثر ملائمة، لتنهض بالدور الذي أرضاها جداً في السابق وأتت أمها لتشوشه. لقد أمكنها أن تجد في بيتها فرصة لإشباع روحها الأمومية في علاقتها مع الطفل المولود حديثاً من أمها، شريطة أن تنجح طبيبتها طبعاً في الإقلال من شعورها بالذنب. هناك ترابط منسجم فيما بين اضطراب أنشطة المجموعة والأنوثة في البيت ويمكن أن يكون فعالاً جداً في عمر إيفلين. وعلاج قويم يمكن أن يبلغ هذا الهدف.

وكما رأينا، أن صعوبات هيلين انحلت بيسر ما أن اتضح موقفها.

وسيلاحظ القارئ أني رسمت حدوداً بين مرحلة البلوغ الناشئ والبلوغ بكل معنى الكلمة. وأؤكد أن الأول يشار إليه بميول واضحة في التبادل الجنسي دون الاكتراث للمثلي أو الغيري بينما ينطوي الثاني على ميول قوية في الانجذاب نحو الجنس الآخر. وهناك علامات وآثار طفولية تدوم في كلتا المرحلتين؛ وهكذا فمرحلة البلوغ الناشئ يمكن اعتبارها كصدور ثان للطفولة على اعتبار أنها تتردد في اختيار الأدوات وتتأرجح بين الأب والأم (أو بين من يقوم مقام هؤلاء). لقد قال فرويد[1] في مرحلة البلوغ الصرفة أنها كانت صدورا ثانيا للموقف الاوديبي لأن

[1] Freud. S : op. cit.

علاقات تلك الفتيات مع الفتيان تنطوي أيضاً على عناصر غير محلولة بالتعلق بالأب. والفارق الذي سعيت إلى إقامته بين المرحلتين يبدو لي مهما. فمن المستحيل طبعاً الفصل المطلق بين المراحل المختلفة للنمو إحداها عن الأخرى. وتطورات مرحلة البلوغ الناشئ يمكن أن تستأنف طيلة مرحلة البلوغ، والمراهقة وحتى بعد ذلك. إن حالة نانسي هي مثالاً خاصاً واضحاً لتداخل ما . لقد استهلت المرحلة الجديدة قبل أن تتمكن من السير بالمرحلة السابقة إلى نهاية صالحة.

يتأتى النمو أحيانا ببطء وخطوة خطوة بإجمال متعاقب لعناصر جديدة؛ وأحياناً أخرى المشهد الكلي لمرحلة جديدة يتعين بقوة في حين أن عناصر معزولة من المرحلة السابقة لا زالت تظهر. وقد رأينا مثلاً الدور الهام الذي تلعبه، في مرحلة ما قبل البلوغ، العلاقة مع الـ " فتاة الأخرى " . هذه العلاقة تفعل فعلها في مظاهر مختلفة بحسب درجة النمو. فهناك همس وأسرار وتقليد جنسي خطر، وتصورات مثالية، وميل مثلي جنسي محتدم كله ممكن أن يُرى في مرحلة النضوج التي تمتد، على مدار عدة سنوات، من مرحلة ما قبل البلوغ إلى سن الرشد.

ويمكن أن نطلق الحكم نفسه تماماً على التجاذب الجنسي نحو الجنس الآخر في مرحلة البلوغ الذي ينبغي أن يتحرر من الصلات القديمة وأن يمكّن كذلك من الاحتفاظ بها حتى ظهور متقدم من سن الرشد.

إن التطورات التي تملأ السنين العاصفة من مرحلة البلوغ إلى النضوج لها مضمون غني جداً ومحدد بكثير من العوامل التي يصعب التكلم عنها بطريقة متجانسة.

ولاحتياجنا للتوضيح، سندرس التفاعلات النفسية للتطورات البيولوجية للحيض بمعزل عن تطورات نضوج الأنا. وسيكون مستحيل علينا تقريباً أن نرسم خطاً محدداً بوضوح بين مرحلة البلوغ، المتأثرة جداً أيضاً بالقفزة للقوى البيولوجية، ومرحلة المراهقة. وفي اصطلاحنا، سننسب إلى مرحلة المراهقة التحسن البطيء والطويل لتطور النضوج. وفي هذه المرحلة تقام المرتكزات المحدّدة للشخصية المستقبلية للراشد، كما يتقرر فيها مصير المرأة.

الفصل الثالث

مرحلة البلوغ والمراهقة

سندرس في هذا الجزء شخصية الفتاة خلال مرحلة المراهقة. فالأحداث النفسية التي تشغل هذا السن بدأت في *مرحلة* ما قبل البلوغ واستمرت خلال مرحلة " البلوغ الناشئ "؛ ولعل المراهقة هي اللحظة الأخيرة الحاسمة في المعركة التي تشن ضد النضج. فعلى الأنا أن يحصل على استقلاليته، كما على الصلات العاطفية القديمة أن تتوارى وعلى صلات جديدة أن تنشأ.

وهكذا فإن النمو البيولوجي يؤدي إلى تغيرات كميّة ونوعية هامة، وفي آن واحد في المجالين الجسدي والنفسي، وبسبب تلك التغيرات، يجابه الأنا مصاعب جديدة. فنظراً لحميمية ارتباط العواطف بالحياة الغريزية، فهو أكثر تأثراً بسياق تطور النمو من أية ناحية أخرى تتعلق بالشخصية، كما تعرض علينا بالمحصلة المشكلة الأكثر إثارة في مرحلة المراهقة.

فالتحرر من الارتباطات الطفولية يتم حسب صيغ مختلفة، والتي رأينا أحدها يكون في الترفع عن الصلات العاطفية القديمة. فالعواطف تبدي ديناميكية نفسية وتتظاهر بأساليب مختلفة في التعبير؛ وهي تشكل رد الفعل الأكثر بدائية للفرد أما العالم الخارجي، وذلك منذ صراخ الوليد، إلى الدموع، إلى صيحات الفرح للطفل وحتى إلى الصلات المباشرة والغير مباشرة والأكثر تعقيداً للراشد مع الأدوات

الخارجية ومع نفسه. لذلك فالتجرد من الصلات العاطفية يثير التساؤلات التالية: ماذا يطرأ على الطاقات النفسية خلال مرحلة المراهقة، وأي مخرج تجده العواطف الحرة من الصلات القديمة؟ وللإجابة على تلك التساؤلات، علينا أن نستبق الأمور إلى حدٍ ما.

فالاندماج يلعب دوراً هاماً في الترفع عن الصلات القديمة. واندماجات المراهقة، كالعواطف، تجتاز مرحلة من التجرد يجب أن تدرس من هذه الزاوية.

ففي الحالتين، يتم التحرر في الانتقاص من قيمة الأدوات القديمة دون مراعاة العلاقات التي تأسست معها. فتشكيل شخصية المراهقة يمكن أن يتعلق إلى حد كبير باندماج ناجح مع أهلها؛ لكن جزءاً منها يبحث عن إمكانيات جديدة للاندماج ويستبعد الأهل على اعتبارهم أدوات. ولعل الانتقاص من القيمة الذي يدخل الآن مبرر تبريراً معقولاً إلى درجة ما، منذ مرحلة ما قبل البلوغ. وهناك موقف يتحول شيئاً فشيئاً إلى المزيد من الانتقاد وتكيف متنام مع الواقع يؤدي إلى هجر المبالغة الطفولية في تقدير الأهل، وترجح الكفة نحو القطب الآخر، فالأهل الآن هم أقل اعتباراً. إننا نعرف الحاجة لاندماجات متعددة في فترة ما قبل البلوغ. ففي تلك المرحلة، تظهر هذه الاندماجات الطابع البدائي في التقليد الطريف، وفيما بعد، خلال مرحلة " البلوغ الناشئ " مع أنها مسبوغة أيضاً بتبادلية جنسية، إنها تتجسد إلى حد ما في العلاقة مع الصديقة. أما الآن في مرحلة المراهقة، فإنها تحقق الانسجام أو على العكس ترضخ لمصير غير طبيعي.

وتستخدم العواطف هي أيضاً للانتقاص من القيمة لكي تتحرر من الصلات التي ربطتها بأدوات قديمة للحب وتعطي كذلك مساندة للميول العدوانية والنفور التي تنشأ لدى المراهقة.

هناك طابع هام لهذا الميل إلى الانتقاص في القيمة، والذي يستحق التنمية، إذ أنه ليس في الواقع صادقاً كما يبدو، فلقد استخدم أحياناً لتجاوز أخطار مرحلة البلوغ، فالمراهقات تعاودن غالباً حب الأدوات التي كنّا قد نبذنها، كما يمكن أن تشعرن بالفخر للتشبه بها. إنما إذا وجد ميل الانتقاص في القيمة أسباباً جديدة وصالحة لأن يكون، فيمكن أن يشكل تهديداً جدياً على الحياة العاطفية للفتاة، بالنسبة لنمو أناها الأعلى، ويمارس تأثيراً مشؤوماً على مصيرها. وفي سعيها إلى

المضي في إغاثة الأنا الأعلى تستبدل مكانة الأهل لبضع الوقت بأشخاص آخرين يستجيبون لحاجتها على نحو أفضل منهم. فأناها الأعلى يستثمر أساتذها، ورؤساء المجموعة التي ترتادها، الخ.؛ وهكذا فجزء من الحب الذي كانت تكنّه حتى الآن لأهلها يتحول لفترة من الزمن إلى تلك الأدوات الجديدة. وعندما تنمو المراهقات أكثر، تنتقص تلك الأدوات الجديدة بدورها من قيمتها، وتتنازل عن مكانتها لأنا أعلى مجرّد يتحقق مستقبلاً. فالاندماجات التي تمت مع أبطال أو رؤساء، في أحضان مجموعة ما أو حركة إيديولوجيّة هي اندماجات شرعيةً، لكنها لا تلبي الحاجة لعلاقة شخصية. فثمة علاقة يمكنها وحدها أن تسبغ الحياة العاطفية بطابع موضوعي فعلي.

إن التطور الذي تحدثنا عنه ينفصل عن مرحلة ما قبل البلوغ ثم يستمر في مرحلة البلوغ الناشئ. وبدراستنا لهذه المراحل، أكدنا على ضرورة العلاقات العاطفية الفردية. فسير المراهقة يرتبط ارتباطاً طبيعياً بالنمو الداخلي. وقبل أن نحاول الإجابة على السؤال الذي طرحناه حول مصير الطاقة العاطفية، هل من المفيد أن نذكر أنفسنا بتطور النضج الذي درسناه في باب مرحلة ما قبل المراهقة. لقد أشرنا إلى أن التطورات التي يتضمنها التكيف مع الواقع خلال تلك المرحلة تمثل هجمة لا نرى فيها شيئاً يذكر مع تطورات الهجمة المنضبطة بالغرائز الجنسية. فالنمو خلال مرحلة ما قبل البلوغ يكون في فورة عدائية للنشاط الذي يفقد شدّته الأصلية رويداً رويداً. ويختفي جزء من هذه الفورة تحت ضغط الميول الأكثر سلبية، مع أن الجزء المتبقي يفضي إلى طرق أخرى في التكيف مع الواقع. ولعل الميول السلبية ذات أهمية قصوى للنمو اللاحق للفتاة نحو الأنوثة سنهتم بالحديث عنها لاحقاً.

ومما لا شك فيه أن الحاجة الجنسية التي تظهر في المراهقة تؤدي إلى مخاوف كما تحرّك قوىً دفاعية تؤول إلى حد كبير في إعطاء طابعها لهذه المرحلة من الحياة. فآنا فرويد[1] درست كثيراً آلية الدفّاع هذه. وبالنسبة لها، أنا المراهق هي مرتكز دفاعه ضد مخاطر الحاجات الجنسية. ونضيف إلى ذلك أنه، خلال مرحلة المراهقة كما المراحل السابقة، للأنا هبّات قوية من النمو ليس لها علاقة بالتطورات الجنسية لا من قريب ولا من بعيد.

---

[1] op. cit.

سنواجه الآن مشكلة أخرى تظهر أهمية قصوى في علم نفس المراهقة. تتعلق بتلك القوى العاطفية التي تستهدف أنا الفتاة، والتي حتى عندما تستهدف أشخاصاً آخرين يكون لها طابعاً معيناً. فعندما درسنا آنفاً العلاقة الموجودة بين الفتاة وصديقتها، قلنا أن هذه العلاقة كانت نرجسية، أي أن الأنا ينتفع من حبّه للآخر من أجل ذاته. وباندماجها مع صديقتها، يبسط الأنا الضعيف للفتاة مجاله الخاص به ويكتسب بعض الثقة بالنفس.

وهكذا فإن ازدياد القوى النرجسية للأنا يلعب دوراً هاماً في تطور النضوج. فنمو النرجسية يعتبر عادة كعلامة سلبية. كما نجد نرجسية متطرفة في حالات مرضية ونعترف بأنها عدو خطر على العلاقات العاطفية الإيجابية مع العالم الخارجي. نونبرج، الذي لفت الأنظار للدور المزدوج للنرجسية حلّل مظاهرها الإيجابية والسلبية في آن واحد قائلاً: "طالما أن النرجسية أساسية في الحياة فلنا الحق بالقول أنها مفيدة للأنا "[2].

بهذا يبدو أنه خلال مرحلة المراهقة، تكون النرجسية فعالة جداً في مظهرين، إنما مظهرها الإيجابي يظهر بخصوصية شديدة في هذا العمر. وأهم ما تمتلكه هو قوّة موحّدة تمنع شخصية الفتاة من أن تذوب في عدد كبير من الاندماجات. ويأتي في المقام الثاني تنمية الثقة بالنفس، فهي تؤدي إلى حد كبير في تمكين الأنا الشاب. ومع ذلك، فهي تمارس كذلك تأثيراً سلبياً على الأنا. ولعل هذا المفعول الازدواجي هو الذي يحرّض حركة الذهاب والإيّاب، والمد والجذر للأنفة المتعجرفة أو للمشاركة، وبكلمة واحدة، يصف هذا المزيج الإيحائي نفسية مرحلة المراهقة.

إن مسألة مصادر النرجسية تقودنا إلى صيرورة العواطف التي تحيد بشكل طبيعي، في مرحلة البلوغ، عن أدوات الطفولة. ويمكننا الآن ذكر ما يطرأ على هذه العواطف: إنها تتجه نحو الأنا ذاته؛ فالطاقة العاطفية تجعل في التصرف بالأنا بصورة نرجسية متنامية وتمدّها بدعمٍ هام. وهكذا يستأنف تطور التدعيم النفسي الذي كان قد بدأ، في مرحلة ما قبل البلوغ، في صداقات مع فتيات من نفس العمر. ويتنقل الاندماج من صديقة إلى أشخاص يستخدمون كنماذج في تشكيل الأنا

[2] Nwnberg, H.: Ego strength and ego weakness, Am. Imago : Vol. 3, n° 3, 1942.

وتأهيله؛ فالاندماج مع الآخرين يتضاءل شيئاً فشيئاً لصالح الاندماج مع الذات. ويحقق نمو الشخصية تقدماً؛ ويصبح المراهق واعياً لـــ " ذاته ".

وهكذا فالفراغ العاطفي الموجود في عالم يتوارى وآخر لا زال خالياً من العواطف الجيّاشة والتي تتجه نحو الأنا ذاته. كما لو أن الفتاة التي تتساءل "من سوف أحب؟" و"من سيحبني؟" تتخذ كأداة شخصها ذاته؛ وهذا ما يحدد تماماً المظاهر النفسية لمرحلة البلوغ. ويقود ذلك أولاً إلى ثقة بالنفس كبيرة جداً، أو ما يسمى بـــ "جنون العظمة المتعجرفة" للمراهقة. بيد أن نرجسية مفرطة تجعل العلاقات مع الآخرين عسيرة. فالأنا النرجسي للمراهقة مبالغ وحساس لأقصى حد تجاه الانسحابات من الحب؛ ومن السهل أن يقع في الإحباط إن كان من الحب أو من الإعجاب ومن هنا جاءت استحالة تقبل الانتقاد خاصةً من قبل العائلة. كما يظهر انقطاع في التوازن ما بين العرض والطلب، فالطلب لدى المراهقة يتزايد أما ما تقدمه فهو ضئيل. مما يؤدي إلى الشعور " لا أحد يحبني " وعندما تدرك المراهقة أن قدرتها الخاصة في الحب هي كذلك محدودة، فتعاني عندئذ من شعور الوحدة. واستناداً للمزاوجة الموجودة بين تنام الثقة بالنفس وشعور الوحدة العاطفية، يمكن لهذه الوحدة كذلك أن تعتبر كتجربة ذاتية. فالشعور بالوحدة يؤدي إلى تهيّج ما على سبيل المثال بهذه الصورة: "من أعالي برج وحدتي الالوهية تنـــزل نظراتي على قطيع الرعاع".

موقف كهذا يمكن أن يعتبر طبيعياً في مرحلة المراهقة إنما يستمر إلى ما بعد المراهقة لدى الكثير من الأفراد الذين لم تجتاز حياتهم العاطفية هذه المرحلة.

ورغم أن شعور الوحدة هذا يكون مهيجاً أثناء النمو الطبيعي، إلا أنه يؤدي أيضاً إلى ألم لا يمكن تخطيه حتى بمعونة الثقة بالنفس للذات النرجسية. ولعل الحاجة ليس فقط في أن يُحَب إنما في أن يحِب تؤدي إلى توتر لا يطاق. فبتأثير هذا التوتر، يتجه الفرد الشاب نحو أدوات جديدة بنهم واقعي ويشعر بكل عاطفة بفيض من النشوة. وهذا من سمات الشبان لكلا الجنسين.

ولأن المراهقة تبالغ في تقدير تجاربها العاطفية فهي مستعدة لأن تفعل " أي شيء " لكي تُحَب. وبالفعل هذه الأداة المحبوبة يمكن، بشكل سهل وسريع، أن تهجر وتنتقل إلى أداة أخرى. وتبرر المراهقة الأمر بأنها خدعت في المرة الأولى أما

هذه المرة فهي الأصلح. ولاستعداد الذي تبديه للحب متميّز جداً لدى الفتاة أكثر من الفتى، لكنّها أقل إدراكاً للطابع الجنسي لهذه المشاعر كما أن الرغبة في أن تكون محبوبة لدى الرجال وتجمع " القلوب المحطمة " صفة من صفات الفتاة المراهقة. ومع ذلك فمن النادر أن يعبر اصطياد قلوب الذكور هذا عن حاجة نرجسية صافية. ويكشف عادة اختبار أكثر تعمقاً أن هذه المغانم يجب أن تعرض على بعض الأشخاص المحددين جداً، للأم مثلاً، التي لا زالت تسعى في الواقع أو في خيال الفتاة إلى إنكار أنوثة ابنتها، أو للأب، الذي تأمل الفتاة من وراء ذلك أن تجتذب احترامه بطريقة غير مباشرة. وأحياناً أخرى يحرّض الفتاة على هذا العمل من الإغواء علاقتها مع صديقتها التي ترغب أن تثير غيرتها وإعجابها.

إن المشاعر الذاتية شديدة الشغف بالحب لا توجهها الفتاة دوماً إلى كائن موجود منطقياً أو سهل البلوغ فعلياً؛ إنها تتوجه غالباً إلى أداة بالكاد أن تعرفها أو تجهلها تماماً. فنشوة الحب شديدة العمق تحس بها في خيالها، وهذه المشاعر تستثمر وتوظف في خصائل الحب الموضوعي. فالشعور بالحب هو الشيء الوحيد الهام في مثل هذه الحالات؛ وليس من الضروري أن يكون للشخص المحبوب أية واقعية موضوعية.

ولعلنا نجد مثالاً رائعاً لمثل هذا الحب في مذكرات الأميرة الروسية ماري باشكير تسيف[1]. وقد لا نولي عادة ثقة كبيرة بالمذكرات. لكن هذه تبدو صادقة وتصف مشاعر ماري كما شعرت بها واقعياً إذ كانت موهوبة جداً بالتأمل الباطني الاستعراضي الشديد. ولقد كانت سابقة لمراهقتها وبدأت بها قبل فترة الحيض. أما نرجسيتها فكانت غير طبيعية لدرجة شديدة؛ لكن ذلك نضعه على حدة، إذ أن الحالة التي أظهرتها تعد من أنماط المراهقة.

لمدة بضعة أشهر، وقعت ماري بغرام الدوق H والذي لم تكن تعرفه على الإطلاق. " رأيته حوالي اثنتي عشرة مرّة في الشارع، وهولا يعلم بوجودي " ومع أن الكثير من الرجال المرموقين أحبوها، فالدوق H، الذي لم يكن يكترث بها على الإطلاق، كان مركزاً لأشد تخيلاتها الغرامية تشوقاً، وجميع مخططاتها في طموحها الأنثوي بنيت حول هذا الرجل. كانت تتخيل أنها قد تكون يوماً شهيرة جداً، وأن

[1] Bashkirtseff, M : Journal d'une jeune artiste.

الرجال يرتمون على أقدامها، لكنها اختارته هو من بين الجميع. " رؤية آلاف الأشخاص، عند ظهورك على الخشبة، وانتظار القلب النابض لحظة تغني، ومعرفة، أنك حين تنظر إليهم، نغمة بسيطة من غنائك ستقودهم جميعاً إلى قدميك، وتحدق فيهم بنظرة متعالية... تلك هي رغبتي. حينئذ سيأتي الدوق H ليرتمي على قدميّ مع الآخرين، إنما لن أستقبله كالآخرين. أيها الغالي، ستكون مذهولاً بفتوني وستحبني".

تلك هي إحدى التخيلات النمطية للفتاة المراهقة. وكما نرى ذلك، كل إمكانياتها كتجربة هي نرجسية صافية، ليس فقط بالنسبة لمضامين خيالها، إنما أيضاً بالنسبة للعلاقة التي تواجهها مع الأداة. إنما، حتى هنا، ليست النرجسية العامل الوحيد، إذ نجد دوماً، في هذه الأوهام، أدوات الماضي ونتلمّس أحياناً في العشيق الأفلاطوني والمرغوب بشوق، ملامح من الأب. وهذا ما يتحقق دون شك في حالة ماري باشكير تسيف، التي فُصلت وهي صغيرة عن أبيها والتي تعيد تشكيله في خيالها العاشق.

لدى أنماط أخرى من المراهقات، لا يكون الخيال النرجسي الاستعراضي مرتبطاً بالضرورة بأداة الحب اللاواقعية إلى حد ما. وغالباً ما تكون الأداة أكثر واقعية، والرغبة " أحبني، فأنا رائعة جداً، والجميع يعجبون بي " هي المرتكز لكل تطلع طموح، وفي كثير من الأحيان يتهالك طموح الفتاة كقصرٍ من ورق عندما تخيبها أداة أمنياتها أو تهجرها. ومع ذلك، فلدى أخريات، يهيمن الطموح والرغبة في لعب دور هام على مسرح الحياة على الخيال دون أن يرتكز بالضرورة على شخص معين.

ما هو صحيح أيضاً، أن خيالات عشقية لا تهتم بالكائن المحبوب قدر اهتمامها بالرغبة بحد ذاتها، ويكون ذلك بالتحمس الشبابي "لفكرة" ما . وغالباً ما نسمع كلمات من فتيات متحمسات تقول: " آه، لو كانت لديّ فقط هدف في هذه الحياة، كفكرة عظيمة أعيش وأموت من أجلها... وسأكون مستعدة لكل التضحيات".

وهكذا يبدو أن محتوى الخيال يتحدد دون أدنى شك بالوسط الثقافي للفتاة. فالفتاة العصرية، على سبيل المثال، لا تحلم إطلاقاً بالظهور على المسرح والرقص

عليه وإنشاء أغاني الحب حلمت أمها بذلك أيام مراهقتها. إنها تأمل أن ترى نفسها تلهب الجماهير الثورية بموعظتها أو تدير حركة إيديولوجية ذات مصلحة آنية. إن كل سعي في تحقيق خيالات معينة هو الواقع الأكثر نضجاً للنمو في مرحلة ما. فحتى لو كانت أسباب ذلك التطلع المثالي نابعة من حب الذات، فالنشاط المتوافق معه هو جسر يصل ما بين الأنا الشاب والعالم المحيط. إن تحقيق خيالات معينة يمكن أن يكون ذو قيمة اجتماعية عظيمة، ويمارس بالوقت نفسه تأثيراً تربوياً على نمو الفتاة.

وإذا لم يكن للخيالات أي طابع إيديولوجي أو اجتماعي إنما تتمحور فقط حول الذات، فإن تحققها غالباً ما يقود إلى الإحباط. ويقولب المحيط الغير مباشر أحياناً خيالات الفتاة. فأب طموح وأم مغرورة ينتظران من ابنتهما أن تستجيب لأمنياهما النرجسية الخاصة، وأن تصبح نوعاً من أداة لتلك الأمنيات. فخيالاهما مصيرها الفشل عندما تجبر الفتاة على تحقيقها. والقصة التالية تقدم لنا مثالاً مثيراً حول ذلك.

قصة دوروتي

دوروتي فتاة في الخامسة عشرة من العمر؛ تأتي أمها إلى مركز الخدمة الاجتماعية لطلب النصح في موضوع ابنتها التي تتخذ مواقف وقحة تجاهها. وتبدو دوروتي حادة الذكاء إضافة لمواهبها في الغناء. وعلى الرغم من صغرها، التزمت بعمل احترافي على نحو أو آخر؛ وبعد ادعائها بأنها في الثامنة عشرة من العمر، استطاعت أن توقع عقداً خلال الصيف إضافة لالتزامات محدودة خلال الشتاء. وتبدو موهوبة جداً في تأدية الأغنية لدرجة أنها متمكنة من الغناء الانفرادي عندما تكون وسط جوقة موسيقية.

محادثاتها مع أمها

الأم امرأة قصيرة، نحيلة، عصبية، ذات نظرة قلقة وهيئة تعيسة. ولا تنم على كثير من الجاذبية كما تضع نظارة، وهذا لا يعني أنها لا تقوم بجهود حثيثة لتبدو

أنيقة. إنها تتحدث بيسر وتعبر عن نفسها بوضوح. وتنم هيئتها على أنها امرأة في أعماق نفسها غير راضية وحذرة تجاه الناس ومهمشة من قبل عائلتها.

لقد حدثتنا عن عائلتها، وعن والدها كسكير شرس والذي كان يسحب أطفاله من فراشهم في المساء ليضربهم. أما أمها فلم تكن قلقة من أولادها؛ والابنة شعرت دوماً بأنها مجبرة على تحمل التبعات العائلية. وقد غادرت البيت في عمر الثالثة عشرة من أجل الخدمة. وقد كافحت بشراسة دون أن تحصل على السعادة للحظة واحدة. وقد استمر كفاحها حتى بعد زواجها، إذ حتى أيامها الأخيرة، لم يكن زوجها يكسب إلا القليل.

ابنها جون، يكبر دوروتي بسنتين. عاقل هادئ ولا يظهر أية مصاعب خاصة. وتتحدث الأم عنه بكبرياء وعاطفة. وعندما يكونان لوحدهما في البيت، كما تقول، يغنيان معاً إلى حد شعورهما بالسعادة.

أما دوروتي كانت طفلة مرغوبة بشوق. إذ رغبت الأم دوماً بابنة ذات شعر طويل أسود مزرد، ظريفة، وتستطيع أن تلبسها بلطف. وموقفها تجاهها منذ البداية كطفلة معجزة في هوليود : " كم كان يبعث السرور في نفسي تلك المجاملات التي كانت توجه إلى دوروتي. لقد كانت محط إعجاب الجميع. لها جمال لم امتلكه يوماً من الأيام " .

لم يكن الأب أو الأم جديرين أبداً بكسب المزيد من المال وقد شهدا فترات عصيبة. ومنذ سنوات وتعلّم ابنتها الإنشاد الذي برعت فيه. وقد أسمعتنا أن ابنتها موهوبة جداً، وتستحق علاجاً خاصاً وأنها قد لا تحسن تطبيق النظام عليها الذي يتقبله الجميع.

وقد اتفق الأهل منذ أمد بعيد، أن الطفلة إذا امتهنت الموسيقى، فيجب أن تراعي النظام الأخلاقي الصارم الذي تضعه أمها؛ وبهذا الشرط فقط سُمح لدوروتي أن توقع عقودها وتكسب هكذا بعض المال. وقد رافقتها أمها في تنقلاتها ما أمكنها، لكن دوروتي كانت تبقى عادة وحيدة مع رفاق الجوقة.

ويأخذ الأب مظهر الأمير زوج الملكة. ويبقى في الردهات لا يتكلم ما لم يُسأل. تعابير وجهه سلبية. ودوروتي تشبهه بشكل لافت. وقد نسي نفسه ذات

يوم وجعل يكلمني عن مراهقته، وقال لي كم كان يحب التدخين. لكن سرعان ما أوقفته زوجته.

وتقول الأم في نفسها أنها مغمومة بشدة بخصوص ابنتها دوروتي التي أفرطت في استقلاليتها وسبقت عمرها في ميل الحداثة. لقد كانت وقحة جداً في أوقاتها الأخيرة.وقد تأثرت الأم بذلك كثيراً، واشتكت من جحودها بعد كل ما فعلته من أجلها. إنها تعتبر نفسها كشهيدة: فلقد ضحت بنفسها لأجل ابنتها، وبعد ذلك لا تريد طاعتها بشيء، هذا "غير عادل". إنها تستخدم كلمات " حسن " و" سيء" و" منصف "و" غير منصف " وتعبر دوماً عن إيمانها بأن على الطفلة أن تطيع أهلها دون نقاش.

كما نصف دوروتي بأنها شريرة جداً معها وأنها كمن يريد الانفكاك، وهذا ليس من العدل بشيء. وتفصح دوروتي أحياناً عن كرهها لأمها. وسرعان ما تجيبها الأم بأنها تكرهها أيضاً. ثم تسترسل الأم في البكاء. " اعتقد ذلك! إنها شريرة جداً. لو كان بإمكاني لأرسلتها إلى الخدمة في الجيش عوضاً عن جون. إنه طيب القلب: لماذا على اللطيف أن يرحل وعلى الشريرة أن تبقى؟ بالطبع أحب دوروتي أيضاً. إنما لماذا تتخذ مني ذلك الموقف ؟ هذا أمر غير مستحسن."

وتتابع الشكوى من " عدم إنصاف "دوروتي تجاهها، ومن "جحودها " . لعلها لا تستطيع تحملها. إنها تصرح بذلك أمام الجميع وستعاقب ابنتها.

" قد ترغبون أن أسامحها، لكن ذلك ليس في مقدوري "تقول هذا بحقد واستياء، وإنها لن تكون ممسحة لقدميها. "لن أقول شيء. سأحتفظ بمشاعري، لكنها تخنقني ولن أقوى أكثر على احتجازها. سأفرغ لها كل شيء. عندئذ تغضب وتعيد الكرة من جديد... هذا غير منصف من ناحيتها، أنا ألومها كما لا أستطيع عدم الإشارة إلى ذلك " .

إنها ظاهرياً غيورة جداً من ابنتها. ولا تستطيع تقبل أحد يجد دوروتي لطيفة جداً بينما يجدها هي شريرة. إنها تقارن قدرها بقدر ابنتها. إنها لم تنل حب أحد؛ ولم تحظ باهتمام أحد. أمر غير منصف إذ أنها تشتغل بشغف وشجاعة. ولم تتيسر أمورها كما يحصل مع دوروتي.

وها هي ذي تذكر عدداً من أسماء الأشخاص الذين حملوها مسؤولية ما حصل لأنها دفعت بدوروتي إلى مهنة الغناء؛ وبالنسبة لهؤلاء الناس، مجموعة الممثلين الذين عاشت الفتاة معهم كانوا السبب في الحوادث المؤسفة.

لقد تفجرت الأزمة الأخيرة لأن دوروتي جعلت تدخن. فاستهجنت الأم الأمر وحذرت الابنة أن ذلك يسيء لضبط تنفسها. لكن الفتاة أجابت بوقاحة : "التدخين يسليني" لكن الأم تمسكت بموقفها المتشدد وأعلنت بحدة أنها لن تقر أبداً بالأمر وأن على ابنتها أن تمتنع عن التدخين. وأن ذلك سيصبح كالإدمان على المخدرات وأنه شيء بعيد عن الحشمة. لقد تشاجرتا عدة مرات في الأيام الأخيرة واتهمت دوروتي أمه بأنها " ألعوبة قديمة " وتفرط في الحشمة.

ونتحدث عن الأهمية التي توليها دوروتي للفتيان؛ لا ترى أمها في ذلك مشكلة. وهي تعلم بوجود هذه الأهمية لكنها لا تبدو متفاقمة. إن ما يضجر الأم هو المزاج الذي تبديه ابنتها فيما يتعلق بالصديقات الغير جديرات بالاحترام. فإحدى أولئك ليس لها أب ولا تنقطع عن ذكر أمها بالسوء وبالرغبة في مغادرتها. ومن الواضح أن أم دوروتي تخشى على ابنتها من رغبة مماثلة. وبالفعل لقد تطرقت الفتاة في حديثها عن اتخاذ شقة خاصة، مما جعل الأم تحكم على ذلك بأنه مثير للضحك.

كما تحدثت الأم، بحركة تنم عن الاشمئزاز، عن الأهمية التي توليها ابنتها إزاء " أناس مضحكين " "وكما تعلمون، إنهم رجال يحبون رجال ونساء يحبون نساء" ثم أقرّت كم تجد مهماً أن تتمكن من نيل ثقة ابنتها؛ إنها لا تعلم لأي درجة يمكنها أن تثق بدوروتي.

وهي تكرر بلا كلل كم يسئمها شأن ابنتها، وكم تنقصها طمأنينة روحها، وكيف يؤرقها التفكير بها. وتكرر كذلك شكواها من تأخر دوروتي بالعودة إلى البيت بعد انتهاء العروض وعن تسكعها في المدينة مع الآخرين. إنها لا تعلم أين تذهب؛ وغالباً ما يمتد التأخر إلى حدٍ غير معقول؛ ويأخذها التساؤل عما يمكن أن تفعل دوروتي فعلياً طيلة هذا الوقت.

ويبدو لي بوضوح، خلال تلك المحادثات، أن هذه المرأة فزعة للطريقة التي تعيش بها ابنتها، وموقفها الاستنكاري والمعبر عن الاستهجان يحرض تمرد تلك

الفتاة. وسرعان ما أدركت أنها تكره ابنتها، إضافة على أنها تخفي هذا الشعور خلف فيض من الأقوال. فدوروتي أحبطتها، إنها لم تحقق ما كانت تنتظره منها. وهي تغالي بمهاتراتها دوماً مركّزة على نقطتين: مرحلة شبابها التعس وجحود الشهيرة دوروتي تجاه النعم التي أغدقتها عليها.

وقد عزمنا على إرسال دوروتي على نزل. ومن الواضح أن الأم لم تدع فكرة مهنة ابنتها كمغنية إلا على مضض. واقترحت أن تستمر في عروضها في المساء. إنما تخشى في نفس الوقت أن تجد بذلك الفرصة للالتقاء برجل متزوج يهتم بها.

محادثات دوروتي مع الطبيب النفسي

تقول دوروتي أنها مغنية. وقد اشتغلت طيلة العام الدراسي؛ وأنها ظهرت أما الجمهور في المآدب والحانات الليلية. وتجد في ذلك بعض الصعوبة، لكنها تكسب مبلغاً لا بأس به. أي ما يعادل مثلاً سبعة دولارات في أداء مجموعة أغنيات في مأدبة، وبتلك النقود يمكنها شراء الثياب وتقديم مساعدة للعائلة. ومصدر المتاعب هو في خلافها مع أمها حول العديد من الأمور. فأمها لا تدرك أنها في عمر أكبر مما تنم عليه ملامحها.

لقد أدلت تلك الشابة الذكية، بملاحظات دقيقة حول الناس الذين اشتغلت معهم، وأولئك الذين يترددون على الحانات الليلية؛ وهي تشعر أن أمها عاجزة على الإطلاق على تفهّم وجهة نظرها. كما تعلم على سبيل المثال أن عدداً من أولئك الفنانين يمارسون الجنس المثلي. وهي تحمل عاطفة كبيرة تجاه أحد هؤلاء لكنها تأسف لحاله. إنه فتىً يُسحر الألباب ويعاملها دوماً بلطف.

وقد شنت عليها أمها حملة شعواء لأنها تخرج مساءً مع بعض الرجال. ويعطونها دوماً عدة سنوات زيادة عمّا هو عمرها في الواقع. وقد تعرّفت في تلك الآونة على شاب عجبها كثيراً. عمره خمس وعشرون سنة ويعمل تحر . وتجده أمها كبيراً عليها معقداً جداً، لكنها لا تدرك أن بعض الشبان الذين عرّفتها عليهم لم يستأثروا اهتمامها أبداً؛ ويقدمون في البداية انطباعاً حلواً ثم لا تلبث أن تراهم غير لطفاء لدى خروجها معهم.

تلوم دوروتي أمها بشكل خاص على مرافقتها عنوة عندما التزمت بالعمل المسائي. ولربما تقبلت الأمر لو كان يجري دوماً كذلك. لكنها أهانتها وأساءت إليها بظنونها لدى مراقبتها. لعلها لا تقدر تحمل نقد أمها بعد العروض كأن تقول لها لو ابتسمت أكثر أو لو قمت بحركات أكثر. ثم تقول بملء اعتقادها: " أنا أعلم بنهاية المطاف ما أفعل. وما أفعله هو خير حقاً، ولولاه لما تقاضيت راتباً" .

ومن ناحية أخرى، أمها عديمة الثقة بنفسها في كل شيء. إنها تعنّفها وتكرر بلا توقف كلاماً مملاً لا طائل له. ومطلبها تقريباً هو التالي : " عندما تبدأ الفتيات بالتدخين، سيتلو ذلك شرب الخمر، وشرب الخمر سيفقدهن السيطرة على أنفسهن، وعندما تفقدن السيطرة على أنفسهن، سيؤول بهن الحال إلى " لا تحمد عقباه " وبداية كل ذلك لفافة تبغ" .

وبرأي دوروتي، المسألة كلها حماقات، لكن ليس بمقدورها تغيير أفكار أمها. إنها لا تحتسي الخمر أبداً لكنها ترغب بتدخين لفافة عند القراءة. وفي هذه الآونة، تقرأ كتاباً لـــ جون غونتر الذي يثيرها بشغف.

ثم حدثتني دوروتي بإفاضة عن مختلف الكتب التي قرأتها؛ ومن بينها كتاب لكونفوشيوس، وكومنت إن بيكينغ. إنها لا تكترث بالدين الكاثوليكي. وقد تشاجرت أيضاً مع أمها بهذا الشأن ولعل الموقف الصلب الذي تتخذه أمها هو الذي يهيج الموقف. ويبدو أن الفتاة تمتلك طاقة فذة. واستناداً لعدد من الدلائل، يبدو أنها تشعر بتهديد جدي من التباين الحاصل بينها وبين أخيها. كما لو أنها كانت تفكر هكذا : " ليحصل ما يحصل، فأنا لن أشبهه في شيء. ولن أدع أمي تضطهدني. "

إنها توجه اللوم أيضاً لأهلها. فهم يردعونها بجميع السبل والوسائل. وينتقدونها، وعلى الأخص أمها. إنهم لا يحبذون خروجها مع رجال أكبر منها سناً ولا أن تدخن؛ وقالت أمها أمام الجميع إنها شريرة. لقد ضاقت ذرعاً بكل ذلك.

بسبب فضولها الشديد تجاه كل شيء، تجدها تسمع باهتمام. وهي بغاية الرضى عن نفسها كما تفاخر بمعزتها لممارسي الجنس المثلي؛ أو أنها تسمعك حديثاً عن قراءاتها لدراسة حول بعض حالات الشذوذ الجنسي. أما الأمسيات العائلية

فتتحدث عنها وكأنها شيء مضجر، أحد أفراد العائلة يغمغم تعبيراً عن استيائه، وآخر كذلك. فليس في حديثهم ما يهم. تمضي الأم وقتها في التجول في المنـــزل والثرثرة مع الجوار؛ وتترك الأسرّة دون ترتيب بانتظار عودة دوروتي. وعلى دوروتي أن تعجّل في عودتها من المدرسة. وهكذا فهي تجد أمها مثيرة للنفور لأبعد الحدود، وأبويها كلاهما يثيران الملل. لعلها ترغب في محاولاتها أن تغير ما بها من أشياء تثير الجدل إنما في موضوع التدخين فلا تجد للمعرفة سبيلاً.

وقد قرأت دوروتي وصديقها لفرويد. وفي الفترة الأخيرة أحست بصدمة حقيقية عندما علمت أنا آنا م.، التي كانت تعتبرها مثلها الأعلى في الأنوثة، سحاقية. وعند قولها هذا، ارتمت على مقعدها لتلاحظ رد فعلي وتقارنه برد فعل أمها. فأظهرت اهتمامي الشديد وسألتها من أين لك بتلك المعلومة. كما سألتها كذلك إذا تصدق كل ما يروى أمامها. ثم أبدت بعد ذلك رغبة دائمة لو كانت فتىً. إنها تكره كونها فتاة. واتخذت تلك الفرصة لأبين لها أن جزءاً من حقدها على أمها يأتي من هذا الشعور الذي تحمل أمها مسؤوليته." فقالت: هذا ما نقرأه في كتاب فرويد، هل هذا صحيح؟".

ثم رغبت أن تعرف إذا ما كان للفتيان صعوباتهم أيضاً. فأكدت لها ذلك مما خفف عن نفسها في أن تعلم أن لهم ما يضجرهم أيضاً.

وتستأنف دوروتي حديثها عن تجربتها المهمة التي اكتسبتها حول فناني الحانات الليلية. إن ذات ملاحظة دقيقة ولا تكفّ عن التبصر لما يدور من حولها. كما تسعى إلى تكوين فكرة عن الخير والشر؛ لقد تبادلت أحاديثاً مع مختلف صنوف البشر. وهي تشتكي من أن أمها تريد الهيمنة عليها؛ إنها تكافح بكل ما لديها من قوة للتملص من تلك المراقبة. إنها ترمي القيام عمداً ببعض التي ليست لها أية رغبة فعلية في القيام بها، لمجرّد أن تبين لأمها عن عدم إرادتها في أن تكون مظلومة. وتقوم بها بملء إدراكها، رغم لوم نفسها بعض الأحيان على ذلك.

وقد تناولت دوروتي معي مطولاً النقاش بمختلف أشكال الشذوذ الجنسي التي صادفتها في الحانات الليلية، الانحراف الجنسي مثلاً. وكانت على إطلاع جيد بصخب تلك الحياة. وقد اشتغلت ما يقارب ثلاث ليال أسبوعياً في الفترة الأخيرة

وقد كسبت مبلغاً لا بأس به. وحسب قولها، أن أولئك الناس يعاملونها بطريقة لا ريب فيها؛ ولا أحد "يسكرها".

أما الذهاب إلى المدرسة، فهي تكرهه كرهاً كبيراً. وعلى الأخص دراسة التاريخ الأميركي؛ وتتمنى إجمالاً وبنّية سليمة عدم الذهاب أبداً إلى المدرسة إذا أمكنها التملّص من ذلك. فكل هذا يجعلها مكتئبة جداً ولهذا السبب فهي تمارس رياضة الهوكي وتذهب إلى السينما.

وفي العام الماضي، افتتنت برجل التقت به في الحان. ويتردد هناك لاهتمامه الشديد بالنساء. وقد تملّقت بشدة لدى التحقق إذا ما كانت هي قد اجتذبته. وقد رأته كثيراً طيلة ذلك العام، في تحد كبير لأمها، ثم انفصلت عنه بنهاية المطاف عندما رأته مع شابة ثملة إلى حد كبيرٍ ورأت الطريقة التي يعاملها بها. وقد اتخذت موقف الترفع تجاه كل ما يتعلقٌ بالأحاسيس الجنسية وكانت تثور في وجه أمها عندما تدس أنفها لمعرفة الكتب التي تقرؤها.

وتقول أن أمها لا تفتأ عن مضايقتها ومراقبة قراءاتها؛ وهي ترغب أن تعرف "بحق السماء" ما مصير كل ذلك. وقد تعهدت لها بأن أكلم أمها بهذا الشأن وقلت لها أن من صالحها العودة إلى المدرسة.

وخلال محادثة مع الطبيبة، أظهرت الأم تحسناً جذرياً. كما أمكنها التعبير عن كل مخاوفها بشأن ابنتها وأعربت في حديث مطول عما كان يقلقها: " عندما تفكر بأنها ألزمتها بتلك المهنة وأنه بدافع خطأ منها تعرضت إلى كل تلك المحن! وعندما تفكر أنها قتلت نفسها إلى حدٍ ما بإعطائها دروس الغناء هذه !".

أما الآن فعندما عافت الأم طموحاتها شيئاً فشيئاً في أن تكون ابنتها نجمة هوليودية وعندما عادت دوروتي إلى المدرسة بإمكاننا التأمل بأن مرحلتي البلوغ لدوروتي والمتأخرة لأمها، تتمكنان من استعادة انسجامهما.

كانت دوروتي فتاة جميلة جداً، بعينيها الجميلتين السوداوين وشعرها الأسود المزرد. أما جسدها الناعم الميّاس، فكان هوليودياً صرفاً. وكانت أمها قد اشتغلت بمشقة وبتضحيات كبيرة لتتيح لها تنمية مواهبها الموسيقية المتواضعة. وبدأت دوروتي بمهنة مسرحيّة. وتخصصت بفن ملائم للمسارح الصغيرة، وحصلت على

التزامات مغرية خلال الصيف، وظهرت كذلك في الشتاء أمام الجمهور، كفنانة محترفة، في سهرات اجتماعية. وما كان حلماً لآلاف الفتيات من عمرها أصبح حقيقة واقعة بالنسبة لها؛ كما كانت قد خبرت واقعياً حلم ماري باشكير تسيف، منحيّة جانباً أن يخر جمهور الرجال تحت قدميها، والدوق H . و لم يكن هناك أي سبب ظاهري لا يجعل دوروتي تنتظر تحقيق الباقي، وقد حققت مرة جزءاً من هذا الحلم. إن الشيء اللافت في محادثاها مع الطبيبة هو الثمن الضئيل الذي كانت تراه في مهنتها كفنانة. فهي لم تتحدث عن موهبتها إلا وفقاً لعملها ولإرضاء نرجسيتها التي كانت تكتسب شكلاً مبتذلاً لهذه الذريعة البسيطة: "ما كنت أقدمه كان جيداً بالفعل ولولا ذلك لما نلت ذلك الأجر".

لم يكن في حياها الدوق H ... بأية صورة من الصور. والمستمع الوحيد الذي تحدثت عنه كان أمها، التي كانت تنتقدها وتقول لها بأن تبتسم أكثر أو تقوم بحركات أكثر. فهل لاحظت أن موهبتها كانت ضئيلة، أم أن انتقادات أمها أحبطتها وأثارت حقدها؟ أم أن هذا الحقد تجاه الأم أتى من مصادر أخرى وكانت تتأثر بالإحباط الإرادي لطموحها المنتظر؟

لقد أدركنا أن مهنة "النجمة" دوروتي كانت تحقيقاً لحلم أمها وأن الفتاة لم تكن بالنسبة لها إلا الوسيلة لذلك. فلقد شهدت الأم كثيراً من الإحباطات كما وصفت مرحلة شبابها كوجود عديم البهجة لشابة دون مفاتن مبعدة وراء الكواليس. ومعرضة للضرب من أبٍ شرس، هذه الـ "ساندريون " الجائعة البائسة تخلت دون شك عن جميع مخيلات مرحلة بلوغها وأرجأت تحقيقها إلى مستقبل غير مضمون. وقد تستكمل ابنتها الجميلة ذات الشعر الأسود ذات يوم ما لم تتجرأ حتى أن تحلم به لنفسها. هوذا المظهر الوحيد الذي عرفناه مباشرة من أحلام شباب الأم؛ إنما يتبين مظهراً آخر في المشاريع الطموحة التي موّلتها لصالح ابنتها. لقد تحقق الشرط الضروري عند دوروتي لهذه المشاريع، إذ أنها جميلة. والأم تكفلت بالباقي مكرّسة لذلك كل قواها وطاقتها. وكانت دوروتي "الفتاة الفاتنة" وفي الخيال الأمومي كانت بلا شك نجمة السينما الشهيرة. وساندريون العجوز تعتقد أن شهرة ابنتها ستدخلها في عالم برّاق.

لكن دوروتي جعلت تهمل عملها المدرسي وتؤثر تمضية وقتها مع جماعات المسرح الذين كانوا آنذاك زملاؤها. وقد تحدثت عنهم بحنان وحب، وكانت ترأف لعيوبهم بإنصاف لا مثيل له، وتظهر موضوعية ملحوظة في تفهم انحرافاتهم الجنسية التي تلاحظها. كما قرأت كتباً علمية لم تكن فقط أعلى من المستوى الثقافي لوسطها، بل حتى أعلى من ذكائها الخاص. وعلمت أن صديقتها الأكبر منها سناً والتي تمثل نوعاً من أناها المثالي تمارس الجنس المثلي، وكان رد فعلها حول هذه التجربة القاسية بمحاولة التفهم الموضوعي. كما قرأت كتباً في علم النفس، وعلى الأخص كتب فرويد، وكما أعتقد أن بعض أعماله لها صلة بثمة مواضيع. وبالنسبة لعودتها متأخرة في الليل وهي تدخن، فكان ذلك لإثارة غضب وتخوّف أمها التي كانت ترى في التدخين الدرجة الأولى في سلم الانحدار الأخلاقي للفتاة.

ومن وجهات نظر مختلفة، تجعلنا دوروتي نفكر بإيفلين وبفتيات أخريات من هذا النوع. لقد كانت سعيدة بانتمائها إلى جماعة ما ومن تعريض نفسها للمخاطر؛ وكانت تحس بالشعور بالأمان، وهذا الاعتقاد ما كان ليتوارد لها لولا أنه من سمات مرحلة البلوغ. إن الحيطة والحذر من جانب الأم أثارا لديها كما لدى إيفلين، احتجاجات ثائرة، وثقتها بنفسها كانت تضعها كما وضعت إيفلين أيضاً، في موقف اللاعب بالنار.

إن الصراع اللاشعوري الذي كان يضع دوروتي في مواجهة أمها يبدو لنا واضحاً. فلم يكن لدوروتي النية في أن تحقق أمنيات أمها؛ وتحول اهتمامها بالكامل من حرفتها الفنية باتجاه نذر نفسها إلى مجموعة زملائها وبذلك تثأر من أمها لأن تلك، بلاً من أن تمنحها الحب والحنان، فرضت عليها مطالبها. فالحلم العادي لعمرها، في أن تظهر على المسرح، والذي هو محط إعجاب ورغبة، انتقص من قيمته وهو يتحقق وأصبح بعيونها موضع ابتذال؛ وكان مظلماً مدلهماً بعواطفها. وتحول حقدها ومرارتها مباشرة في مجابهة الرغبات النرجسية لأمها، وآثرت التخلي عن إشباعها الخاص، عن أن تحقق التخيلات الأمومية. وهاهي تريد أن تصبح بالغة راشدة، بانتمائها إلى جماعة ما، وبإحساسها بالحرية، وبالنسبة لها ، تعني لها الحرية معارضة أمها بطريقة أو بأخرى. ومن باب آخر، لا تتقبل دوروتي من بين رغباتها الخاصة كفتاة بالغة، إلا تلك التي تكون أسلحة موجهة لأمها. وكان تصرفها

كذلك رد فعل على تصرف أمها التي تشرك ما بين شعور شديد بالذنب في تعريض ابنتها للمخاطر الجنسية بالطلب منها تحقيق أحلامها، وحقد عنيف تجاه دوروتي. إنها تكثف ذلك الحقد ضد تدخين دوروتي. وكأنها تكرر أقوال مثل: "أنت لن تكونين شهيرة ولا أميرة، بل عاهرة".

وتعتقد المرأة التي اهتمت بعلاج دوروتي أنها تغر من أخيها، الطفل المفضل لدى أمه. والطفل الفاضل والسلبي، أرادت دوروتي بعلاقتها بجماعتها، أن تحس بان شيئاً صلباً أكثر ذكورة واستقلالية منه. ودون شك تعزى إلى كل ذلك حاجتها للتدخين.

وقد فتنتها حرية حياتها الليلية أكثر من الاحتمالات المستقبلية الرامية إلى تحقيق طموحاتها الفنية. وعندما يُشبع بشكل مباشر جزء هام من رغبات الفتاة المراهقة، فيصبح غالباً من السهل عليها التخلي عن التحقيق المستقبلي لأمنياتها الأكثر قوة. وتلك هي حالة دوروتي . وقد تركّزت حياتها العاطفية على ميولها العدوانية التي أعطتها درساً خاصاً في مواجهة أمها، كما تلاشت خيالاتها الطموحة وفقدت أهميتها.

ها هي مجريات الأمور تقدم لنا السبب، واتضح سريعاً أن بعض أفعال دوروتي لم يكن لها هدف آخر سوى تعذيب أمها. وهي تعلم أن تلك الأفعال تثير المخاوف من بعض المخاطر الجنسية وتجعل أمها تؤنب نفسها على زج ابنتها ضمن هذا الوسط الخطر. وجعلت دوروتي تتأخر في العودة ليلاً عن سابق تصميم، وتحدثها عن العادات الجنسية لزملائها، وتتلذذ برؤية مظاهر اليأس على وجهها. وكنا نخشى من ألا تأخذ دوروتي اعتباراً، ككل فتاة من عمرها، للأخطار التي تتهددها وتبالغ في تقدير الرقابة التي تنالها نتيجة هذا الموقف. إذ أن حاجتها لأن ترسم ملامح لهويتها في وسطها الجديد يمكن أن تقودها بسهولة إلى التقليد الفعلي لحياة زملائها؛ كما يمكن لحقدها من أمها أن يحرضها على أفعال أكثر مباشرة وخطورة؛ وانتقامها يمكن أن يفضي إلى ازدياد الشعور بالذنب لدى أمها.

حتى ذلك الحين، استعانت دوروتي، في مواجهة الخطر، آلية في الدفاع دقيقة جداً. فلقد كثفت تأكيد نرجسيتها متمسكة بنوع من الانعزالية كما حاولت فهم

التجارب الجنسية التي حصلت حولها فهماً عقلياً، وعلى الأرجح بقلق. وبذلك قدمت مسألة نظرية مثيرة. وكنا نعلم أن هذه الفتاة الذكية، رغم عدم قيامها سابقاً بأية موازنات عقلية، جعلت فجأة تقرأ كتباً جادة وتهتم بالمسائل الجنسية والانحراف الجنسي، الخ. كما لا توافق أمها بالاشتراك معها في المخاوف من الشذوذ الجنسي لأصدقائها؛ فهي تعتمد على موقف موضوعي يمنعها من المساهمة عاطفياً بتلك الحالات الشاذة. هل هذا ما تدعوه آنا فرويد[1] بتطور" العقلنة " أي هل الفضولية العقلانية لدوروتي استهدفت مباشرة ردع غرائزها من الانحدار، هل ثقافتها السبب في خوفها من دوافعها الجنسية؟ ربما في تحليل أعمق نتوصل إلى تبني هذا التفسير، لكن الانطباعات التي كوناها خلال تلك المحادثات لا تدافع عن هذا الاتجاه. وبالنسبة لنا، وجدت الحياة العاطفية لدوروتي مجحفة سواء في الانتقاص من قيمة خيالاتها النرجسية أو بالإحباط الذي تعرضت له من مثلها الأعلى الأنثوي وفي أداة تجربتها الغرامية الأولى. وقد حاولت سد هذه الثغرة في إثبات أولويتها في البيت (بالتناسب مع أخيها خاصة)، وفي الحصول على احترام زملائها وفي الاحتماء بالأخطار المرتبطة بالجو الصاخب للوسط المسرحي. كما أمكن لتقصيها العلمي أن يشبع كذلك فضولها دون خطر خوض تجربة شخصية. وإذا فسرنا بالنتيجة حالة دوروتي بـــ "الموضوعية " أو بـــ "العقلنة " وإذا رأينا آلية الدفاع لديها تفعل فعلها، فنحن مع ذلك نعتقد أن هذه الآلية لم توجه ضد خطر غرائزها إنما ضد الموقف الواقعي الذي وجدت به.

وبهذا فالطابع الدرامي للأحداث الاجتماعية والسياسية الحالية ينحصر بشكل واضح في الحياة الخيالية للفتيات، ومن المؤكد أن جو الحرب الذي نعيشه يؤثر على خيالاتهن ويعزز حاجاتهن لتحققها. ومع ذلك سنطرح جانباً العامل النفسي الهام الذي مبعثه الحرب وسندرس شخصية الفتاة كما تنمو في شروط طبيعية. فمعظم الفتيات تمر بمرحلة، تختلف في مدتها، حيث ترغبن بأن تصبحن ممثلات (تراجيدية على الأخص)، للتخفيف من أعباء توتراتهن العاطفية، أو أن تصبحن صحفيات، أو عنصر أمن، أو أديبات روائيات.

---

[1] Op.cit.

ففي عمر السادسة عشرة، كانت أندريا التي تم الحديث عنها آنفاً (ص 33)، تحلم بأن تصير شاعرة كبيرة. كما نرى ذلك في مرحلة البلوغ الناشئ، وقد واجهت مشاريعها بطريقة واقعية جداً. وهي تعتقد، لكي تصبح كاتبة كبيرة، أن عليها، مثل بالزاك، أن تعمل الليل وهي تحتسي كميات كبيرة من القهوة الثقيلة. وبما أن القهوة لم تكن في حوزتها، فقد استبدلتها بالشوكولا المذاب بالماء. وهي تصمم كذلك على التنـــزه طيلة الليل في الغابات، إذ على الشاعر أن يجرّب كل شيء. "بعد أربع سنوات من الآن، دون أن يشك أي إنسان على الإطلاق، سينشر لي كتاب ضخم، ضخم: " نواحٍ مفقود " وستقرؤه مملكة الدانمرك بأسرها، وجميع الشعراء، وكذلك أبي وأمي".

هذا البحث عن التجارب هو من الصفات المميزة جداً لمرحلة البلوغ، سواء كانت الفتاة غير قادرة بعد على إجرائها في الواقع ، أو أن تلك التجارب بدت لها غير كافية. وبسبب شعورها بضعفها، وبأن الرأي النرجسي الجيد عن ذاتها لا يأخذ الثواب الكاف، وبسبب رغبتها بان تكون قوية، وناضجة، وذات شأن، و" كائناً حراً" فعلى الفتاة كالفتى أن تكافح بلا هوادة من أجل وضعيتها الجديدة كـــ "راشدة ". وعليها أن تثبت نفسها أنها أكثر تفوقاً من أبويها وأخوتها وأخواتها؛ وأن تتهم الآخرين بإغاظتها وتنكيد عيشها، قاصدة بذلك الكبح النفسي وإحساس تقييدها النفسي في العالم الخارجي، كما عليها أن تدين الآخرين فيما ينقص عليها.

وفي هذه المرحلة المتشككة، تشهد الفتاة نزاعاً بين الإحساس الفردي بالواجبات تجاه نفسها وإحساس الواجبات تجاه عائلتها؛ وزيادة على ذلك النـــزاعات بين مختلف التساميات والمثل التي يعبر عنها سؤال: " من سأكون؟ " وذلك يعني: " مع من أندمج؟ مع أبي، مع أمي، مع وجه مثالي آخر؟ هل سأكون " امرأة مشؤومة"، أم فنانة ، أم عالمة، أم ربة منـــزل لعائلة كبيرة، هل سأكون زاهدة أو تابعة لغرام حر؟".

وهكذا فإن الفردية والذهنية المتمردة تكونان شديدتين خلال مرحلة المراهقة وتدخلان في نزاع مع جميع السلطات والتأثيرات القديمة. والتخوف الذي تبديه الفتاة أمام مسؤولية تبالغ بحجمها وأمام نزاعات وشعور بالذنب تجاه عائلتها التي لا زالت متعلقة بها جداً، وخاصة الصعوبات التي تصادفها عند محاولتها التوفيق بين

التطلعات المثالية المكثفة وبين أحاسيسها الجنسية المكثفة أيضاً، كل ذلك يفرض عليها غالباً أن تسقط بسهولة رهن حالة من الإنهاك النفسي والجسدي. كما تعبر ثقتها المتعجرفة بنفسها، إضافة لأشياء أخرى، عن الحاجة بان تحس بالاكتفاء من الإنفاق النفسي على صراعاتها العديدة، وخاصة الصراع الناجم عن التخلي عن الإرضاء الجنسي.

إن السلطات القديمة التي هي الآن منقوصة القيمة، والوعي الأخلاقي للفتاة "لأناها العليا" تعزز الآن بشدة. والمقتضيات التي يشكلها إدراك الشبان من الجنسين، تكون غالباً أكبر وأقسى مما عند الأناس المحيطين بهم. وهكذا نصادف لدى الفتاة شعوراً بمسؤوليتها ووفائها لنفسها والذي لا يبدو متوافقاً مع التشوشات الغريبة للأفكار في مرحلة المراهقة. فأناها الشاب غالباً ما يرزح تحت عبء مقتضيات أناها الأعلى، وخاصة عندما تهدد هجمة الرغبات الجنسية هذا الأخير. وإذا ما ترافقت تلك المقتضيات المثالية مع شعور بالذنب قادم من مصادر قديمة وسابقة، فالاضطرابات العصابية تظهر بسهولة، متمثلة بدلالات كثيرة الاختلافات، وخاصة بصعوبات مزاجية.

كما تمنع تخيلات الحب الإرضاء النرجسي شيئاً فشيئاً، وتظهر توترات تبدل المشهد النفسي لمرحلة المراهقة. على سبيل المثال، فتاة طموحة تتوارد عليها نزوات وأفكار غريبة فجأة وتعيق دراستها وعملها، وتكتب بالأحرف الكبيرة، سريرها، كلمة سحرية تذكرها كل يوم أن تحذر الوقوع بالحب. وتتضح الكلمة السحرية بسرعة غير كافية، ويضعف السلوك المضمون للفتاة، وتتهدد مشاريعها الطموحة بالاستحالة حيث تشعر بأنها تتركز في عملها. ثم نشهد اضطراب علاقتها المنسجمة مع الوسط الذي كان قد تبناها مثل (المدرسة أو المكتب أو المعمل).

ولعل اضطراب الفتاة، وحدة طباعها، ونزاعاتها الداخلية والخارجية، يعبر عنها هذا القول: " إني فتاة غير مفهومة، فرديتي مهددة، أجنحتي اقتطعت، ورغم ذلك فلي الحق أن أحيا حياتي. " إن أكثر وسط تسامحاً قد لا يحسن إرضاء متطلباتها ولا حتى فهمها. إذ أن الفتاة نفسها لا تعرف ما هي، وشعورها أنها غير مفهومة يعبر عن ادارك غامض بأنها لا تفهم نفسها. فـــ" المرأة الغير مفهومة "، غالباً ما تكون مضحكة أكثر من أن تكون تراجيدية، وهي امرأة لم تتجاوز ذلك

الانطباع عن المراهقة أو الذي وقعت به مجدداً. وسلوكها كوميدي لأنه مغلوط زمنياً. في الواقع، إنها تستحق الشفقة؛ حيث توقف نموها العاطفي وأنها ليست إلا قاصرة عن إدراك أنها ليست حرة في حركاتها العاطفية.

فحينما يثير الموقف النرجسي أعراضاً سلبية، يعبر الفراغ الموجود بين عالمي الأدوات عن نفسه بشكل مختلف. فالفتاة المراهقة تدرك أنها ليست في أعلى متطلباتها؛ وتصير وحدانيتها كصحراء؛ فيأخذها الاكتئاب. وهكذا كانت ماري باشكير تسيف تكتب بين تقريظين عن نفسها : " هل أجد في الشارع كلباً، جائعاً ومضروباً... شيطاناً مسكيناً، محطماً، بائساً، يائساً، مذلولاً، معدماً، لكي أتمكن من مقارنة نفسي به؟ " وتواسي نفسها بطريقة مختلفة تماماً عن الفتيات: " أحب البكاء، أحب أن أهجر بنفسي نحو اليأس، أحب أن أكون مضطربة وبائسة. وبالنسبة لي تلك المشاعر تعادل التحولات والإلهاءات وأطالب مع ذلك بالسعادة، أحس بأني سعيدة بكوني بائسة".

غير أن إرضاء نرجسي ما بالألم يؤدي عادة إلى حالات من الحزن المترافق بمشاعر دونية، ويمكن أن يتبلور ذلك باكتئاب حقيقي ثم إلى عصاب شديد لدى الفتاة المراهقة.

ولدى كثير من الفتيات، يتم التغلب على الحالة الاكتئابية بانشراح مفاجئ من المشاعر المنتشية يؤدي إلى تهيج ما. وغالباً ما حاولنا التطرق لحالات المهووسين المكتئبين أو حالات عدم الاستقرار العاطفي الهستيري. ويمكن للتطور اللاحق وحده أن يبين إذا ما في الأمر ظواهر مرضية أو مجرد مصاعب خطرة في مرحلة المراهقة.

ويمكن لهذه العزلة العاطفية أن تولد حالات ذهنية مختلفة أخرى ونمطية على نحو أو آخر. فكثير من الأشخاص لا يعانون فقط من اكتئاب إنما من مشاعر فقدان الشخصية واللاواقعية الخ.

لقد حاولنا وضع مخطط للحالة التي تمثل الأزمة العاطفية لهذه المرحلة من حياة "بين عالمين". علاوة عن التباين المميز الموجود بين وضاعة الأدوات الفعلية للحب وبين التكثيف الذاتي لجميع التجارب، وقد وجدنا عنصراً آخر يبرز المظهر

المرضي لهذا العمر: إنه " القابلية الانجراحية " لمرحلة المراهقة وقد سلطنا الأضواء على هذه القابلية لدى دراسة ملاحظاتنا السريرية. وقد رأينا إيفلين هرب من عائلتها خلال مرحلة البلوغ وتشعر أنها ملزمة بالعودة إليها مراراً. فتحررها من صلات الماضي اتضح أنه لم يكن إلا جزئياً، كما نرى ذلك في أحيان كثيرة. وليس لنا معرفة كافية بإيفلين تمكننا من التحديد الكامل للقوى التي كانت تدفعها على تكرار الهروب. لكننا على علم بالتجارب التي عاشتها مع أدواتها القديمة والتي كان لها مفعولاً صادماً بشكل غير طبيعي لأنها حصلت خلال مرحلة البلوغ حيث تكون القابلية الانجراحية في حدها الأقصى.

وبهذا يبدو أن عادة ظهور موقف ما، خلال مرحلة المراهقة، والذي كان صادماً في مرحلة الطفولة والذي كان تأثيره مخمداً على نحو أو آخر، يمكن أن يشكل صدمة جديدة وتؤدي هذه المرة إلى مرض عصابي.

ولقد رأينا بوضوح، في حالة نانسي، أن هذه الفتاة أظهرت رد فعل عنيف عندما استعادت، في علاقتها مع أختها، موقفاً من مرحلة الطفولة. وقد ارتد حمل أختها عليها بمرض عصابي خطر؛ وقد تمكنا بعد ذلك من ربط رد الفعل هذا بأحداث مرحلة الطفولة الأولى. ولو نعرف معلومات أكثر عن إيفلين، لكنا رأينا دون شك، كما افترضنا، أن حمل أمها شكل بالنسبة لها ألماً خاصاً لأنها كانت على مشارب عمر ينمو فيه التوتر النفسي. ولدينا أسباب في الاعتقاد أنها كانت تريد تحمل مسؤولية الطفل وأن تحقق بذلك خيالها بامتلاك طفل خاص بها. ومن الجائز أن إيفلين، التي كان سلوكها مختلفاً جداً عن نانسي، صادفت مع ذلك الموقف الصعب نفسه. ولسوء الحظ، معلوماتنا عن تاريخ طفولتها ضحلة جداً، للإدعاء إذا ما حُملت معها إلى الأحداث اللاحقة، أو أن مرضها العصابي يمكن أن يفسر ببساطة بالقابلية الانجراحية التي تميز هذا العمر والتي وجدت فيها. بيد أننا نعرف عدداً كبيراً من الفتيات اللواتي، بفعل ضغط النمو البيولوجي وفي خضم اضطراب تطورات النضوج، دفعوا على التصرف بشكل صادم في الأحداث الواقعية، حتى لو لم يكن هناك أي عامل استعدادي.

وهكذا يبدو، مثلاً، أن الإحباط الذي فرضته الأداة التي كانت الفتاة قد اتخذتها كمثل أعلى يمكن أن يجتاز الحدود الطبيعية لتطور الانتقاص من القيمة

ويؤدي إلى تفكك الأنا الأعلى (لهيلين التي وقعت في مثل هذا الموقف الخطر). أو الانتقاد المفاجئ لأداة الحب والتي لم تكن الفتاة قد انفصلت عنها تماماً يمكن أن يفسد الحياة العاطفية اللاحقة بأكملها. كل ذلك لم يظهر لنا جلياً في حالة إيفلين، لكننا نعلم أنها أجبرت على الهرب بسبب صلاتها العائلية، وكانت ردود فعلها العدوانية بالإحباط وبمشاعر الذنب العنيفة. وحينما باشرت مرحلة بلوغها بمتطلباتها المتنامية، لم تستطع على الإطلاق تحمل وحدتها، وهجرها، وأجبرت على البحث عن إرضاءات في الخارج. وبسبب تلك الثقة بالنفس والتي كانت دون شك وبالاً عليها والتي وصفناها كسمة لمرحلة البلوغ، ظنت نفسها قادرة تماماً على تحمل مسؤولياتها الخاصة، وتحملها في الخارج على نحو أفضل منه ضمن الأسرة.

فكثيراً من العناصر تتحدد في اللوحة المعقدة لمرحلة المراهقة إذا تعرفنا فيها على الصدمة لعالمين مختلفين. أحدهما يخص المستقبل، سن الرشد، والآخر يخص الماضي، سن الطفولة؛ أما الحاضر، فهو ذلك الصراع الذي يهدف إلى إقامة الانسجام بين تلك المرحلتين من الحياة. هذه الطريقة في الرؤية تتوضح لنا في لعبة القوى الدافعة والمؤخرة. ولو واجهنا تشكيل وتأهيل الأنا، فالنرجسية التي وصفناها هي عنصر دافع إذ تمثل مرحلة من التحرر من الأدوات القديمة وتنامي الثقة بالنفس؛ أما إذا واجهنا نمو الشهوة الجنسية، فهذه النرجسية تكون على العكس عائقاً، وعنصراً مؤخراً. كما أن المتطلبات الحية للوعي الأخلاقي، عنصر الحراسة الداخلي، هي عوامل دافعة؛ ووجود مشاعر قديمة بالذنب هي عامل مؤخر. وهكذا فكل خطوة، وكل حركة تستمد جوهرها من منحدرين متعاكسين، والخروج الصالح أو الطالح من مرحلة المراهقة يتعلق بانتصار القوى الدافعة التصاعدية أو القوى المؤخرة التنازلية.

وهكذا يبدو أن مهمة مرحلة المراهقة تكمن قبل كل شيء في الانتقال من مرحلة النرجسية الشديدة إلى مرحلة من العلاقات الموضوعية وفي التوفيق في هذه العلاقات بين المشاعر العاطفية والدوافع الغريزية. وبطريقة تناقضية، فالعودة إلى تجارب الطفولة والاستمرار المتشبث بالمثل القديمة، وباختصار، المظاهر السلبية للنمو النفسي، تتجلى بوضوح خاص خلال هذه المرحلة ذات التقدم المتعاظم.

وقبل فترة قليلة من إيجاد الأدوات الجديدة، تتوجه الدوافع الجنسية الناشئة للحظة نحو الأدوات القديمة، وتكمن هنا إحدى المصاعب التي تسم مرحلة المراهقة.

فالتنازعات العاطفية تتلاعب ما بين رغبة شديدة في " المضي إلى الأمام" وحاجة شديدة أيضاً "العودة نحو الوراء"؛ وحركة التراجع هذه، تعززها الآن القوى الجنسية، تعود إلى الواقع بإعادة نشر موقف قديم كان موجوداً قبل مرحلة الكمون. لذلك يقال عن مرحلة المراهقة أنها كانت إعادة نشر لعقدة أوديب؛ ويعزى لهذه المرحلة مهمة تصفية هذه العقدة. وعندما درست مرحلتي ما قبل البلوغ والبلوغ الناشئ، سعيت لأن أبين أن هاتين المرحلتين، في مسيرة تقدمهما، هما استعادة واضحة لمراحل النمو السابقة. وكذلك فمهمة مرحلة المراهقة لا تنحصر فقط في ضبط عقدة أوديب. إنما الاستمرار أيضاً بالعمل الذي بدئ به خلال مرحلة ما قبل البلوغ والبلوغ الناشئ، أي إعطاء شكل راشد للصلات القديمة، العميقة والأولية مع الأم، ووضع حد لكل تردد في التبادل الجنسي لصالح التوجه للجنس الآخر تحديداً. ومما لا شك فيه أن التطورات البيولوجية تحمل إسهاماً حاسماً في هذا التقدم الأخير.

ومن العسير توجيه هذا النمو المعقد لأن الظاهرة نفسها يمكن أن تعبر عن ميول مختلفة وغالباً متناقضة. وهكذا، مثلاً، فاندماج الفتاة مع أمها قد يعني أنها تلعب دور امرأة، ويتضمن أيضاً جميع عثرات عقدة أوديب وعندئذ يتعارض مع تحقيق الرغبات الأنثوية للفتاة. فاستمرار هذا الاندماج يمكن أيضاً أن يظهر في عدم المقدرة على نمو الشخصية الخاصة. كما يحصل أيضاً أن تحتفظ تلك الفتاة بتعليقها الطفولي بأمها، وأن تتجنب أي نزاع معها، وأن يؤدي هذا إلى كيان مطموس من كافة الجوانب. وعوضاً عن الحصول على شعور من الإعتاق والحب، تبذل هذه الفتاة جهداً مغيظاً وغير مثمر لكي تتعلق بأمها، ويمكن أن تدمر بذلك شخصيتها العاطفية. وإذا لم تبادر الفتاة إلى حل مسألة مراهقتها، فستبقى، دون شك إذن في سن الرشد، الطفلة التي تعيش مرحلة ما قبل البلوغ، ولا تنفتئ عن العدائية، والصراع بعصابية ضد تعلقها بأمها، مظهرة دلائل مختلفة بالعلاقة مع هذا النـــزاع، ومتخلفة في تعلق سلبي بالكامل. وهكذا كما ذكرنا سابقاً، فالدلائل المرضية هنا متعددة كفقدان الشهية، أو الرهـــاب، أو الأفكـــار الذهانية (كالخوف من التسمم)[1]، وكلها على صلة مع استحالة ما في تصفية التعلق القديم بالأم.

---

[1] Brunswick, R.M. : Analyse d'un cas de paranoïa, J. Nerv. and Ment. Dis, 70; I, 151, 1929.

وحينما يستمر بقاء تعلق ما، فنرجسية المراهقة ترسخ كذلك وقد تدوم مدى الحياة. وتصبح كل حركة أو تجربة خارجية أو داخلية، عرضة للانتقاد الصالح والطالح من قبل الأم. ويبقى هذا التعلق أحياناً مترسخاً على الأم نفسها، وأحياناً أخرى يتحول على أدوات أخرى. فتتعلق سعادة أو شقاء كائن ما بشكل كامل بحكم الآخرين وينفق قسطاً كبيراً من طاقته في اكتشاف ردود فعل أولئك الذين يحيطون به حول كل ما يقوم به.

وسنبدأ دراستنا لمجموعة التطورات الجنسية بطرح السؤال التالي: ماذا على المراهق أن يحق للسيطرة على تطوره البيولوجي؟ والجواب واضح: على الفتى أن يصير رجلاً، والفتاة امرأة. فالدرب الذي يسلكه الفتى مرسوم بالتقدم بالكفاءة الوظيفية لعضوه؛ وهدف نموه واضح ودون إبهام، والعثرات الوحيدة التي عليه حلها تكمن في تصفية الصلات القديمة، واكتشاف أدوات جديدة، ومراقبة الميول السلبية. والخوف الذي ينكد عليه يعبر عنه هكذا: "هل أنا رجل؟" والجواب الإيجابي على هذا السؤال يتعلق حصراً ببسالة القوى الدافعة التصاعدية في صراعها مع القوى المؤخرة. وتتجلى الصدمة بين هذين النوعين من القوى بممارسة الاستمناء الذي هو النشاط الجنسي للمراهق. ومن الطبيعي أن تعبر الميول الدافعة عن نفسها بتخيلات واعية، أما الميول المؤخرة فتعبر عنها التخيلات اللاشعورية.

وكما رأينا فإن العضو الجنسي الأنثوي يبقى لمدة طويلة بعيداً عن أية مساهمة في الحياة الجنسية للفتاة. وقد لا نعلم كم من الفتيات حتى " المعاصرات " جداً لا زلن تتخيلن خلال مرحلة المراهقة أن منافذ أجسادهن لا تستخدم إلا لأشياء قذرة وليس فيهن شيء لرؤيته في الحب. ويعلم المحللون النفسيون وحدهم أن الفتيات "التقدميات" اللواتي تشاركن في الكفاح للتحرير السياسي للمرأة وتقمن ندوات ضرورة التربية الجنسية للأطفال تبقين مخلصات في لاشعورهن لنظريات طفولتهن الأولى، وتنكرن اختلافات المظاهر الخارجية، وتحتفظن بفكرة الولادة عبر الشرج، وترتكز أفكارهن الجنسية حول التصور السادي للتزاوج. وللفتاة موقف مزدوج إزاء أعضائها التناسلية. يستمر الموقف الأول في التأثر التربوي بالأم التي نصحت ابنتها بحماية هذا الكنـــز الثمين الذي يجب أن يحتفظ بطهارته وعدم المس به "مكرساً" بجلال للزوج (وهكذا تظهر غالباً الأعضاء

الأنثوية في أحلامها كجوهرة دفينة يجب الحفاظ عليها). ومن ناحية أخرى، تتكون الفكرة الطفولية عن الأعضاء التناسلية بكونها بؤرة قذرة مخجلة وتستمر هكذا في اللاشعور. وفي الموقف الثاني، تتعارض الفتاة تعارضاً واضحاً مع الفتى الطبيعي الذي يرى في أعضائها قيمة عليا يدأب في الحفاظ عليها دون مس.

وهناك اختلافات أخرى بين نمو الجنسين، والتي تتجلى في حدها الأعلى خلال مرحلة المراهقة. فمن الصحيح أن الفتى والفتاة سواء بسواء يكونان أحياناً غير مدركين للأحاسيس الجنسية الكامنة خلف حاجتهما للحب، وخلف حنانهما للإرضاء العشقي. وحتى حين تظهر رغبات التبادل الجنسي، فعبادة الأفراد للجنس الآخر يسلك خلال بعض الوقت درباً يبدو مستقلاً عن الدلالات العضوية الأولى للتهيج التناسلي. ومن الصعب القول إذا صدر هذا الانفصال للحجالين العاطفيين عن دفع سابق أو إذا كان منشؤه حالات نفسية من مرحلة الكمون، مرحلة يكون الحب خلالها، إلى حد كبير، متحرراً من التحريضات الجنسية.

إن العشق لدى الفتيات أو الفتيان يبقى لأمد طويل منفصلاً عن الأحاسيس الجنسية الواعية. ويفسّر ذلك خاصة بالاختلافات في المظهر الخارجي. ولعل التخيلات العشقية للفتى حالما تكون مترافقة بتطورات تناسلية واضحة؛ ولهذا نقول، أنه يُساء إلى مكانتها بهذه التطورات. وأمام التلازم بين الرغبة في الحب المثالي والتوتر التناسلي، لا يجد الفتى مفراً من رؤية الصلة الموجودة بين الاثنين.

أما الفتيات فهن على العكس، لا تلحظن بنفس السهولة أن أعضاءهن التناسلية هي العوامل المنفذة لرغبتهن في الحب، وحتى لو مارسن الاستمتاع الجنسي مع ذواقمن وتعرفن على قمة اللذة، فعليهن، أيسر من الذكور، منع الإشراك بين مشاعرهن النفسية وتوتراقمن الجسدية. كما أن الاستمناء خاصة قد يتخذ لدى الفتيات إشكالاً أكثر لا مباشرة وتنكراً مما هو لدى الذكور. فالأحاسيس المهبلية لا يمكن مقارنتها بتهيج العضو الذكري، والتوتر لا يمكن أن يكون دوماً متموضعاً بشكل محدد، فالتهيج والارتخاء يمكن أن يحصلا دون الضبط الواعي للفتاة. فعندما تؤكد لنا كثير من الفتيات والنساء بأهن لم تمارس الاستمناء أبداً، فمعهن الحق نسبياً، إذ غالباً ما يحصل أن يتم الاسترخاء التام للاستمناء دون أية مساهمة مباشرة للإدراك. وكذلك غالباً ما نرى الفتاة تتعرض لظواهر لاشعورية من الإلهاء،

فالتحري المباشر للمنطقة التناسلية تُرد بيسر وتحوّل إلى أحاسيس مختلفة على أجزاء أخرى من الجسد، كأحاسيس الاختلاجات، أو الثقل في المعدة، أو حرقة في الرأس، أو دوار خفيف، الخ. ، يستمر ذلك وغالباً ما يحل محل الاستمناء المكبوت.

إن التوجه نحو أدوات التبادل الجنسي، ما يعني إتمام مهمة مرحلة البلوغ، لا يحدث دون تنازعات أو اضطرابات. وهذه الغاية يجب أن تغزو القوى المؤخرة، وليس للفتاة مخرج مناسب في الواقع الخارجي، ويمكن لها أن تتجنب المخاطر الخارجية؛ لكن خطر آخر يداهمها، إنها الأحاسيس الجنسية المؤخرة للعلاقات العاطفية القديمة. وغاية مرحلة ما قبل البلوغ، في التحرر من الارتباطات القديمة من أجل بلوغ سن الرشد، يتضاعف الآن في غاية أخرى طارئة جداً، تكمن في حماية الذات من خطر التعلق الجنسي بالأدوات القديمة.

فالعلاقة مع الصديقة، والتي كان يكمن عنصرها الجنسي في الاشتراك بالمعرفة، تكف عن كونها مرضية على هذه الصورة. وإذا نشأ الدافع للحاجات الجنسية بحد كاف من القوة قبل أن يتشكل الإحساس الجنسي التبادلي باستعداد أنثوي كامل، فعلاقة الفتاة بأفراد جنسها يمكن أن تسبغ بالأحاسيس الجنسية. وتصبح علاقتها بالصديقة من عمرها الآن أكثر تعقيداً؛ فقد تكتسب طابعاً جنسياً بحتاً، وتناسلياً، إنما يتطور ذلك في كثير من الأحيان بصورة أفلاطونية، وعاطفية جداً.ونرى عادة، في هذه الصداقات، يتجلى بشدة تعارض الأدوار الإيجابي – السلبي والسادي والماسوشي : يبدأ هذا التعارض كما رأينا، منذ مرحلة البلوغ الناشئ وغالباً ما يتخذ شكلاً حاداً خلال مرحلة المراهقة حيث تكون الفتاة السلبية– الماسوشية عبدة للفتاة الأخرى. ونرى أحياناً، حدوث انقطاع مفاجئ لهذه الصداقة عقلاني على نحو أو آخر، وقد يترافق ذلك باكتئاب قاس وبلا سبب ظاهر. فالخشية من مركب المثلية الجنسية للصداقة يؤدي إلى هذا الانقطاع، ويتلو ذلك شعوراً مؤلماً بالوحدة.

ولعل رغبة الجنس المثلي تتجه في معظم الأحيان نحو أداة بعيدة المنال ويتخذ الحب شكلاً شغوفاً إلى حد مفرط. ويبلغ درجة من الشدة أعلى من مفعول رغبة الإحساس الجنسي التبادلي. فالمثلية الجنسية للمراهقة غالباً ما تتطور على الشكل التالي : فعقب صداقات شغوفة على نحو أو آخر لفتيات من نفس العمر، أو عقب

عبادة جامحة لفتاة أكبر سناً أو مدرّسة، يصدر، مع دافع الغرائز الجنسية، حب محتدم لامرأة راشدة صعب المنال غالباً ولا تحصد الفتاة حينها إلا الألم. ولهذا الشعور جميع خصائص الحب المعذّب الشغوف. ويفترض لهذا الشكل من الحب أن يكون استمراراً قوياً للارتباط الأمومي.

ويظهر أحياناً شكلاً آخراً من ذلك التعلق بالأم عند تطور ظهور الإحساس الجنسي التبادلي. والأم هنا تستبدل بالأب، إنما الشكل الطفولي للعلاقة يتكرر. هذا التحول بالعلاقة مع الأب نادراً ما يؤدي إلى نمو راشد[1]. فالطريق الآن مفتوح للعلاقات التبادلية الجنسية؛ مما يجعلها، استناداً لفرويد، لا تحوذ على الاكتفاء، ولأن المشاعر السلبية الموجهة فيما مضى نحو الأم تتحول إلى الرجال. وتستمر العناصر الطفولية الغير مشبعة في العلاقات مع الرجال. ويعبر الحقد ضدهم، من بين أمور أخرى، عن الشعور الذي تعاني منه الفتاة لأن الأب لم يتمكن من إنقاذها، سواء بقوته أو بحبه أو بتعلقه بالأم. ولدى هذا النمط من المراهقات الطفوليات، يستخدم الخوف من المخاطر الجنسية كآلية في الدفاع محددة جداً، وتبقى هذه الآلية بمنأى عن هذه المخاطر وهي الأكثر بدائية من كل شيء. وتبقى تلك الفتيات في البيت مع أمهن ، ترفضن كل تجربة ذات شأن، وتظهر دلائل واضحة للرهاب على نحو أو آخر.

وتصور الرسالة التالية، المرسلة من فتاة في الخامسة عشرة من العمر إلى صديقتها، بوضوح هذا الانسحاب الطفولي نحو الأم بتأثير الخوف والشعور بالذنب:

"تريد أمي أن ألبس فستاناً طويلاً في الحفل الراقص لآل W...، أول فستان طويل لي. إنها تدهش بأني لا أريد ذلك. وطلبت منها أن تدعني أرتدي للمرة الأخيرة فستاني الزهر القصير..لقد خفت جداً. بالنسبة لي، هذا الفستان الطويل كما لو أن أمي سافرت لرحلة طويلة ولا أعلم تاريخ عودتها. أليس هذا أحمقاً ؟ وهي تنظر لي أحياناً كما لو أني لازلت فتاة صغيرة. آه ، لو كنت تعلم ! لقيّدت يداي بالسرير واحتقرتني..." .

من الواضح أن هذه الفتاة الصغيرة تخشى أن تكبر وتشعر أن أمها تبتعد عنها (صورة الأم المسافر في رحلة). ومن المرجح أن التعجب اليائس "لو كانت تعلم!"

يعبر عن مشاعر الذنب التي سببها ممارسة الاستمناء. فالتحريم يطال كل ما هو جنسي، وإذا لم تضمن الإقامة قرب الأم حماية كافية، فعلى الفتاة أن تستعين بإجراءات أكثر تعقيداً وها هوذا بداية العصاب.

وكما أظهرنا سابقاً، لا زال حب التبادل الجنسي للفتاة يخضع لضغط قوي، بفعل القوى المؤخرة. وعلاقتها بالأب، علاقة حتى الآن بعيدة نسبياً عن النـــزاع، مسبوغة بالكبت والاستبعاد. لا يمكن أن نلاحظ حتى نوع من النفور تجاه كل ما يمس جسد الأب: فطريقته في الطعام لا تنال الإعجاب، وسيكاره ذو رائحة كريهة، كما تشمئز الفتاة من استعمال غرفة استحمام مشتركة، وباختصار، إنها تتجنب الجو الجسدي لأبيها، جو أصبح أداة نفور. وهي لا تدرك أن كل ذلك يمثل درءاً من الوقوع في المحنة.

وهكذا فالأدوات الخارجية موضوع حب الفتاة التبادلي الجنسي تتصف عادة بأنها لا تظهر أي خطر لتحقيق ممكن، فهي تتخذ الشكل الذي وصفته لنا ماري باشكير تسيف في مذكـــراتها الخاصة ويمكـــن أن نفسر الحب الأفلاطوني للدوق كتعبير عن رغبة ترجيعية لأبيها. فأهلها قد انفصلا عن بعضهما عندما كانت طفلة صغيرة. إنما حتى في الموقف العائلي السليم تماماً، ثمة حب نصف واقعي يمثل مزجاً لمشاعر قديمة وأوهام سالفة.

هناك فتاة تحلق بنهم من أداة لأداة وتبدو أنها تظهر تصرفاً عشقياً مختلفاً تماماً. لكننا عندما ننظر لها عن قرب، نجد أن النمطين، هي والفتاة التي ظلت وفية لحبها لسنوات ولأداة غير واقعية تقريباً، لا تتعارضان كما كنا نعتقد. فكلا النمطين يسعيان إلى إشباع رغبتهما بأدوات بديلة، والأدوات الموجودة فعلياً ليس لها أية واقعية عاطفية حقيقية. حتى هناك فتيات تمارس أحد أشكال الحب هذه للحظة ما ثم تستبدل بعد ذلك بآخر.

ثمة افتتان يغذي عادة استسلام للأوهام لا نهاية له ، وقد يؤدي إلى سلوك مفاجئ بل ومقلق في أنظار المحيط. ففتاة حتى ذلك الحين صادقة وجادة تمضي في رواية حكايات وهمية على نحو أو آخر وتدعمها بكل عناد. فلدى الفتيان ترضي تلك الحكايات طموحهم؛ ولدى الفتيات، تحمل معانٍ عشقية.

ونحن نعرف فتيات طبيعيات ومتكيفات جداً من وجهات نظر أخرى، ومع ذلك تتبادلن رسائل الحب، ليس فقط من أجل التباهي بها تجاه صديقاتهن، إنما من أجل إضفاء بعض الواقعية على خيالاتهن. فالكذب يستخدم هنا لغايتين، أولهما لتخفيف عبء التوترات القادمة من المتطلبات الشديدة التي تنسجها الحياة التصويرية وثانيهما لحماية الكاذبة من التحقيق الفعلي. وما يميز بشكل أساسي أصناف الأحلام والأوهام هذه، أنها تنقل للآخرين على أنها أحداث واقعية. إن الإرضاءات الخيالية للرغبات الطموحة أو العشقية، إرضاءات تتخذ دون مراعاة الواقع الخارجي، تشكل جوهر تلك الأحلام، وتحد هذه الروايات الخيالية بالمادة الضرورية. وبما أن الأحلام تقتصر أحياناً على إسقاط روتشة خفيفة لموقف محزن، تتكون في أوقات أخرى بابتكار وهمي يناقض الواقع بشكل مباشر، والرواية الوهمية الناتجة منه تنطلق عن أمر مبتذل للحب أو من إرضاءات للغرور في مغامرات ذات تعقيد حافل بالحب. وبما أن تلك الحالمة هي التي تحيك الرواية فإنها تملؤها بالأمنيات المبتكرة الأكاذيب، وتضع نفسها دوماً في مرتكز الأحداث.

ومع ذلك فهناك فرق جوهري بين الاثنين، ففي حين أن التي تحلم وتسترسل بأحلام اليقظة تتصف بالحياء وتستثني من ذلك فقط الصديقات الحميمات النادرات، أما التي تحيك الرواية فهي تزعج الأخريات بأوهام تعرضها عليهن كوقائع. وغايتها بذلك تذوق الإشباع الذي تجده في التعبير عن نفسها؛ وأحد أسباب تصرفها يكمن بشكل واضح في الكشف عن الرواية في حين أن التي تحلم تخفي بعناية.

فتلك التي تسترسل في أحلامها تدفع فضلاً عن ذلك إلى اعتبار خيالاتها كحقائق، وتجد بهذا جزءاً من متعتها. أما التي تحيك الرواية فتبدي باللجوء إلى الواقع رغبة أشد وهذا التشديد لكي تقدم للأخريات إنتاج خيالها كحقائق.

والحالة التالية هي تصوير جيد لما أتينا بالحديث عنه[1]. فلقد حدث لهذه الفتاة، مابين الثالثة عشرة والسابعة عشرة من العمر، تجربة لافتة. فهي فتاة جذابة وذكية وذات طابع جامح. ولم تنقصها فرص العلاقات الغرامية لكنها كانت

[1] Deutsch, H.: Uber die patologische Lüge (pseudologia phanatastica), internat. Ztsher f. Psychoanal., vol. 8 , 1922.

تتجنبها دوماً بقدر كبير من الحذر. وهناك طالب في حوالي السابعة عشرة من العمر، ودون مناقب كبيرة ولا تعرفه إلا بالنظر، وحاز على أن يكون بطل خيالاتها العشقية. والتي كانت شغوفة به لأقصى حد، من قبلات جنونية وعناق محتدم ونشوات جنسية، إذ أن خيال الفتاة يعيد ابتكار كل ما يمكن للواقع أن يعطيه لامرأة ناضجة جنسياً. إنها تسترسل في لحمها لدرجة تقودها، في عزلتها، إلى حياة ملؤها الأفراح والأشجان؛ وغالباً ما تذرف عيناها الدموع لأن عاشقها أصبح طاغية ويخدعها وحتى يضربها؛ وبعد هذا تجلب الزهور وهي مفعمة بالحب والتي اشترتها بنفسها في الواقع. إنها تتخذ تدابير لتحصل على صورة له وتسجل عليها كلمة إهداء غرامية. وتخرج معه بمواعيد إلى أماكن ممنوعة، ويعقدان الخطوبة سراً، الخ. وهي تكتب على مدى ثلاث سنوات مذكراتها المفصلة عن كل تجاربها الخيالية؛ وعندما يتغيب حبيبها، تبقى على صلة معه بكتابة الرسائل التي لا ترسل أبداً والتي تجيب عليها بنفسها.

إن ما يهمنا في هذه الحالة أن هذه الفتاة تتحدث إلى جميع الناس عن تلك العلاقات الغامضة، وتتحدث عنها كما لو كانت حقائق، معرضة نفسها للهزء والعقوبات، ولو تعرضت للتأنيب، فإنها تعترف دوماً بندم بأنها لا تكذب إنما تبقى متمسكة بهذه العلاقة المذنبة. وتظهر أقوالها مقنعة لدرجة أن أي شخص لم يشك بحقيقتها، حتى بعد إنكار الشاب البريء.

وكما ذكرنا، كان يمكن لهذه الفتاة أن تعيش تماماً بواقع كل ما ابتدعته. إنما مجموعة أسباب تحملها على تفضيل الابتكار. فأن تحيا حياة غرامية بمحض خيالها وحول أداة مختارة، فهو شيء، ذكرنا ذلك آنفاً، طبيعي بالنسبة لفتاة بالغة. (وقد رأينا عن ذلك مثالاً متطابقاً في مذكرات ماري باشكير تسيف). لقد حددت خيارها بموقف لا شعوري تجاه أخيها؛ وهنا لدى خيارها العشقي، نجد عاملاً مؤخراً، مع أنه طبيعي. فالطبيعة المؤخرة الترجيعية لخيالات الفتاة المراهقة كثيراً ما تظهر في أدوات واقعية مختارة عموماً شبيهة لدرجة كبيرة بالأدوات القديمة، أي الأب أو الأخ. وبتأثير البلوغ، تسعى فتاتنا الناسجة للروايات الوهمية إلى تركيز رغبتها على أداة واقعية إنما لا تتوصل إليها بالكامل. وهي تختار أداة على نموذج أخيها إنما لا تكون قادرة على إقامة صلة غرام فعلي معها. فنوع العلاقة التي ترغبها

ينبغي أن تكون خيالية وغير واقعية. ولقد تجنبت تلك الفتاة بعناية كل فرصة للاقتراب من فارس أحلامها. وفضلت الوهم بحد ذاته، وتشعر في داخلها أن أخاها الذي كانت وفية له بشكل لا شعوري، والأداة الواقعية يمكن أن يندمجان. فقد كان لها تجارب واقعية مختلفة مع أخيها، خلال مرحلة الطفولة، تجارب مكثت في لاشعورها، وفي لحظة معينة، عاشتها من جديد وبكل قوة بتجربة جديدة. لقد تزاوجت التجربة القديمة بالأداة الجديدة والواقع السابق أضفى طابعاً واقعياً على الخيال الحاضر.

هذا الانبعاث الجزئي لأحداث واقعية قديمة يميز روايات الخيال لمرحلة بلوغ أكثر طبيعية. ويلاحظ " فينيشل"[1] بحق أن الرواية الخيالية للواقع تشكل حالة خاصة بنفي الواقع. وخلالا مرحلة البلوغ، كل واقع قادر أن يشبع الشهوات الجنسية قد يبدو خطراً ويتلوه ارتداد نحو الخيال والرواية الخيالية. فالرواية الخيالية تستخدم في الدفاع؛ وتتخذ الفتاة المراهقة من خيالها واقعاً لرف واقع تظن أن هلا زال خطراً. حالة أخرى في الهروب من موقف اليم مباشر تكمن في إرجاء تحقيقه آجلاً. فالفتيات تجد لــذة في رسم مخططات تفصيلية لمستقبلهن، وحدهن أو مع معاونين مناسبين. وتنطلــق هذه المخططــات من المبتذل والتافــه إلى الوهمي والمستحيل.

وغالباً ما تهتم الفتاة بإكسسوار عديم الأهمية لمطبخ بيتها المستقبلي قبل أن تعرض عليها أصغر فرصة للزواج وأخريات تتحمسن لظروف حافلة بالحب والمغامرات وتبنين، للإقامة في المستقبل، قصوراً رائعة في " اسبانيا ". وتتردد المشاريع العشقية بين ولع وشغف تعاني منه العاشقة الخيالية وبين آلام معذبة مفجعة.

ومع ذلك، فهذه التخيلات والأوهام ليست بلا مخاطر، وتكافح الفتاة للتمسك بهذه التجارب. وغالباً تفعل ما فعلته في مرحلة ما قبل البلوغ في السعي للتحرر من التعلق الطفولي. فتتجه بنشاط نحو الواقع، وتتوصل، ضمن الظروف الطبيعية، إلى تسوية. فالواقع قد لا يخلو من عناصر المتعة، ويقدم إرضاءات كافية،

[1] Fenichel, O. : Zur Ockonomie der Pseudologia phantastica , internat, Ztschr. F. Psychoanal. , vol. 24, 1938.

ويتضح أنه مثيراً بما فيه الكفاية للتباري مع التخيلات. لكن هذا السعي نحو الواقع ليس دوماً مكللاً بالنجاح. ففي البداية، يضع العالم الخارجي العقبات في وجه المتعة الجنسية للفتاة المراهقة ويدفعها نحو أحلامها. ومن ثم فإن عالم الخيال غالباً ما يكون غنياً وحامياً مع الواقع الشاحب والمخيب للآمال. فإذن الحلم بزهو ألوانه يفضل عن الواقع الرمادي.

ولدى كثير من الفتيات، يتخذ التوجه نحو الواقع شكلاً يخلق لهن مشاكل جديدة. فلقد رأيت فتيات، على سبيل المثال ترتمين في أنشطة جنسية مكثفة، خوفاً من تجارب جنسية سلبية. وتبتغين التغلب على الخوف بالطريقة التقليدية "التدخل النشط"؛ لكن التجارب التي أثرنا بها أنفسهن شكلت ثقلاً على مناكبهن وخوفهن لم يقم إلا بتغيير الأداة. واستبدل الخوف من إشباع الغرائز الجنسية بالملامة على معاملة الكبت الجنسي بقسوة شديدة.

كما هناك فتيات معاصرات لهن تجارب جنسية قبل أن تتهيأن نفسياً لذلك؛ وتسعين لتجنب الانتظار الضروري للإعداد النفسي الحقيقي. وهن تخجلن من كبتهن الجنسي وتنكرنه، وتصبحن فريسة للضيق النفسي والاكتئاب. وتتخذ الحرية الجنسية الظاهرة أحياناً شكلاً هاجسياً واضحاً. وترتبط الفتاة بعلاقات جنسية متعددة وهجر من عشاقها أو تهجرهم مراراً وتكراراً، ومعتبرة نفسها كـ "متحررة"، وهي لا ترى أن أفعالها أفعال مخلوق خاضع لاحتياجات وخيالات لاشعورية أقرب من أن تكون "كائناً إنسانياً حراً ". ولعل السلوك المعاكس ينطوي على مخاطر. فتجنب كل تجربة واقعية بخوف مفرط يؤدي إلى تعزيز الحياة التخيلية، كما يؤدي إلى أعراض عصابية وسلوك مرضي. وتأتي من هنا مختلف الميول لـ "الهرب" والتي لا تكتسب دوماً شكلاً بدائياً مباشراً كما حصل مع إيفلين. ولدى فتيات أكثر نضجاً، يكون " الهرب " باتخاذ مهنة ليس لهن فيها أية مصلحة واقعية، أو الانتماء إلى فصيلٍ سياسي ما، أو تعبد ما أو جماعة دينية. إن ما تبحثن عنه حقاً بمثل هذه الأفعال، ليس تحرراً من وسطها إنما هرباً من تخيلاتها الشديدة المكتسبة طابع الجنس. وثمة فتيات لهن غالباً ميلاً في إلغاء الحب من حياتهن إلغاء كامل. فحتى لو كان لهن تطلعات إنسانية سامية، اجتماعية أو علمية ، فيفوتهن الغنى الروحي الذي تجلبه التجربة العاطفية. هذا النمط من الفتيات، الذي هجر كل حياة

عاطفية، يدع نفسه في المضي عبر مراحل طويلة في "موضوعية " نرجسية باردة؛ ويكمن الخطر هنا في نجاح هذا التسامي التام والذي قد يبتر الحياة العاطفية بشكل قاطع. وأولئك الفتيات يهددهن العصاب خلال حياتهن اللاحقة.

فالنشاط السليم والطاقة الاجتماعية والعقلية التي تبذلها الفتاة التي تتخلى عن خيالاتها غالباً ما تفسد حياتها العاطفية وتمنعها عن بلوغ أنوثة كاملة وفيما بعد ذهناً أمومياً حقيقياً. فأن تتوقف بعض النساء عند أشكال طفولية من الحياة العاطفية في الوقت الذي يكتسب فيه ذكاؤهن ونشاطهن نمواً كبيراً، إنه أمر مثير جداً ويتطلب شرحاً ما . إذ يبدو أن الانتقال من الحياة التخيلية إلى نضج أنثوي كامل هو إتمام نفسي قد يردع العقلانية.

وسندرس بعد هذا مطولاً عما هو الترابط الموجود بين فتاة طموحة تتفجر بالطاقة والتي توصلت إلى غاياتها بجهد كبير، وكانت قادرة على صد شهواتها الجنسية، وبين التي توقفت حياتها العاطفية خلال هذا الطور، بما نسميه عقدة الرجولة. تتعارض هذه الفتاة تعارضاً مباشراً مع أخرى بلغت أنوثة كاملة عشقية وجنسية مقابل تبعية كاملة لأية موهبة أو طموح. فالنمو الطبيعي يكمن في التواجد المنسجم لهذين التطورين.

فبعض المراهقات، الخاضعات منذ طفولتهن لتأثير كريه لأخلاقية قاسية جداً أو اللواتي تعانين من إحساس قوي بالذنب لاشعوري، تبدين تأثراً بصورة خاصة في الأطوار النفسية لنضوجهن. فجميع النداءات الحرة للمستقبل هي الآن متحجرة، والحاجة للحرية والجوع للعشق تخلي مكانها لصالح مبادئ أخلاقية صارمة. وكلما أظهرت خطراً في انتهاك هذه المبادئ، يتفعل صوت " جرس إنذار" القانون الداخلي. فيضاف التخلي الجديد إلى القديم، وإذا ما التجأت الفتاة إلى أحاسيسها بالذنب فليس مقابل التخلي والزهد. إن فتاة زهدية إلى هذه الدرجة لديها الاستعداد عادة للعصاب الهاجسي؛ ويتواجد هذا الاستعداد بالتأكيد سابقاً، لكنها تعترف به خلال صراعات وتخوفات مرحلة البلوغ. وإذا ما أخفقت تلك الفتاة في أن تتطور بطريقة أقل كبتاً، فستصبح عصابية هاجسية أو عانس موسوسة.

ويبدي النمط الآخر إقلالاً في الضبط والكبت منذ الطفولة وحتى المراهقة؛ والفتاة هنا تعاني من التكيف مع وسطها وتعي " مشكلة المراهقة " أكثر من النمط

الآخر. إنما القاعدة العامة، عندما يكون تأثير المحيط صالحاً وموافقاً، فيكون لديها إمكانيات أكثر للنمو اللاحق.

وتظهر الفتيات المراهقات، حتى اللواتي تربين في نفس الظروف وخضعن لنفس التطورات البيولوجية، فوارق كبيرة في شخصياقمن الغير مكتملة بعد إنما قد ارتسمت بوضوح. فإحداهن، حيوية جداً، تتحدى وسطها؛ وأخرى، سلبية ورخوة، تخضع للتسلط و" القدر"؛ وأخرى، شديدة النشاط ، عاجزة عن انتظار مستقبلها وترتضي بالتخيلات مع ذاتها. وبعضهن لا تقبلن أي تقييد لرغباقمن ويجب أن تشعرن بإطلاق تخيلاقمن الفاجرة. تلك الحياة التخيلية الغزيرة تزيد بالتأكيد خطر التفاعلات المرضية، إنما تقد م كذلك فرصاً للنمو الأنثوي وتغني الشخصية برمتها. ويتصف نمط آخر بغيات محددة جداً، وتمنيات وتخوفات دقيقة. الفتاة هنا تملك نضوج مسبق؛ ويتبع قدرها طريقاً معداً مسبقاً بحيث لا يمكنها تغييره. وهي تسيطر في البداية على الفتاة الطفولية، الطافحة بالحيوية والعواطف، المتهيجة والمتقلبة والتي من عمرها، لكنها تحمل في نفسها إمكانيات أقل من حيث النمو.

ومهما تكن الاختلافات، فجميع تلك الفتيات تعتبرن حياقمن الحالية حياة مؤقتة بشكل أساسي وتعانين من نزاعات داخلية إلى أن يشق الطريق باتجاه إتمامها. ويعاني الشبان من كلا الجنسين، طيلة فترة مراهقتهم، من شعور بانعدام الأمان، والشك، والقلق الداخلي.كما أن الطريق القويم للتطور وسعي الأنا للتكيف مع الواقع والضبط يقطعه بلا هوادة موجات تصاعدية من الشعور الجنسي. وخلال تلك المرحلة، يكتسب الفارق بالمظهر الخارجي بين الجنسين أهمية كبرى أكثر من السابق. والتباين العضوي في النشاط الخارجي للجهاز الجنسي للفتى يكون نشاطاً لدى الفتاة في المجال النفسي لأنه مخفف لديها أكثر ومحرّضاً أقل وتصوره أقل إدراكاً.

وخلال كامل تلك المرحلة، يظهر الشبان ميلاً للتوجه نحو الواقع والاسترسال في الخيال. إنما يبدو أن الإحساس الجنسي الأنشط للفتى يدفعه بحيوية أكثر للاتجاه أيضاً نحو الواقع وغزو العالم الخارجي. ومن هنا تأتي أهمية الفارق بين الجنسين: فانتباه الرجل موجه على الأخص نحو الخارج، أما المرأة نحو الداخل. هذا الأثر النمطي لمرحلة المراهقة والذي درسناه آنفا، وهذه الفضولية الشديدة

للتطورات النفسية الخاصة، تكون أشد لدى الفتاة مما هو لدى الفتى، هذا الاهتمام بذهنها الخاص يستمر خلال حياة المرأة وينحصر تعلقها بسمتين هامتين للروح الأنثوية، بداهتها وحسها الداخلي الكبير جداً وذاتيتها الكبرى في استيعاب وتقييم تطورات الحياة. ويوضع حجر الزاوية لهذه السمات الأنثوية الرئيسية خلال مرحلة المراهقة.

كما نجد فارقاً آخراً هاماً بين الجنسين من ناحية إنجازات المراهقة في ميولها للاندماج. هذا الميل ليس، بحد ذاته، خاصاً بالفتاة. إذ هنا من الواضح فوارق بين الفتيان والفتيات في استهداف الأدوات والاندماج بها، الخ. ، إنما يصدر التطور بحد ذاته من نفس حاجات الأنا الذي لا زال ضعيفاً وله، كقاعدة عامة، الهدف نفسه لدى الجنسين.

فالفتى يطرح ألماً أقل من الفتاة في مرحلة الاندماجات؛ ويحتويها في شخصيته بصورة أفضل. وفي حقيقة القول، يبني قليل من الفتيان شخصيات قوية ومستقلة بقدر كاف للتمكن من التنازل عن كل اندماج. لكن أنا المرأة يبدو متأخراً أكثر (وفي بعض الحالات يستمر التأخر كل الحياة) في هذه المرحلة من المراهقة حيث الميل إلى الاندماج يكون شديداً. وإذا فسر ذلك بالعناصر المشكّلة لطبيعة المرأة أو بالتوجه الأكثر نشاطاً للفتى نحو الواقع، فهنا سؤال تصعب الإجابة عليه. إذ أن نفس العناصر المشكّلة تتحكم بميل المرأة للاندماج والتي تسد الطريق بوجه ميل أنشطتها التي تتجه نحو الواقع الخارجي. هذه القوى مسؤولة كذلك عن آثار أخرى للطابع الأنثوي كالتي تحدثنا عنها آنفاً، حسها الداخلي الكبير وذاتيتها. لعل القاسم المشترك لهذه الصفات المختلفة، هو السلبية المتأصلة بعمق في المرأة إزاء جميع تطورات الحياة والتي لا تخص الوظيفة التناسلية.

وفيما يخص ميل المرأة للاندماج، فلقد ذكرنا كم تقدم لها هذه الصفة الأنثوية تنوعاً فردياً. فالاندماج لا ينبغي أن يتجاوز بعض الحدود تحت طائلة الخطر على الأنا. فكلما زادت ثقة المرأة بنفسها والشعور بقوتها، قلّ خطر هذا الميل. وعندما يتم تجاوز الحدود الطبيعية، يكون الأنا مهدد ويحرم طور الاندماج الفرد من أن تأخذ شخصيته أبعادها. ويرى فرويد[1] في " الشخصية المتعددة " النتيجة لطور

---

[1] Freud, S.: Le moi et le ça.

تؤدي تعدد الاندماجات فيه إلى تجزئة الأنا. ويقود ذلك إلى تطور داخلي نقي يتعلق بتشكيل الأنا، وهو تطور يتعارض مع نمط وصف يكون فيه الأنا مندمجاً باستمرار مع أدوات خارجية عوضاً عن أن يقيم علاقات عاطفية[1] مع أدواته.

وسيؤدي التطور النفسي للاندماج في حالة ما إلى مرض خطر على نحو أو آخر بينما، في الحالة الأخرى، سيحلّ أموره بشكل طبيعي أكثر. ونحن نجد فرصاً أكثر لدى المرأة مما لدى الرجل لملاحظة جميع أنواع الاندماجات التي تبقى ضمن الحدود الطبيعية.

وكثير من النساء تبدين ميلاً نمطياً قوياً في التخلي عن رأيهن الخاص وتبني بفعل الاندماج آراء أدوات حبهم.

وأحياناً أخرى تتحمس لأفكار تلقينها من الغير. إنما بإلقاء نظرة عن قرب نجد أن هذه الأفكار تصورها وتغذين بها مسبقاً في خيالهن. إن تبني أو تحقيق تلك الأفكار لا يكون ممكناً بالنسبة لهن إلا بالاندماج مع أشخاص آخرين. ونساء موهوبات أيضاً لا تؤمنّ بقيمة أفكارهن إلا عندما تتلقينها من آخر تقدّرنه. وهذا التناسق اللافت للعرض والاندماج هو دون أدنى شك على صلة بالموقف السلبي للمرأة بشكل عام: وهذا الشعور بانعدام الأمان في نشاط خلاق متوافق مع هذه الحاجة المتجذرة تجذراً عميقاً في المرأة لأن تكون خصبة من الخارج للتمكن من الخلق.

إن الميل للاندماج يمكن أن يتخذ أشكالاً مرغوبة جداً. وهكذا فالنساء تسخر ميزاهّن، وغالباً الممتازة منها، في خدمة أداة اندماجهن وتكتفي بالتفكير: "كم هذا الرجل الذي أحبه ملفت للنظر!" إهّن تفضلن التلذذ بميزاهّن الخاصة في تجريب الآخرين. ومن جهة أخرى، فالنساء الطموحات، واللواتي لسن نشيطات وموهوبات إلى حد كاف، لا تتمكن من إرضاء طموحهن إرضاءً مباشراً، وتسعين في إيجاد تعويض عنه في الاندماج بالرجال. وهن تكافحن بأقصى طاقتهن لفرض زوجهن، وهن عدائيات بعنف مع الذي لا يشاركهن الإعجاب، وتتصرفن عموماً وكأن مبالغتهن في التقدير تعبيراً عن حبهن. وفي أعماق أنفسهن، لا تؤمنّ بقيمة

[1] Deutsch, H.: Some forms of emotionnal disturbance and their relationship to schizophrenia, Psychoanalyt. Quart. , vol. II, 1942.

الرجل اللواتي تعجبن به بقدر من الحماس، وليس محبة به، إنما لكي ترضين به طموحاتهن الخاصة.

وهناك نساء، رغم غنى موهبتهن لا تستطعن التطور أبعد من حدود معينة. أولئك النساء قابلات للتأثر واندماجاتهن متغيرة جداً بحيث لا تتوصلن أبداً إلى ترسيخ ما أنجزته. وعوضاً عن الاختيار العقلاني من بين الفرص المتعددة التي تقدم لهن، تتعرض باستمرار لتشوش يهدم حياتهن وحياة من يحيط بهن.

وقد نعتقد أن هذا الاندماج السهل بالغير يزيد القدرة على التكيف. فعند المرأة هذان التطوران لا يتماشيان دوماً؛ فقد بينت لنا ملاحظات شديدة ومثيرة في الواقع أن العكس هو الصحيح. فالمرأة التي تقترب من نمط شخصية متعددة، كما وصفها فرويد، قادرة على التخلي بشكل كامل عن شخصيتها الخاصة واستيلائها على اهتمامات الرجل واندماجها الكامل به. كما تعتنق اهتماماته الفكرية، وأفكاره الثابتة ومواهبه وحتى خطه وطريقته بالوقوف. وتستخدم أولئك النساء الصفات التي تمثلنها كما لو أنها لهن، وتعيدها ضد نفس الرجال الذين استعرنا منهم. ويبدأ الأمر بتقليد لطيف قد يتخذ رويداً رويداً طابعاً عدائياً : " أنا لست بحاجة إليك، وأقدرك حق التقدير! " إنها امرأة مندمجة اندماجاً قوياً برجل ويمكن بنفس الوقت أن تعارضه بطريقة هدامة مدافعة عن حقوقها تجاهه في كل الظروف.

وعلى عكس ذلك تماماً، نتحقق أحياناً من امرأة تحتفظ بشخصيتها الخاصة، بالإضافة إلى تكيفها بيسر مع الرجل. كما لو أن مظهرها قد صنع بطريقة ناعمة تتكيف مع الواقع تكيفاً تاماً بينما ما هو خلف هذا المظهر قاس لا يتقولب كالرخام. نصادف هذا النوع من التكيف أحياناً لدى النساء ذوات الطباع العظيم وهو يخص بعض الأعراق وبعض الأمم. أولئك النساء تتكيفن مع وسط جديد بيسر لافت إنما تبدو تمتلكن خصائل متينة وعميقة والتي لا تطالها التأثيرات الخارجية، وهكذا تقاومن بعناد أي تمثل كامل. ومن الجائز وجود رباط ضيق بين هذين النوعين : الموهبة في معرفة التكيف مع الحفاظ على نزاهتهن، ومركز كيانهن الغير قابل للتبديل.

إن السهولة التي تندمج بها النساء تعرّضهن لـــلوم، المبرر أحياناً، بالرياء (الطباع المخيّب للنساء). فبعضهن من الحذرات تحزرن بمهارة أي موقف ينبغي

اتخاذه أمام الرجل ليحسّ نفسه أنه ذو شأن. ونجاح كثير من النساء في مجالات هامة من الأنشطة يعود إلى هذا النوع من التكيفية. فما تقلنه لرجل، تستخلصنه من آخر تظهرن أمام أحد ما قليلات الأهمية وصغيرات ومع آخر لا تهدرن بوصة من طولهن للظهور بأنهن قادرات للتوصل إلى مستواه. وتقمن بكل ذلك مع ميل واع على نحو أو آخر في منح الغير إرضاءً نرجسياً ويحس نفسه ذو اعتبار ويعجب بمعجبته دفعة واحدة. إنهن لا تسعين وراء حب عادي، إنما تستخدمن جاذبيتهن اللواتي تمتلكنها لأغراض طموحاتهن الخاصة. وإنهن خطرات جداً وعلى الأخص عند صراعهن مع نساء أكثر موهبة منهن، واللواتي تستهدفن جهاراً غاياتهن الطموحة، مع كونهن منبوذات ومتهيبات من قبل الرجال. وسنعود لاحقاً إلى هذا النمط الأخير من المرأة. أما الآن فنريد إظهار كيف ينطوي استعداد المرأة للاندماج على مجموعة كبيرة من الاحتمالات. فتلك هي ميزة أنثوية فطرية تنبع من ضعفها وسلبيتها، ويمكن أن تستخدم أغراض متنوعة وأحياناً متناقضة. والأمر هنا مختلف تماماً حسبما يستخدم الاندماج لأغراض الحب أو الكره، وحسبما يأتي من الينبوع البارد للرجولة (رغبة أن تكون "مثله") أو من الينبوع الحار للأنوثة (رغبة " فهمه" محسسة أنها " مثله").

لقد تطرقنا آنفاً لتلك المرحلة من المراهقة والتي يبدي خلالها الفتيان والفتيات تفهماً دقيقاً لحالاتهم الداخلية. وفسرنا ذلك بالملاحظة الذاتية النرجسية وبتلك الأهمية المتنامية لتطورات الحياة الخاصة النفسية التي تميّز ذلك العمر. فخلال ممارستي للتحليل النفسي، صادفت موضوعاً يمكن له أن يوضح هذه النقطة، بالإفراط المرضي لهذا السلوك. عناصر هذا النمط، الموهوبين بحس داخلي خارق بالنسبة للتطورات النفسية وقابلية ملاحظتها وفهمها، يركزون نشاطهم على حياتهم الخاصة الداخلية ولهم موقف سلبي بشكل ملفت تجاه العالم المحيط بهم ولديهم ما أمكن من التكيف مع الواقع إنما يدعون أنفسهم مسيرين بشكل كامل من الناس والأشياء. وتبدي التحليلات أن تصوراتهم تؤدي إلى ملاحظة شديدة لذواتهم لأن لديهم ما يدافعون به عن أنفسهم إزاء الأخطار الداخلية. ولنا علاقة هنا بآلية دفاع حيث يتصرف الشخص كأحد يصغي بقلق في حلكة الظلام ويسمع كل ضجة بحدة خاصة جداً. وقد قال لنا أحد هؤلاء الأشخاص كان يلاحظ بأقصى الانتباه

لكي لا يصير مجنوناً، مبيناً هكذا بوضوح أنه كان يعترف بإدراكه الحسي الداخلي لآلية الدفاع. كما كنا نلاحظ أيضاً بيقين، لدى هذا الشخص، أن الضيق النفسي المردود كان يزيد شدة ما أن تضعف المراقبة الذاتية للدفاع. وفي إحدى الحالات، زاد الضيق النفسي بلا انقطاع أثناء العلاج، وجعل الشخص يبدي أفكاراً ذهانية. وهكذا يمكننا ملاحظة " الحالة الناشئة " التحول من الإدراك الحسي الداخلي إلى إضفاء يصبح الملاحظ الداخلي فيه مضطهِداً في العالم الخارجي.

وهكذا تسمح لنا تجربتنا مع أولئك الأشخاص أن نفهم بعمق أكثر هذا "الإحساس الداخلي" والذي تمتلكه النساء أكثر من الرجال. ومن المهم جداً فهم هذا الإحساس لأن الحدس، وهي السمة البارزة جداً عند المرأة، يُشتق منه.

ولنتذكر مرة أخرى تلك المرحلة الختامية من المراهقة والتي يتوجه فيها الفتى بقوة ونشاط نحو الواقع في حين أن الفتاة تهب نفسها ولفترة طويلة وبكثافة شديدة للحياة التخيلية. إن الاهتمام الشديد المتوافق مع الحياة التخيلية يؤدي إلى مخاطر على الأنا ويتطلّب كياناً داخلياً أكثر يقظة، أي أذن صاغية بعزيمة أكبر "في الظلمة". فقابلية الملاحظة الذاتية التي تنمو خلال مرحلة المراهقة هي تحت تصرف المرأة لمجابهة هذا الخطر النفسي. وفي البداية تعمل هذه القابلية كآلية للدفاع، وإذا اتبع تطور المراهقة نحو الأنوثة مجرىً صالحاً، فتترسخ كصفة ذات توصيف إيجابي. وإذا لم تلعب الملاحظة الذاتية، خلال المراهقة، دورها بهيمنة صارمة ولم تدفع الفتاة إلى رفض حياتها الخيالية، فالمزاوجة بين غنى الخيال والحياة العاطفية، وبين الذاتية والإحساس الداخلي تولّد " البداهة أو الحدس"، وهي العنصر الهام الذي سمّاه غوته " الأنثى السرمدية ". ويتضمن هذا التشكيل جزءاً من نرجسية الفتاة المراهقة، وإذا لم يتطور إلى حب أناني للذات، فهو يهب المرأة هذه الصفة القوية، وذلك السحر الذي ينطق بعبارةٍ : " أحبني لأني أيضاً لدي ما أمنحك إياه".

لعل التفهم الذي تكنّه المرأة لروح الآخرين وحدسها، هما نتيجة تطور لاشعوري تعتنق بحسبه مماثلة التجربة الذاتية لهم وتفهمها مباشرة. وتجربتهم الذاتية تتجلى في حدث خارجي بالكاد أن يكون مدركاً، إنما لدى شخص حدسي، يستدعي بإشراك سريع حالة داخلية محددة؛ فالإحساس الواعي يهدئ سريعاً التفاعل الداخلي، ويدمج الانطباع الوارد في سلسلة منسجمة من الأفكار، ويضبط

عنصر "التطلع"، وينتهي إلى معرفة واعية بشكل متواضع. وبما أن هذا التطور برمته سريع جداً، فمرحلته الثانية، التهيئة العقلية، بالكاد أن تدرك، وكل هذا يبدو أنه يحدث في المخطط اللاشعوري والعاطفي لأن ما هو مدرك لا يظهر للوهلة الأولى.

نحن لا نجد في الحدس تسلسلاً منطقياً للانطباعات؛ بل على العكس، في كل تجربة حدسية، تكون الحالة العقلية للغير مجرّبة ثانية عاطفياً ولاشعورياً، أي يحسها خاصة به. وتتعلق إمكانية تحقيق ذلك طبعاً بالتعاطف والحب والتآلف الروحي، ومن أجل ذلك وجدت في اللغة الألمانية كلمة Einfühlung (تترجم أحياناً إلى الانكليزية بـــ "Empathy ") وتتعلق بغنى التجارب العاطفية الخاصة، هذا الغنى الذي يفترض "إدراكاً حسياً داخلياً" أو قابلية لفهم مشاعره الخاصة وعلاقاته النفسية وبمماثلة مشاعر الآخرين. هذا التعريف المختصر للحدس يصف قابلية تخص النساء بقوة. وللحذر أكثر نستبدل كلمة "قابلية" بكلمة "إمكانية" لكي ندلل على أن النساء لا تتمكن دوماً، بل حتى لا تتمكن ربما غالباً استخدام حدسهن، إذ أن تفعيله يتحدد أيضاً بعوامل أخرى. فجميع الكائنات الإنسانية لها تشكيات (علم التحليل النفسي يدعوها ممانعات) تجاه ميولهم الخاصة وتجاه إمكانياتهم[1]. هذه التشكيات قد تشكل بالطبع عائقاً أمام الحدس وأمام قابلية فهم الآخرين. وكذلك التطبيق العملي للحدس الأنثوي غالباً ما له مآخذه. إذ ترتكب النساء أخطاء فادحة في حكمهن على الآخرين وفي سلوكهن مع الآخرين، وحتى حين تمتلكن موهبة حدس شديد. فبعد كل خطأ، وبعد كل إحباط، تلاحظن أنه بالواقع توقعن ما سوف يحصل، لكن "شيئاً ما" منعهن من استخدام ملكة الحدس بشكل صحيح. وليس لدينا هنا النية في دراسة الدوافع العميقة لسلوك ما. فهناك ميول ماسوشية تلعب دون أدنى شك دورها في ثمة حالات وتخلق شروطاً غير مناسبة للاستخدام العملي للحدس. فالحدس ليس دوماً سلاحاً كافياً لضبط العالم الخارجي؛ فهناك طرائق أكثر موضوعية في النقد العقلاني وهي ضرورية غالباً لاستخدام هذه القابلية على نحو فاعل.

ومع ذلك هذا النمط من المرأة الذي ندرسه الآن يكون عادة منــــزعج ، في استعمال حدسه، لأسباب أخرى . أولئك النساء تقترفن خطأً بائساً في نقل القيمة

[1] Deutsch, H.: A discussion of certain forms of resistance, internat. J Psychoanalysis, vol. 20 , 1939.

التي يرينها؛ في ذواهن إلى مجال آخر. وهن تمتنعن عن الاعتراف بميزاهن الأنثوية، وبالحكم الذاتي العاطفي، وعوضاً عن الانتفاع من هذه الصفات الأنثوية الإيجابية، تسعين إلى المزيد من "الموضوعية" و" برودة الأعصاب "، أي إلى صفات أقل انتماء إلى طبيعتهن. وكان لي فرصة مع فتاة شابة لدراسة صعوباتها في التطبيق العملي لحدسها فقالت لي أنها لم تكن تستطع التذكر دون ذعر السلوك اللاعقلاني والعاطفي النقي لأمها. فسألتني : " أليست جميع النساء هكذا ؟".

بإمكاننا الرد إيجابياً على هذا السؤال: نعم، كثير من النساء هكذا، حيث كل إمكانية إنسانية يمكن أن تستعمل بطريقة مخالفة أو غاضبة كما تستعمل بطريقة فعالة. إنما هذا الميل " اللاعقلاني " يمكن أن يصبح منفعة ورفضه يؤدي إلى إفقار داخلي لا يستطيع إلا منع أية موضوعية عقلانية. فقيمة المرأة تتعلق بالطريقة التي تعالج بها المركّب اللاعقلاني لنفسيتها.

ولدى موافقتنا على امتلاك النساء لحدس خاص، لا نريد نفي وجوده لدى الرجال. فيمكن لتجارب مرحلة المراهقة لديهم أيضاً أن تمتلك تأثيراً سعيداً ودائماً. إنما يمكننا القول أن رجل حساس وحدسي لديه مركب أنثوي قوي في شخصيته. وذلك يبدو صحيحاً وخاصةً لدى الرجال الموهوبين بالفنون وأولئك الذين تتطلب مهنتهم التفهم النفسي للآخرين. وقد لاحظنا بحق أن الأعمال الأدبية الذكرية بينت غالباً فهماً معمقاً للروح الأنثوية. وبالطبع يستخدم هؤلاء الرجال قواهم المتسامية لأنوثتهم للاندماج مع المرأة بشكل فاعل. ومن ناحية أخرى، يدين أدب العلم بأسره بما فيه الأدب الحديث للنساء في أعمال نفسية عبقرية. وبرأينا، مجرّد رأي لا نحلم بفرضه بصورة مطلقة، أنا النساء البارعات في أعمالهن الأدبية حيث تكفيهن استخدام معطياتهن النفسية تظهرن غالباً عدم اكتفاء عندما تغامرن، لأسباب سياسية أو سواها، في مجالات فكرية بحيث من غير الضروري التطرق إليها موضوعياً. وعندما تتغذى موهبتهن الأدبية مع طي غزارة حدسهن الأنثوي، فإنهن تقدمن أعمالاً عظيمةً؛ لكن عقلهن لا يكون في قمة حدسهن الفطري.

وفي سعينا نحو منابع الصفات الأنثوية الخاصة، يبدو أننا دوماً نعود إلى نقطة الانطلاق. فالمشهدية المؤلفة من:1- الميل الخاص للاندماج 2- الخيال الحيوي جداً 3- الذاتية 4- الإحساس الداخلي 5- الحدس ، تقودنا إلى الأصل المشترك لجميع

هذه العناصر، ألا وهو السلبية الأنثوية. وبغرض التوضيح، سيكون على هذه السلبية أن تكون حاضرة في ذهننا عند تحليل مركباتها.

أحد هذه المركبات هو الميل الذي تمتلكه الفتاة في "التخيل". لقد بيّنا أن الفتى بسبب صفاته النفسية ومظهره الخارجي، أعدّ بشكل أفضل لضبط الواقع الذي بناه، وإن صحّ القول، " قويّ تجاه الواقع" أكثر من الفتاة. غالباً ما نسعى إلى تفسير الإمعان في الحياة التخيلية للفتاة بالشروط التي توجه الجنسين، أي الشروط التي تمنح الفتى فرصاً أفضل في الإشباع الجنسي، وتحميه هكذا من الشطط في الخيال. إن ملاحظة الشبان الحديثين تتيح لنا تصويب آرائهم. فالشروط المختلفة للجنسين ملغاة في هذه الأيام بسبب عاملين: فالفتاة تتصرف بحرية أكثر، وينتظر الفتى أن يكتسب طاقة أكثر من الحب، لينل إشباعه الجنسي. ومع ذلك لا يبدو هذا التطور ذو فعل كبير على الفوارق الجنسية التي ندرسها هنا، وعلينا أن نعترف بأنها تكشف عن أسباب أولية كثيرة، وأسباب بيولوجية.

وهناك عامل آخر يساعد على ميل الفتاة لأن تعيش في الخيال، وهو أن مهمة التكاثر تبدأ بالظهور في حين أن هذه المهمة لا زالت مستحيلة الإنجاز وليس من الممكن أن تواجهها. كما نعثر هنا على موقف تطوري حيث الميل التصاعدي يطلق قوىً مؤخِّرة. إن الافتراض الذي بحسبه تكون أحلام الأمومة للفتاة، التي أصبحت مؤهلة فيزيولوجياً، أكثر واقعية مما كانت عليه خلال مرحلة الطفولة، يرتكز على نوعٍ من الوهم البصري. إن المرأة التي تقترب من النضج هي تماماً في نفس موقف الفتاة الصغيرة التي كانت تضع، في حياتها التخيلية، الأحجار الأولى لأمومتها المستقبلية. كانت تلعب في ذلك الحين بدميتها مندمجة بأمها بنشاط. وحين أصبحت شابة، تهجر هذا الاندماج بشكل طبيعي وتندمج الآن مع ذاتها في الدور الذي ستلعبه آجلاً. وإمكانياتها في التحقيق لا زالت بعيدة؛ تفصلها عنها، رغباتها، ومتاعبها النفسية، واستعدادها للفعل الجنسي. والآن مع اقتراب الإنجاز، الذي يُحس وكأنه خطر كبير، تتيقظ التطورات النفسية بخصوص الوظيفة التناسلية وتُرفض في الفضاء الداخلي للحياة التخيلية، تماماً كما كان ذلك في مرحلة الطفولة. هذا الميل نحو العيش في دائرة الخيال، المتولّد من إمكانية التحقيق الكامنة في الداخل أكثر من الخارج ينتج عن السلبية، وبدوره يزيد في سلبية المرأة وكأن

ذلك ضمن دائرة معيبة. والتخيلات ممكن اعتبارها توطئة للحدث، لكن إشباعها يقع على مخطط نفسي وفي الوقت الذي تتكثف فيه وتغنى الحياة النفسية، تضعف الوثبة نحو التحقيق.

وهكذا تكتسب المرأة ميلاً نحو السلبية ينمي السلبية المرتبطة ببنيتها الظاهرية والبيولوجية. وهي تنتظر الخصوبة انتظاراً سلبياً: فحياتها لا تمتلئ نشاطاً وتجذراً في الواقع إلا حينما تصبح أماً وحتى ذلك الحين، كل ما هو أنثوي في المرأة، فيزيولوجياً ونفسياً، يكون سلبياً ومتلقياً. وما أقوله هنا مرتكز على تجربتي، ويمكن أن يتأكد بتحقق أكثر موضوعية: لا يمتلك أي كائن إنساني معنى للواقع أكثر من الأم. ونلاحظ غالباً بطريقة ملفتة للأنظار أنه، في إتمامها للأمومة التي تتضمن أكبر توجه واضح نحو الواقع، تفقد الفتاة التي كانت قد أظهرت سابقاً حدساً عميقاً هذا العطاء الثمين وتستبدله بصفات أخرى أكثر واقعية.

ولعل الميل الشديد للفتاة نحو الحلم والتجربة الذاتية، مع نشوء الصفة الإيجابية الكامنة في الحدس، ينطوي على بعض المخاطر. فالتنحي بإفراط عن الواقع يعزز الميول العصابية المرضية. فالنمو العقلي للفتاة، وتكيفها الاجتماعي ونشاطها المهني يمكن أن يضطرب بوضوح بحياة تخيلية مفرطة.

وخلال نمو الفتاة تظهر التخيلات والتجارب الذاتية ونمو الحدس. وكلها هنا ناتجة عن التسامي الذي يبقى ذاتياً وعاطفياً والذي يُعد من سمات المرأة؛ كذلك التحقيق الغير ناضج لبعض غايات الحياة لا يبدو شيئاً حسناً حتى لو كان في ظروف ملائمة. فجميع ثمرات التجربة النفسية التي تبدأ بالنضوج خلال مرحلة المراهقة يجب أن تستكمل خلال تطور النضج العام. وحدها الأم التي صعّدت أنوثتها جزئياً خلال مرحلة الانتظار ستصبح أماً حقيقية. أما الملاحظة تبرهن أن أمومة مبكرة جداً تعرّض تطور النضج للتأخر. ومن الصحيح كذلك أن هناك في الأمومة نوعٌ من " النضج المتأخر". وهكذا نرى نساء طفوليات عاطفياً تصبحن أمهات قبل الأوان ودون التهيئة النفسية لذلك واللواتي تستدركن تطور النضج أثناء الحمل وعند ولادة طفلهن. وتعطينا أمهات أزمان الحرب العديد من الأمثلة. وفي بعض الأحيان تفرض هذه الأمومة المبكرة الكثير على الشخصية الغير مكتملة للفتاة

بحيث أنها تبذل كل نشاطها في خدمة وظيفة التكاثر مما يؤدي إلى إصابة حتمية في شخصيتها.

إن الميول السلبية لدى الفتاة لا تتناقض مع التطلعات النشطة الشديدة التي تبديها خلال مرحلة المراهقة. وتكون كثير من الفتيات ملزمات، بضغط الظروف، على العمل بطريقة أو بأخرى، لكنهن تنظرن إلى هذا العمل بأنه مؤقت. ومن اللافت أن نرى، حتى في أيامنا هذه، كم من النساء الملتزمات بعمل مهني تنتظرن اللحظة التي ينفق بها أزواجهن عليهن، وتستاء المرأة من زوجها العاجز عن تحقيق أمنياتها. وتتخذ كثير من الفتيات مهنة ما لأن الموضة أن تسلكن هكذا أو نتيجة مبادئ اجتماعية؛ وقد نعتقد أن هذا النشاط، وعلى الأخص المألوف في الأعراف الحالية، متعارض مع ما وصفناه أنثوياً تحديداً. إنما واقعياً، مع أن ذلك يبدو مناف للعقل ومتناقضاً ظاهرياً، لكن البنية النفسية للمرأة لم تتكون حصراً لتمثل " الأنثى الخالدة ". فمن الصحيح تماماً أن الأنوثة جوهرها. إنما حول هذا المركز توجد أغلفة تعد عناصر حقيقية للروح الأنثوية، وتلك العناصر غالباً ما تكون ثمينة جداً وضرورية كحماية وكغطاء للمركز. وإذا أبصرنا نمو اللاحق لهذه العناصر، فنجدها تنبثق من تلك المركبات النشطة والذكورية أحياناً، والموجودة دوماً بدرجة ما لدى المرأة، والتي تتمسك بالمظهر الذكوري عند التصرف بالتبادلات الجنسية. وتمتد العناصر التي لاحظناها إلى مرحلة غير متميزة من الطفولة، والاندماجات في قوالب ذكورية، وبفعل النشاط خلال مرحلة ما قبل البلوغ، تشكل بالإجمال تساميات وتصعيد للتيارات النشطة للروح الأنثوية.

إن ملاحظة ولو سطحية تظهر أن فتاة بدت إلى الآن ذكية، ولامعة، وواعدة، غالباً ما تترك جميع هذه الصفات تتلاشى كفقاعة صابون خلال مرحلة البلوغ، ففي هذا العمر تجد نفسها تحمل عبء أنوثتها الناشئة، وعبء تصعيد عالمها الداخلي. كما نرى أيضاً العكس. ونرى غالباً كذلك، فتاة ذكية، طموحة، متفانية بتزلّف، ولها في واجبها اتجاهاً عصابياً تعزز ميولها في مرحلة المراهقة جاعلة منها درعاً يحميها من نمو تلك الصفات الأنثوية. وفتاة تبدو لي من النمط الأكثر بؤساً إذ تماثل أختها التوأم "ديلسينيه"، إنها غالباً رجل ممتاز إنما غير كامل عادة. وهي أيضاً تعاني من اضطراب بسبب أنوثتها، ليس الأنوثة العاطفية إنما الواقعية.

وفي سعيها نحو حياة متكاملة، تصبح أماً، وعبادهّا الشديدة لأطفالها تدخل غالباً في صراعٍ مع تطلعاهّا الأخرى. وهناك نساء لم ينقصهن الذكاء أو الطاقة وفقدن تماماً تجربتهن الذاتية، ونموهن العاطفي، وحدسهن. إنهن تنجزن دوماً مهماهّن بشكل كامل أنما لا تنتجن أبداً إبداعاً آتياً من كنـــز حدسهن، هذا الينبوع لنبوغ المرأة.

هذا النمط "ديلسينيه"، نساء ذهنيات أو رياضيات، منتشر جداً في المدارس. ويقدرهن أساتذهّن لأنهن أساس جيد. لكن حياهّن العاطفية مجدبة، وعقيمة، ومفتقرة. وبصورة استثنائية الفتيات الموهوبات وحدهن تستطعن بلوغ ذهنية نامية دون التفريط بحياهّن العاطفية لأن إدراك المرأة وقدرهّا على فهم الحياة فهماً منطقياً، يغتني على حساب صفاهّن الذاتية، والعاطفية. وللأسف تهمل التربية الحديثة هذه الحقيقة، وفي كثير من الأحيان في أيامنا هذه تعطى الفتيات تمارين ذهنية مما يشكل عبءاً عليهن. وقد لا تحسنّ الرياضات في أن تحل محل التجارب العاطفية العميقة بشكلٍ وافٍ، ولا أوقات التسلية والترفيه والمتع الفنية ترضي الحاجة لارتياح فعلي واتّحاد معَ الذات.

فالفتاة السلبية تماماً تتمسك بعكس هذا الموقف. إنها لا تتوصل إلى تصعيد تخيلاهّا. كما ترفض تنمية نشاطها الأنثوي نحو غايتها السلبية لأن خشيتها مما قد يحصل أو مما سبق ورأته بنفسها يشلّها نفسياً؛ إنها تستسلم لقدرها وتصبح أداة سلبية تماماً مهداة للتأثيرات الخارجية. هذا التوجه السلبي يمكن أن يتخذ أشكالاً مختلفة. وإذا أظهر خلقاً جنسياً، فيقود الفتاة لأن تدع نفسها تتخذ بلا سبب أقصى تلك السلبية الحمقاء؛ وقد يمتد ذلك إلى جميع مواقف الحياة ويجعل من الفتاة ريشة في مهب الرياح. ويحافظ الشخص أحياناً على نوع من النشاط إنما فقط باتجاه هدف مرسوم من قبل الآخرين. ولا يتماثل هذا النمط من الفتيات مع ذلك الذي وصفناه آنفاً (ص 80). وفي حين تتبع الآخرين بشكل سلبي بسبب افتقارها العاطفي، تمتلك فتاة النمط السابق احتمالات عاطفية عديدة لكنها تمتنع عن تحقيقها بنشاط بسبب مخاوفها وكبتها. إنها عصابية من دون أن تعلم. وأنثوية أيضاً، لكن عنصراً غريباً أفسد سلبيتها الأنثوية. وهي لا تصعّد هذا الميل الأساسي في طبيعتها بتجربة ذاتية عميقة لأنها مستسلمة بالكامل. وتدفع كل عاطفة جياشة

بعض الفتيات إلى حالة إغماء؛ وتتعرض لحالات من النعاس الذي لا يقاوم وتنمن بإفراط، وتمضين جزءاً كبيراً من حياتهن في ترميم متاعبهن.

وهناك فارق آخر بين النمو الذكري والأنثوي آتياً من فترة السنوات التي يشتد فيها النمو النفسي، أي مرحلة المراهقة، حيث تبدي النساء ميلاً حيوياً أكثر من الرجال نحو روحانية الغرائز الجنسية. في التاريخ الإنساني، اكتسبت هذه الروحانية للغريزة أشكالاً مختلفة. فقد كان الدين البدائي يرفع الأحاسيس الجنسية إلى حالة من الوظيفة الإلهية ويقلل هكذا من الحاجة لروحانية فردية. واعتبر الإحساس الجنسي بعد ذلك كوسيلة من الشيطان وبُشر بالزهد من أجل الوصول إلى روحانية يصعب بلوغها مباشرة. وفي الحياة الفردية، يمكن لهذه الروحانية أن تتبع مختلف السبل. وارتبطت الغريزة الجنسية، منذ البدء، بالنشاط التخيلي الذي يبدأ منذ نعومة الأظفار، بمحتوى لاشعوري للنفسية. ويتكرر التطور نفسه في مرحلة البلوغ بشدة متنامية. فالفترة الفاصلة بين التنبه الجنسي وإشباعه المباشر يشغلها النشاط التخيلي، وهكذا يتقدم تداخل المحتوى النفسي مع الغريزة الجنسية. وفي مملكة الحيوان، ترتبط الإثارة الجنسية بأعضاء الحس وخاصة الشمية منها. (وهذا الارتباط يظهر أكثر في الغريزة الأمومية للحيوانات ويشكل اختلافاً جذرياً بين " الروح الأمومية " العقدة العاطفية للمرأة وبين " الغريزة الأمومية" للحيوان). وإذا صح القول، تلعب أعضاء الحس بلا شك، لدى الكائنات الإنسانية، دوراً هاماً وسيطاً بين الفلك الجنسي والعناصر النفسية، لكن نمو الحياة التخيلية يقيم علاقة بين الإحساس الجنسي ومختلف الوظائف الروحية، وبين الحياة العاطفية على نحو خاص. وسنرى أن طابع هذه العلاقة بين الغريزة والحياة العاطفية يشكل أحد الاختلافات الجنسية الأساسية بين الرجال والنساء.

وما لاحظناه بشكل مباشر في تطورات المراهقة يذكرنا أن كثيراً من الظواهر النفسية قد تمارس، بصورة تناقضية ظاهرية، تأثيراً رادعاً ومحرضاً في آن واحد. وتثير شدة الغريزة الجنسية القوى التي تستخدم في مقاومة هذه الغريزة[1]. وهي قوى الممانعة نفسها التي تلعب دوراً هاماً في نمو الأنا بمؤازرة التصعيد والتسامي. وهي تمارس على الغريزة تأثيراً رادعاً دائماً وملائماً للشخصية ككل طيلة الزمن المتبقي،

---

[1] Freud : Op. Cit.

كماً ونوعاً، في حدود طبيعية. وفيما آليات الدفاع هذه لو تجمدت وتعارضت بصلابة مع الإرضاءات الغريزية وأمور النمو الأخرى، لاكتسبت طابع المقاومة الداخلية التي تبدي أعراضاً عصابية وفي تشكيل شخصية مرضية.

إن آليات دفاع الفتاة في وجه هجمة الإحساس الجنسي متطابقة، إلى درجة ما، مع مثيلتها لدى الفتى. فالفتاة التي تؤثر الاهتمامات الفكرية والاستعداد المسبق للعصاب الهاجسي ستعزز ذهنيتها، وميلها إلى الموضوعية، وستدفع هكذا تهديد الإحساس الجنسي الناشئ. بل وستجعل من هذه الصفات أسلحة لمواجهة العالم الخارجي إذا ألهبت هذه المفاتن الأنثوية شهوة الرجل وتضعها أمام خطرٍ فعلي مباشر. وقد رأينا كيف أن دوروتي نفسها، والضعيفة فكرياً، جعلت تستخدمً فجأة ملاحظة فضولية وموضوعية عندما وجدت نفسها في وسط خطر.

كما هنالك صلة بين سلبية المرأة، أي حياتها الداخلية التخيلية الشديدة، وبين الميل الأنثوي الخاص في تحقي مطالباتها الجنسية الشائنة وتحويلها إلى رغبة في حب مثالي وغرام متسام.وخلال المرحلة الأولى للمراهقة، يكون هذا الميل في السمو بالغريزة الجنسية مشتركاً لدى الفتيان والفتيات. ويبدو بل كل شيء في اختيار أداة الحب الذي طبيعتها ومعناها بالنسبة للشاب أن تنفي وتنبذ كل مظهر جنسي شائن. ولدى الرجال، يتقلص هذا الموقف إلى حده الأدنى في مجريات الحياة اللاحقة ولا يستمر في البقاء إلا في حالات غير طبيعية. فالرجال الذين لا يشتهون جنسياً الأداة التي يحبونها، والعكس بالعكس، عددهم كبير، إنما يعتبرون عصابيين. والانفصال ذاته نصادفه وسط المشاعر العشقية لدى الفتيات، إنما، كما رأينا آنفاً، نادراً ما تنطبق على أداة الحب. وهذا الانفصال لديهن يؤثر فيهن، أي تتواضعن لأن تكون فقط أداة جنسية بسيطة، أو على الأصح تضعن أنفسهن في مستوى صعب المنال.

وعلى أية حال، تصد الفتاة التحقيق الواعي للمطلب الغريزي المباشر لفترة أطول مما هو لدى الفتى، وبنجاح أكبر. ويظهر هذا المطلب بصورة غير مباشرة في رغباتها الشديدة للحب وفي التوجه العشقي لتخيلاتها؛ وهي بالإجمال تستثمر في حياتها الداخلية هذه الصفات العاطفية التي عرفناها على الأخص أنثوية. وتمثل هذه الصفات، في المنظومة النفسية للمرأة، تطوراً في التصعيد وتستخدم في الوقت ذاته

في الدفاع ضد المتطلبات المباشرة للغريزة الجنسية . وقد ذكر شاعر بولوني كبير أن الهوى كان " شعر الجسد " والإحساس الجنسي " نثره" . هذا السعي للتخلص من الغريزة المبتذلة وبلوغ الغنى الشعري للعاطفة يميز مرحلة المراهقة للفتيات عن الفتيان والذين يخضع الخيال عندهم رويداً رويداً للنشاط الذكوري المتوجه نحو الواقع. ولدى الفتى، بخلاف ما نرى لدى الفتاة، عندما ينتهي النـــزاع بين الغريزة وآلية الدفاع، تخرج الغريزة الجنسية منه مستقلة عن تصعيداتها.

ينبغي الإشارة هنا أن هذه الفوارق بين الجنسين، مع أنها جوهرية، فهي كمية وكيفية. ولقد تحدثنا عن بعض الصفات " الذكورية " كمركبات طبيعية في علم النفس الأنثوي. ولا ينبغي أن نستخلص من ملاحظة هذه الفوارق بين الجنسين أن الرجل الطبيعي هو كائن غريزي ومتكيف جداً مع الواقع وغالباً موهوباً بصفات روحية عظيمة، والتي الإحساس الجنسي فيها مستقلاً عن عواطفه، ويكافح بنشاط وبلا روادع للتوصل إلى أهدافه المباشرة. فهناك رجال من هذا النوع إنما لا يجب أن نعتبرهم كممثلين للجنس الذكري. إن ما نصفه كطابع أساسي أنوثي، يعني أن الإحساس الجنسي للمرأة واهتماماها الأخرى مشحونة جداً بالعاطفة، وهي موجودة كذلك في نمو الرجل وتلعب لديه، كـــ "مركب أنثوي" نفس الدور الذي يلعب المركب الذكوري لدى المرأة لكن الرأي العام المتعارف عليه بشأن هذين المركبين إنه يبرز الذكورية لدى النساء ويحبط الأنوثة عند الرجال لدرجة أن عبارة " فتاة " تعد شتيمة خلال مرحلة البلوغ بينما عبارة " فتى منقوص" غالباً ما تكون إطراء (ص 80)، وحتى في حياة الراشدين، الصفات الذكورية للنساء غالباً ما تكون قيمة اجتماعية مرموقة بينما الأنوثة تجعل من الرجل أضحوكة بل ومحتقراً إذا ظهرت بشكل واضح جداً. وغالباً ما نستخف من أن كثير من الرجال يدينون بعطاءاتهم الفنية وأحياناً إبداعهم المهني لهذا المركب.

إن ما نريده هنا هو إلقاء الضوء على عنصر الكمي دون إطلاق أي حكم بالقيمة. فنحن نؤكد أن جميع صيغ بنمو الإحساس الجنسي والشخصية يتواجدان لدى الجنسين، وإن الجنسين لهما خلف تصرفهما نف آليات الدفاع ونفس أنماط التصعيد، لكنّ أحد الجنسين يستخدم بعضها أكثر من الأخرى والجنس الآخر يستخدم الأخرى هذه الفوارق الكمية تؤدي، إلى درجة كبيرة، إلى تمايز للجنسين.

وبدراستنا لمظاهر الكبت الجنسي لدى الفتاة، ساندنا فكرة أن هذه المظاهر تحصل في المجال العاطفي. ويتسامى الإحساس الجنسي الأنثوي في قيم عاطفية محددة، على نحو أكثر من الإحساس الجنسي الذكوري. وستكون لنا آجلاً فرصة للعودة على المظاهر المباشرة للإحساس الجنسي الأنثوي في مرحلة المراهقة.

ولنختبر الآن الروابط الموجودة بين الإحساس الجنسي والتكاثر لدى الفتاة. ونرفض أي عرض بــ " سلام التراضي" بين هاتين الوظيفتين فيما لو كانت غايته أن يحرم الغريزة الجنسية الأنثوية من أي ميل مستقل للمتعة فقط. فهناك عروض للسلام آتية من المقتضيات الدينية، ومن بعض المثاليات العرقية، ومن بعض الأهداف الاجتماعية، على أنها أجدى من تفهم واقعي، مؤسس على التجربة، ووظائف المرأة. لكنن امن جهة أخرى نشجب هذا الرأي، الذي يعبر عنه أحياناً المحللون النفسيون، بأن التكاثر ليس إلا نتيجة للفعل الجنسي وليس هدفه النهائي في مرحلة المراهقة تحديداً قد نرى تقابل هذين التيارين المتميزين والتأثرين مع ذلك ببعضهما بعضاً. فالغريزة الأمومية تترجم بتخيلات، ومخاوف، وأعراض تظهر بأوضح أشكالها من لحظة الحيض الأول. وحينئذ تكون طفولية جداً، ومملوءة بالعناصر المؤخِّرة، وقريباً جداً من الأفكار القديمة للفتاة، بحيث لا يمكننا إطلاقاً النظر إليها كحاجة منبهة للأمومة. وسنطلق على هذه المجموعة من الأفكار والعواطف اسم " عقدة الأمومة " ونعزو إليها، في تلك المرحلة من الحياة دور "مخفر أمامي" نفسي يعلن ويهيئ النمو اللاحق لغريزة التكاثر. ويصعب القول إذا ما يلتزم وجودها فقط بعوامل نفسية أو إذا ما ينبغي أن نبصر فيها الحس الداخلي لتطور هرموني.

لعل السمة الحقيقية للرغبة الجنسية للفتاة، ومضمونها اللاشعوري، يكمن في انتظار التجربة الجنسية على اعتبار أنها مميزة للأمومة. والأصل الذي تستمد منه هذه الرغبة يكون في الدوافع البدائية، الغير متسامية، ويظهر بصور مختلفة. تمنيات جامحة في أن تكون مرغوبة، وتطلعات حامية في امتلاك استثنائي، وأنانية، وموقف سلبي عادة بالكامل تجاه الهجمة الأولى، ورغبة في الاغتصاب تترجم في أحلام ومضايقات نفسية، كلها صفات مميزة للإحساس الجنسي الأنثوي. وتختلف اختلافاً جوهرياً عن المظاهر العاطفية للأمومة بحيث نحن ملزمون بقبول تعارض بين

الإحساس الجنسي والعشقي من جهة، وغريزة التكاثر والأمومة من جهة أخرى. وهكذا فالدور المزدوج للمرأة يعبر عن نفسه منذ البداية، ويمكننا أن نرى فيه في آن واحد جميع المظاهر النفسية. فليس إلا آجلاً، وبصورة تصاعدية، وحتى ربما قبل أن تحصل التجربة الجنسية الفعلية، في أن المهتمين سوف تمتزجان بشكل حصري؛ وتساند وتعزز بعضهما بعضاً، أو تدخلان في نزاع. وسنرى بعد ذلك كيف أن الإحساس الجنسي والأمومة غالباً ما تكون في تناقض عاطفي مطلق، ومع ذلك فأية طريقة تندمجان في الحياة الأعمق واللاشعورية للنفس.

الفصل الرابع

الحيض

الحيض هو الحدث الأهم في مرحلة البلوغ. إنه دلالة بيولوجية للنضوج الجنسي، ويحتم أول نزيف نسائي ردود فعل نفسية عديدة جداً ومتنوعة جداً بحيث نتمكن من الحديث عن " علم نفس الحيض " كمشكلة خاصة. إن اختلاط الأحداث البيولوجية الهرمونية وردود الانفعال النفسية، وتقدم هذا التطور الجسدي، والتكرار الدوري للطمث يجعل هذه المسألة من أهم المسائل النفسية الجسدية. ومن الممكن هنا البحث بشكل تجريبي إلى أي درجة هذان المجالان للحياة، الجسدي والنفسي، يؤثر أحدهما بالآخر[1].

إن ما يهمنا هنا هو الحيض بصفته تجربة نفسية. وحتى قبل حلوله، تنتظره الفتيات بصورة أو بأخرى وتحس بشأنه انفعالات مختلفة. ومع أننا نستطيع التحدث عن "مرحلة انتظار"، إنما ليس من اليسير أن نطلق عليها تعريفاً دقيقاً؛ ويمكن تصورها بطريقتين مختلفتين : إما كمرحلة للنضج تسبق فترة الطمث الأولى مباشرة، أو كرحلة تمتد طيلة الاستعداد اللاشعوري للأنوثة. فخلال هذه المرحلة الطويلة، حتى لو كان الحيض مجهولاً ذهنياً من قبل الفتاة، فإنه يكتسب وجوداً نفسياً سيشترط تماماً رد فعل على التجربة الواقعية والشخصية.

---

[1] Benedek, T., J Rubenstein, B.B: The sexual cycle in women, Psychosom. Med. Monog. Vol. 3 Washington, D.C: National Research Council, 1942.

ويمكن أحد العناصر الأساسية لمرحلة الانتظار هذه فيما نراه تفعيلاً لانطباعات الطفولة والمتعلقة بـــ " أسرار" الحيض الأمومية. ويستولي على الفتاة بشكل مبكرٍ جداً، في خيالها، إدراك كالح للتوعك الشهري لأمها، وليس من الممكن دوماً القول إذا ومتى ولأي درجة تدرك الطبيعة الفعلية لهذا التطور. فالمضايقات الدورية، من محارم نسائية مبقعة بالدم، وملاحظات طارئة، كلها يمكن أن تكوّن انطباعاً قوياً جداً في ذهن الفتاة. إضافة لكونها شابة وعاجزة عن استيعاب هذه الانطباعات المؤلمة والدموية والقاسية والمهددة والتي تبدو لها كمظاهر للأنوثة في حياتها الداخلية الخيالية.

لقد كشفت ملاحظات علم التحليل النفسي عن العلاقة الكائنة بين ردود الفعل للحيض الأول والعقدة الأنثوية للخصاء[1]. ويظهر علم التحليل النفسي أيضاً أن الازدواجية بين الحيض والتناسل ينفضح في خيال الفتاة، لدرجة أننا سنتمكن تقريباً من الحديث عن معرفة لاشعورية للمعنى البيولوجي للحيض[2]. م. كلين[3]، وآخرون من كتّاب المدرسة الانكليزية، بينوا أن رد الفعل النفسي لفكرة النـــزف لجزء من الجسد لا تقتصر على العضو التناسلي، وإن اهتمام الفتاة بمظهرها الخارجي يتحول من أعضائها التناسلية إلى أعضائها الداخلية. وفي القلق النفسي الذي يحض عليه مشهد الدم، تلعب فكرة التمزق والجرح الداخلي دوراً في منتهى الأهمية.

فجميع هذه الأفكار مدفونة في عمق لاشعور الفتاة. كما تؤثر عليها بقوة أحداث الطفولة، والتربية خلال مرحلة الكمون، وتجارب مرحلة ما قبل البلوغ. وتشكل المحتوى النفسي لمرحلة الانتظار، لما في هذه العبارة من معنى. وهكذا يمكننا أن نشير ، في معنى محصور جداً، إلى اللحظة التي تنتظر فيها الفتاة الحدث الوشيك بمعرفة كاملة لأسبابه، أو إن لم يكن الوسط مناسباً، بنصف المعرفة. إنما، بحسب رأيي، لا يمكن أن تأتي " مفاجأة " كاملة، رغم ما قاله عن ذلك كثير من الكتاب،

---

[1] لقد استبدلنا عبارة " العقدة الأنثوية للخصاء" بعبارة " الصدمة التناسلية" التي تستجيب بصورة أدق لرأينا في هذا الشأن . والمعنى الدقيق لهذه العبارة سيدرس بالتفصيل في الباب الرابع.

[2] Deutsch, H.: Psychoannalyse der weiblichen Sexualfunktionen. Vienne. intern. Psychoanal., verlag, 1925.

[3] Klein, M.: Introduction to child analysis. Londres: 1932.

إلا عن صد من قبل الفتاة أو من إهمال غير طبيعي من قبل المحيط. وهنا لا ينبغي على الفتيات الأكبر أن همملن إعلامها فقط، بل تحجبن الاستعلام عنها حتى من قبل شخص آخر. ومثل هذا الموقف لا يتحقق إلا في ظروف استثنائية غير مناسبة. فابنة امرأة تعاني من الكبت، والتي سبب مصاعبها الخاصة، تعمل كل ما بوسعها لإخفاء التطورات الجنسية عن ابنتها، سيكون لها بشكل عام العديد من الفرص لتستعلم من مصدر آخر.

ولن تبقى هذه الفتاة جاهلة لفترة طويلة إلا إذا كانت خجولة لأقصى درجات الخجل ومتحفظة مع صديقات سنها.

إنما، في أسوأ الظروف، من النادر جداً أن يتمسك جهل الفتاة بشيء آخر سوى ممانعتها الخاصة تجاه المعرفة. ويأتي جهل كهذا من عادة فضول قديم، سابق وحيوي، جرى قمعه. ويبين الاستقصاء النفسي في كثير من الحالات أن هذه الفتاة " المتفاجئة " تحديداً تبنت فيما مضى الأفكار الأكثر بذاءة والأكثر سخافة عن الظاهرة الفيزيولوجية المنتظرة. وبالخوف وبالشعور بالذنب، قُمعت ونُسيت هذه الأفكار اللاعقلانية، وبدت جميع الأفكار العقلانية خاضعة للمصير نفسه. ومن المؤسف أن الأفكار اللاعقلانية، المبتورة من الإدراك، امتلكت بعد ذلك تأثيراً أقوى مما قد تمتلكه الأفكار العقلانية. وتكمن منابع هذه الأفكار الباطلة عند الغالبية في مرحلة الطفولة الأولى. أو تبقى برمتها لاشعورية، أو تظهر على شكل أفكار سخيفة عن الحيض. وما قد يحصل أيضاً أن تتمسك بخيالات لمرحلة أكثر تقدماً، أو بسوء تفاهم، أو بترجمة خاطئة لانطباعات واقعية، أو بتربية كاذبة، الخ.

ولنفترض الآن أن الفتاة، لم تكن مكبوتة، خلال مرحلة ما قبل الحيض، أي أنها على استعداد لتلقي أي معلومة عقلانية. فعلماء التربية يمضون في الاعتقاد أن أم الفتاة تكون أفضل مصدر للمعلومات. ومع ذلك علينا أن نأخذ بعين الاعتبار نفسية الأم. فغالباً الحيض هو الشيء الوحيد الذي تخفيه من باب الغيرة على أولادها؛ أنه سرها، وفكرة أن تكشف عن هذا السر تلقى لديها ممانعة كبيرة. فكثير من الأمهات تتحدث إلى بناهن عن الحمل والوضع بشكل أكثر طواعية عن الحديث عن الحيض. وغالباً ما يحصل أن نجد لدى الأم موانع عميقة قبل أن نجدها لدى الفتاة.

لقد أوضحت أعمال ديلي[1] وتشادويك[2] أسباب ذلك. وقد نتج عن الدراسات الخاصة بعلم الإنسان لهاتين الكاتبتين أنه، في عدد من البلدان، وعدد من الحضارات، وخلال العهود القديمة والحديثة، ولدى الشعوب الأكثر بدائية كما لدى الشعوب الأكثر تطوراً، كان الحيض ولازال مترافقاً بأفكار الذعر، والخطر، والخجل، والخطيئة. ونكتشف تماثلاً جوهرياً متجذراً بعمق بين المحرمات الصارمة للناس البدائيين، والأحكام المسبقة وتخوفات المتمدنين. إن خرافات الناس الغير مثقفين، ومخاوف الأطفال أو العصابيين، والأوهام والأحلام لكل منا، يذكر كل ذلك أيضاً بنظم وتحريات البدائيين بشأن الحيض. وسيدهشنا ذلك بقدر أقل إذا ما أدركنا أن المحرّمات البدائية، مثل تخيلات المتمدنين، هي مظاهر لهذا الجزء من الذهن الذي يفلت من تأثير الحضارة.

لقد اهتم علماء الإنسان على نحو خاص بطريقة رد فعل محيط المرأة التي بدأت بالحيض. وقد كتبت تشادويك:

"لقد أبدت التحريمات والخرافات التي كانت تحيط بالمرأة الحائض قسوة متنامية تجاه الفتاة البادئة بالحيض. وقد اعتبرتها مثل المرأة الأكبر سناً، كخطر داهم عام[3]".

وبحسب معطيات علم الإنسان، فجميع الحوادث والمعتقدات والقيود ذات الصلة بالمرأة الحائض تعكس فكرة أنها امرأة خطرة ونجسة. ولاحظت تشادويك أن القوى ذات التأثير السيئ والمنسوبة للنساء الحائضات تماثل تلك التي نسبها التراث الشعبي للساحرات. وقد استشهدت بهذا المقطع من" التاريخ الطبيعي " لـــ بلين: "كانت النساء الحائضات تتلف المحاصيل، وتذبل الحدائق، وتسبب خراب الأرض المزروعة وتُسقط الثمار من الأشجار، وتقتل النحل، وتُجهض الفرسان. وإذا لامست الخمر، أصبح خلاً، والحليب يحمّض، الخ."[4].

---

[1] Daly, C.D.: Der Menstruationskomplex, Imago, vol. 14, 1928.
[2] CHADWICK, M.: The psychological problems in menstruation, New York; Nerv. & Ment. Dis, Pub. Co., 1932.
[3] Ibid., p. 4.
[4] Ibid.

إن المحظورات المنتشرة انتشاراً قوياً المحتجة على التعايش مع النساء الحائضات، والعادة اليهودية في حمامات التطهير، والنفور المرتبط بمشهد المرأة العارية في فترة الحيض، والمماثلات بين طقوس الساحرات والقلق النفسي المرتبط بالحيض كل ذلك ذو معنى بليغ.

ومن الصحيح أن الأحكام المسبقة ضد النساء الحائضات موجودة في كل مكان في اللاشعور الإنساني، وأن أولئك النساء تُنسبن إلى صفات الساحرات- من حقد، وتهديد بالموت، وقدرات سحرية، ووحشية- وكلها أسباب أصبحت بالتأكيد من ردة الفعل التي قد تبدو على ابنتها.

وقد ألح العديد من الكتاب على أهمية إعلام الفتيات عن الحيض. وهافلوك إيليس[1] جعل من نفسه رائداً في هذا الموضوع وأكد أن الكثير من الأطباء لاحظوا التأثيرات السيئة لجهله :

"عدد كبير من الفتيات لم تنبّهن لا من أمهن ولا من معلماتهن عن حيضهن الأول، ويؤدي ذلك أحياناً إلى نتائج وخيمة بالنسبة لصحتهن الجسدية والعقلية".

"وبعد إجراء ملاحظة لمائة وخمس وعشرين فتاة جامعية اميريكية تحدثت الدكتورة هيلين كينيدي (تأثيرات العمـــل الجامعي على المراهقات، juin 1896, Pedagogical Seminary) عن " الحياء" الذي يمنع أي محادثة حول وظائف فترة الطمث، حتى بين الأمهات وبناتهن. وقد اكتشفت ست وثلاثون شابة من هذه الجامعة أنوثتهن دون تلقي أي معلومات وافية عما يجعل منهن نساء. وتسع وثلاثون فتاة لم تكن مثقفات بشيء على الإطلاق. إذا لو اعترفن بتلقي بعض المعلومات لما تطرقنا بالحديث معهن بهذا الشأن صراحة. وبما أن الفتاة لم تكن قد تجرأت على الحديث بشكل طبيعي عما كانت تشعر بفضول نحوه، فإن من الممكن أن يتم التملص منها ببضع كلمات ولكن ليس من دون تأنيبها على فضوليتها. وأقل من النصف فقط من هؤلاء الفتيات استطعن التكلم بحرية مع أمهاتهن بهذا الموضوع الهام".

---

[1] Ellis, H: studies in the psychology of sex. New York :Randow House 1928, vol .2 pt. 3 p.64.

ويصف إدمون دي غونكور، في "شيري"[1] ذعر بطلته الشابة أمام ظهور الحيض الأول لها، والذي لم تعد لها، والذي لم تعد له أبداً. ويضيف: "من النادر جداً أن تتحدث النساء عن هذا الاحتمال. فالأمهات ترتاب من تحذير بناهن، والأخت الكبرى تنفر من البوح بذلك لأختها الأصغر، والمربيات لا تقلن عادة أي شيء للفتيات اللواتي ليس لهن أم أو أخت" .

هذا الغم الذي تُعلم به الفتاة مبرر إلى درجة كبيرة. فالأشخاص المسؤولون عن تربية الفتيات يقترفون إهمالاً خطيراً إن لم يفسروا لهن ما هو ذلك. ومع ذلك يظهر استقصاء التحليل النفسي إن ردود الفعل العنيفة عند ظهور الحيض الأول لا علاقة لها بالجهل الذهني. وكما ذكرنا، السبب في هذا الجهل، في معظم الحالات، يعود إلى الصد والكبت؛ وللفتاة أسبابها القوية، اللاشعورية على نحو أو آخر، لتمتنع عن هذا الكشف أو لصده إذا استشفته. وتظهر الأسباب العاطفية لهذا الصد بصور أخرى.

وتبين الملاحظة أن الاضطراب من مفاجئة الحدث، والاتهامات الموجهة ضد الأم، والتوتر، لا علاقة لها بالمعرفة الفكرية. وحقد الفتاة تجاه أمها التي لم تعلمها بأمر الحيض، سبق وصادفته في مرحلة ما قبل البلوغ، ويمكن أن ينشأ من مصادر مختلفة. وغالباً ما يكون لوم يستهدف كل أنواع المواقف الأخرى التي حفظتها الأم كأسرار، والتي تنتقل، لأداة أخرى الآن، هي الحيض. وتنفعل الفتاة في أحيان كثيرة أيضاً بشعور قوي بالذنب لفضولها الخاص ولاكتشافها أمور مستورة إلى أن تنجح في صدها، واللوم الذي تعبر عنه عبارة: "لماذا لم تقولي لي ذلك؟" تحمّل الأم بشكل غير مباشر مسؤولية هذا الاكتشاف الآثم، والذي أصبح الآن مكبوتاً.

وبالطبع، لا تتأثر جميع الفتيات بنفس الطريقة لهذا المظهر الجديد لأنوثتهن. فهناك فتاة تنتظر حيضها، وهي محاطة بأخواتها وصديقاتها الأكبر عمراً، ونادراً ما تشعر أنها "متفاجئة". فظهور هذا التطور بالنسبة لها علامة استحسان لتقدم مرغوب منذ فترة طويلة ومن السهل عليها تقبله. وبالنسبة لفتاة أخرى، وفي نفس شروط الانتظار الواعي، سوف تتأثر به باضطراب، وضيق نفسي، وعلامات

---

[1] Op. cit. p.63.

اكتئاب شديدة أحياناً، وكل ذلك يؤدي إلى مظاهر عصابية معقدة. وقد وصف هافلوك إيليس محاولة انتحار :

" تحدثت الصحف الفرنسية منذ بضع سنوات عن حالة فتاة في الخامسة عشرة من العمر ألقت بنفسها في نهر السين، في سانت - وان. وقد انتشلت واقتيدت أمام مفوضية الشرطة، وقد قالت أن "مرضاً مجهولاً" أصابها وأرغمها على اليأس. وبيّن تحقيق متكتم هذا المرض الغامض هو قدر كل امرأة. ثم أوصلوا الفتاة إلى أهلها الذين عوقبوا عقوبة غير كافية" [1].

ونعرف عدداً كبيراً من الحالات حاولت فيها فتيات الانتحار خلال فترة الحيض لأنهن اعتقدن بإصابتهن بمرض رهيب، رغم كونهن عالمات بالأمر. وسندرس فيما بعد أسباب رد فعل كهذا.

وبهذا التنوع من الظواهر، كشفت التقصيات عن عناصر مشتركة مثل : القلق النفسي، والممانعة لهذا الحدث الفيزيولوجي، وبعض حالات التقبل أو نفي الظاهرة، والاتهام الذاتي أو اتهام الآخرين، ونسج التخيلات والتي رغم تغيرها تصدر عن منشأ مشترك. أما العرض الأكبر فهو القلق النفسي، والذي هو حالة داخلية حيث تُحس الأحاسيس الجنسية والنضج كمخاطر مهددة. والطريقة التي يظهر فيها هذا القلق النفسي تؤثر تأثيراً فاعلاً على تطورات البلوغ.

والحيض، خلال مرحلة ما قبل البلوغ، هو بالنسبة للكثير من الفتيات أحد المواضيع الأكثر أهمية من بين "الأسرار". والصديقات الشابات تلاحظن الأكبر منهن بفضول ورغبة، وتحترمن، وتعجبن بهن، وترثي لحالهن وتتساءلن بروح حيوية عن المنافسة عمن سيكون عليها الدور. هذا الانتظار الواعي والمثير يؤدي خيبة كبيرة. حيث تأمل الفتاة أن يشيد الحيض بالنسبة لها موقفاً جديداً تجاه محيطها، وتتوقع أن تحس بشيء جديد وممتع. كما تأمل على الأخص أن يعترف بها شخصاً كبيراً وتكتسب بذلك حقوقاً جديدة. والشخص الكبير، يعني لها أن تتخلص بشكل خاص من القيود والتنازلات التي يفرضها عليها الراشدون، وبخاصة أمها. وتتعلق هذه القيود قبل كل شيء بالمواقف العدائية والأنشطة الجنسية لمرحلة

---

(1) Ibid.

الطفولة. وكما نعلم أن المواقف العدائية تشتد خلال مرحلة ما قبل البلوغ وأنه، خلال مرحلة البلوغ، يظهر كذلك الإحساس الجنسي باشتداد أكبر رغم بعده عن تحديد الهدف. أما الحيض، هذه العلامة الهامة للنضوج، فلا يجلب معه أي تغيير مناسب. بل على العكس، تدخل عدوانية الفتاة أيضاً بنـــزاع مع شعورها بالذنب، والاندفاع الجنسي لا يقود إلا إلى صراع أكثر عنفاً ضد الاستمناء. أما الفتيات اللواتي تتفاعلن بشيء من الاكتئاب لدى حيضهن الأول تعترفن بصراحة أهن عالمات بذلك تماماً ومع ذلك عانين من شعور مفاجئ مؤلم. تلك المفاجأة تتعلق بالخيبة التي يعبر عنها هكذا: "هذا هو إذن الحدث الفريد والمنتظر، ومع ذلك لم يتغير شيئاً من حولي أو بي".

وفي معظم الأحيان التي كنا نتهم بها الأمهات لعدم إعلام بناقمن، تقلن لنا أهن لا تمتنعن عن ذلك بسبب خجلهن إنما بسبب الكره الذي تبديه بناقمن عن الاستعلام بأنفسهن. وكما نتذكر أن أم إيفلين كانت امرأة خجولة ومكبوتة، وعاجزة عن التحدث بالمسائل الجنسية لبناقما؛ ولبعض الأسباب التي تعزى إلى نفسيتها العميقة، تركت لابنتها الأكبر من إيفلين الاهتمام بإعلامها. إنما لاحظت كثير من الأمهات المتطورات، والحديثات، أن بناقمن تفضلن أن تستعملن من صديقاقمن أو أخواقمن. ويبدو لنا ذلك مفهوم جداً. فخلال الطفولة الأولى للفتاة، يترافق حيض أمها بأفكار القسوة، والقذارة، والروائح الكريهة، وردود الفعل المشمئزة. فتنتعش جميع هذه المشاعر عندما تتطرق الأم لموضوع الحيض وتخلق لدى الفتاة شعوراً بالرفض تجاه أمها.

وتخلص جميع الملاحظات إلى النتيجة نفسها : فسواء تلقت الفتاة معلومات نظرية أم لا، أو كانت مثقفة بالشكل الأمثل عن المظاهر البيولوجية لهذا الطور، أو كان طباعها ملائم جداً، فهي تحس عادة بالحيض الأول كصدمة. ويتعلق هذا بالطبع بعمر الفتاة، ومستوى نموها النفسي، ووسطها، الخ. واستناداً لبعض علماء التربية، فإن الظهور المسبق للحيض، أي في عمر لازالت الفتاة فيه متعلقة كثيراً بعائلتها بأمور العناية بجسدها، تحسه كمشقة إضافية، وكواجب جديد مضجر يفرضه الراشدون، كالحمام الذي يجب أخذه، أو الملابس الداخلية التي يجب تغييرها، أو هم الدخول المنتظم من أجل البراز، الخ. وتحتج الطفلة بشدة ضد هذه

المقتضيات الجديدة، وتضع ألبستها الداخلية المبقعة في دروج خزانتها أو تخفيها في زوايا مختلفة من المنـــزل، وترفض أن تلزم نفسها بالتدابير الضرورية للحماية. وتشعر نفسها منحصرة أيضاً بأنشطة طبيعية، وبممارسة الرياضة، والجمباز، والسباحة، الخ. إن الحيض كدليل نضج قادم يؤثر عليها بشكل ضئيل، أما إدراكها بأنها متقدمة عن غيرها من الفتيات فليس إلا تعويضاً بسيطاً عن جميع هذه المتاعب.

وبحسب رأيي، أن لكل مرحلة من مراحل البلوغ طريقتها الخاصة في التأثير بالحيض. وإذا طرأ هذا الاحتمال عندما لا تكون الفتاة قد تجاوزت نفسياً مرحلة ما قبل البلوغ. فالنـــزيف النسائي يُستوعب كباقي الوظائف الإبرازية. والفتاة هنا خجولة لأقصى درجات الخجل من هذه الظاهرة، وتسعى إلى إخفائها، وكلما فشلت في ذلك، تحس نفسها متلبسة بجرم الفحشاء. هذه الطريقة في رؤية الحيض كشيء قذر تأتي مباشرة من نظرية "البالوعة" والتي بحسبها كل ما يخرج من المنافذ السفلى للجسد قذر ومثير للاشمئزاز. وقد تمتد فكرة القذارة لتشمل كل أنحاء الجسد وتشعر الفتاة حينها بأنها "ملوثة" بالكامل. وعلاقتها مع ذاتها هنا تستنتج من علاقتها القديمة مع أمها الحائض، وكذلك هذه المحظورات والخرافات التي بحسبها بدأت بالحيض تستأهل أن تُعامل من خلالها بأشد الكراهية والنفور.

هذا الموقف الذي يُشرك الحيض بالمواقف الإبرازية يلاحَظ لدى الفتيات اللواتي عانين من التهاب معوي أو سلس بولي. فإذا فاجأهن رطوبة النـــزف في الليل، فتقتنعن بأنها اضطراباتهن القديمة عادت للظهور؛ أو إذا لاحظن بقعاً على ملابسهن الداخلية خلال النهار، وتحاولن محاربة الألم بإجراءات الحمية، الخ.

وكما نعلم أن كثيراً من الفتيات تعانين لفترة من مرحلة طفولتهن، وحتى أحياناً لما بعد مرحلة البلوغ، من تسرب بولي خفيف لا إرادي عند صعود ونزل الأدراج، أو تسلق الهضاب، أو عند الحركات المفاجئة، وعلى الأخص عندما تنفجرن بالضحك. هذا العرض منتشر جداً ومعروف بـــ " ضعف المثانة" وقد يفسر إلى حد ما بعوامل فيزيولوجية بحتة :وكثير من الكتاب ذوي الكفاءة يقرون بأن الضبط العضلي للمثانة لدى الرجل أفضل منه لدى المرأة. ومن وجهة النظر النفسية، فإن هذا السلس البولي قد يؤثر بطريقة مؤلمة جداً على الفتاة. فتحس نفسها مقيدة في حريتها عن الحركة وغالباً ما تتخلى عن ملذات المجتمع خوفاً أن

تلوث فستانها أو كرسيها بلحظة مرح. وتشتكي بعض الفتيات أحياناً من وجوب ترك عادة " الضحك الحقيقي " خوفاً من أن تبلل أنفسهن.

ومن الصعب البت إذا ما كان هذا الضجر ذو أصل نفسي؛ وعلى أية حال له انعكاسات نفسية عميقة. فالفتاة تحرم نفسها من أي فرح، وأي عاطفة محببة، معللة هذا التخلي بالخوف من السلس البولي. وبعبارة أخرى، تعتقد أن أي إشباع ما ستدفع ثمنه عقوبة حزينة. والنظرية القديمة الطفولية والتي تقول بأن الفتى له صنبور يمكن إغلاقه بينما الفتاة ليس لها إلا فتحة يصعب ضبطها تعود من جديد لتحدث انتقاصاً جديداً من قيمة العضوية الأنثوية كلها. وضمن هذه الشروط، يمكن أن يعتبر الحيض كإفراغ لسائل جسدي لا ضابط له. وعندما ستصبح الفتاة لاحقاً امرأة راشدة، ستميل إلى تجنب الاحتكاكات الاجتماعية أثناء فترة حيضها وسوف تلجأ لترشيد هذا الموقف بادعاء الآلام والإحساس بالتعب. وغالباً ما يكون لها انطباع بأنها فقدت بغزارة، وتتزود بفوط متكدسة، دون أن تجرؤ على الخروج، وتستخدم هكذا الحيض كعامل هام لحصر حياتها. وفي كل دورة شهرية، تعيش المصاعب نفسها التي تشعرها أحياناً بضعف عضلتها البولية.

وقد جرت عادة كثير من النساء أن تمضي بضعة أيام في السرير خلال فترة الحيض، رغم أن ذلك ليس بحجة أي ألم. ومن نافل القول أن هناك نساء تنتمين عادة لطبقات اجتماعية تعتبر الكسل خاصية أنثوية. وفي معظم الأحيان لا يتعلق الأمر لمجرد كسل، ولا بسعي للحفاظ على الشباب، إنما ذلك سبب شعوري في عزلة إرادية. والسب الفعلي كذلك في رغبتهن الهروب من ردود فعل المحيط، وبنفس الوقت ميولهن العدوانية الخاصة، وخطر إحساسهن الجنسي، وموقفهن في الدخول في نزاع مع أي كان، الخ. ويضاف لهذا السبب العام عادة أسباب أكثر شخصية. ففي فترة الطمث الأولى، كانت أولئك النساء أداة، من ناحية عائلتهن أو على الأخص أمهن، للانتباه والتسامح الخاص جداً. فالطفلة المسكينة محاطة برعاية تامة، وموقف عائلتها أقنعها بأن لها الحق في اعتبار خاص تعويضاً لمتاعبها. وتقول بعض النساء أن دوراتهن الشهرية هي أجمل اللحظات وأسعدها. وأنهن تتمتعن بارتياح وسكينة تامتين، وتسمحن لأنفسهن بالدلال والإنعتاق من التزاماتهن المعتادة، بما فيها تلك المتعلقة بأولادهن؛ وفي غرفة بإضاءة خافتة ومدفأة، تشعر هذه

المرأة البالغة نفسها كأنها طفل رضيع في حضن أمه أو ينام في مهده. وبالنسبة لتلك النساء، على خلاف الكثير مما رأيناه، تعد تلك الأيام أفضل أيام تفاهم مع أمهن. والموقف القديم، عندما كانت الفتاة تتلقى الرعاية والحنان ويسمح لها بكل التجاوزات، يتجدد ثانية في حياة أولئك النساء الراشدات، والآن وخلال فترة " المرض الدوري" لهن علاقة مع أمهاتهن ملؤها العاطفة.

نساء أخريات، تظهرن مزاجاً عدوانياً، تطلبن أن تخدمن خدمة كاملة وعلى الأخص من أمهن أو الشخص الذي يقوم مقامها. أولئك النساء لم تكن ناضجات نفسياً بشكل عام عندما حل حيضهن الأول، وقد بقين طفوليات متعلقات بأمهن، أو تكن صغيرات جداً. وتشعرن داخلياً أنهن ملزمات بإعادة إظهار سلوكهن الأول، في كل فترة طمث.

وفتيات لديهن استعدادات للعصاب تعتبرن الحيض عادة كشيء " فاحش" إنما لي في هذه الحالة إذ أن النضوج لم يكتمل بعد. إنا لنا صلة، لدى العصابيات، بشيء أكثر عمقاً يتجلى في الحياة. إنهن بأقصى نظافتهن في كافة المناسبات، إنما تعطين انتباهاً خاصاً لأجسادهن خلال الحيض، وخاصة لأعضائهن التناسلية، وإنهن متضايقات لغم نظافة هذه الأعضاء؛ وإنهن تمحين كل أثر دم بعناية فائقة.

واعتبار الحيض كشيء فاحش يؤدي غالباً إلى حياء مفرط. ونلاحظ، خلال الدعوات الجنائية ستفضل امرأة الاعتراف بجريمة دموية على الاعتراف بالأصل الحيضي لبقعة دم. وقد حصل في مرات عدة أن نساء متهمات بلباسهن الداخلي المبقع بالدم ترددن في التذرع بالحيض كعذر.

ففي رواية " الجدول الوفي" للكاتب البولوني الكبير زيرومسكي، يصف هجوم الروس على بيت ريفي خلال العصيان البولوني. فتاة تخبئ متمرد بولوني جريح. يلاحظ الجنود الروس بقع الدم على السرير الذي استلقى عليه الجريح. والفتاة، التي تحب هذا الرجل، يسألها الروس تجيب " هذا دمي".

ويضيف الراوي، المدرك للروح الأنثوية بعمق " بعد أن نطقت بهذه الكلمات البطولية والقاطعة، كانت بالنسبة للرجل المحبوب، تضحية لا سابق لها، وأحست بخجل شديد. وتمنت لو تغرق بالدم وتُخنق من الخزي".

ونعلم أيضاً أنه، حتى العاهرات لا ترى شيئاً مخزياً يعادل رؤية الرجال لحيضهن.

وغالباً ما تتصنع الفتاة موقفاً نافياً بالكامل لحيضها الأول. وترفض مجرد الاعتراف به، ولا تغير شيئاً في نمط حياتها، وتنفي أي وجود لتوعكها. وبعضهن تستمر في هذا الموقف وتعلن بتحد أنهن لن تستسلمن في الضجر من هذه الحكاية. وتمضي تلك الفتيات بعيداً بتسليم أنفسهن، وباندفاع لافت، للرياضة، والرقص، والسباحة، الخ.، وخلال حيضهن. ويتصف رد الفعل هذا بالفتاة المتصبينة التي تسعى بذلك لتعبر عن تحديها: " صحيح أني لست صبياً، لكني لا أرى اختلافاً ذا شأن" وإذا أفرطت في هذا الميل فستتحول أكثر فأكثر عن أنوثتها، وإذا لازالت، خلال حيضها الأول، في مرحلة التردد بالتبادل الجنسي، فإن هذا الحدث، قد يؤثر سلباً بطريقة تناقضية على قرارها النهائي بأن تكون امرأة.

أما الفتيات اللواتي اكتسبن درجة ما من النضج النفسي، فتتبنين، عند حيضهن الأول موقفاً مخالفاً تماماً. وإذا أردنا تماماً إدراك رد الفعل هذا لتطور بيولوجي طبيعي، فلا يجب أبداً أن يضيع عن بالنا المشهد المتكامل للبلوغ. فخلال الباب السابق، تحدثنا عن الحياة العاطفية للكائن الشاب، وعن الهشاشة القصوى التي يتصف بها. وسعينا أن نربط نرجسية المراهقة بكامل تطورها، ورأينا أن تزايد الاحتياجات الجنسية، والنـــزاع بين الرغبة وممانعتها هي عناصر رئيسية في المشهد العام .

لنا الحق أن نفترض أنه، خلال هذه المرحلة، كل تجربة قد تؤثر بسهولة على مجمل الشخصية وخاصة إذا بدت هامة، وتقود إلى ردود فعل تصدر عن مختلف أجزاء النفسية. ويمكن للأنا النرجسي للفتاة أن يستقبل الحيض كشيء سعيد ليس على درب النضوج. لكن القوى المؤخرة للعدائية العميقة تؤثر، وتثير الاضطراب بل وتشل هذا الموقف التصعيدي. وفي اللحظة الأولى للحيض، تتخذ القوى الجنسية على نحو آخر امتلاكاً للمشهد النفسي وتجد عوناً قوياً في العناصر اللاشعورية التي تتحرر من الصد. وفي هذا النـــزاع، يكون الاتجاه البيولوجي للحيض في الجانب التصاعدي، أما ردود الفعل العاطفية في الجانب المؤخِّر.

ولنتذكر لمرة أيضاً بأية شدة يعير الشبان، في الحب الشديد لذاتهم، انتباهاً للأصوات الخارجية التي تؤكد اعتبارهم، وأي اهتمام يمنحون لتجاربهم الشخصية،

وكيف يسعون لاستخدام هذه التجارب في تنمية ثقتهم بأنفسهم. إنهم يعجبون بطاقاتهم الذهنية، ويحاولون تعزيزها، ويصنعون الأسلحة للدفاع عنها ضد قلقهم النفسي الخاص.

إنما، في هذه المرحلة من النمو، لا يتكرس هذا الاهتمام وهذا الحب فقط للحياة النفسية. إذ أن الفتاة تجعل من جسدها أداة لحب الذات، وبهذا هنا تتميز عن الفتى. ويغير أحياناً حب الذات عند الفتاة من صيغته في مرحلة البلوغ : فهي في البداية تستمتع بضريبة الإعجاب التي يدفعها لها محيطها، فتعلق أهمية كبرى على أن تكون أجمل من الفتيات الأخريات (وبالأخص البعض منهن) . ثم أحياناً ، بعد فترة من الزهو، حيث تنشغل بالتبرج، والنظافة، والخروج من البيت، والمغازلات الغرامية، تتجه الفتاة كلياً إلى هذا النوع من الإرضاءات، وتكرس نفسها لـ " أشياء أكثر ترفعاً" وينتقل طموحها نحو اتجاهات جديدة. وليس في هذا دوماً " هرب من الأنوثة "؛ إنما على الأغلب بسبب التعب، أو الشبع من نجاحات الغرور، والتي تدفعها للبحث عن شيء آخر. وتحث الرغبة في إرضاءات نرجسية جديدة للفتاة على تجاوز فراغ كيانها السابق والاتجاه نحو أشياء أفضل. وغالباً ما يلفت نظرنا أن رناها فجأة تهمل مظهرها خلال هذه المرحلة من التحول بحيث تفقد سحرها، وتظهر في تبرجها وسلوكها سخرية من الأمور الخارجية.

هذا التعديل المفاجئ في علاقة الفتاة مع ذاتها، وهذا الانتقال من اهتمامها بالأمور الخارجية إلى الأمور الروحية، يمكن أن يصدر كذلك في سياق معاكس : أي فجأة، بعد مرحلة من الروحانية الشديدة، تكرس الفتاة عنايتها بتطوراتها الجسدية، إنما فقط من وجهة النظر الجمالية والمظهر الخارجي. إنما تهتم أولاً بالمواصفات الجنسية الثانوية مثل (النهدين، والشعر) وتتقبلها أو ترفضها. كما أن تسطّح صدرها، وحلاقة أو نزع شعيرات العانة، تعد مظاهر عادية لموقفها السلبي تجاه هذا الأمر. وخلال هذه المرحلة من البلوغ النرجسي، وفي حين أن الفتاة تنذر نفسها لحب متنام لجسدها، يمكننا أن نلاحظ فيها رغبة تواقة للرفاهية. إن الهشاشة النرجسية، عندما تخص الجسد برمته، تعبر عن نفسها في الكراهية لكل ما يمكن أن يهدد الكمال. هذا الموقف، الذي يعود لمرحلة الطفولة الأولى، يصبح جزءاً متمماً

للاشعور ويستمر خلال سنوات. وطيلة فترة حياهما، تتأثر مواضيع الجنسين بجروح جسدية بطريقة تخون " عقدهم في الخصاء" الطفولية.

وبتأثير الرغبات الجنسية وبخاصة لمناسبة النـــزيف الشهري، تصبح الأعضاء التناسلية مركز عناية شاقة وشعور بالإجحاف. ويتخذ هذا الجزء من الجسد أهمية خاصة جداً خلال الحيض لأنه موضع توتر متنام. وتسبب هذه المشاعر ردود فعل مختلفة؛ فالجروح والأمراض ستؤدي فيما بعد في اللاشعور لنفس ردود الفعل التي تنشأن عن الحيض. والطريقة الخاصة التي تتأثر بها بعض النساء من الجروح الصغيرة، أو الرعاف، الخ ما أتينا على ذكره.

ويكمن الفعل البدائي في الرغبة بـــ " شفاء" هذا الجزء من الجسد الذي يبدو أنه " جُرح" (وهنا الأعضاء التناسلية) بترميم كل شيء في كماله. هذا التخيل الأولي المركّز على إعادة بناء الجسد له سبب آخر أكثر تعقيداً أيضاً. إنه، برأينا، تكرار مرحلة خاصة من الطفولة حيث كانت ترغب الفتاة في امتلاك عضو ناشط كعضو الفتى. وقد نخطئ مع ذلك في الاعتقاد بأن ما في الأمر هنا تحريض بسيط على تكرار وإحياء آثار الذكريات القديمة. وتظهر هذه الرغبة لدى الفتاة في مرحلة البلوغ لنفس الأسباب التي ظهرت فيها الطفولة، وبضغط الدوافع الجنسية النشطة وبشهوات الاستمناء. والأمور هنا تختلف كثيراً بحسب استمناء الفتاة. في مرحلة بداية طمثها، أو هجرها لهذه الحركة بضغط الشعور بالذنب، أو أنها لازالت في صراعها من أجل تجاوز ذلك. ويقود الحيض الفتاة أحياناً إلى هجر الاستمناء، وأحياناً العكس فالتوتر الذي يرافق هذا التطور يحثها على ممارسته. وفي تلك الحالة الأخيرة، يشرك الضيق النفسي والشعور بالذنب الحيض بأفكار القسوة، والآلام، والجزاء، ويطلق ردود الفعل الطفولية القديمة المتعلقة بالمسألة الجنسية، والاختلافات التشريحية الخارجية، الخ.

ويتكرر غالباً هذا السلوك أثناء الحيض ثم بعد سنوات : يعلق الاستمناء، الذي غالباً ما يكون ملحاً، عندما يبدأ الحيض (أحياناً قبله بقليل)؛ أو على العكس تمارس فقط أثناء الحيض، حتى لو كانت الحياة الجنسية للمرأة مشبعة بالكامل.

أما ردود الفعل الغير طبيعية تجاه الحيض الأول فهي شديدة التنوع. السرعة الشديدة للغضب، وأحاسيس بانحراف المزاج، والمقاومة الضعيفة للتعب، والاكتئاب، كلها مظاهر مألوفة خلال مرحلة البلوغ عموماً؛ وتشتد عادة خلال الحيض. كما أن النـــزوع للحالات القلقة، والملاحظ طيلة المرحلة التي تسبق النضج، يشتد خاصة في فترة الحيض الأول. وبعض الفتيات الغير معينات بالضيق النفسي سابقاً، يشعرون به الآن فجأة وعلى نحو أو آخر كل شهر. ويترجم هذا الضيق بتوتر وسرعة غضب.

وإذا كان للفتاة استعداد عصابي لازال غير مكشوف وإذا ترافقت مرحلة ما قبل بلوغها بأعراض من النـــزاعات الداخلية الغير محلولة، فحيضها الأول قد يطلق، مثل حالة إيفلين عصاباً أو سلوكاً مرضياً. أو يتخذ القلق النفسي غالباً حالة إرهاب، وقد يتحول اهتمام الفتاة بجسمها إلى وسواس مرضي، كما يمكن لمشاعر الذنب أن تؤدي إلى ردود فعل ذهانية.

ويتجلى مع ذلك التطور الإجمالي للنمو بتوتر داخلي متنام، وتتضمن شخصية الكائن الشاب برمتها صراعاً للتحرر والتكيف مع الواقع، ومن جهة أخرى سعياً لضبط الاندفاعات الجنسية. ومن الواضح أن هذا الصراع يتضمن أيضاً الحيض. وهو يعقد المشاكل الموجودة سابقاً ويخلقها من جديد، وتتطابق المظاهر النفسية التي ترافقه مع التحريضات الخارجية والداخلية.

ولهذه المحنة النفسية أيضاً ردود فعل مباشرة، تتعلق بقبول هذه الظاهرة أو عدم قبولها. وقد تظهر منذ "مرحلة الانتظار" وتكون حينها دفاعية؛ إنها مظاهر كبت بسيط وظيفي. وهي تؤدي إلى نوع من الاحتباس للحيض والذي، بتباينه مع جميع علامات النضوج الجسدي والنفسي، يحل متأخراً بشكل غريب. كما يحصل أحياناً أن يحل الحيض ثم يختفي لسنوات. وكقاعدة عامة، من العسير جداً التصرف بهذا الاضطراب الوظيفي بعلاج عضوي،في حين أن العلاج النفسي يمكن أن يجعله يختفي بسرعة مدهشة. والعلاج النفسي لا يكتب له النجاح دوماً، وليس دوماً بنفس الدرجة، وتجربتنا في هذا المضمار تمدنا ببراهين أكيدة على الطبيعة النفسية التناسلية لهذه الاضطرابات. ولا ريب أن يتوقف الحيض بعد أن ظهر، ويظهر التحليل النفسي هنا أن الأمر يتعلق برد فعل الذعر الذي أوحاه النـــزيف الأول.

والتطور العضوي الذي يكمن وراء رد الفعل الجسدي العنيف هذا هو قيد الاكتشاف. وتظهر التجربة التحليلية أن مرض غياب الحيض ذو المنشأ النفسي الذي يظهر فيما بعد خلال الحياة له غالباً بنًى نفسية معقدة جداً تنبعث من مصادر متعددة. ولابد أنها تعود لأحداث مرحلة البلوغ. إن الصدمة الرادعة هي أيضاً تعبير عن تطور له جذور متعددة.

ولعل الآلام الحيضية تشكل تعقيداً آخر على طريق النمو. وهذا الظهور له أيضاً كثير من الأسباب، بعضها عام وبعضها فردي. وأغلب الكتّاب الذي درسوا التطورات النفسية المترافقة مع هذه الآلام ربطوها بتخيلات الولادة. وهناك الكثير من الصحة في الرأي، إنما حتى في تطبيق تقنية التحليل النفسي، فمن الصعب الإقرار إذا ما كانت الآلام صادرة عن التخيلات أو هو العكس. فثمة تحليل بسيط إلى حد ما، لهذه الآلام هو بالنسبة لي نمطي جداً للحيض الأول. فالفتاة لازالت شابة جداً متحيرة في أمر هذا التطور الفيزيولوجي وتجد من المناسب جداً اعتباره كمرض بسيط. وهي بذلك تتهرب من المعنى الجنسي لهذا التطور وترفض بنفس الوقت ما يجلب الاضطراب مستقبلاً. فالألم هو دوماً، بالنسبة للطفلة، علامة مرضية، وبهذا المرض والتي هي خارج إطار تسببه تعطي لنفسها الحق في طلب رعاية حانية والتي ستمضي إليها بكل تأكيد. وأمها تؤكد لها مراراً " حالما كل شيء سيكون على ما يرام" فالألم هو نوع من المناورة للتحويل عن مجرى النـــزاع، وتعطي التطورات الجسدية ما يكفي من الفرص للخلاص بهذه الطريقة.

إنما تفسير الحيض الأول كـــ " مرض" قد يقلب الحقائق بشكل غير طبيعي. ففي الحالة التي وصفها هافلوك إيليس، كانت الفتاة تريد الانتحار بسبب أصابتها بـــ " مرض مجهول" . فهل يمكن أن نصدق أن مرضاً، لمجرد أنه مجهول، يدفع أحد ما للانتحار إن لم يكن له مدلولاً نفسياً عميقاً؟ إن محاولة الانتحار تنجم بالضرورة عن نزاع نفسي قديم ومؤلم والذي عقد حله ظهور الحيض. لعل الحيض كان، في عيون تلك الفتاة، تماماً واضحاً لتهديد شبه شعوري فأتم قلقها النفسي لدرجة لم تتمكن من تحمله. إن ثمة اكتئاب مألوف إلى حد كبير خلال الحيض، ومحاولة الانتحار قد تكون نتيجة لبروز هذا الاكتئاب.

وربما كانت تنتمي هذه الفتاة إلى ذلك النوع من النساء اللواتي تعرفن تحريضات سادية قوية واللواتي لا تستطعن ضبطها إلا بمقدار ما يستطيع " عامل محرّض" جعل هذه الرقابة مستحيلة. لعله مبدأ مقبول عموماً أو الدوافع العدوانية تشتد خلال الحيض؛ وفي كثير من الدول، يعتبر القانون الحيض كظرف مخفف في حالة الجريمة. ومن الثابت أن عدوانية شديدة قد ترتد على الشخص نفسه وتدفعه للانتحار. ومرات يكون الدم نفسه هو العامل المهيّج؛ ومرات أخرى، خلال مرحلة الانتظار، تتخيل الفتاة أن شيئاً " رهيباً " قد يحصل لها وهي تكبر. وبالنسبة لجميع الفتيات، يخفي المستقبل كثيراً من العناصر الغامضة والمخيفة التي تهدد أجسادهن، وغالباً ما يدور موقفهن المترقب في القلق النفسي.

لقد لاحظنا أن الحيض يعد كمرض، حتى في أبسط حالاته، وهكذا فموقف الفتاة إزاء الحيض هل يتوخى العقلانية التي تجرد هذا التطور من غموضه ومعناه العميق.

وهناك محاولة مثيرة بالكامل، وذات طابع تشريحي، هدفها حل هذا النـــزاع. فالنـــزيف، هذه المرة، ليس غائباً كما كان في مرض غياب الحيض، إنما، بتأثير العوامل النفسية، يصدر بدرجة غير طبيعية. فلقد لاحظت عدة حالات من ذلك النـــزف الإضافي. وكان النـــزف يصدر كل شهر أو في فترات غير منتظمة، إنما لا يثير الأعضاء التناسلية أبداً. فهو يتنقل بعيداً ما أمكن عن المكان التناسلي (الأنف، الذقن، الخ.) واختيار العضو البديل عادة محدد تحديداً نفسياً. وإحدى أغرب هذه الحالات التي عرفتها لها صلة بامرأة بدأ علاجها النفسي التحليلي في عمر الثامنة والعشرين، وتعاني من غياب الحيض منذ سبع سنوات. وفي عمر الخامسة عشرة، بدأ معها الحيض بشكل طبيعي؛ ثم أظهرت نزيف غير منتظم على مستوى شحمة إحدى أذنيها؛ وكان رد فعلها في قلق نفسي بوسواس مرضي عنيف جداً. وتخيلت ذلك سرطان سيودي بحياتها عما قريب. وقد شُخص مرضها بـــ "النـــزيف الملحق"؛ وجميع المساعي التي بذلها الأطباء النسائيون لإعادة الاستقرار لدورتها الشهرية الطبيعية باءت بالفشل. وفيما بعد توقف النـــزيف من الأذن، لكن الحيض الطبيعي بقي غائباً خلال سنوات. وفي أثناء العلاج النفسي التحليلي، وجد عند هذه المرأة بعض التخيلات التي ترفض وجود المهبل وتدير ظهرها لكل ما يخص الأنوثة. لقد كانت تشتكي من آلام في الظهر وفي فترات

منتظمة وأظهر التحليل بوضوح، الأصل النفسي لهذا الشيء. هذه الامرأة كانت قد علمت ذات يوم، ببرقية، أن أختها قد وضعت. وعانت في اليوم التالي من آلام رهيبة في الظهر وقالت أنها شعرت بورم فيه. وقد وجهتها لطبيب نسائي الذي قرر إجراء عملية. وقال بعد ذلك لي أنه قام بتحققات فريدة في مهنته: فالخزعة التي زرعت أظهرت عدداً كبيراً من الخلايا الملأى بالدم في النسج المحيطة بالفقرات، وتبين أن مستودعات الدم هذه تعود إلى تواريخ مختلفة. ودون أدنى شك، كان الأمر يتعلق بغياب الحيض الذي حل محل الحيض الفعلي، وغياب الحيض هذا، حسب تخيلات هذه المرأة قد غادر المواضع التناسلية ليتوضع على مستوى الظهر. ومع ذلك فمن الممكن جداً أن تكون الحياة الخيالية لهذه المرأة قد تأثرت ببعض العوامل الفيزيولوجية، وهذا ما نراه دوماً في تكوّن الغرض الجسدي النفسي.

كانت المركبات النفسية لنـــزف الأذن لمريضتنا سهلة التمييز، لكن التطور العضوي الذي حققه كان غامضاً وفرضياً. ومنذ طفولتها الأولى، كان هذا الموضوع شأن أولئك الذين يبحثون عن "التحويل إلى الأذن" وفي صراعها مع الحيض، استخدمت شد الأذن. وينبغي الاعتراف بأن الفتيان هم الذين يستخدمون شحمة الأذن بهذه الطريقة؛ أما الفتيات فتفضلن الشعر، والأظافر؛ إنما لا يمكن أن نطلق على هذه النقطة قاعدة عامة. وينبغي أن نلاحظ أن مريضتنا في مرحلة بلوغها عادت إلى العضو الذي كانت قد اختارته في طفولتها كبديل عن الأعضاء التناسلية، وهو الأذن.

وأندريا الصغيرة التي روينا قصتها آنفاً، كانت تقول أيضاً أنها تفضل " نزيف الأنف كل يوم أو شريان المعصم، بحيث تمكن رؤية ذلك ". وبعبارة أخرى، كانت تتمنى بشكل مباشر وشعوري، النـــزيف البديل لكي تتجنب الحيض.

وسندرس بعد ذلك أشكالاً أخرى من عدم انتظام الحيض الشهري.

فكلما نمت شخصية الفتاة، كلما تكيفت مع الواقع على نحو أفضل وتحول موقفها تجاه جسدها، وخضع تقييمها لأعضائها التناسلية للتغير. فقد تمزقت شخصيتها، خلال مرحلة البلوغ، بين الزهو النرجسي والمشاعر الدونية، وأعجبت أحياناً بشدة وانتقدت أحياناً أخرى تلك الصورة لذاتها التي تأملتها في المرآة، وموقفها تجاه أعضائها التناسلية امتلأ بالتناقض خلال كل تلك المرحلة. ولا ننسى

ازدواجية الحكم الذي أطلقته على عضوها الجنسي : إنه " بالوعة " و "جوهره". وهي تهتم الآن بالحفاظ على هذا " الكنـــز " سليماً. هذا الموقف النرجسي الإيجابي هو نطاقها للعفة الأكثر سلامة والأكثر أماناً. إنما يمكن للإفراط في هذا الموقف وظهور مخاوف القلق النفسي تجاه العضو الجنس أن يكوّن أعراض عصابية. وكلما زادت العلاقة النرجسية للفتاة بجسدها، وأصبحت حامية أكثر كلما سيكون رد الفعل قلقاً نفسياً يتحول أحياناً من العضو الجنسي إلى أجزاء أخرى من الجسد ويعبر عن الوسواس المرضي لمرحلة البلوغ.

أحد مظاهر الموقف النرجسي هو المبالغة في الاعتبار التي توليها الفتاة لنفسها بصفتها أداة جنسية، مما يقودها إلى الاعتقاد أن الرجل الذي سيمتلكها ذات يوم جنسياً سيتلقى بذلك هبة نفسية جداً. وهي تعاني من أن ما تملكه، أو ما قد تمنحه ليس بالشيء الفريد حقاً. وكل احتكاك بالرجل، حتى لو كان بريئاً، قد يؤدي إلى إحباطات خطيرة لدى بعض الفتيات؛ فالفتاة تحس نفسها منحطة بأساسها الصعب المنال. ونرى أحياناً حالات من فقدان الشخصية وتؤكد الفتاة أنها ليست هي مطلقاً، وتصبح بحالة اغتراب والنظرة المتسامية التي كانت قد امتلكتها عن ذاتها تتدهور. فالمراهقة المتفاقمة نمطياً، تحملها بشكل خاص على بعض ردود الفعل.

ولدى الفتيات ذوات المزاج المرضي، بدء الحيض، أو التجربة العشقية الأولى المترافقة بتحريض تناسلي، يمكن أن تظهر أعراضاً هاجسية أو ذهانية. وبدلاً من أن تترجم التغيرات الفيزيولوجية كنشوة تعتبر كـــ " آلية غريبة" ، الخ. وللتهرب من الخطيئة أو الدمار، يحول الجسد كله إلى أحد آخر. ولاحظت في حالة من الحالات، أن هذا التحويل كان يتشكل في اندماج مع فتاة أُغريت وهجرت من خطيب نفس الشخص. والإثارة الجنسية لهذا الشخص والتقارب الجنسي من خطيبها أبطل وحدانيتها النرجسية، وكذلك مبالغتها في تقدير ذاتها و"جوهرتها التي لا تمس " مطلقة هكذا رد فعل هاجسي.

هذه الطريقة في النظر للعضو الجنسي كـــ "جوهرة" يأتي في جزء منه من التربية، وفي جزء آخر من الحكم النرجسي الذي حملته الفتاة لأنوثتها، ويشكل قبل كل شيء تعويضاً ثميناً عن جميع العواطف المترافقة مع الصدمة التناسلية القديمة.

لقد أيدت دوماً أنه إذا كان للاختلاف الظاهري نتائج هامة، فهذه الأهمية تعود للتطورات النفسية، وبخاصة الإثارة الجنسية المحسوسة. وهكذا نرى اهتمام الفتاة بأعضائها الجنسية يتيقظ عندما لفت انتباهها في هذا الاتجاه الاستمناء والتحسس العضوي. ودون ذلك لما تضمنت الفوارق الظاهرية التي تحملها نتائج نفسية ذات شأن[1]. وخلال مرحلة البلوغ، وبسبب النمو الجسدي وتيقظ الرغبة الجنسية التي تحددت نفسياً، كما يطفو الآن على السطح الغضب والخجل والاكتئاب ومشاعر الذنب والدونية وكل ماله صلة بالنـــزاع التناسلي القديم. وإذا لم تتفاقم الصدمة التناسلية بتجارب فردية، فتضبط بالميول الأنثوية وينطلق الحيض الأول. والبنية العاطفية للطباع الأنثوي الفعلي تحل محل ورغبة العضو الذكري. والخوف من المباغتة والاغتصاب، الذي يطلقه ويعززه حلول الحيض، يترافق، في هذا الطور، مع التخيلات الجنسية للفتاة. ويشكل الحيض تجربة حاسمة لطور الأنوثة.

إن تقدم الرغبة الجنسية والإعداد لعدة ظواهر نفسية مشتركة يتعلق هؤلاء أيضاً بالتجربة الفردية. والتهيئة الداخلية للمتعة الجنسية التي هي خاصية النضوج، والمشاعر المسبقة الغامضة لمحنة مؤلمة، والخوف من الاغتصاب والخطف، والجهود للتهرب منها، وتطورات الدفاع ، الخ. ، كلها تمهيدات لإشباع الغريزة الجنسية. هذه الغاية محددة تحديداً بيولوجياً وهي متماثلة لدى الجنسين؛ أما شدة الحاجة فهي مختلفة. إنما التمايز الكامل بين الرجل والمرأة يكمن في الأساليب المستخدمة لإرضاء هذه الرغبة.

وحينما ندرس الظواهر النفسية المشتركة للحيض الأول، نلاحظ أن كل فتاة تواجه هذا التطور، بطريقة أو بأخرى، بمسألة التكاثر. وللمرة الأولى في نمو الفتاة، نصادف وظيفتين للمرأة بصفتها مخلوق جنسي وبصفتها خادمة للجنس البشري. وفي هذه الوظيفة المزدوجة، تميل المرأة بصورة أقوى من الرجل نحو الاتجاه اللافردي، أي أنها تحنو لصالح الجنس البشري، ولصالح الوظيفة التكاثرية. ومنذ ذلك الحين تتلخص مشاكل الفتاة التي أصبحت امرأة محددة جداً بأنها نزاع أو انسجام بين عناصر متناقضة. علاوة عن مسائل الذكر والأنثى، والإيجابي والسلبي،

---

[1] Deutsch, H: Op. Cit.

كما نجد الآن مسألة هي الأعقد من الجميع، إنه التبادل بي الكائن الفردي والخادم للجنس البشري. ومهما كان الإعداد النفسي للفتاة لهذا الدور الخادم للجنس، فدون أي شك منذ لحظة الحيض الأولى تتجه حياتها التخيلية نحو الوظيفة التناسلية. وخلال حيضها، إن كان رد فعلها في الإرضاء أو في القلق النفسي، وسواء بدت هذه الظاهرة البيولوجية بشارة أو إحباط، فلا شعور الفتاة يظهر بثبات عناصر نفسية ناجمة عن تطور بيولوجي له علاقة بالتكاثر. وتبقى المسألة برمتها معرفة إذا ما العلاقة بين البيولوجي والنفسي هي علاقة سبب لمسبب. ويبين بحث معمق أكثر أن هذه التخيلات التي تنبثق دوماً خلال الحيض تقود لطور أقدم بحيث علاقة السب بالمسبب لم تكن موجودة بعد.

وتعبر التخيلات المنبعثة إثر الحيض الأول عن تمنيات ومخاوف متصلة بالحمل والوضع؛ والأمر هنا متعلق جزئياً بمشاعر مسبقة غامضة، وبجزء آخر بمعلومات غير مكتملة سرقت من أسرار الأشخاص الكبار؛ وكذلك في بعض الحالات أنها معرفة فكرية واضحة ذات معنى فيزيولوجي عن الحيض. وتلعب هذه المعرفة دوراً كبيراً في شروط التربية الحديثة والتي لم تكن هكذا فيما مضى.

إن الإشراك الحاصل بين الفعل الفيزيولوجي وردود الفعل النفسية عميق إلى أبعد حد. وعلاوة عن القلق النفسي والآمال المنبعثة من الحيض الأول، نلاحظ، استناداً للتخيلات اللاشعورية للفتاة أن التطور، بصورة نفسية أيضاً، يتلون بما يفعله معناه البيولوجي الحقيقي الذي سيتحقق آجلاً بشكل شعوري، وهو الخيبة في انتظار الطفل.

إن الاكتئاب الذي، يترافق غالباً مع الحيض، يتضمن عادة هذه الخيبة. ولا نلاحظ اكتئاباً مشابهاً قبل ظهور الحيض الأول؛ بل نلاحظه أحياناً قبل الحيض الثاني، إنما، عادة، الاكتئاب السابق للحيض لا يتواجد إلا لبعد عدة سنوات. وذلك يمكن تفسيره، بأنه خلال الدورة الشهرية تتكرر الأحاسيس الجسدية السابقة للحيض مرات ومرات. هذه التجربة تعلم المرأة على استشفاف تمهيدات التطور العضوي. والتوازي بين الطور البيولوجي وردود الفعل النفسية قد ينجم هنا عن إحباط سببته التجربة.

لماذا تعاني بعض النساء من الإكتئابات قبل حيضهن وأخريات خلاله، لا نعلم بالضبط. فكثير من النساء تعانين من الاكتئاب قبل الحيضي تقن أهن تشعرن بلحظة ظهور الحيض، إحساساً مفرحاً بالتحرر. وتنسين من شهر للآخر أن اكتئاهن الدوري يأتي من اقتراب حيضهن وتتنفسن الصعداء عندما يعطي الحيض هذا الاكتئاب تفسيراً عقلانياً. إن غالبية أولئك النساء تحتفظن، من مرحلة ما قبل البلوغ، انتظار شيء رهيب سوف يحصل لهن وهن تتفاجأن بصورة لطيفة كل شهر عندما يتبين، أن الحدث المنتظر المترافق بقلق نفسي ما ليس إلا حدثاً فيزيولوجياً عادياً. وتظهر كذلك نتائج التأثيرات النفسية لمرحلة الطفولة الأولى فيما بعد في جميع وظائف التكاثر. إن كانت تطور السنوات الأولى، أو الاندماج مع أدوات أنثوية، وعلى الأخص الأم، أو تأثير المحيط، الخ، كلها تخلق عند الفتاة استعداداً داخلياً سيظهر عند تحرض مطابق. ويعطي الحيض الأول لهذا الاستعداد الداخلي الفرصة للعودة ذات يوم. وهكذا فردود الفعل النفسية المرافقة لمسألة وظائف التكاثر لها دوماً طابع فردي. إنما هناك شيء مشترك عن جميع النساء؛ وجود أو عدم وجود إعداد فكري، ومعرفة أم حدس فقط، والفتاة تشرك الحيض بالوضع. إن أنديا الساذجة والجاهلة (ص 33)، والتي لاحظت النــزف، تقول بحكمة: " شيء مضحك، إنما لا أستطيع منع نفسي عن التفكير لما يحصل عندما يكون عندنا أطفال".

وتعتقد الكثير من النساء أن عليهن تجنب أي احتكاك بالرجال أثناء الحيض؛ ولدى بعضهن، يأتي هذا الموقف من الإحساس بقابلية التهيج الجنسي الشديدة؛ ولدى أخريات، أنه حكم مسبق قديم أتاهن من أمهن (أو من امرأة أخرى) ؛ ولدى الكثيرات أيضاً، يعبر ذلك عن الخوف اللاشعوري من الحمل المترافق بشكل محصور نفسياً مع الحيض. وتظهر الملاحظة أن الفتاة التي تعاني من حالات قلق نفسي خطير ومن أعراض حمل، تعبر فقط عن التهيج الجنسي الذي تحس أنها لا يمكنها فهمه. وكذلك الخوف من أن تصبح حاملاً عند استخدامها لغرفة الحمام، وجلوسها على مقعد ساخن، وأثناء قبلة أو عناق حار، وأمور كثيرة مألوفة لا يصدقها حتى العامة من الناس، وإن ما يدهش، أن هذا لا يتغير دوماً بالتعليم الجنسي النظري والعملي. ودرجة الوعي أو اللاوعي لهذه المخاوف تتعلق بالمعرفة

الفكرية للفتاة. فالفتاة الحذرة من الأمور الجنسية تقدم أعراض حمل دون تفسيرها بقبلة، إنما، بلا شعورها، قميج القبلة يمكن أن يصبح موضوعاً لتخيل الحمل، بينما الفتاة الجاهلة تعتقد بسذاجة أن القبلة تجعلها حاملاً. وهناك مثال مثير عن الخوف من الحمل ومن ردود الفعل النمطية للحيض الأول زودتني به فتاة في الرابعة عشرة من العمر كان لي فرصة بمراقبتها خلال إقامتها في المشفى. والجزء الأكبر من الملاحظة التي سوف أعرضها مأخوذة من وثائق المشفى التي تخصها.

حالة موللي

عمر المريضة أربعة عشر عاماً، صحبتها أمها إلى العيادة. وهي تشتكي من مخاوف مختلفة، وخاصة من أن تغيب عن الوعي أو تموت. إنها تتجنب الخروج إلى الشارع، إذ تخشى أن يُغمى عليها وهي لا تريد أن يراها الناس مستلقية أرضاً. ويشتد خوفها كذلك ضمن غرفة مغلقة، وتلجأ إلى طمأنة نفسها على الدوام بإحساسها بالمقدرة على مغادرة الغرفة؛ وقد لا تستطيع البقاء جالسة هادئة في البيت ؛ فعليها أن تفتح النوافذ، أو تذهب إلى الجمّادة، أو تروح وتجيء وهي تأكل تفاحة أو تشرب كأساً من الحليب. ويتفاقم خوفها من الموت خلال الليل؛ وتبقى متيقظة خوفاً من الموت أثناء النوم. وهي تخشى أن يصيبها مرضاً في القلب، كإحدى صديقاتها المصابة بالروماتيزم . وأحياناً يبدو لها كل شيء غير واقعي فتحس أنها بعيدة عن العالم. وأحياناً أخرى يبدو لها كل شيء قريباً منها لدرجة غريبة، وقد ترى نفسها في أنحاء المحيط الهادي، تحارب وسط الجيش، الخ. ووسط الجمهور ، تحس نفسها معزولة وغير واقعية. مما أدى لأن تنقطع عن الذهاب إلى المدرسة، أو السينما، أو الركوب في الحافلة.

والفتاة هي الرابعة من خمسة أولاد. ولقد وُصف لنا والدها برجل قاس وحرفي لأبعد حد وذو ذهن ضيق. ويمضي وجباته في انتقاد مظهر وسلوك أولاده. أما الأم فهي منشغلة وتعيسة، وغاضبة لأنه صار عندها أربعة أولاد في أربع سنوات. وغالباً ما يحرد الأبوين طيلة أسابيع، وخاصة عندما تدافع الأم عن موللي. وعدة مرات غادرت الأم لثلاث أو أربعة أيام مهددة بعدم العودة أبداً.

والأخت الكبرى لموللي تزوجت ممثلاً دون رضى أمها؛ وأخويها الأكبر منها أمضيا مراحل صعبة عندما كانا مراهقين وأحدهما غادر العائلة.

وموللي فتاة موهوبة. وكانت راقصة مطقطقات ممتازة عندما كانت في الثالثة عشرة من العمر لكنها انقطعت عن العروض لأنها كانت تخشى من الجمهور. ومع أنها تحسن تكوين الصداقات: فهي خجولة تماماً. وقد كرّست كثيراً من الوقت في كتابة أبيات الشعر. وأصبحت مؤخراً الصديقة الحميمة لفتاة أكبر منها بسنتين والتي لم تكن تستطيع الخروج تقريباً بسبب إصابتها بمرض القلب.

وقد اتخذت الصعوبات العائلية بمحمل الجد وغالباً ما شعرت أنها مكلفة بتخفيف أعباء أمها. وكانت متأكدة دوماً أن والدها لم يكن يحبها كأختها الأصغر، إلا حينما كسرت ذراعها؛ فأظهر تجاهها بعض الكياسة واللطف منذ أن أصبحت " عصبية ". وقد تأثرت كثيراً بمشاجرات أبويها، لكن انطباعها أن مرضها سيقارب أحدهم من الآخر. في حين أن أخوتها وأخواتها اختاروا في حال الطلاق، إن يسكن منهم إما مع الأب أو مع الأم، إلا هي، فلم تكن تقبل بالسكن إلا مع كليهما. وكانت تفكر بالفتيان بطيب خاطر إنما ترفض بالخروج معهم، إذ تحس نفسها عاجزة عن فعل شيء آخر في الدفاع عن نفسها، سوى أن تحمر، وهي تعرف إحدى فتيات المدرسة أصبحت حاملاً. وقد أثار اهتمامها بشدة حمل أختها البكر وولادتها؛ وهي تتذكر أن خوفها من الموت بدأ حالما سمعت أن النساء تموت أحياناً تموت أحياناً عند الولادة.

وقد ظهر مرضها الحالي بعد حالة إغماء لاثنتين من رفيقاتها في الصف؛ وكان المدرس قد روى أنه خلال الحرب العالمية الأولى، عُثر على جثث في هاويات القمامة. ومع أن الإغماء لم يحصل لها نفسها، إلا أنه أثر فيها، وخيالها جعل يعمل في إحساس فقد المعرفة، وإن إحدى رفيقاتها كانت تقول شيئاً رهيباً والأخرى " رائعاً ". وأظهر التقصي، الذي دفع دفعاً جيداً، أنه منذ فترة زمنية خلت، وموللي تخاف أن يغمى عليها وتموت. وكانت قد شعرت بهذا الخوف ذات يوم حيث كانت أختها خارجة مع الطفل الرضيع، الذي أتم الشهرين. وخلال الأسابيع السابقة، رعت موللي أختها بالسيارة إلى المحطة. وتزعزعت الأم لسفر ابنتها البكر وبمشاجرة سابقة مع زوجها، وهددت بالرحيل والانتحار. ومنعها موللي وأخوها

عن الرحيل. وقاومت الأم في البداية، ثم أغمي عليها، فحملها الأولاد إلى سريرها، وسيطرت على ذهن موللي حقاً أفكار الفراق، والإغماء، والموت.واستناداً لأقوال الأم ما عنته ابنتها، مع أنها أخطرتها بهذا الحدث، ولم تكن الفتاة قد نمت نمواً جسدياً قط. وذهبت مع أختها لشراء المحارم النسائية. وعندما تصادف رجلاً، تخفض رأسها. فحالتها كالتي " تقرف من نفسها"ولم تعاني من أي ألم خلال الحيض؛ ولم تدرك الأم لماذا تحاول ابنتها أن تخفي عنها أنها بالحيض. ولاحظت ذات يوم بقعة على شرشفها فسألتها إذا كانت بالحيض. فنكرت الطفلة وتساءلت الأم للحظة إذا ما أختها، البالغة من العمر الثانية عشرة، قد بدأت بالحيض، لكنها سرعان ما أدركت أن موللي خدعتها. وحين أصبحت بالحيض الأول، قالت: "يمكن أن يحصل لي أي شيء الآن. وربما أن يكون لي ولداً."

وتجد الأم أن الأخت الكبرى ليست محتشمة بخصوص حملها لدرجة كافية. وعندما وجهت موللي الملاحظة التي أتينا على ذكرها، أجابتها أختها: " لنَر، ينبغي أن تعيشي مع رجل من أجل ذلك" .

فأجابت الفتاة : " حسناً، إني أعيش مع رجلين، والدي وزوجك."

واطلعت موللي بالتفصيل على ولادة أختها. وقد دخلت الأخت المشفى؛ وأجري لها تخديراً ثم تطلب الأمر استعمال ملقط الولادة.

وقد ألحت الأم من وقت للآخر عن قسوة الأب. فهو لا يسمح لبناته الخروج في المساء، بسبب العديد من الجنود الموجودين في المدينة. وقد جرى الحديث عن حادثتي اغتصاب، أو شيئاً من هذا القبيل، واضطربت العائلة كلها.

وتعتقد الأم أن أعراض الفتاة تنم عن قلق نفسي رهيب جعلها تغادر البيت. ومن المحال أحياناً سحبها من السرير حيث تجد نفسها بشكل خاص في غاية الأمان. وهي تخرج أحياناً بعد الظهر لكي تلعب مع صديقاتها في الشارع، لكنها تخشى الابتعاد: وما أن تغادر الجوار مباشرة، تحس بهجمة " ارتجاف " . وهي تخاف من الحافلات والقطارات. وذا مساء كانت كل العائلة ذاهبة إلى مطعم مألوف جداً، فنهضت موللي وذهبت لتختبئ تحت مغسلة النساء. وهي لا تنام، بل تبقى يقظة تصغي إلى الضجيج أو تتخيل أحداً يحاول دخول المنـــزل. كما تأتيها أزمات

دموع تنشأ فجأة؛ وتستغرق بأحلام اليقظة وتكتب الشعر والروايات. وتعالج فيها في معظم الأحيان حكايات الجاسوسية أو جرائم غامضة تكون فيها بطلة بالكاد أن تتنكر. وتعتقد بخرافات متشائمة من حيث التغذية، إذ لديها انطباع أن الطعام سيمنع عنها الإغماء، والخوف من الإغماء يتسلط عليها باستمرار. وتقضم شيئاً ما طيلة النهـــار. ولأمها انطباع أنها تغار جداً من أختها الصغرى. والأم نفسها "مريضة"؛ إنها تخاف من الخروج لوحدها أو تركب حافلة ؛ وقالت ذات يوم ممازحة موللي: " حسناً، لنذهب إذن ونموت معاً. "

ولم تتكلم الأم عن مشاجراتها مع زوجها ولم تلمح لأي انفصال أو طلاق.

لا ننوي هنا أن نشرح بالتفصيل الأعراض المرضية لهذه الفتاة. فموقفها إزاء الحيض كان نمطياً جداً بحيث *يمكننا* اعتباره كطبيعي، مع أنها أصيبت بعد ذلك بعصاب قاسٍ. لعل نفورها وحيرتها حين ذكرت عبارة " لقد حصل"، و "اشمئزاز" ها من نفسها، وميلها الدائم في إخفاء حيضها عن أمها في مساعدتها، كل تلك المظاهر كانت لنا مألوفة. فنانسي (ص 68) مثلاً، كانت تتصرف هكذا بالضبط قبل علاجها النفسي. والملاحظة التي أبدتها موللي عند حيضها الأول (" يمكن أن يحصل أي شيء الآن . وربما أن يكون لي ولداً") تتطابق مع الفكرة التي تملأ ذهن الكثير من الفتيات حول الانتظار القلق. ولنلاحظ جملة أختها " يجب أن تعيشي مع رجل من أجل ذلك "، أجابت " حسنا، إني أعيش مع رجلين، والدي وزوجك". تعبر هذه الإجابة عن تخيل عميق متوارٍ في اللاشعور لمعظم الفتيات، والذي عادة لا يطفو على السطح إلا خلال التحليل النفسي. نحن نعلم القليل من الأمور حول علاقة موللي بأهلها. والقليل الذي قيل لنا يذكرنا بأندريا التي كانت ترغب أن يجتمع شمل أبويها بمرضها أو بموتها. وتذكرنا موللي أيضاً بنانسي؛ الأخت الكبرى لتلك الفتاة والتي حملت كذلك ووضعت. ونحن نعلم أنه في مرحلة البلوغ يشتد الميل للاندماج. ونشهد هذا الميل كذلك عند موللي : في مخاوفها من الإغماء كانت تندمج مع رفيقتها في الصف، وفي طبيعة أعراضها مع أمها، وفي خيالاتها بالحمل والولادة لديهن ميل في الاندماج على نحو خاص مع نساء حاملات، وخاصة أمهن وأخواتهن. وإذا ترافقت هذه التخيلات بشدة مع مشاعر حقد وتحريضات عدوانية، تؤدي إلى أعراض مرضية وإلى خوف من الموت. وفي حالة

مشابهة، ترى فيها الفتاة دوماً أخطاراً يجب تجنبها ، بما يمكن أن يشبه محاولة جنسية تحسها كتهديد لها ويرتد فعلها بالقلق النفسي والإغماءات. إن موقف موللي إزاء الموت يثيرنا على نحو خاص إذ نجد دوماً في مخاوف الفتيات إشراكاً محصوراً بين فكرة الموت وأفكار الحمل والولادة.

لقد حرص والد موللي بضراوة على عفة بناته، وكان يتكلم باستمرار عن خطر الاغتصاب ويثير الخوف لديهن من الخروج لوحدهن. لقد ظهرت مشاكل الحمل والوضع لموللي بحدة واقعية بخصوص أختها. وسمعت أيضاً أقوال عن نساء تموت خلال العمل. وقد أطلقت جميع هذه الانطباعات الخارجية خيالات وقلق نفسي مما تمتلئ به أذهان جميع الفتيات. كما أن الإشراك بين الموت والولادة تعزز على نحو خاص عند بدء الحيض. ومن الصحيح أن الأحداث الخارجية تنعش هذا الإشراك؛ لكنه واقعياً أكثر بدائية، وأكثر نظرية. إنه شيء فطري في روح المرأة أن تربط بشكل حصري الدم والحمل، والولادة، والموت. ويتعمق بعض الكتاب بعيداً في التراث الشعبي والأساطير، ويرون في الدم صلة تجمع ما بين الموت والولادة.

وإذا أردنا إدراك الظواهر النفسية التي تطرأ على حياة المرأة بصفتها خادمة للجنس البشري، فمن المهم أن نعرف أن عمق التجارب اللاحقة تبنى في مرحلة البلوغ وفي بداية الحيض. وإذا ترافق التطور النفسي لمرحلة البلوغ بتجارب خارجية، فيمكن لتلك التجارب أن يكون لها أهمية جمة في المستقبل. فمثلاً مجرد العلم بموت امرأة، بل فقط تعرضت لخطر الموت أثناء الولادة، يشكل صدمة لا يمكن إصلاحها ويؤدي إلى اضطرابات خطيرة في طريق نمو الفتاة نح والحالة الأمومية. وإذا ما كان للفتاة ميل قوي للاندماج مع امرأة ما، فكل أفكارها عن التكاثر، والبدء بالفعل الجنسي تسبغ بالخوف من الموت أو قد أعطتنا موللي مثالاً عن هذا الخوف المرتبط بالحمل والوضع. وقد استخدمت عصابها لتفادي تهديد الموت متجنبة الحياة.

إن الإغماءات التي تطرأ خلال مرحلة البلوغ تعبر، لدى الفتاة، عن رغبتها في التهرب من الأخطار أو عن الطريقة التي تستسلم إليها بسهولة. وتظهر الهجمات الصرعية دفاعها كقاطرة عدائية ضد الأخطار نفسها، كما رأينا ذلك في حالة نانسي.

فتاة أخرى عمرها أربعة عشر عاماً أصيبت بعصاب حاد في اليوم الثاني من حيضها الأول. وحين نُقلت إلى عيادة نفسية في فيينا، كانت ترقص وتضحك. وجهها مغطى بالحمرة، وخصلات شعرها مسترسلة، وترفع تنورتها وتقول أشياء فاحشة، وهي تردد بلا انقطاع كلمة "Politik". وعندما أصبح العلاج ممكناً، فهم أن هذه الكلمة الألمانية كانت مركبة من كلمتين "Polizei" (Police) و" Dick " (Gros).هاتان الكلمتان كانتا ترفران للضيق النفسي في مرحلة بلوغها. "Polizei" كانت تعود إلى فكرة مخيفة وممنوعة للدعارة والتي في بلدها، تكون تحت رقابة الشرطة؛ أما الثانية فتتعلق بخطر الحمل " أصبحت حاملاً" . ومن العسير تخيّل التمثل الواضح لقلقها النفسي الذي هاجمها وقت مرحلة بلوغها. وحسب أقوال أمها، كان لهذه الطفلة دوماً ميلاً للانعزال، وأن تبقى جانباً. ومع ذلك كانت تبدو طبيعية في الحياة العملية وكانت تؤدي دراساتها بانتظام لحين حيضها الأول، بحيث كان يمكن التحدث عن بداية حادة لعصاب قد يصبح مزمناً. غير أن حلول الحيض كان قد لعب دور " سبب سانح" ؛ وذلك أنهك بالطبع كل البنية النفسية للفتاة وتجاوز قدرتها على المقاومة.

ويعرف جميع الأطباء الحديثين كم يخضع الحيض لتأثيرات نفسية، ليس فقط خلال مرحلة البلوغ إنما أبعد من ذلك. واليقين بأن عوامل نفسية قد تعبر عن نفسها باضطرابات حيضية مختلفة ينتشر أكثر فأكثر.

ومنذ سنوات عديدة، عندما كنت طالبة شابة، أتيت على دراسة حالة تتعلق بالزواج. فقد طلب الزوج الطلاق، ولسبب وحيد، فلقد روى للمحكمة الرواية التالية. إنه كان ممثلاً تجارياً ولا يعود إلى بيته إلا في أوقات غير منتظمة. وخلال السنتين المنصرمتين، كان يجد زوجته حائضاً في كل مرة يعود فيها. وبرأيه، هذا يشكل برهاناً كافياً أنها لا تريد مطلقاً القيام بعلاقات زوجية معه، حتى لو أكدت له بصدق أن الأمر ليس إلا مصادفة، أو نوع من الحظ العاثر والذي ليست هي المسؤولة عنه. فرفض الأطباء النفسيون نظرية الزوج، مع أنهم عرفوا كم أثر الحيض في السابق على الحياة النفسية. وكانوا مستعدين للقبول أن حالة ذهنية يمكن أن تقدم أو تؤخر الحيض قليلاً، إنما لا يريدون تصديق التأثير الضخم والمتكرر الذي كان يدعم الزوج وجوده. والشخص الوحيد الذي كان يميل لقبول تفسير الزوج

كان قاضياً عجوزاً، وكان عنده حدس دقيق ومعرفة واسعة بالطبيعة البشرية. وقد وافق على الطلاق، وبرهنت الأحداث اللاحقة صحة نظرية الزوج.

لقد تعلمنا كثيراً منذ تلك الحقبة عن التأثيرات التي تمارسها العواطف على الوظائف الجسدية بشكل عام، وعلى الحيض بشكل خاص. إن أهمية الحيض ليس فقط فيما يربطه بمرحلة البلوغ وبصعوبات ذلك العمر، وليس فقط لأنه تعبير عن النضج الجنسي والمرتبط كلياً وبشكل خاص بالتناسل، وليس فقط لأنه مركز لهالك عمر الانتقاد ونفسية تلك المرحلة من النمو، إنما أيضاً لأنه نزف يطلق تحريضات عدائية، وأفكار التدمير الذاتي والضيق النفسي. وتمثل الاضطرابات الحيضية الباب الأهم في علم الطب النسائي الوظيفي، والأكثر عمومية. ولعل الاضطرابات النمطية "العادية" تقريباً، تتشكل من النـــزف، ومن حالات عدم الانتظام المشابهة لما رأيناه في الحالة التي رويناها آنفاً، ومن النـــزف المستمر، ومن الحيض المتقطع أو البديل، الخ.

ولقد وصفنا باختصار بعض هذه الاضطرابات، وبخاصة، الحالات ذات الصلة بالحيض الأول. وقد ادخرنا منها تجربة غنية جداً. فليس هناك إطلاقاً أي عصاب، وأية صعوبة شعورية، لا تؤدي على الإطلاق إلى رد فعل محتدم إلى حد ما من ناحية الجهاز التناسلي، ويكتسب رد الفعل هذا مظهراً لافتاً أكثر، وموضوعياً أكثر، عند النـــزف الشهري. ومع ذلك لا ينبغي نسيان أن الحيض هو تطور بيولوجي، يجب أن يأخذ بالحسبان إمكانية الاضطرابات العضوية أو الهرمونية، وأن العلاج النفسي يجب دوماً أن يحصل بالتعاون مع طبيب نسائي. فملاحظات سريرية عديدة نُشرت حول الروابط المتواجدة بين النفسية ومختلف حالات الفوضى الحيضية؛ وهي ليست دوماً مؤلفات مختصة بالتحليل النفسي أو النفسي، إنما كتاب يولون اعتبارهم عادة وقبل كل شيء للمظهر البيولوجي للمشكلة.

وفي دراستنا لعمل نفس مرحلة بلوغ الفتاة، انهمكنا بشكل خاص ببداية الحيض، كما انحرفنا في عرضنا انحرافاً مؤقتاً عن النمو الأنثوي بغية الوصف الكامل لعلم نفس التطورات الحيضية.

فخلال حياة المرأة، تميل الأحداث المرتبطة بالحيض الأول ميلاً ذاتياً لأن تتكرر في كل دورة شهرية، إنما، بشكل طبيعي، بصورة مخففة أكثر. فتتقبل المرأة

شيئاً فشيئاً التطور الفيزيولوجي كما هو، ويتوارى معناه النفسي. وبذات الوقت تنطبع غالباً ذكرى الحيض الأول وتكون أحياناً مرفوضة بشدة بما يمكن أن نطلق عليه فقدان الذاكرة. فالشخص يذكر لنا أن الحيض طبيعي ومتكامل دوماً وأنه، منذ البداية، نظر له كما هو. لكن التحليل يظهر عادة بطلان هذه التصريحات التي لا تتعلق بالحيض الأول إنما بفترات الحيض الأخرى اللاحقة. فالمظاهر المرافقة للتجربة الأولى يمكن أن تكون كذلك باطلة ومغلوطة، وفيما يخص موضوع الإنذار أو المفاجأة والطريقة التي أُعلن فيها الحدث من قبل أمها أو صديقاتها، الخ. فسوف نرى ذلك لدى امرأة في السادسة والعشرين من العمر بخصوص رسالة تلقتها من صديقة عندما كانت في عمر السادسة عشرة. هذه المرأة لم تذكر شيئاً عن الحاشية التي كانت تتضمنها هذه الرسالة إلى أن أتى التحليل على دراسة بداية حيضها. هوذا ما كتبته الصديقة :

" *ألم يحصل لك بعد؟ ... محظوظة! بدأت أعتقد أنك الوحيدة بيننا جميعاً التي فاتها ذلك. A... قالت أنه، إذا نريد بكل قوانا ألا يحصل ذلك، فلن يحصل، إنما لسوء الحظ هذا شيء نادر الحدوث*" .

بعد ذلك، تتذكر امرأتنا شيئاً فشيئاً أنها الأولى في شلتها حصل معها الحيض، وأنها كانت مقتنعة بلحظة ما، بملء رضاها، أنه لم يحصل لها أبداً. وعندما بدت أمنيتها تتحقق، تملكها الخوف إذ جعلت تفكر أن أي رجل لن يحبها وأنها قد لا يصير لديها أولاد أبداً. وبعد ذلك، في سن السابعة عشرة، بدأ حيضها الأول أخيراً؛ وكانت سعيدة بذلك إنما كان لديها انطباع أن خسارتها كانت " جداً ضعيفة وجداً شاحبة "، وأنها كانت إجمالاً مختلفة عن باقي النساء، كما كانت من قبل. وقد احتفظت بهذا الشعور حتى حملت. ومن الصعب القول إذا ما كانت "أرادتـــ" ها اللاشعورية أخرت الحيض؛ إنما من المؤكد أنه أثناء التحليل سعت إلى أخفاء أمور هامة حول هذا الموضوع وبتزوير لا شعوري لذكرياتها.

فإذا نسيت النساء وزيفت الأحداث المتعلقة بحيضهن الأول، فبسبب النفور في قبول معنى نفسي عميق لأمور فهمنها بعد ذلك على نحو أفضل. وترددن " أنه تطور بيولوجي"، ولا ترغبن استعادة فكرة أنه كان أمر آخر عندما كن فتيات. فشيء طبيعي عند الناس رفض فكرة أن التطورات الجسدية ذات معنى نفسي.

الفصل الخامس

العشقية

المرأة " الأنثوية "

حين تكتمل مرحلة المراهقة ضمن شروط طبيعية، تتوصل إلى إنجاز مهام معينة. وإحدى أهم هذه المهام يكمن في ضبط الميول الغريزية وتكيفها مع مقتضيات العالم الخارجي ومقتضيات الأنا. ومع ذلك، فحتى في الشروط الأكثر ملاءمة، لا تحرز المراهقة هذا النجاح إلا بصورة محدودة. وكذلك فإن هدف مرحلة المراهقة هو تصور نسبي إلى حد ما والمرحلة التي وصفت هكذا تتنوع كثيراً بحسب الأفراد. فمظاهر المراهقة التي تمتد حتى النضج متعددة، وخاصة عند النساء.

فقبل كل شيء، تبدو مرحلة بلوغ الفتاة غير كافية لإتمام إحدى مهامها البيولوجية؛ إذ يبقى الإحساس الجنسي للمرأة مكبوتاً أكثر من الرجل. وأسباب هذا الاختلاف ستدرس في الباب السادس؛ وسنقتصر الآن على القول إننا على صلة هنا بالعوامل البيولوجية والتشريحية المختلفة. فدون أدنى شك يعزز الكبت لدى الفتاة بتربيتها، إنما هذه النقطة تبقى ثانوية رغم أهميتها. ونحن لا نفهم برودة المرأة، تلك المسألة التي غالباً ما كانت مثار بحث تحليلي نفسي، إلا على أنها كبت بنيوي ليس عند الرجل ما يوازيه.

وبهذا تعود كثير من أهم المظاهر وأكثرها إثارة في الحياة النفسية للمرأة إلى آليات مرتبطة بهذا الكبت. وهي تنشأ خلال مرحلة المراهقة، ونصادفها كمظاهر عادية لهذه المرحلة.

ولعل إحدى مفرزات الحياة الداخلية الحادة للمرأة هي، برأينا، عشقيتها الخاصة.

وقد رأينا أن العشقية التي تعقب الأحلام المضطرمة للفتاة، تستمد فعاليتها من القوة الغريزية المتأججة في اللاشعور. ولدى خضوعه لتطور شديد من التسامي، يكون الإحساس الجنسي لدى المرأة أكثر روحانية مما لدى الرجل. فهذه الحاجة للعشقية المتسامية تلتصق بالروح الأنثوية لدرجة أن الفتيات تدعين بحدوث حب أفلاطوني مثالي وتتورطن قبل الأوان بتحقق جسدي يرتد عليهن عادة بانطباع من الفراغ والخيبة. تجربة كهذه تدفعهن على إثرها إلى ترسّخ تمييز مؤلم بين الإحساس الجنسي والانتظار العشقي لحب مثالي. وهكذا تنتظر كثير من النسوة الحب العشقي وتجربة حب كبير طيلة حياتهن حتى خلال زواج سعيد وضمن إشباع جنسي.

وعادة، تُتبع النساء بشكل صارم الشهوانية الجنسية بالحب أو برغبة الحب. فيمكن للخيال الشهواني والرغبة في إتمامه أن يظلا طيلة زمن طويل مرضيين أكثر من أي تحقيق، وقادرين أكثر على منح السعادة وهكذا يمتد الاختلاف الجوهري الذي تشهده الفتاة المراهقة بين العشقية والإحساس الجنسي. إن تهذيب الرغبة العشقية لدرجة رفض التجربة المباشرة للإحساس الجنسي أو عدم فرض شروط عشقية بالغة الصعوبة، تلك هي إحدى غايات النضوج الجنسي عند المرأة.

ويغني تطور التسامي كل الحياة العاطفية العشقية للمرأة ويعطيها مظاهر أكثر تنوعاً مما لدى الرجل، لكنه يهدد إمكانية حصولها على الإشباع الجنسي المباشر. إن الكبت البنيوي للأحاسيس الجنسية للمرأة يكون من الصعب قهره على نحو خاص لأنه، في أعقاب التسامي، يكون هذا الإحساس الجنسي أكثر تعقيداً (وشروط إرضائه أكثر تطلباً) من الرغبة البسيطة لتحرير التوتر الجنسي التي يوصف بها عموماً الإحساس الجنسي الذكري.

لقد ذكرنا أن تكثيف النرجسية كان أحد أهم ظواهر مرحلة المراهقة. وبيّنا أنها تحمي أنا الشاب تجاه شعور الضعف خلال المساعي التي يبذلها بغية ضبط الواقع، وتجاه خطر الضياع في الاندماجات؛ وقد أشرنا أنها تجلب للجنسين إمكانية الملاحظة الذاتية التي تصف هذه المرحلة من الحياة.

وبرأينا، استخدام النرجسية المستمر إلى ما بعد مرحلة المراهقة هو صفة خاصة للأنوثة. "فالمرأة النرجسية" أو "النرجسية الأنثوية" عبارتان أصبحتا عاديتين وغالباً محقّرتين. ويبدو لنا من الضروري كذلك مناقشة هذه الطريقة في الرؤية.

فبحسب التعريف الذي أورده فرويد للنرجسية، أنه ربطها بالمرحلة الطفولية لتشكيل الأنا وخلال تلك المرحلة تتخذ الغريزة الجنسية والطاقة العاطفية الأنا كأداة. وخلال طيلة حياة الفرد، يكون الأنا المخزّن الكبير لهذه الطاقة ومنه تتولد العواطف نحو الأدوات الخارجية. ولا ينبغي الاستخفاف والتنكر لفائدة النرجسية. إذ تتعلق بها غالباً قوة الطباع؛ ويقوى الطباع كلما كانت المتطلبات أشد، وكلما كانت الثقة بالنفس واحترامها نرجسياً. ويعترف فرويد[1] بقدرة النرجسية الكبيرة على جذب الآخرين؛ ويعتقد أن سحر المرأة يتعلق بحبها لذاتها، وبرغبتها النرجسية في أن تُحب. ويميل الكثيرون إلى تفسير الشدة النرجسية الخاصة عند المرأة بتحقير دونية أعضائها التناسلية مما يدفعها على أن تبحث بلا كلل عن تعويضات لذلك. كما تُفسر فرضية (لماذا نرى الأمومة تقلل من شأن النرجسية) بأن المرأة تشعر بأن الحمل يخفف عن كاهلها وعن دونيتها السابقة بامتلاكها لطفلها وبإمكانيتها أن تكرّس للآخرين، وعلى نحو خاص ابنها، طاقتها في الحب.

ومع اعترافنا بأن هذا التعريف يؤدي بدرجة ما إلى إفهامنا النرجسية الأنثوية، لكننا لا نجده كافياً تماماً بل ولا نعتقد أنه لامس النقطة الجوهرية. فبالنسبة لنا الازدياد أو الاستمرار البسيط للنرجسية التي ترسخت خلال مرحلة المراهقة ينجم عن صراع بين الميول الجنسية الصرفة وبين هذا الجزء من الأنا حيث تظهر فيه غريزة الدفاع الذاتية. فالميول الجنسية للمرأة تقودها نحو غايات خطرة بالنسبة لأناها، والأنا يدافع عن نفسه، ويعزز أمنه بتشديد حبه لذاته، والذي يترجم حينئذ بالنرجسية. والغايات الجنسية للمرأة خطرة على أناها لأنها ذات طابع ماسوشي، ولغز النرجسية الأنثوية لا يمكن حله بالنسبة لنا إلا إذا فهمنا هذه الماسوشية الأنثوية التي تمثل المعتدي في صراعها الداخلي. ويبدو أن رد الفعل النرجسي الحمائي يدخل اللعبة خلال جميع المواقف التي تشتد فيها الميول الماسوشية. ولهذا القصد يمتد لدى

[1] Freud, S.: On narcissism: An introduction. Collected Papers, vol.4.

المرأة إلى ما بعد مرحلة المراهقة ويستمر في إتمام دور إيجابي لديها. وكما سنرى، أنماط عشقية أنثوية كثيرة تنجم عن تفاعل النرجسية بالماسوشية.

فالتأثيرات النرجسية متنوعة لدى مختلف النساء. فقد تغني أو تفقر حياهن النفسية، وفي بعض الحالات تضطلع بدور مفيد وتؤدي إلى الصحة النفسية؛ وفي حالات أخرى تكون عرضاً مرضياً خطيراً. وسوف نوضح أشكالها المختلفة ببعض الأمثلة المأخوذة عن رواية " الحرب والسلم" لتولستوي، حيث نجد وصفاً لأنماط عدة من النساء " النرجسيات" واللواتي تنتمين إلى فئة اجتماعية محصورة إلى حد ما. فالأميرة هيلين، على سبيل المثال، متيمة بجمالها الخاص. وهاهو تولستوي يرسم لنا عنها صورة حية:

"ابتسمت الأميرة. ونهضت بابتسامتها ذاتها التي لا تتغير عند دخولها إلى الغرفة، ابتسامة امرأة كاملة الأوصاف. وفي حفيف فستانها الأبيض المزّين بأشكال الطحلب واللبلاب، وبلمعان كتفيها الأبيضين، وشعرها البرّاق، وألماسها الساطع، وتتقدم بين الرجال الذين يشقّون لها الطريق، دون أن تأبه لأحد منهم ودون أن تبخل بابتسامة للجميع، كما لو أنها تمنح ببشاشة لكل منهم حظوة الإعجاب بطيفها الرائع وكتفيها المدهشين وظهرها وصدرها (والذي تدعه موضة العصر مكشوفاً)، وتبدو كما لو أنها تحشد بكل بهاء صالة الحفلات بذاتها عندما اقتربت من A.P. وكانت هيلين جميلة لدرجة أنها لم تعمد لأي حركة غنج بل تبدو خائفة بجمالها الآسر والذي لامثيل له. وتبدو راغبة، دون جدوى، في تخفيف تأثيره".

وقد سردت خلال ذلك الاجتماع قصة شيقة:

" أثناء طيلة وقت الحكاية، جلست على مقعدها مستقيمة، تتأمل حيناً استدارة ذراعها الأخاذ، والمقولب على حافة الطاولة التي تتكئ عليها، وحيناً آخر صدرها الأكثر جمالاً أيضاً بعقد الألماس الذي يسطع عليه. وكانت تملّس من وقت لآخر ثنيات فستانها وفي كل ظرف طارئ للحكاية تنظر إلى A.P.، وسرعان ما تقلّد العبارة التي تقرأها على وجه آنسة الشرف، ثم تعود بعدها إلى ابتسامتها المشرقة".

وهكذا فنرجسية هيلين هي من النوع، التي تقر من خلال الزهو بجمالها، بإعجاب الغير الطبيعي جداً وحتى المضجر. وفيما لو امرأة جميلة أقل نرجسية من

هيلين لتمسكت أكثر منها بردود فعل الغير؛ فالإعجاب الذي تناله يثير دوماً فيها الفرح نفسه، وكذلك الأمر مسألة أن تُحَب تحرّض دوماً فرح المرأة التي تحِب. فالنرجسية تترافق غالباً بشعور انعدام الأمان وتتطلب من العالم الخارجي بإلحاحٍ رداً مؤكداً. ونرجسية هيلين متحررة لدرجة كبيرة من تعلق كهذا. إنها لا تقوم بشيء لتنل الاستحسان؛ وتوازنها هو ذلك الذي تكتفي به بتبني موقف شخصية بارزة وتعود بعد ذلك إلى ابتسامتها اللاشخصية . وهي عاشقة نفسها ولا يمكن أن تحب أحداً غيرها؛ و لم تجرّب أفراح الأمومة والزواج ولا يمثل هذا بالنسبة لها إلا موقفاً مالياً ودنيوياً.

أما ڤيرا، الشخصية الثانوية في هذه الرواية، هي أكثر مماحكة بنرجسيتها مع العالم الخارجي. وهي لا تقد حتى أن تظهر مثل هيلين تلك الابتسامة الآسرة الجاهزة دوماً والطبيعية. وحتى حين تبتسم ڤيرا يقول لنا تولستوي :

" لم تكن تبرز الابتسامة جمالها كما تفعل عادة، بل تمنحها على العكس تعبيراً مخالفاً وبالنتيجة منفّراً. لقد كانت ڤيرا جميلة، وليس فيها شيئاً من الحمق، وذهنها حيوي، وحسنة التربية، وصوتها محبب؛ وتتكلم بصدق وسداد رأي؛ إنما ... ڤيرا الأنيقة، والتي تثير في أي امرئ رد فعل مغيظ وغير مستحب، كانت تبتسم، مظهرة عدم اكتراثها لما يقال لها، وتذهب إلى المرآة وتصفف شعرها وشالها. وتستغرق في تأمل وجهها الساحر، وتبدو وقد أصبحت أكثر بروداً وأكثر هدوءاً."

في حين أن ابتسامة هيلين تظهر حاجة للاحتكاك الإنساني وتثير الإعجاب، أما ابتسامة ڤيرا فهي قناع نمطي لا يثير إلا الغيظ. وصورتها في المرآة هي الشيء الوحيد الذي يهمها.

وعندما تظهر ناتاشا، التي تجسّد الشابة الساحرة الأنثوية، لأول وهلة في المجتمع، تستنفذها الرغبة في الظهور، وفي نيل إعجاب وحب الجميع. وحاجتها النرجسية في أن تحَب، واستحالة مقاومتها لغزل حار، وأن تبدو غير مرغوبة من أحد ما، يجعلها ترتكب خطأ مأساوياً تتوصل بواسطته لكامل نضوجها. فنرجسية ناتاشا تعبر عن نفسها بحماس ورغبة في تقديم الحب من أجل الحب: "ما أن وطأت ناتاشا قاعة الحفلات حتى سقطت عاشقة. و لم تكن عاشقة لأحد بشكل خاص، إنما لجميع الناس".

وناتاشا، كسائر شخصيات تولستوي، مأخوذة من الحياة الواقعية. فنساء هذا النمط هنّ دحض شديد لتأكيد فرويد[1] والذي بموجبه لا تحب المرأة الأنثوية إنما تفرض الحب لنفسها. فالحب الأنثوي، جوهر المرأة الأنثوية، ذو طبيعة سلبية نرجسية. وإذا لم يكن هذا الحب مشوهاً بصورة مرضية، فمن الممكن مقارنته بنار تشع حرارة. ويحس المرء نفسه مجبراً على الاقتراب من هذه النار، وحتى أحياناً لإثارها؛ لكنها ترسل كل أصناف الإشعاعات وفي كل الاتجاهات، وقيمة تأديتها "السلبية" ليست أدنى من قيمة الحب الأكثر " فعالية ".

ومن بين المظاهر الأخرى للأنوثة، ذكرنا ميلاً قوياً للسلبية والماسوشية . وإذا استبدلنا عبارة "الميل للسلبية" بـــ "نشاط موجه نحو الداخل" فعبارة " السلبية الأنثوية" تلقى هنا محتوىً أكثر حيوية، وأفكار انعدام الفاعلية، والنقص، وعدم التحرّك تصبح مستبعدة. وكلمات " نشاط موجّه نحو الداخل " تؤدي وظيفة ، إلى حد ما، إيجابية، وسترضي الأنثويات ، منا، اللواتي تعانين من معنى مكدر نجده في عبارة "سلبية أنثوية".

ولعل "الماسوشية الأنثوية " تتوافق مع " النشاط الموجه نحو الداخل". ويمكننا القول بصورة قياسية أن النشاط الأنثوي المتجه نحو الداخل موازٍ للنشاط الذكوري المتجه نحو الخارج، وأن ماسوشيتها توازي التعدي الذي يرافق النشاط الذكوري، وبخاصة عند نهاية مرحلة المراهقة. ولكي نطمئن قارئنا، لنستبق دراستنا للماسوشية الأنثوية ولنقل في الحال أنها لا تظهر هيئة شرسة، مدمّرة، مؤلمة، إلا في حالات الانحراف الجنسي والعصاب.

قبل الشروع في وصف أنماطنا العشقية الأنثوية، سنذكر باختصار العناصر الجوهرية لبنيتها النفسية. تلك العناصر هي: 1- الحياة الغريزية التي، لدى المرأة الأنثوية، لها طابع سلبي ماسوشي (سنشير فيما بعد إلى تكوّن ونمو هذا العنصر الغريزي)؛ 2- المركبات النرجسية للأنا (لقد رأينا آنفاً طبيعة ونمو النرجسية الأنثوية)؛ 3- العلائم العاطفية المؤثرة بالوظائف التناسلية للمرأة، والمتواجدة فيها قبل أي أمومة فعلية.

---

[1] Freud, S.: Op. Cit.

وتتعلق الأهمية المرتبطة بكل من هذه العناصر بمرحلة طفولة المرأة، وعلى الأخص بالسعي الذي تقوم به في سبيل التحرر من أدواتها الأولى خلال مرحلة المراهقة. ويتحدد خيار المرأة لأدواتها في الحب إلى درجة كبيرة بارتباطاتها العاطفية بماضيها وبكفاءتها النفسية للأمومة.

تتصف المرأة الأنثوية بتوازن منسجم بين تلك العناصر؛ وأثرها المهيمن هو العشقية. وشكل هذه العشقية والأساليب التي بواسطتها تبلغ غاياتها تعطي لكل من الأنماط الثلاثة الذين سنصفهم هيئة خاصة. فالذي يربط جميع هذه الأنماط، هو الاستعداد للاندماج بالرجل بالطريقة الأكثر ملاءمة لسعادة الشريكين. وأن الشرط النرجسي المسبق لذلك الاندماج يكمن في تآلف نفسي، وفي تشابهات الأنا. ويقع على المرأة القسط الأكبر في صنع التكيّف؛ إذ أنها تتخلى عن مبادرة الرجل وأصالته الخاصة، مفعّلة تجربتها الخاصة من خلال الاندماج. ويحتاج بعض أولئك النساء للمبالغة في تقدير أدواتهن والطريقة النرجسية التي تجعلن بها الرجل سعيداً تعبّر عنها هذه الصيغة: "إنه رائع وأنا جزء منه".

مثل هؤلاء النساء لسنا فقط رفيقات درب مثاليات للرجل؛ بل لو امتلكن درجة عالية من صفة الحدس الأنثوية، فإنهن معاونات مثاليات وغالباً ما تلهمن الرجل وتجدن في هذا الدور سعادتهن الكبرى. وتظهرن قابلات للتأثر بيسر، وتتكيفن مع رفيقهن وتتفهمنه . وإنهن ألطف المساعدات وإنهن صدوقات، وترغبن البقاء في هذا الدور؛ ولا تتبجحن بحقوقهن الخاصة بل على العكس. ونجدهن ناعمات بكل الأساليب ... شريطة أن تنلن الحب. ومن الناحية الجنسية، تستثرن بسهولة ونادراً ما تكنّ باردات جنسياً؛ إنما في هذا الإطار تفرضن شروطاً نرجسية يجب تلبيتها بشكل حتمي. إنهن تطلبن الحب والرغبة العارمة، وتجدن فيها مكافأة مرضية عن تخيلهن عن ميولهن الخاصة الفعالة.

أما إذا كنّ موهوبات بغزارة، فإنهن تحتفظن بإمكانياتهن الأصيلة والخلاقة، إنما دون روح تنافسية. فهن مستعدات دوماً للتخلي عن إنجازاتهن الخاصة دون الإحساس بشعور التضحية، وهن تتمتعن بإنجازات رفيقهن، بعد أن تلهمنه. وإنهن بحاجة قصوى للعون عندما تلتزمن "بأنشطة تتوجه نحو الخارج"، إنما تفكرن وتشعرن بطريقة مستقلة استقلالاً حتمياً عن ذواتهن، وهذا يعني " أنشطتهن

المتوجهة نحو الداخل". ويعد استعدادهن للاندماج مؤشر غنىً وليس مؤشر فقر داخلي .

وبالطبع، موقف كهذا يتضمن خطر خضوع ماسوشي وفقدان الشخصية الخاصة. وإذا استبعدت هذه الأخطار، فنحن أمام النمط الأكثر إرضاءً " للمرأة الأنثوية "إن ما هو ساحر وخفي لدى بعض النساء، ليس هذا الجزء من شخصيتهن الذي أتين على وصفه. فالميل للاندماج، والقبول بالتأثر، والتخلي الماسوشي لصالح الغير، ولعبة الحدس، هي هنا صفات نمطية " للمرأة الأنثوية" . ويعود السحر بالأحرى إلى آليات دفاعية تبطل بواسطتها مفعول الأخطار التي أتينا على ذكرها. وتعهد هذه الآليات للقوى النرجسية للكائن، ولكي يبدو ذلك ظاهرياً، نقول أن تأثير هذه القوى فقط تعطي لهؤلاء النساء قيمتهن الشخصية الكاملة. ولنتذكر أن النرجسية لا تضطلع فقط بوظيفة سلبية، معادية لأداة خارجية. بل إنها تلعب لدى المرأة دوراً له أهمية توازنية مع الماسوشية وتضطلع هكذا بوظيفة إيجابية. وعلى هذا فإنها تلعب دور حارس يحميها من إفلاس سلبي ماسوشي . والموقف الذي يشغله هذا الحارس في التكوين النفسي مرتبط بالفارق الموجود بين نمطي النساء الأول والثاني.

فالنمط الأول تمثله المرأة التي، وهي تشعر نفسها مرغوبة ومحط إطراء، تجد من الصعب جداً أن تجعل الحصول عليها يسيراً. ومن الواضح في هذه الحالة أن الحارس لا يتمركز على باب الدخول؛ والرجل المقبول يحس نفسه أنه محبوب ؛ فيتمسك بهذه المرأة التي تهب نفسها إليه نفسياً وجسدياً، إنما سرعان ما يلاحظ أنه لم يمتلك إلا قسطاً لا أهمية له من مشاعرها، وأنه أمام باب موصد توجد خلفه كنوز نفسية مخبأة بعمق ولا يمكن الحصول عليها إلا بجهود جبّارة.

وكما رأينا، يضمن توازن هذا النمط علاقة خاصة بين الميول السلبية الماسوشية والنرجسية الأنثوية. وخلف سور نرجسي دفاعي قوي الإحكام توجد شخصية قوي ونشاط داخلي غني. والقضبان الحديدية الخارجية لهذه الساحة غالباً ما تبقى مفتوحة بسبب الأمان الذي يتمتع به هذا النمط من المرأة خلف جداره الدفاعي.

أما النمط الثاني، "للمرأة الأنثوية " نراه عندما يتمركز الحارس النرجسي عند المدخل حتى في الحياة العشقية والعاطفية هذه المرأة صعبة المنال، وتدافع عن نفسها جسدياً ونفسياً، إذ أنها واعية جداً لخطر الهزيمة الماسوشية. وخلال مرحلة الصراعات التمهيدية، تطمأن لوضعها وتوجه حب وشهوة الرجل في المسالك التي تختارها. وباندماجها تربط بصلابة حياتها الخاصة بحياة الرجل. وبمجرد أن يهزم الحارس وتفتح أبواب القضبان الحديدية الخارجية، تفتح جميع الأبواب الداخلية هي أيضاً بلا تحفّظ . والحارس النرجسي سهر على حماية شخصية المرأة. وبدءاً من تلك اللحظة تتصرف كنساء النمط الأول.

لعل وجود هذه الشخصيات العشقية مؤكد من خلال تصرفهن، كما ذكرنا، ليس فقط في حياتهم العشقية إنما أيضاً في جميع المجالات. في صداقاتهن مع النساء أو مع الرجال (وبفضل حدسهن لديهن العديد من الأصدقاء وكذلك بفضل غياب الغيرة، والطموح، وجميع الأشكال العدائية)، وتضطلعن بنفس النشاط المنسجم الكامن في الحماية النرجسية لشخصيتهن وبالتبعية للغير بالاندماج. وإن تسامحهن ملحوظ. وفي علاقاتهن مع الغير تتجاوزن الشعار القائل: من يريد أن يفهم كل شيء عليه أن يكون متسامحاً في كل شيء؛ أما بالنسبة لهن، أن تفهمن كل شيء لا يعني أن تكن متسامحات بشيء. وهن تختلفن عن كثير من رجال ونساء النمط الآخر في جهلهن للغير وعدم المعاناة منه وفي المقياس العادي لعشقيتهن وربما تضبط تلك النساء "شهوة العضو الذكري" على نحو أفضل من غيرهن وفي جميع الأحوال، وبفضل الحب والثقة بالنفس تتوصلن ببراعة لقهر "الإذلال النرجسي" والذي بحسب رأي المحللين النفسيين، يأتي، لدى المرأة، من شهوتها للعضو الذكري. وليس لماسوشيتهن إلا اللجوء للنـــزعة الرجولية، التي تبادر إليها غيرهن من النساء، لأنها تخلق، في أنوثتهن، وضعاً دفاعياً جيداً. وإذا سمحت لنفسي بهذا الافتراض حول شهوة العضو الذكري، فليس لأني أرى فيه منبعاً رئيسياً لنرجسية المرأة. بل لا أكثر من أن أجعل الشهوة صفة للطباع الأنثوي تحديداً.

والمرأة التي أتينا على وصفها لديها قابلية التأثر بيسر لكنها كذلك تقول "لا" بهدوء وصلابة. وفيما إذا فرض رفيقها، أو أي شخص آخر من محيطها، عليها فوق

طاقتها أو ناقضها باحتياجاتها الأخلاقية أو الجمالية، فإنها تحطم ارتباطاتها رغم حبها وتساهلها.

نساء هذا النوع، وخاصة نساء النمط الأول، تبدو مستعدات لشكل فريد لمنح وتلقي الحب بحيث أية خيبة لا تمنعهن من تجربة علاقة جديدة بشكل احتمالي والتي لا تظهر متماثلة في تعبدها.

وأحياناً تعطينا انطباعاً بالسهولة البالغة في الوصول إليهن. إنما يلاحظ أخصائي علم النفس شيئاً فشيئاً أن تصرفاً مماثلاً لدى كائنات مختلفة ليس له دوماً المعنى نفسه. كما تقول الحكمة اللاتينية "إذا تماثل اثنان، فليس بالضرورة التطابق بينهما" وما يعني عالم النفس من الأمر هو الدوافع العميقة. ولدى وجهة النظر هذه علينا أن نجري مفارقة كبيرة بين نمط النساء الذي يهمنا هنا و"اللواتي نتمكن من امتلاكهن بسهولة ". أولئك النساء على عكس الأخريات، نتمكن أيضاً من تركهن بسهولة.

إنها حقيقة أبدية، وتبقى نفسها رغم تحولات الحياة، أن الرغبة الجنسية عند الرجل تزداد حدة بالموانع التي عليه أن يتخطاها لبلوغ الاتحاد مع المرأة. وفي هذه الأيام كما في عصور ما قبل التاريخ، تكون النساء أكثر سعادة عندما لا توافق على توددهن الجنسي إلا بعد فترة طويلة من التزلف. وعندما تسير الأمور على هذا النحو فيكون شرطا العشقية الأنثوية قد تحققا؛ من ناحية الشرط الماسوشي، إذ أن المرأة ترغب أن يكون الحصول عليها بعد صراع طويل وتنتظر " هزيمتها " بإثارة مفرحة ؛ ومن ناحية أخرى، الشرط النرجسي، إذ أن الصراع يثير رغبة الرجل، وهذه الرغبة ترضي المرأة جداً. كما أن الظروف الاجتماعية لا تدخل بكل هذا. إنه العامل النفسي المعني بالأمر، والنظام الاجتماعي لا يستطيع أن يعدل شكله. وفي العصور الوسطى، في حين أن النساء كانت، من الناحية الاجتماعية، عبيداً للإقطاعي، فالحب" المتزلف" والخدمة المتواضعة التي كان الفارس يتفانى بها إلى سيدته منتشرة جداً. وفي البلدان الإسلامية حيث كانت النساء تُشترى كأداة جنسية، **كانت تترتب الأمور بجعل الحصول عليها مسألة عسيرة وصعبة لكي تعزز قيمتها باعتبارها أداة متعة.**

وفي حضارتنا، تتخلى كثير من النساء على سعادة الحصول عليهن لأسباب متناقضة غالباً. فعدم القدرة على قول كلمة " لا " تعد لا شيء أمام العجز الطفولي في التخلي عن متعة ما مباشرة مقابل متعة لاحقة أكبر. وتبدي أولئك النساء، في سلوكهن، طبيعة طفولية غير منضبطة. وفي أحيان أخرى، يتعلق الأمر بالمطلب النرجسي الذي يسعى لنيل الإشباع في تعاقب مستمر لمواقف ترغبها المرأة. أو أنها الرغبة الماسوشية عند إذلالها بالهجر. أو أن الحاجة في تحطيم قيودها، وأن تكون حرة جنسياً كالرجل، وتقلد إلى درجة ما الأسلوب النشيط للرجل، في إرضاء دوافع عدائية بعدم وفاء متكرر، كل تلك الأسباب، تصدر عن المركب الذكوري لدى المرأة، وتدفعها إلى عشقية نشطة غير مكبوتة، "حرة". وقد ذكر ويتلز[1] كأمثلة لنساء أخناث، الفاسقة ميسالين وهيلين اللطيفة في طروادة.

"المرأة البدائية" كانت تخضع ببهجة وبدون صراعات لرغباتها الجنسية، وأنا لا أعرفها أكثر مما أعرف " الرجل البدائي" . حيث نصادف أحياناً، في قصص خيالية، شخصيات من هذا النوع، ومع ذلك، إذا تأملنا فيها عن قرب، كم تبدو لنا معقدة جاچا السهلة، مثلاً، في كتاب " فلاحولا ديسلاس ريمون " أو ڤيرينيا، البطلة الفاسقة وفي الوقت نفسه الأمومية جداً في رواية سيفولينا!

تعلمنا التجربة أنه، حيث توجد أنوثة منسجمة نكتشف حرية جنسية مفرطة. تلك الحرية تبرهن عن وجود تشوش داخلي كبير بقدر، وأحياناً أكثر حتى، العفة الشديدة أو الكبت الجنسي. وهكذا فتصورنا عن المرأة الأنثوية الطبيعية لا يقوم على تصرف، إنما على تفاعل منسجم لقوى نفسية مختلفة؛ وهكذا فالنمط الذي نصفه مختلف بشكل واضح عن أنماط أخرى لا تشبهه إلا ظاهرياً.

ويمكن للنمطين من النساء " الأنثويات" أن يختلفا أحدهما عن الآخر رغم تماثلهما العميق. فالأول تتحرك مشاعره بسهولة أكثر، ليس فقط من الناحية العشقية إنما من جميع النواحي؛ إنه لطيف ومتسامح، والمرأة من هذا النمط تطلب الكثير، لكنها مستعدة في أية لحظة لأن تدع نفسها تتأثر بالأداة، بل أحياناً أن

---

[1] Wittels, F.: Die libidinöse Struktur des krimidellen Psychopathen, Intern. Ztschr. f. Psychoanal. , vol. 23, 1937.

تتقبله دون أن تبالغ في تقديره، وتندمج معه. والخطر، بالنسبة لهذه المرأة، يكمن في ماسوشيتها؛ إذ يمكن لحارسها النرجسي أن يقع في الإغواء. وهناك نمط من الرجال يمكن أن يتوصل لإغواء هذا الحارس؛ هذا الرجل هو أيضاً عشقي ونرجسي بشدة، وعدائي جداً في عشقه العارم. ولديه كثير من الإغواء في رغبته بالامتلاك الكامل، ويبدو أن لديه الكثير مما يمنحه، بحيث لا تستطيع المرأة مقاومته. رجل كهذا غالباً ما يكون موهوباً لدرجة قصوى وقادراً بأن يثير الفضول الذهني للمرأة ويغذيه، ويتوصل إلى إضعاف دفاعها الذاتي النرجسي، وتصبح ضحية ماسوشيتها الخاصة. حينئذ يتدمر انسجامها الداخلي؛ وإذا لم تتوصل إلى أن تنجو بنفسها وتعيد بناء جدارها النرجسي، ستستمر في قدرها الماسوشي سواء باستمرار تعلقها بالرجل الذي لم تتمكن من هزيمته، أو بتغيير الأداة العدائية إلى أداة عدائية أخرى. وتصبح عصابية وتكف عن كونها " امرأة أنثوية" منسجمة.

أما النمط الثاني للمرأة فهو أقل ماسوشية إنما أكثر تطلباً؛ إنها تطلب أكثر ولا تضطلع بالدور الأنثوي السلبي إلا بشرط محددة بإرضاء نرجسي حيوي جداً. ويكمن الخطر، لدى هذه المرأة، في نرجسيتها. فطلباتها المتشددة تنتهي بإفقار علاقاتها مع الأداة ويمكن أن تقودها بسهولة إلى الحرمان والخيبة.

ومن الواضح جداً أن الحدود بين النمطين ليس واضحاً دوماً. إذ يوجد الكثير من الأنماط الوسيطة وحتى الأنماط الصافية غالباً ما تكون معقدة جداً. كما أن أساليب التفاعل تبتعد أيضاً عن أسلوب " النمط ". فكم من المألوف أن نرى امرأة في منتهى الرقة، وتتصرف بطريقة سلبية أنثوية تامة، تتخذ فجأة موقفاً عدائياً ومحباً للانتقام إذا شعرت أن نرجسيتها أهينت! وعندما يغيب عنها الحارس النرجسي لماسوشيتها العشقية، تتحول هذه الماسوشية إلى سادية وتتوجه بصورة عدائية نحو أناها الخاص. وعندما تنتحر نساء نتيجة خيبة في الحب، فعموماً ليس بسبب خسارة الأداة إنما بسبب جرح حبهن لذاتهن. وأعرف امرأة في حالة مشابهة، بكت طيلة أسابيع، ليلاً نهاراً، ترثي لرجل كانت قد انقطعت عن حبه واعتباره منذ زمن بعيد فضلاً عن أنها كانت تدرك ذلك تماماً. كما كانت لي الفرصة في دراسة امرأة ساحرة ولطيفة، قتلت رجلاً دون أدنى شك معاناة من الحب، فقط لأنه أنزل بها ألماً بحبها لذاتها. وخلال دعوتها، التي كانت لها وقعاً

معيناً، بحث الاتهام عن دوافع سياسية مادام من المستحيل إدراك الأهمية التي كانت توليها هذه المرأة عند إصابة نرجسيتها.

كما نلاحظ غالباً نساء سالمات من الناحية النفسية وراشدات ومع ذلك تبدين في تصرفاتهن حركات ذات طابع طفولي. وتعتبر النساء العشقيات، والعاطفيات بحيوية والمتهورات كخطأ أن تتركن كل علاقة خلفهن، وتتصرفن، بملء نضوجهن، كفتاة مراهقة والتي كلما تقع في الغرام تفكر قائلة: " لم يكن الرجل السابق ذلك المناسب لي، فالحالي يختلف عنه. "ونساء أخريات يظهرون تأكيداً في الثبات والاقتصار على مشاعرهن وبرغبة حية في "حب خالد". والمطلب النرجسي هنا: " أحبني وحدي وإلى الأبد" مشترك بشكل عادي مع خشية الضياع، وهذه الخشية هي في جوهر الإرضاء الماسوشي الذي غالباً ما يتحول إلى غيرة معذّبة. وإنها الحاجة الماسوشية نفسها التي تدفع، بشكل تناقضي، امرأة متمكنة في أمور الحب أن تكتب لعشيقها ما يلي: " أعمل ألا أكون واثقة منك، فهذا فقط يعطي قيمة لحبي لك". وعند الكثير من النساء يؤدي الاقتصار إلى ضيق نفسي، وإنهن لا تستطعن إقامة علاقة إلا إذا بقي كل واحد حراً في الحنث في أية لحظة.

فالعشاق الأكثر عشقية غالباً ما يكونوا عاجزين عن العيش في علاقة منسجمة ضمن شروط مبتذلة يومية، إذ أن الحب غير ممكن بالنسبة لهم إلا بنشوة عارمة ورغبة مستمرة. فمن العسير سد هذه الحاجة النرجسية في حياة اعتيادية. فالنساء العشقيات بحيوية ترفضن الزواج وحياته التافهة إذا يسمح لهن وضعهن الاجتماعي القيام بذلك، أو أنهن تغيّرن الشريك بسرعة (كالفنانات، الخ.). فالنساء الموهوبات بإدراك اجتماعي متطلب وبحاجات عشقية كبيرة تفسخ بمختلف السبل علاقة غير مرضية عشقياً: إذ تبتكرن على طريقتهن إيديولوجية خاصة وتصرحن بأن علاقة جنسية تنقصها الكثافة العشقية هي علاقة لا أخلاقية وتستحق القطع. أولئك النساء ما أن تدخل واجباتهن الأمومية بصراع مع رغباتهن العشقية حتى تؤدي عموماً إلى عقلنة تجد من الأفضل على الأولاد أن يروا أبويهم منفصلين على أن يعيشوا في جو " فاتر بلا حب ".

وعند كل امرأة، في إحدى زوايا قلبها، حاجة ماسوشية لأن تعاني من عذاب الرغبة والآلام المرتبطة بالحب العميق. وإلى جانب هذه الزاوية، لديها أيضاً

حاجة نرجسية في رؤية الشريك يعطي أكبر البراهين في الحب ويبدي استعداده للتضحية بنفسه. عندما قال " إدوار انكلترا " للعالم أجمع، بالراديو، أنه ترك عرشه لأجل " المرأة التي يحبها" أثارت كلماته صدى غريباً لا ينسى في قلوب الكثيرات من النساء مابين 16- 60 عاماً. مجاهرة الحب هذه أيقظت فيهن الحنين في " أن تُحب". ومما كان يهز مشاعرهن في الواقع، هو الإعلان الذي قطعه الملك في التضحية الراضية من أجل الحبيبة. ولعل المرأة العشقية تحب أن يخر العرش والتاج تحت قدميها، حتى لو أن عشيقها لا يمتلك هذا. " إنما فيما لو كان يمتلكه...".

لقد ذكرنا أن المرأة تختار أداة حبها وتتجه نحوه بمنهج تتخطى به علاقاتها العاطفية القديمة ومستندة لمركب الأمومة الموجود في ذاتها. فالنمطان من النساء اللذان وصفناهما يختاران أحد الأداتين التاليتين : إما رجل تعلي من قيمته، نشيط جداً ورجولي، ويمثل الصورة المثالية للأب، وإما شاب واعد بحاجة لامرأة يندمج بها لينمي ثقته بنفسه. ويتحدد الخيار الثاني عادة بمركب الأمومة والعشقية الأنثوية. ومع ذلك هناك أمر علينا الإصرار عليه هنا : فكلما زادت الميول الغريزية للمرأة ماسوشية (بالمعنى الأنثوي للعبارة)، كلما تنحّت مثاليتها العشقية عن الرجل المحتاج للمساعدة أو المريض. وإذا تماشى الموقف الماسوشي اللاشعوري للمرأة مع التضحية الشعورية بأناها، أي إذا تواجدت في علاقتها مع الرجل الشفقة أو شكلاً من أشكال الإيثار على النفس، فإثارتها العشقية تكون مكبوتة بقوة. وغالباً ما نلاحظ أن المرأة اللطيفة جداً، إذا كانت من هذا النمط، عليها أن تبذل جهداً حثيثاً لتتجاوز نفورها إذا كان الرجل الذي تحبه مريضاً أو بحاجة لرعايتها. ويمكن للمرأة الأمومية العشقية أن تقد مساعدتها الفعالة دون أن تقلع عن حماسها العشقي، إنما ذلك فقط ضمن بعض الشروط. ويمكن مثلاً أن تؤازر تطور الرجل نحو مثالية مشتركة أو نحو أمر آخر نظراً لأنها تؤمن بقوتها. وبذلك تختلف كلياً عن المرأة الطموحة التي تطلب بطريقة عدائية نشطة أن ينجز الرجل شيئاً ما ويتحول بذلك طموحها إليه.

هذان الشكلان في اختيار الحبيب، علاقة فتاة مع أب مثالي أو أم مع ابن مثالي، لهما أيضاً مخاطرهما. فالشكل الأول يطبق كثيراً على الظروف الطفولية يمكن بسهولة أن يؤدي إلى مضاعفات عصابية. فالنساء اللواتي تبقين معلقات طيلة

حياتهن برجل عليهن التخلي عنه وأولئك اللواتي غيرن الأداة المحبوبة لا تقمن غالباً إلا بالتعبير عن طريقتين مختلفتين عمقهما هو التعلق بالأب. "الدون جوان" هي امرأة لا تستطيع تحمل التخلي والتي تنفي التخلي بتغيير أدواتها المحبوبة: " أنا محبوبة رغم كل شيء" .

والمرأة العشقية بصورة منسجمة، هي تلك المرأة الأكثر " أنوثة " التي تمثل تحفة خالقها، غالباً ما تصرح في ليلة حياة عشقية غنية وسعيدة: "لم أكن وفية دوماً، إنما ليس لي في الواقع إلا حباً وحيداً ". إنه صورة مجعدة من ألبومها، أو صورة في ذاكرتها، تمثل الطيف الذي تعلقت به، في طفولتها الوادعة، رغبتها الكبيرة وانتظارها للحب، بهذه الصورة تحتفظ لاشعورياً بإيمانها بأداة حبها الأول، بأبيها.

إن ذهن الفتاة العادية يغذي، بشأن أبيها، تخيلين مألوفين جداً وشعوريين تماماً. هي ترى أولاً في والدها رجل ملفت قد يستحق أفضل مصير، وهو ضحية أم مبتذلة فرضت عليه المهمة الحزينة في كسب المال. فهي، ابنته الصغيرة، قد تناسبه أكثر، إلا أنه ملزم لسوء الحظ على التخلي عنها. وفي حالات عدة، الأداة الأولى في الحب للمرأة هو سليم من الناحية النفسية، أداة ستظل غالباً متعلقة بها طيلة حياتها، إنه رجل متزوج يستجيب لحبه إنما لا يستطيع تحطيم علاقاته القديمة. مثل هذا الرجل يعيد من جديد موقف الأب. ولعل تخيل رغبته المؤلمة، والآلام التي شاركت بها المرأة معه، غالباً ما تغذي على نحو أفضل تعلقاً وفياً عن أن تغذي إتماماً سعيداً.

ويمارس التخيل الآخر غالباً تأثيراً كبيراً على الحياة العشقية للمرأة والذي يرتكز على هذه الفكرة بأن الأب يحب الأم محبة جنسية إنما يمنح ابنته أفضل شيء لديه، ألا وهو أناه المثالي. وهي تعتقد أنها الوحيدة التي تفهمه وتمتلك روحه. وتسأل المرأة العشقية، بعد كل إرضاء جنسي: "هل لازلت تحبني؟" وهي ليست بذلك مدفوعة بتربيتها، وبالعرف القائل بأن المرأة تفقد من قيمتها عندما تهب نفسها. بل إنها تعبر في الواقع عن الرغبة التي تمتلكها الفتاة في أنها تشارك " على النحو الأفضل" مع الرجل، وعن انتقاصها الخاص من قيمة الأحاسيس الجنسية. ولعل الفكرة بأن الرجال يفصلون الحب المثالي عن الحب الجنسي تؤدي، لدى النساء العصابيات، إلى الضيق النفسي والكبت.

ونلاحظ، في مرحلة المراهقة، نوع آخر من الحب الذي يستمر طيلة الحياة لدى بعض النساء والذي يمكن أن يحدث حتى حينما تكون المرأة متكيفة مع الواقع إلى أقصى حد. فمثلاً، امرأة تزوجت زواجاً سعيداً وعندها أطفال ومهنة والتي في كل علاقاتها إنسانة راشدة وناضجة، وتكون مرتبكة باستمرار بحب أفلاطوني، لذيذ لذة قاسية، لرجل يمثل عادة الأب بالنسبة لها؛ أو رئيسها المباشر، أو رجل شهير من المجال الذي تهتم به، الخ. امرأة من هذا النمط كانت تسمي هذا الحب "سعادة يوم الأحد"؛ إذ لم يكن لديها وقت إلا يوم الأحد لتسرح في تخيلاتها هذه.

وفي مسرحية "ضجة كبيرة للاشيء " (الفصل الثاني، المشهد الأول)، نجد مثالاً مثيراً لهذا المقطع للحياة العاطفية بين الإشباع اليومي ونشوة يوم الأحد :

دون بيدرو : *هل تريدينني، يا سيدتي؟*

بياتريس : *كلا، يا سيدي، ما لم أتمكن من الحصول على أحد آخر للأيام العادية؛ ظرافتك ثمينة جداً للإفادة منها كل يوم.*

إن الروح الأمومية للمرأة العشقية تظهر بلا شك أكثر عندما تكون أداة الحب المختارة شاباً عن أن تكون صورة للأب. إنما مع ذلك لا تكون دوماً هكذا بالكامل. فالفتاة وهي تكبر، خاصة إذا اختفت الأم، غالباً ما تضطلع بدور محامٍ تجاه الأب. فهي تؤنبه عندما ينسى معطفه أو عندما يبتعد عن نظامه الغذائي! وكم تود سماعه عندما يروي مآثره التي قام بها خلال النهار! فسواء كان مرؤوس بسيط أم مدير معتبر، فهو دوماً بنظرها شخصية ذات شأن. وتصغي المرأة الراشدة والعشقية والأمومية للرجل بنفس الطريقة وهي تسعى لأن تحتفظ لنفسها بوهم أهميته، وتأكيد إيمانها به. وتتصرف هكذا مع ابنها. فالأم والابن كليهما بحاجة للإيمان بالمستقبل المشرق للفتى وتعلم المرأة الأمومية كم تلهم ابنها في هذا الاعتقاد. إنها تهدئ مخاوفه أمام المهمات التي ينهض بها، كما لا تضغط أن يؤديها. وهي لا تهزّئه إن لم يبلغ أهدافه إلا بصورة متواضعة. فالمرأة العشقية الأمومية تعطي لزوجها كذلك هذا النمط من الإرضاء.

وسنحاول التوغل في تحديد ماهية الروح الأمومية؛ وسنكتفي الآن بتعريف مختصر. فالمرأة التي تتصرف بطريقة أمومية مع محيطها هي تلك التي تبدو قادرة على التخلي عن مصالحها الفردية في سبيل حفظ الجنس البشري الذي يمثله الطفل ؛ إنما

الموقف الأمومي يمكن أن يخص أشخاص آخرين وأشياء أخرى. ويختلف هذا الشعور جداً عن أي نوع آخر من الحب، إنه الأقل أهمية؛ وغالباً ما يؤدي، لدى النساء العشقيات، إلى احتواء متطلباتهن النرجسية في علاقاتهن مع الرجال.

وبإمكاننا الاعتقاد أن على المرأة العشقية والأمومية أن تجد في الأمومة أفضل استخدام لمشاعرها؛ إنما لا يكون الأمر دوماً هكذا. فهناك صراع يتكشف بين العشقية والروح الأمومية، وهو صراع من أحد الصراعات إذ أن العشقية قادرة على استخدام كثير من المشاعر الأمومية لغاياتها الخاصة وتدخل هكذا في منافسة مع الأمومة الحقيقية. وبالمقابل، يمكن للمرأة أن تستثمر ابنها في قسط كبير من مشاعرها في التضحية، والاندماج، والماسوشية، بحيث تصبح بذلك عشقيتها مهددة.

إن الحارس النرجسي الذي لعب دوره بمهارة في مواجهة الرجل غالباً ما يتغيب أمام الطفل، فالتضحية الماسوشية للأم تضعها في خطر، كما تصبح فيما بعد خطراً على الطفل أيضاً. إن حالة العجز التي غالباً ما تكون فيها المرأة الأنثوية جداً، والغنى القوي بمشاعر الأمومة، وفكرة أن تقدم للعالم العدد الذي تتمناه من الأطفال، ينقذ أناها بصورة محتملة. وهذه المرأة لا تتوصل دوماً إلى خلق الانسجام، في علاقاتها مع أولادها، فيما تحصل عليه في جميع مواقف حياتها. فأمومتها ينقصها عنصراً فعالاً ودقيقاً جداً، معنى أمومياً متيناً، متسعاً وبسيطاً، حيث حبها للأولاد يفوق العشقية بأهميته والتي، في صراعها بين الأمومة والحب، تحسم المعركة لصالح الأمومة. لذلك، وما يؤسف له، ليس للنساء العشقيات والأموميات أطفالاً أو تتحددن بطفل وحيد. فتضعن في تصرف هذا الطفل جزءاً ضخماً، وأحياناً كل غنى حياتهن العاطفية. فالمرأة التي تستجيب لوصفنا تنجح ذات يوم، وبعد كثير من السنين، أن تدرك في النهاية لماذا لم تمتلك إلا طفلاً واحداً مع أن الأمومة بنظرها تعد من أجمل الأمور. لقد اندمجت مع طفلها لدرجة لم تعد تحتمل فكرة أن يكون لها طفل آخر يزاحم الأول في حبه الأمومي. كانت هذه المرأة يقظة وملأى بالتجربة، وكانت ترغب أن تجنب " شعورياً " طفلها خطر الابن الوحيد، لكنها أذعنت لا شعورياً لاقتضاء اندماجها معه وبقيت " وحيدة الزوج" بصفتها أم كما هي كذلك في جميع علاقاتها الأخرى.

وبذلك نصل هنا إلى تساؤل نطرحه على أنفسنا برتابة مألوفة: هل المرأة "الأنثوية" وحيدة الزوج أم متعددة الأزواج؟ لنولي الانتباه أولاً للعوامل الاجتماعية التي يشملها هذا السؤال. فقد خلق المجتمع الإنساني نظام الزج الواحد لمصلحة نظام اجتماعي ما وتنظيم اقتصادي معين. فنظام الزوج الواحد فرضه همّ حماية الجنس البشري، لأن الطفل، على خلاف صغار المخلوقات الحية الأخرى، بحاجة للمساعدة والحماية لفترة طويلة بعد ولادته، وثمة شكل من نظام الزوج الواحد المدعوم من القانون يبدو كأفضل ضمان لتلك الحماية. وهكذا يصبح هذا النظام شرعياً لدى الأمم الأكثر مدنية بل ويتخذ طابعاً إلزامياً. بحيث ترتكز هذه المؤسسة، أو لا ترتكز على طبيعة الإنسان، وفي ذلك هنا مسألة نفسية. فنحن نعرف نساء ترعرعن في ظروف اجتماعية بحيث لا تخضعن لقانون نظام الزوج الواحد، وأخريات تحررن منه بشكل فردي، وأخريات أيضاً اللواتي، بسبب سلبيتهن، تحاشينه تحت تأثير الغير. فلدينا مادة غنية تحت تصرفنا. فانطباعنا يكون في أن المرأة الأنثوية وحيدة الزوج بشكل أساسي وفي معظم الحالات. هذا النظام أحادي الزوج لا ينطوي بالضرورة الاقتصار على الزواج ولا أن يتحدد الإحساس الجنسي بأداة وحيدة طيلة الحياة. فالمرأة تستطيع في أحيان كثيرة تغيير أدوات حبها، إنما هي وحيدة الزوج بشكل صارم خلال كل علاقة من علاقاتها وتبرهن عن الحاجة لإطالة هذه العلاقة لأطول زمن ممكن. يفترض هذا التصرف الطبيعي ألا يجلب أي ميل متناقض لبلبلة اللعبة.

ويبدو أن التفسير النفسي لهذه الظاهرة واضحاً. حيث يكفي بالنسبة لنا أن نعود أدراجنا قليلاً نحو الوراء إلى نمو المرأة. ولنتذكر أننا تركنا الفتاة البالغة في موقف ثلاثي وعبرنا عن أملنا أن نرى هذا الموقف المختلط الجنسي منحل آجلاً، حيث تنعكس فيه تبادليته الجنسية، لصالح الجنس المعاكس. وقد عبرنا هكذا عن أنفسنا بغرض التبسيط. وفي الواقع، العامل التبادلي الجنسي البنيوي إن كان في أساسه يعود إلى مثلث ما أم لا، فهذا المثلث لا يمكن هجره كلياً بتاتاً. فالعلاقات العاطفية مع الوالدين، العميقة منها والقابلة للاستئصال، تلعب دوراً في تشكيله. ويعقب ذلك علاقة أخرى، أقدم وأكثر بقاء أيضاً، إنها علاقة الأم بالابن، والتي يحتفظ بها في ذاته أي رجل أو امرأة منذ الولادة وحتى الممات. ولعلنا ننخدع إذ

أمكنا أن الفتاة الصغيرة تهجر علاقتها الأولى مع أمها لصالح أبيها. إن ما تقوم به ليس إلا جذبه شيئاً فشيئاً إلى التحالف؛ إنها تنتقل من علاقة محصورة بين الأم والبنت إلى مثلث الأبوين والبنت وتستمر في تلك العلاقة الثانية كما فعلت في الأولى طيلة الحياة، مع أنها تأخذ شكلاً مخففاً. وما نراه فقط هو تغيير الشخصية التي تلعب الدور الرئيسي، والذي تارة تكون الأم، وتارة الأب. إن الطابع الغير قابل للاستئصال لهذه الكوكبة يتجلى بطريقة تتكرر على مجرى الحياة.

وتكرر المرأة في علاقتها مع ابنها قصتها الخاصة مع أمها، وتسعى في استنساخ نفس التطور النفسي في مثلث جديد.

وخلال انتظار الأمومة، بل غالباً قبل بدء هذا الانتظار، تتهيأ المرأة نفسياً للمثلث. ويعبّر عن هذا أحياناً بشكل مباشر وشعوري في هذه الرغبة: " أريد أن يكون لي ولد منه، ومعه. " فدور الرجل في هذا المثلث محدد بشكل واضح منذ البداية. وأحياناً قد تكون الرغبة: " أريد طفلاً "، فالرجل هنا مبعد جزئياً إلى النسق الخلفي. أبداً لا تستثني المرأة الأنثوية العادية الرجل بصورة كاملة، وذلك ليس فقط من وجهة نظر جسدية، بل لأن تشكيل المثلث يتوافق في ذاتها مع حاجة عميقة. وتتأكد هذه الحاجة غالباً ضمن الشروط الأكثر غرابة، والفشل في إرضائها قد يشوش العلاقة مع الطفل تشويشاً خطراً. ويتحقق هذا في كثير من الحالات، لكننا سنختار منها فقط بعض الأمثلة اللافتة بصورة خاصة.

كانت شابة ثورية قد غادرت بلدها حيث صيغة (الأب الغير محدد) أصبحت عقيدة اجتماعية أساسية. هذه الشابة ذات التفكير الحر كانت تعاني من الاكتئاب. وهي أم لطفل تدلله، وكانت عاجزة نفسياً عن إيجاد أي سعادة في ذلك لأنها لم تكن تستطع تحمل غياب الأب، أي غياب العضو الثالث في المثلث. وكانت قد تربّت ضمن أسرة تقليدية وتحررت شعورياً وفكرياً من تعلقها القديم. لكنها، في حياتها العاطفية اللاشعورية، كانت ضحية ميولها الأوتوماتيكية الرجعية. والتجربة وحدها ستتمكن من القول كم من الأجيال يلزم لتعديل مفاهيم متجزرة تجزراً عميقاً.

يخص المثال الآخر امرأة شابة كانت تحب زوجها محبة وادعة. وعند إصابته بتدرن في الخصيتين، أصبح زوجها عاجزاً عن إنجاب أطفال، فأحبطت زوجته

بشكل مذهل في آمالها بالأمومة. كان هذان الزوجان يعيشان في بلد لم تكن فيه مسألة تبني طفل قضية ذات شأن. وبرضى من الزوج، قررت المرأة أن تخصب من رجل آخر؛ إنما ، لكي تمحو جميع آثار الأبوة، قامت بعلاقات جنسية مع رجلين، في كل مرة مع أحدهما، في نفس الطور. وأنجبت طفلاً جميلاً وسليماً؛ إنما، كامرأة مثالنا السابق أعياها شعور أن أب هذا الطفل لم يكن بالنسبة لها إلا تصوراً فارغاً. وبسبب شعورها بالذنب وإحساسها ضد زوجها، كانت عاجزة على اعتباره كأب للطفل وكانت تتهمه بعدم الاكتراث بذلك. وتكرر أن هذا الطفل بلا أب وأنها تريد هجره. فلا حملها الذي انتظرته كثيراً ولا الإرضاع، ولا الارتباطات المتعددة التي تجمع الأم بابنها استطاعت أن تجعل هذه المرأة الأمومية أماً حقيقية ما دام مكان الأب في المثلث ظل غير مشغول. وليس إلا بعد التغلب على صعوباتها العاطفية وتقبل رؤية زوجها كأب لطفلها حتى أمكنها من أن تصبح أماً سعيدة.

والحالة التالية تقدم لنا مثالاً ملفتاً أكثر؛ إنها حالة امرأة أكثر عصابية. في الثالثة والعشرين من العمر، كانت قد تزوجت من رجل في الثالثة والأربعين حيث وقعت في غرامه. وبدا الزواج سعيداً، مع أنه، خلال الستة أشهر الأولى، لم يحصل بين الزوجين علاقات جنسية كاملة. وبعد ذلك مباشرة، توقف الحيض عند المرأة الشابة، وبفرح عارم من الزوجين. وفي الشهر الرابع من هذا الحمل المزعوم، وخلال الصيف، ذهبت إلى الريف مع أحد أبويها. فأقامت حينئذ علاقة غرامية مع أحد الشبان أصغر منها سناً بعدة سنوات. ولم تكن إلا نزوة عابرة بلا حب من ناحيتها ودون أي شعور بالذنب. وكانت تعتقد أن ذلك ليس له أية أهمية طالما أنها حامل. وبالنسبة إليها، نظراً إلى حالتها، " لا شيء يمكن أن يكون جدياً الآن ". ثم عادت إلى بيتها بعد ذلك واستأنفت علاقاتها الجنسية مع زوجها، وأصبحت مرضية أكثر من ذي قبل. وفي حين أنها كانت تظن نفسها في الشهر السادس، ذهبت للمرة الأولى عند طبيب توليد وكانت المفاجأة عندما علمت أنها ليست حاملاً واقعياً إلا منذ شهرين. ولم يقلقها ذلك، كما لم يقلق زوجها؛ لقد كانت مقتنعة دوماً أنها حامل من زوجها، ما دام كان يأتي لرؤيتها خلال الفترة التي لم تخلص له فيها. وليس إلا بعد ولادة الطفل، عندما كانت ترضعه، راودتها شكوك بشأن الأب. ولم تكن في البداية إلا فكرة لاحت في خاطرها عندما كانت تنظر إلى

الطفل الذي تعبده والذي أولته أكثر العناية حيوية. ثم كبرت شكوكها شيئاً فشيئاً وتحول الفرح الذي منحها إياه الطفل إلى ظلام بذلك السؤال الذي أضناها : " ممن يكون ؟ " وبعد مضي سنة، لم يعد الطفل كأنه ابنها، وهي لم تعد تشعر بأنها أمه. و لم يعد الآن إلا أداة تقوم تجاهه بواجبات الأم، و لم تمتلك أية صلة عاطفية به طالما أن هذه الصلة يشوبها الاضطراب والشك المؤلم. ولدى كل حركة للطفل، وفي ابتساماته أو صراخه، لم يكن هناك بهجة أو قلق أمومي يستجيب، إنما يظل السؤال: "لمن يشبه ذلك؟" وفي كل محاولات صديقاتها لمساعدتها على تخطي هذا الشعور كانت تجيب: " أي فرح يمكن أجده في ابني طالما ليس له أب؟ الطفل يجب أن يكون له أب".

وبعد جهود حثيثة، توصلت هذه المرأة من ذاتها لأن تعتبر زوجها كأب لطفلها، إن كان هذا صحيحاً أم لا. فالمثلث أعيد بناؤه هكذا، وأصبحت قادرة من جديد على تقبل أمومتها.

فالفتيات الأمهات هم، برأينا، الأشخاص الذين يتيحون لنا دراسة المشكلة على النحو الأفضل. فالملاحظات المثيرة لـــ "بياتا رانك"[1] و" ف. كلوتيه"[2] تحمل لنا أمثلة رائعة تؤكد رأينا. فعدد كبير من تلك النساء ألغين منذ البداية، ولأسباب مرضية، فكرة الأبوة ودمروا المثلث. لكن أولئك اللواتي امتلكن روحاً أمومية طبيعية، رغم ظروفهن الخارجية وأحياناً الداخلية أيضاً الصعبة، توصلن إلى تأكيد أنفسهن، وأظهروا لنا بوضوح وجود المثلث. فالطفل بلا أب، الذي حُبل به غالباً ضمن الظروف التي تجعل الأب " غير المحدد " أمراً واقعياً ، يمتلك مع ذلك، أباً يتمثل تمثلاً خيالياً في ذهن الأم. فوجود هذا الممثل الخيالي ربما مثل وجود أب فعلي يبدو ليس له أية أهمية.

فعندما تقضي المرأة " الأنثوية " أن تمتلك تأكيداً حول أب لطفلها، فهي تتعلق بذلك الموقف الثلاثي الطفولي المتجذر بعمق في ذاتها والذي لا يفارقها أبداً؛ وهذا المطلب يجعلها "وحيدة الزوج ". وتضمر كل علاقة غرامية للمرأة الأنثوية

---

[1] Rank, B.: understanding of the unmarried mother . Unpublished manuscript.
[2] Clothier, F.: Psychological implications on unmarried parenthood. Am. J. Orthopsychiat, vol. 13, n° 2, 1943.

طفلاً بصورة نفسية، فعلى هذه المرأة أن تتمسك بأحادية الزوج حتى لو غيرت أدوات حبها. وهذا ما رأيناه في مثالينا، فموضوع إيداع دور الأب إلى رجل ليس الأب الحقيقي لا يغير شيئاً في الموقف النفسي.

فالسيدة مريم أم يسوع ممثلة، بحسب الرغبة الإنسانية العميقة للطهارة في الأمومة، للحبل بلا دنس في ولادتها للطفل. إنما أيضاً لحاجة إنسانية عميقة، أضيف يوسف إلى الأسطورة كممثلاً أبوياً.

لقد درسنا بتلازم نمطين من النساء الأنثويات لأنهما، رغم بعض الاختلافات، مرتبطان بشكل منحصر أحدهما بالآخر. وهناك نمط ثالث أيضاً نتسقه في هذه المجموعة، مع أن بعض العناصر مضافة ثانية لتجعل منه نمطاً وسيطاً انتقالياً؛ ونجد فيه دوافع نشيطة يجدر أن تنسق مع الرجولية. وتمتلك نساء هذا النمط، بدرجة عالية، صفات جوهرية قيّمة للمرأة، وموقفاً عشقياً سلبياً أمام الرجل، وحياة داخلية مكثفة، وحدساً، وحياة عاطفية غنية، وميلاً للتخيل. إنما تظهر أيضاً لمحات من الطباع لا توجد في الأنثوية النمطية. فماسوشيتهن على سبيل المثال ليس لها الشكل الصافي نسبياً لوظيفة المتعة؛ إنها تحتوي على عناصر هامة من "الماسوشية المعنوية ". هذا النوع من الماسوشية هو أشد قسوة، وأشد غطرسة، وأشد عدائية تجاه أنا المرأة من الماسوشية الأنثوية ، ويتجلى بميل متميز أكثر لمشاعر الذنب الشعورية واللاشعورية. وهكذا فالصفات الأخلاقية لهذا النمط الثالث للمرأة مؤثرة أكثر من صفات النمطين الآخرين؛ وتبدو المرأة هنا أهلاً للثقة من الناحية الأخلاقية والاجتماعية. لكن هذا الفرق غير ظاهر أحياناً.

وهناك، في قلب نمطنا الأنثوي الصافي، مجموعة واسعة من الاختلافات الفردية والمتعلقة بالطباع. فعاطفية هذه المرأة، وحساسيتها، وانعدام عدوانيتها، وهو العامل الذي نادراً ما يحرص على عدوانية الآخرين، تخلق كلها جواً يحيط بها ويشع هدوءاً وانسجاماً، وتهدئ مشاعر الذنب عندها، وتدع، إذا صح القول، قابلياتها الأخلاقية متعطلة. لكنها عندما تهدئ الصراعات التي تحرك هذه القابليات الأخلاقية، فتظهر هذه المرأة عديمة الشفقة على نفسها وعلى الآخرين. ومن ناحية أخرى قد يحصل أن المرأة الأنثوية، اللطيفة والسلبية بإفراط، ترتكز على أحكام

الآخرين، وتتنصل من حدسها الخاص مع أنه مفضل أو تتبع أحكامها الممتازة لحاجاها العشقية.

إن الاختلافات الفردية هي أقل وضوحاً في نمطنا الثالث؛ فرسم شخصيتها الكلي هو أكثر توحداً. والحارس النرجسي هنا قد يسمح لنفسه أن يكون أقل يقظة لأن الماسوشية المعنوية تضطلع بأكبر قسط من تنظيم النفسية. ونجد دوماً في هذا النمط التناسق الأنثوي الأساسي للماسوشية النرجسية، لكن هذين العاملين ليسا في النسب ذاها. فالسلبية الماسوشية هي أقل تميزاً لأن العنصر الأخلاقي للماسوشية لهذه المرأة قوي جداً، ونشيط جداً. وهو لا يتغاضى عن العنصر النرجسي إلا في درجة معينة، وخاصة في الدرجة التي تعزز احترام الذات والاقتضاء تجاه الذات. فالرغبة العشقية في أن تُحَب، مظهر آخر من هذه النرجسية، منتقصة.

تحب نساء هذا النمط بهجر أنثوي، لكن استعدادهن لهذا الهجر يفسح المكان للكبرياء النرجسي إذ تطلبهن لحب متبادل لا يرضي إرضاءً كافياً. إهن تستسلمن، بصورة أنثوية صافية، لتخيلات عشقية ملأى بالتوقعات الفروسية الخيالية، تماماً كنساء النمطين الآخرين. لكنهن أكثر زهواً وتشدداً تجاه الأدوات في صلاهن العاطفية المباشرة وقبل أي شيء تجاه أنفسهن. أما تخيلاهن العشقية فهي تثير فيهن بسهولة مشاعر الذنب وغالباً ما تقاومن هذه التخيلات. وبشكل فعال، يزعج ميلهن للذنب حريتهن في الحركة من وجهة النظر العشقية.

وتحس أولئك النساء بضيق نفسي شديد من المجتمع كما أن إحساسهن بالواجب يطلب منهن أن تضعن صفاهن الأنثوية في خدمة قيم واقعية واجتماعية أولى من وضعها في خدمة العشقية. إهن أقل تذوقاً للفن، وأقل حباً للجمال، وتتوجهن في اتجاه أخلاقي أكثر مما كانت تفعله نساء النمطين الأولين، رغم المساواة في المستوى الثقافي. إهن وحيدات الزوج بتشدد، ليس فقط بدافع عاطفي، إنما لإتمام واجب الوفاء. وبنفس الوقت، هن حساسات لأقصى حد تجاه أبسط ظن بانعدام الوفاء العاطفي تجاه العشاق أو الأزواج، وهن متشددات عليهم كما على أنفسهن. إنما علاقة ذلك بأسباب أخلاقية أقل من علاقته بأسباب نرجسية أنثوية. فمتطلباهن المثالية تجاه أدواهن في الحب كبيرة جداً، ولا تملن لتقليص أو تعديل هذه المتطلبات بالمبالغة في قيمة الأداة. إهن مستعدات للسير بسلوك أنثوي بالكامل،

شريطة أن يكون نشاط الرجل، وغايات هذا النشاط متوافقة مع رغباهن وتوقعهن. ومع ذلك لا ينبغي الخلط من وجهة النظر هذه بينهن وبين النساء الطامحات الذكوريات واللواتي تطلبن من الرجل النجاح لإرضاء طموحاهن الخاصة.

هذا النمط من المرأة الذي نحن في صدد وصفه يتوقع من شريكه، ليس النجاح الخارجي، بل برهان قوة طباعه. في الصراعات التي تتعارض فيها العشقية مع قيم الدين ، أو المقتضيات الاجتماعية، أو الواجبات الأخلاقية، تختزن عادة تلك القيم ، على خلاف النمطين الأخريين. وإن حسمن أمرهن في صالح العشقية، فتفسدن سعادة حبهن بمشاعر الذنب. وإن حماسهن العشقي لا يمكن أن يراعى إلا بقيم أخلاقية؛ إنه يُدمر بأفعال تحكمن بإدانتها أخلاقياً. وإن اختيارهن للأداة مرهون عادة بالرغبة في استكمال شخصيتهن، أي أهن على استعداد للتخلي عن حاجتهن للنشاط في الحب والعمل، لصالح نشاط الرجل إذا كان على درجة من القوة لإرضائهن. وإهن ترفضن بإصرار الرجل السلبي الذي لا يريد إلا دوراً تابعاً. ونادراً ما تسارع أولئك النساء لخطر الانصياع بطريقة ماسوشية بعدائية الرجل، مع أن إحساسهن الجنسي يميل بقوة لهذا الاتجاه. ومن الواضح أن أجراس الإنذار الضرورية تعمل فيهن لحمايتهن من هذا الخطر. ويبدو أن الماسوشية الأخلاقية قوية لدرجة كافية لإحراز النصر على شريكتها العشقية، الماسوشية الأنثوية.

لعل أداة الحب لمثل هذه المرأة لها عادة ملامح الشخص الذي شكل صورته أناها المثالي. وبشكل عام تكون صورة الأب؛ وفي العائلات التي تمثل فيها الأم الشخص المثالي، فيشكل الشخص المثالي على صورها ويتم اختيار الأداة بعد ذلك في هذا المنحى. ورغم خطر الإحساس الجنسي المثلي الملاصق لهذا النمط، فإن أولئك النساء تفلتن تماماً من هذا الخطر في حياهن الجنسية. ومع ذلك لهن ميل مميز في إقامة علاقات متسامية جداً مع نساء أخريات.

إن نساء هذا النمط أموميات جداً، إنما روحهن الأمومية مختلفة جداً عن روح النمطين الآخرين. وله مظهر نشط يؤدي، في ظروف طبيعية، إلى عائلة كثيرة العدد. أولئك الأمهات هن عادة مركز بيتهن؛ إهن تتركن كل النشاط الخارجي للرجل، شريطة أن تدرن بأنفسهن تربية الأولاد وهن من تعطين جوهن للبيت. وحدسهن الأنثوي يحفظ لهن عادة الموقف الأمومي الذي قد يدفع الأطفال إلى

الانتقاص من قيمة والدهن لصالح أمهم. إنهن ترغبن في الحفاظ على السلطة الأبوية إنما غالباً ما يوقعهن ذلك في صراع ؛ إذ تطلبن من زوجهن إظهار سلطة كبيرة أمام الأولاد، وبنفس الوقت، بنشاطهن الخاص، تحرمن الأب بصورة لاشعورية من سلطته. فعلاقة هؤلاء النساء بأولادهن مختلفة، في وجهة نظر معينة، عن علاقة النمطين الآخرين. وإن احتد صراع بين الروح الأمومية والعشقية، فإنهن تحسمنه عادة وبصورة أسهل في صالح أولادهن. إنما تتطلبن الكثير من أولادهن، فهن متشددات تجاههم، ومنذ سنواتهم الأولى، تعزز تشكيل طباعهم بقلق خطير. ونجد مثالاً تافهاً إنما لافتاً حول هذا الفارق المعارض لهذا النمط عن النمطين الآخرين في ردود أفعال النساء إزاء استمناء أولادهن. فنساء النمط السلبي الأنثوي، أموميات ببساطة، وتشعرن، دون الحاجة لإعلامهن بذلك، أنهن تجدن في الاستمناء تطوراً طبيعياً، وتعالجن هذه المسألة بحدس وبداهة كما يفعل مختص معاصر بالتربية. أما نساء النمط الثالث، إن لم تتثقفن ثقافة فكرية، فتقعن في خيبة أمل، وبداهتهن تقتصر على منعهم بفرض أقسى العقوبات، وتوبخهن توبيخاً، مع أنه مخفف، لكنه ينمّي لدى الأولاد الشعور بالذنب، كنوع من الإرث العائلي. وأحياناً تنكدن الأفراح التي يمكن أن تمنحنها لأولادهن في تساؤلاتهن المستمرة إذا ما قمنا بكل ما عليهن بغية تربيتهم وفقاً لمثالياتهن.

وخلال أطوار الاندماج تختلفن عن نساء النمطين الآخرين في ميلهن إلى توقع أن الآخرين يندمجن بهم وليس العكس. ولا يصدر ذلك عن رغبة أنانية في رؤية الآخرين يخضعون لإرادتهن، إنما رغبة أخلاقية في رؤية الآخرين يستجيبون لمطلبهن المثالي.

وخارج نطاق محيطهن المباشر والذي ترتبطن به بصلا عاطفية قوية والذي تحسسن بأنفسهن مسؤولات عنه، وتثبتن ذلك ليس بصفاتهن الحدسية فقط إنما كذلك بتسامحهن الكبير. تدافعن عن أولئك الضعفاء اجتماعياً وجميع من هو بحاجة للعون، وليس هذا عندهن رد فعل ثانوي على عدائية مكبوتة. بل إنهن على استعداد لمساعدة الآخرين واقعياً وجوهرياً، لأن روحهن الأمومية النشطة تمتد إلى ما وراء دائرة أولادهن. فكلما تحررت أولئك النساء من القلق النفسي والشعور بالذنب، تكنّ على استعداد واقعياً وداخلياً لإظهار جميع صفاتهن الأنثوية والأمومية.

وتتعرض حريتهن العشقية إلى أخطار تختلف اختلافاً حتمياً عن تلك التي كانت تهدد النساء اللواتي أتينا على وصفهن آنفاً؛ وبالفعل يمكن لمثاليتهن الزهدية أن تكبت تجربتهن الجنسية وتحرمهن من المتع العشقية التي تجدر بهن تماماً. وعلى عكس ذلك رأينا النمطين السابقين يظهران تعلقاً نفسياً مفرطاً تجاه عشقيتهما.

كما حاولنا الاعتقاد أن الاختلافات بين النمطين الأولين للأنثوية والنمط الثالث قد تحددت، إلى درجة كبيرة، بالوسط المحيط. فالنمط الأنثوي العشقي نجده بشكل مألوف في الدول اللاتينية والسلافية في حين أن النمط الأنثوي النشط الأخلاقي يميز أكثر الدول التي تتبع المذهب الديني الكلفيني ذو التقاليد الصارمة. وفي حالات التشوهات العصابية أو العصاب الحقيقي الذي يصيب الشخصية، فالأنماط العشقية تصاب بالهستيريا، بينما النمط الأخلاقي يصاب بعصاب هاجسي. ونرى أنه في بنية هذه الأنماط قد أخذنا بعين الاعتبار أيضاً العوامل البنيوية. وبالأخص بالنسبة للنمط الثالث، حيث يلعب الاستعداد المسبق العائلي للعصاب الهاجسي دوراً هاماً. لكن تلك النساء، رغم هذا الاستعداد المسبق للعصاب الهاجسي، لهن حياة عاطفية والتي بعاطفيتها واستعدادها للعلاقات الإيجابية الغير متناقضة وجدانياً، تجعلن نفكر بالأحرى نساء عاديات أو هستيريات. فالعناصر الهاجسية لطباعهن تذكر إما بأسسية بنائية وإما بتأثيرات بيئية؛ وهن جديرات مع ذلك بإظهار شخصية عاطفية متحررة جداً من هذه الأسسية البنائية.

ولدى دراستنا عن قرب لجميع هذه الأنماط الأنثوية، تلفن نظرنا بشكل خاص العلاقة الإيجابية الموجودة عادة بين المرأة وأمها. لكنها تبدو مختلفة في الأنماط الأنثوية السلبية وفي الأنماط الأكثر نشاطاً. ولدى تلك الأنماط الأخيرة، إنها علاقة إيجابية؛ أو بالأحرى رد فعل يعقب بغض عدائي تم تخطيه تماماً. ويكشف ميلهن المفرط لمشاعر الذنب عن التحريضات العدائية التي لا زالت موجودة. وتلعب هنا الشخصية الواقعية للأم دوراً هاماً.

فعادة الأم النشيطة جداً والمهيمنة تثير حقد البنت وتغذي فيها مقتضيات شديدة تجاه ذاتها.

ويبدي النمط الأنثوي السلبي رد فعل أكثر ضعفاً. فلدى أولئك النساء، التعلق المتأصل والحنون والمحب والأكثر سلبية تجاه الأم يحل جميع المراحل العاصفة

للحقد الذي تكوّن خلال نمو جميع الفتيات. وتبدو كثير من نساء هذا النمط قد انخرطن منذ مرحلة الطفولة الأولى في حزب الأم ضد الأب. فالألم السخيف بأن الأب أهملهن، أو خسارة الأب السابقة لأوانها والمترافقة بالحنان الغامر للأم، كلها تخلق حلاً عاطفياً بتلك الطريقة التي لا تخلو من أخطار كبيرة. فالثبات على هذا الارتباط بالأم قد يؤدي إلى تعلق سلبي صبياني ساذج. هذا الشكل من العلاقة الأمومية[1] يترافق بميل لبعض الأشكال من الهستيريا، مع أعراض عضوية. بل ويترافق ببعض أشكال من الميول الجنسية المثلية.

إذا تم تجنّب الأخطار خلال هذا التطور فالعلاقة الإيجابية التامة مع الأم تؤدي إلى نمو مثالي؛ بل وتؤسس في هذا النمو شرطاً جوهرياً.

وتبيّن الملاحظة أن لدى المرأة الطبيعية الأنثوية السلبية، وحتى في عمر الرشد، بعض الميول الطفولية والتي غالباً ما تظهر في بنية الجسم، وفي الصوت، وفي الحركات، الخ. حتى لو كانت هنا الوظائف الفيزيولوجية طبيعية. أما النساء الأنثويات النشطات فعلى العكس هن أشد عوداً، نظراً للهيكل العظمي المتين والحوض الأوسع والذي يحث على الوظيفة التناسلية.

ونجد أن المرأة الأنثوية النشيطة تحس بمشاعر الذنب خاصة عندما تكون مكتئبة (وهذا ما يحصل لها ولأي كائن طبيعي)؛ في حين أن المرأة الأنثوية السلبية تحس أنها مدفوعة بالأحرى إلى مشاعر الوحدة والحنين؛ إنها تستسلم للأحلام وتشبع نفسها بنفسها. وهناك ثمة علامة على الثبات في ارتباطها الأمومي يتجلى بحاجة ماسة للطعام. وتترجم الطبيعة الملحة لهذه الحاجة بفتح البراد المتكرر أو باستهلاك كميات كبيرة من السكاكر، إن لم تحل محلها لفافات التبغ، إذ أن هذه المرأة مولعة بالتدخين. هذا الهوس الشره الخفيف يظل عادة ضمن الحدود الطبيعية ويمكن التغلب عليه إرادياً. ومن المفيد ذكر بعض الحالات التي يتوافق فيها الاكتئاب مع شعور الحنين الطفولي للأم المزوّد الأول بالغذاء.

ومع أن جميع النساء العشقيات الأنثويات السلبيات قادرات على الحب، وأن الحب التبادلي الجنسي هـو لمعظمهـن شرط ضروري لوجودهـن، وهن لا

[1] Cobb, S.: Borderlines of psychiatry. Harvard University Press, 1943.

تقتنعن "بالحب" ببساطة؛ فهن بحاجة للافتتان، والآلام والنشوة لـ " كونهن عاشقات".

ولا ينبغي لأنماط النساء التي وصفناها أن تخلط مع غيرها التي تتشابه معها من الخارج لكنها تختلف عنها في الجوهر.

هناك مثلاً نساء لا تعرف " أن تحب" وما تعرفه هو أن " تكون عاشقة"؛ وبمعنى آخر؛ إنه لا تحسسن بالحب إلا كنشوة فائقة الوصف وذاتية والتي لا علاقة لها بالقيمة الموضوعية للحبيب. فالسعادة تكمن هنا في الإرضاء الكامل للمكونات اللاشعورية لعلاقة الحب، أولى من حب منسجم مشتمل على نصر واقعي أحرز على التناقض الوجداني. فحالما تتوقف النشوة يختفي الحب. ولا يتبقى إلا عدم اكتراث أو حقد تجاه الرجل الذي كان محبوباً بلهفة. وتلجأ المرأة إلى الانتقاص من قيمة الأداة التي كانت تبالغ في تقديرها وذلك من ناحية لكي تتهرب من مشاعر الذنب التي تجر الحقد ومن ناحية أخرى لتعوض الخسارة الواقعة. إنما يوجد هنا على نحو خاص تطوراً أوتوماتيكياً حيث أن جميع العواطف السلبية والقلق النفسي التي كانت قد توازنت بالنشوة تعود الآن لما كانت عليه. والسعادة السابقة كلها تفسدها الذكرى ولا يبقى منها إلا النواحي السيئة للعلاقة. وطور المبالغة في القيمة يغير القطب، وجميع ميزات الأداة تستنكر بينما تجري أقصى درجات المبالغة في إظهار العيوب. والمرأة التي كانت تظهر، منذ فترة قصيرة، حباً مضطرماً تحس نفسها محبطة ومغبونة، سواء كانت هي التي تركت حبيبها أم هو الذي تركها. وإذا نظرنا للأمر عن قرب، نلاحظ أن هذه المرأة لم تكن تحب إلا وهماً، أو مثالاً خيالياً كانت قد منحته مؤقتاً اسماً واقعياً. وبعد مرحلة تطول أو تقصر، تحس بالحب المندفع نفسه لوهم آخر والذي سيخضع لنفس المصير. تتصرف تلك النساء بنفس طريقة أولئك المندفعات بإلحاحهن النرجسي، وترغبن باستمرار أن تكن مرغوبات بشوق وتحققن النشوة من أدواهن في الحب. هذان النمطان عاجزان عن الحب إنما، لدى المرأة من النمط الثاني، حاجتها أن تكون عاشقة، هي التي تمنحها التوهم بالحب. وتبدو هذه المرأة لها حياة عاطفية أكثر اضطراباً من الأخرى.

متناقضة بطريقة لافتة مع هذا النمط، امرأتنا " الأنثوية "، فمع أنها ترغب بنشوة أن " تكون عاشقة"، تملك طاقة كبيرة على الحب الواقعي. وإذا لم تحس

بخيبة خطيرة، فحالة الحماسة الحادة تتحول إلى حب. وهي قادرة أيضاً على الإحساس بنشوة الحب عدة مرات في علاقتها مع الأداة التي اختارتها، طبعاً شريطة تلبية الشروط التي علقت عليها عشيقتها.

أما المرأة الأنثوية النشطة، فحتى حين تكون جديرة بنشوة الحب، تختار رفيق حياتها حسب مقتضيات أناها والقيمة الموضوعية للرجل، ووضعيتها الاجتماعية الخ. ويمكن أن تكون سعيدة مع هذا الشريك. فالشهوات الغريزية التي غالباً ما تحرم منها، لمن في حالتها، تتمكن من ردها بنجاح.

عشقيات على نحو آخر أو آخر، ولديهن على نحو أو آخر حاجة للحب لتكن سعيدات، فالنساء اللواتي أتينا على وصفهن هن نموذج أولي للأنوثة بصفتها مفهوم نفسي. إنهن تدمجن شخصيتهن المحددة جداً في جميع مواقف حياتهن، سواء تعلق الأمر بعلاقات جنسية أو بتساميات عليا. فنجدهن بين ربات المنازل، والطاهيات، والممرضات، والمكاتب، وفي الكنيسة. فهن جديرات أيضاً بالتساميات الأكثر روحانية. وتحقق الأكثر سلبية من بينهن طبيعتها العميقة بصورة كاملة في أعمال حيث يأخذ حدسها مداه، أي، أعما ل فنية ونفسية. وتكملن كذلك قدرهن صامتات خلف الستار، وتلهمن زوجهن، وتحرضنه باستمرار، وتشجعنه وتستوعبنه.

والأكثر نشاطاً من بينهن تكن، ببنيتهن النفسية، مبتكرات ومنظمات لجميع أنشطة حياتهن الهادئة. فالتخريب أو الإعداد للتخريب ليس ضمن مجالهن. فجميع هؤلاء النساء لديهن فعالية نفسية إذا وجهن شخصيتهن الأنثوية في الاتجاهات التي ذكرناها.

وتختلفن فيما بينهن في تربيتهن، وجنسيتهن ، ودينهن، وعرقهن، وبحسب الحقبة التي تعشق بها. لكن بنيتهن الجوهرية تبقى دوماً نفسها. فنحن نجد هذا النمط من المرأة منذ عصور ما قبل التاريخ في" أوتونويه"، الحدس، والتي تضمر شعوراً لمعرفة الخير والشر، وتكون حكيمة ومتفهمة رغم أنها مجردة من تلك القوة الذهنية التي تعتبر وسيلة الرجل لاكتساب المعرفة.

جميع هؤلاء النساء، بقدر ما تظل في الحدود الطبيعية لبنيتهن النفسية، تظهرن استعدادهن الجنسي لشريكهن، نظراً لتلبية بعض الشروط المحددة. وبسبب من

سلبيتهن، فإن تنبه قمة اللذة لديهن تلقى على عاتق الرجل أكثر من أي نمط آخر، بفعالية على تحريض الاستعداد الموجود وتخطي الكبت الطبيعي. إن ما نتحدث عنه هنا، ليس ما طلبه من الرجال بإلحاح مضحك أخصائيو علم دراسة الجنس، وليس أو يوقظ الرجال جسدياً القابلية التهيجية العشقية للمرأة ببراعتهم. فالدرب الذي يؤدي إلى المرأة الأنثوية بصفتها أداة جنسية يجتاز روحها، ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار كل من العوامل الأربعة الأساسية التي ذكرناها إذ أُريد تلبية الشروط الضرورية. فكبت المرأة قد يتعزز بحسب نرجسيتها، وماسوشيتها، وارتباطها بالأدوات السابقة وبروحها الأمومية؛ كل من هذه العوامل الأربعة، إذا تواجد بكثافة مفرطة، يمكن أن يكون سبباً في البرودة الجنسية. وعلى الأخص لصالح العامل الأخير من العوامل الأربعة تتخلى المرأة الأنثوية غالباً من إرضاء قمة اللذة، وذلك دون أن تعاني من ذلك في حياتها النفسية. حتى ولو لم تكن روح الأمومة موجودة ومشتملة، فإنها تتحمل غالباً كبتها الجنسي دون أن تفقد انسجامها ولا حتى عاطفيتها المشعّة.

الفصل السادس

السلبية الأنثوية

خلال الأبواب السابقة، تطرقنا لإلماحات متعددة عن سلبية المرأة واعتبرناها مسؤولة إلى درجة كبيرة عن التساميات الأنثوية بصورة خاصة وعن طبيعة شخصية المرأة. فقد أعاد فرويد[1] النظر في فرضيته الأولى التي كانت تدمج الـ " الذكر" بـ الـ"النشيط" والـ "الأنثى" بـ"السلبي". ولفت الأنظار إلى عالم الحيوان، مشيراً إلى أنه إذا كانت الاعتداءات الكامنة في الفعل الجنسي تأتي عادة من الذكر، فإنه في بعض الأجناس تتحدد إيجابية الذكر في الجماع فقط، في حين أن جميع الوظائف الأخرى تكون الأنثى فيها الشريك الأقوى والأكثر نشاطاً. ويذكر مثالاً عن سلوك أنثى العناكب والذي دُرس كثيراً والذي يكون سلبياً في الفعل الجنسي إنما نشطاً إلى أقصى حد في جميع الأطوار الأخرى.

ومن المهم ملاحظة أن اللاشعور الإنساني يعتبر العنكبوت كـ "أنثى مذكرة" وإن هذا الحيوان يلعب، في الأحلام والتراث الشعبي، دور رمز المرأة "الانتصابية" أو "الذكورية" وهذا يشير إلى مدى عمق تلازم "النشاط" و"الرجولية" في حياتنا الذهنية.

---

(1) Freud, S.: New introductory lectures on psychoanalysis .P. 156.

وفي عالم الحيوان، ينبغي أن نعترف بوجود أنثويات تلعبن كذلك دوراً إيجابياً في طور الجماع. ونذكر منها بعض الأمثلة: فأنثى بعض أجناس صرصار الليل (نيموبيوس سيلفيسترس) هي الشريك الإيجابي عندما تشابك الذكر الذي يتمدد ساكناً (لكن ذكور جميع الصراصير "locustidœ" الأخرى تكون على العكس إيجابية لأقصى حد). ولدى عدة أجناس من الفراشات، يقترب الذكر من الأنثى بطريقة أكثر إيجابية ويأخذها بطريقة عدوانية، إنما ما أن يحصل الاختراق، حتى يتخذ الزوجان وضعاً معقداً حيث يلتصق الذكر بالأنثى بطريقة سلبية ويسحبها في طيرانه.

وفي بعض الحالات، يلاحظ تماماً إيجابية المرأة كذلك عند الثدييات. فكتاب "مسنهمر" "جيشلش آند جشلشتر"[1] يحتوي على ملاحظات مفصلة حيث تظهر إيجابية المرأة مألوفة. ومع ذلك نجد في هذا الكتاب المقطع التالي: "في أطوار الجماع، يبدي الذكر وعضويته الفعالية والنشاط؛ أما الدور السلبي فيخص الأنثى. ومن النادر أن نرى العكس." وهكذا إذاً، فحتى لو تعددت حالات الفعالية لدى الأنثى، فليست إلا استثناء للقاعدة العامة.

فإن يُنظر إلى" سلبية" الأنثى عموماً على أنها صفة، يبقى علينا أن نرى لأي درجة تتعلق المظاهر الأخرى، الغير جنسية، لحياة المرأة بهذا السلوك.

إن النظرية التي أيدتها لفترة طويلة[2]، والتي بحسبها ترتبط الأنثوية بالسلبية والماسوشية ارتباطاً وثيقاً، تأكدت شيئاً فشيئاً بالملاحظات السريرية. وارتكزت جميع أفكاري حول وجهة النظر هذه على التجربة السريرية، وملاحظة الحيوانات التي عززت معتقدي هذا.

وإذا رجعنا إلى التطور الحيواني، تبدو سلبية الأنثى خلال الفعل الجنسي بالظهور لحظة إذعان الخصوبة الخارجية للخصوبة الداخلية. لكن هذه السلبية تبقى لفترة طويلة بعد ذلك مختلفة بشدة عن التبعية. إذ أن الإثارة الجنسية تأتي من الأنثى، وخلال مرحلة طويلة من تطور الأجناس، تثبتت لحظة الجماع من قبل الأنثى. ولدى الثدييات العليا، يبحث الذكر عن الأنثى، ويتهيج بمجاورتها بواسطة

[1] Meisenheimer, J: Gesthlecht und Gesthlechter. Iéna : Fisher, 1921.

[2] Deutch, H. : the significance of masochism in the mental life of women, intern .J. Psycho- analysis, vol. Π, 1930.

أعضائه الجنسية، ويسعى في الحصول عليها. ورغم التشابه الكبير بين الأنثى والذكر بسبب تحولات تطورية للإثارة الجنسية، فقد احتفظت الأنثى منذ الأزمان البعيدة باختلاف داخلي واستقلالية تجاه شريكها. وهي تمانع في البداية تجاه محاولاته ثم تُهزم بشكل متدرج، وتتم السيطرة عليها من قبله.

وعند الحيوانات، تضبط الأنثى إيقاع الفعالية الجنسية وعلى الأخص عند الأجناس التي تنفصل الخلايا التناسلية الذكرية بعد وضع البيض. ونسوق هذا حتى نتوصل إلى العضوية المتقدمة في تطورها للثدييات. فبالبويضة الملقحة داخل الجسد تتمتع بشوط نمو مناسبة جداً عن البويضة الملقحة في الخارج والمعرضة لحوادث لا تحصى مما قد يؤدي لإتلافها بسهولة. وبما أن عضوية الأنثى لا تنتج باستمرار بيوضاً ناضجة، إنما فقط في أطوار محددة فالفعالية الجنسية للذكر يجب أن ترتبط حكماً بهذه الأطوار. ولدى الحيوانات عالية التطور، تظهر الأنثى، لحظة نضوج البويضة، إفرازات تناسلية. وتثير هذه الإفرازات التحريض الجنسي للذكر وفعاليته الغازية؛ وفي هذه الأطوار، وهذه الأطوار فقط تظهر الأنثى سهلة المنال أمام شهوة الذكر. ولطواعية الأنثى صفة سلبية متلقية، مع أنها تبدي في اللحظة التي تريدها جميع دلائل التحريض الشديد والتهييج القاطر.

لهذا القانون ما يبرره إلى درجة ما لدى الجنس البشري أيضاً. فيمكن أن نجد عند المرأة البقايا الأخيرة لطواعية جنسية مرحلية قوية. لكن هذا الإيقاع القديم، وفي أعقاب تحولات تطورية أكثر نمواً، اختفى تقريباً برمته الآن ضمن العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء. فالفعالية الجنسية للمرأة لا تتبع مطلقاً لتساميات إيقاعها الخاص ولا لأوامر الوظيفة التناسلية. بل من الواضح أنها تتبع الإرادة الجنسية وهيمنة الذكر. وفي نفس الوقت، يتبع الإحساس الجنسي للذكر مسيرة معاكسة جاعلاً من نفسه مستقلاً تقريباً استقلالاً كاملاً عن الإيقاع الأنثوي. كيف أتينا إلى هذا الموقف المتناقض من الظاهر؟ وما هي أسباب هذا النمو المضاد للقانون القديم والذي به تتخلص الفعالية الجنسية من النضوج البويضي؟

نحن نعتقد أنه، بفضل التمايز الأخير للجنس البشري، وبفضل اكتساب الوقوف العمودي وتشكل أعضاء قوية ممتدة وممسكة، تمكّن الذكر من أن يتحرر من الإيقاع الأنثوي ويستولي على المرأة جنسياً حتى دون أن ترضى بذلك. ويمكننا

القول، دون مبالغة، أن من بين جميع الكائنات الحية، وحده الرجل قادر على إتماما الاستيلاء بالمعنى الكلي للعبارة وذلك بفضل أعضائه الممسكة، إي الامتلاك الجنسي للمرأة من دون إرادها. وكلما رأيت، في فيلم أو في مجلة شعبية، إحدى تلك الصور العديدة التي تمثل قرداً شبيهاً بالإنسان، أو رياضياً مذهلاً مثل دب، يمسك بين ذراعيه امرأة ضعيفة جداً، أتذكر فرضيتي القديمة والعزيزة: هكذا ضبط الرجل البدائي المرأة وأخضعها لشهوته الجنسية. إن الامتلاك الشرس يفسَّر كفعل ملازم للوحشية، هذا ما أوردته كثير من الأساطير والأمثال القديمة، وهو أمر جدير بالذكر. وهكذا فالقرد ذو السواعد القوية، أو الدب، ينقذ فتاة من خطر يتهددها والذي هو قبل كل شيء ذو طبيعة جنسية؛ ويأتي التهديد من أحد آخر، وليس من المنقذ. وغالباً ما يتراءى في أحلام الفتاة المخلوق الشعراني والقوي، والذي نصفه إنسان ونصفه حيوان، ليس كمحرّض إنما كأحد يريد إنقاذها من المخاطر الجنسية. هذا التحول من المحرّض إلى المنقذ، يُظهر في الحلم، حاجة الفتاة لتحقيق أمنياها والطبيعة الماسوشية لرغباها والتي بها تستنسخ غزو المرأة البدائية.

ونحن نعتقد أن الفعل الجنسي، الذي يبدأ بحركة عنف، والتي تكون المرأة تجاهها الأضعف والعاجزة بسبب الوظيفة التناسلية، وتعجز عن المقاومة، يتحول بالنسبة لها شيئاً فشيئاً فعلاً ممتعاً. ولعل الإيلاج العنيف والعناق القوي، المترافق بالمحبة الغامرة والمداعبة يصبح الفرح الجنسي للمرأة. كما أن تعلقها بالإيقاع الجنسي يختفي وينفصل فعل اللذة عن الوظيفة التكاثرية. وإذا سمح لي بأن أتوغل في الافتراض، فقد أفرض بمحض اختياري أن تشابك الأيدي القوي، مع تفاعل ضغط الممانعة، يثير إحساساً قوياً بالمتعة في كامل جسد المرأة كما أن الاستعداد الخاص الذي يبديه السطح الجلدي للمرأة في إثارة اللذة قد ينتج عن هذه المواقف الأصلية. ولعل فرضيتي ليست بالضرورة متناقضة مع ذلك الزعم لعلم التحليل النفسي والذي يمكن بحسبه لكفاءة البشرة الأنثوية هذه أن تفسر الفارق الجنسي التشريحي وتتطابق مع تحويل الأعضاء التناسلية الغير المشبعة إلى الجسد كلّه. ما أقدمت على قوله مصوّر تصويراً رائعاً في الأسطورة اليونانية "ليدا". تلك الصورة للإله الذي اتخذ شكل إوز "تم" وغطى المرأة بريشه وبدا بذلك معبراً عن الرغبة التي تبديها المرأة في إحساس المحرّض على كافة سطح جسدها.

فإذا كان افتراضي النفسي التناسلي صحيحاً، فإن التمهيدات الجنسية وامتلاك الأنثى الإنسانية كان يخص سطح جسدها قبل منطقتها التناسلية، في حين أن الذكر كان في حالة من الإثارة التناسلية المحددة دفعته إلى تصرف إيجابي وعدائي. ويبدو لي هذا الطور القديم جداً نموذجاً أولياً لأحاسيس جنسية استمرت حتى وقتنا هذا. فالحاجة للحنان التي تتصف بها المرأة، وحاجتها للعناق، مقدمة ضرورية لتحريضها الجنسي، ويمكن لهذا أن نعتبره خصوصيات أولية للمرأة، وهي آثار مستمرة لموقفها القديم. فذوقها الأكثر نمواً بالنسبة للاحتكاك له صفة سلبية بالكامل وتلعب أيضاً دوراً في تمايز الأجناس.

كما نجد هذا السلوك في وظائف الخلايا الجنسية؛ إذ أن البويضة ساكنة نسبياً، وتنتظر بصورة سلبية، بينما الخلية الذكرية متحركة ونشطة. عدا عن أن مواقف الشريكين أثناء الفعل الجنسي تتوافق مع التمايز نفسه بين الذكري- الإيجابي والأنثوي- السلبي. ولا يدع المظهر الخارجي للأعضاء الجنسية أي شك في غاياتها؛ إذ أن العضو الذكري خلق لاختراق الإيجابي، والعضو الأنثوي للتلقي السلبي. عبثاً قد تعارض كثير من النساء، والأكثرهن طبيعية، حيث تبدين إيجابية شديدة خلال العلاقة الجنسية. إنها هنا أفعال تناقض القانون الطبيعي ولها مع ذلك معنى عميقاً. إنها أشكال ثانوية لسلوك تعد أسبابه قبل كل شيء نفسية. فاحتجاج المرأة على دورها السلبي وميلها للاندماج يمكن أن يلعب دوراً في سلوكها الإيجابي.

وحتى الآن، يؤكد علم النفس وعلم التشريح رأينا. وينبغي علينا الآن تحديد لأي درجة يعبر عن نفسه هذا الاستعداد العضوي في البنية النفسية للشخصية الأنثوية. فالجهد الذي قمنا لإثبات أن الأنوثة تتصف بالسلبية لا يتعلق إلا بالوظائف الجنسية. وقد نتمكن من الاقتصار هنا على التذكير بأن علم التحليل النفسي يبرهن على التأثير الكبير الذي يمارسه الإحساس الجنسي على جميع المظاهر الأخرى للحياة؛ إنما بالواقع لا ينكر علم التحليل النفسي أبداً أن الظواهر النفسية تتأثر بالتربية، وبالعرف الاجتماعي، وبالشروط الثقافية وبعوامل أخرى مشابهة. ولا ينبغي أن ننسى أنه إلى جانب الدوافع الجنسية، يأخذ على التحليل النفسي بعين الاعتبار القوة النفسية الأخرى الهامة التي يتبين فاعليتها كبيرة وحاسمة جداً. وبهذا على سبيل المثال فإن ترجمة التحليل النفسي للعصاب ترتكز على الاعتراف بعوامل

تتعارض مباشرة مع الدوافع الجنسية وتخلق صراعات. وفي تقصياته لعلم النفس الإنساني، لا يهمل على التحليل النفسي أبداً فعل القوى النفسية الداخلية، ويعلم دوماً رؤية العلاقات المستمرة الكائنة بين العالم الخارجي والعالم الداخلي.

إلا أنه، مع الاعتراف بلا تحفظ بأن موقف المرأة خاضع لتأثيرات خارجية، أتجرأ في جميع الثقافات وجميع الأعراق، بأشكال ودرجات مختلفة. ففي الدراسة المثيرة في علم نفس الإنسان والتي نشرتها مارغريت ميد[1] حول قبيلة بدائية تلعب فيها النساء دوراً إيجابياً وعدائياً في حين أن الرجال يقومون فيها بمهام لو قاموا بها في مكان آخر لاعتبروا نساء إذ أن السلوك الجنسي لهذه الأجناس الحيوانية غير مقنع على الإطلاق حيث تقلب فيه أدوار الشريكين. إن ثمة استثناء لا يغير المبدأ الأساسي؛ فيمكننا القول أن هذا المبدأ سيتحقق ما دمنا لن نتوصل إلى التأثير على البنية الداخلية المنسجمة لجسم الإنسان. وحتى أن المظهر الخارجي التشريحي للأجناس، المستعصي على أي تعديل، سيمارس حقه في الفيتو. والوظيفة التناسلية يجب هي أيضاً أن تتحول برمتها قبل أن تنفتح مسالك جديدة في إيجابية المرأة.

تشير المعطيات التجريبية التي جمعها المحللون النفسيون أنه في كثير من الأحيان تقاوم المرأة هذه الصفة في طبيعتها وأنها، رغم الميزات التي يمكنها اقتناصها، تظهر بعدد كبير من التصرفات التي لا ترضي بنيتها أبداً. وسيتوجب علينا اكتشاف كيف أن شخصية المرأة تتطور على خلاف هذه الخلفية البنيوية، وبأي أساليب تتصرف لتحتفظ بطبيعتها الأنثوية وتحول بنفس الوقت دون الأخطار التي بسلبيتها وماسوشيتها تهدد أناها.

لقد رأينا أن المرأة الأنثوية تنظر إلى هذه الأساليب من خلال أناها الخاص. وأشرنا كذلك إلى أن السلبية، هذه الصفة الكبرى للأنوثة، ليست إلا تصوراً نسبياً. فكثير من الميول الإيجابية معدودة ضمن هذه السلبية، دون أن يأتي ذلك على مناقضة مفهومنا للمرأة الأنثوية. فقط حينما تبيّن الطرائق التي تستخدمها المرأة للسيطرة على سلبيتها عدم فعّاليتها، نرى ظهور تمردها على طبيعتها الخاصة. وتشكل مظاهر هذا التمرد، المترافقة بجهود مبذولة لمعالجتها، "عقدة الرجولة" للمرأة.

---

[1] Mead, M. : Sex and temperament in three primitive societies. New York: Morrow, 1935.

لفترة طويلة اعتبرت أبحاث التحليل النفسي هذه العقدة مسؤولة عن العديد من المظاهر النمطية للأنوثة، وأنكر هكذا المعنى الخاص لكثير من الأطوار النفسية الأنثوية. وإن ما أنجزته المرأة لحسن الحظ تُرجم عادة كتساميات لميول تضمنتها هذه العقدة، في حين أن صراعاتها العصابية والملامح المحددة لطباعها كانت تعزى لغياب العضو الذكري.

ومما لا يدع مجالاً للشك، أن شهوة العضو الذكري موجودة في ذهن المرأة وتمارس هذه الشهوة تأثيراً كبيراً على نمو شخصيتها. إنما النظرية المرتكزة على هذه الشهوة، فتراعاتها الأكثر جوهرية لا يمكن دعمها. وترتبط شهوة العضو الذكري عادة بما تبديه الفتاة الصغيرة عندما تراه للمرة الأولى؛ فحتى لو كان ذلك سابقاً للتجربة سبقاً منطقياً، فإنه من المحتمل مع ذلك أن تلعب صدمة ذات أصل خارجي وطارئ دوراً أساسياً في تشكيل شخصية المرأة. وكما سنرى بعد ذلك، أن شهوة العضو الذكري ليست عاملاً أولياً إنما ثانوياً؛ إنها تعود لتطورات داخلية وليست خارجية؛ وإذا لم ندرك ذلك منذ البداية، فلأننا أخطأنا في اللجوء إلى عقلنة الصدمة التناسلية لأجل هذه الصدمة نفسها[1].

إذا ما أنكرنا أهمية شهوة العضو الذكري، لن نتمكن من إدراك سلبية المرأة تماماً إلا بدراسة نمو غرائزها الجنسية وأناها. ولنعد الآن إلى الجزء الأول من مهمتنا ولندرس السلبية التي تنتج عن النمو الغريزي للفتاة في الحيز الذي يضبط فيه هذا النمو بمظهرها الخارجي. ولذلك ينبغي علينا منذ البداية أن تكون ماثلة في أذهاننا كل مراحلٍ نمو الطفل وأن كل إشباع مهمل حالما يعوّض بآخر. وحين ينقطع عن الطفل مثلاً الإشباع الفموي للرضاعة، فترفق أمه (أو من ينوب عنها) التغذية البديلة مع الحنان الذي كان قد ارتبط سابقاً بالرضاعة، وتستبدل لذة المص بمص ذاته. علاوة على أن الطفل يجد لذة الآن في وظائف الإبراز. وفي ذلك الوقت، يبنى أنا الطفل ولا تتحدد اهتماماته مطلقاً بإشباع غرائزه الجنسية. فيما تظهر مصادر جديدة للذة ألا وهي غزو العالم الخارجي الناشط بجميع أشكاله، كعلاقات جديدة

---

[1] استناداً لرأي: E. Jones ، " مشهد العضو الذكري للفتى ليس الحادث الوحيد الصادم الذي يغير حياتها؛ فهذا ليس إلا الحلقة الأخيرة لسلسلة طويلة":
Papers on Psycho – analysis, Londres : Baillière, 1938, p. 615.

مع الأدوات، الخ. وهكذا نرى أن للاشباعات الممكنة مصدرين، الإشباعات الغريزية المباشرة وعلاقة الطفل مع محيطه، تلك العلاقة التي تصبح شيئاً فشيئاً مستقلة عن الغرائز الجنسية.

المرحلة الأخيرة، أو المرحلة القضيبية، للنمو الجنسي للفتى الصغير تتركز على عضو يتمتع بواسطته بالإيجابية إلى أن تجبره المخاوف و التحريمات على التخلي في أن يجد فيه لذته. وإذا ما الخوف من الإخصاء كان كبيراً لدى الرجل فبسبب القيمة التي يراها في عضوه التناسلي. ولا نعتقد أن هذه القيمة لها أصل نرجسي بصورة صافية. إنها الطاقة والحاجة الفيزيولوجية والتي تظهر بالاستمناء الذي يعطي أهمية ما لهذا العضو والذي هو بالواقع مركز اهتمامات ومخاوف الفتى الصغير. هذه الحاجة ليس لها فقط صفة إيجابية؛ بل إنها تتضمن أيضاً ميولاً طفولية عدوانية أكثر بدائية، تتجلى في كامل شخصية الفتى الصغير في هذا الطور. إن اهتمامه بالمواقف العدائية هو في نظر الملاحظ الراشد نشاط غير مستحب تماماً وعديم الفائدة، وتعبر هذه الحاجة العدوانية على أن الفتى السليم والطبيعي يحس نفسه سعيداً ومشبعاً جداً. إنه يتعلم رويداً رويداً تحويل عدوانيته إلى قوىً أخرى موجودة في ذاته. وسوف تسكن فيه الآن ولعدة سنوات مهمات التكيف مع الواقع، والتسامي الفعال، وتنامي الأنا. إنه ليس بحاجة للتعويض المباشر لفقدان إشباعه، إذ يجد إمكانيات جديدة للإشباع في مجالات أخرى.

إنما ماذا بخصوص الفتاة الصغيرة؟ إنها أيضاً، أمام تزايد في حاجتها الجنسية، وبحاجة لعضو تتركز عليه الحاجة. البظر هو الجزء الوحيد من أعضائها التناسلية الذي يفي بالغرض. وكذلك المرحلة الانتصابية للفتيات تدعى أيضاً المرحلة "البظرية" . قد نهمل الأصل الجنيني المشترك لهذا العضو والعضو الذكري؛ ولعل بنيته الظاهرية، والتوزيع العصبي فيه، وطبيعته الانتصابية يجعلونه موضوع مقارنة مع القضيب. ويمكن لهذه المقارنة ألا تكون في صالح البظر إذ تنقصه القدرة على الحركة، والصفات الإختراقية التي يمتلكها العضو الذكري.

ويمكننا القول أن القابلية التهيجية عند الفتاة هي أقل نشاطاً وأقل حدة من قابلية الفتى، كما أن عضوها أقل كفاءة في بلوغ نفس الغايات الغريزية. ويبدو في الواقع أن هذين المبدأين صحيحان وأننا نرى عاملين يلعبان دوراً في النمو الجنسي

للفتاة: فمن ناحية تكون غرائزها من الناحية البنيوية أقل إيجابية وعدائية من تلك التي لدى الفتى؛ ومن ناحية أخرى فقد اكتشف علم التحليل النفسي، في الحياة التخيلية للفتاة، ما يكفي من المركبات الإيجابية العدائية لتبرهن أن عضوها التناسلي يمثل بالنسبة لها مخرجاً غير مناسب لهذه المركبات. مع أن بإمكان هذا العضو، في بعض الحالات، أن يحس ويرى، إنما نموه غالباً ما يكون بدائياً ناقصاً بحيث لا يمكننا اعتباره كعضو. وهكذا فالفتاة تكون غالباً "مجردة من العضو" خلال مرحلتها الانتصابية. إنما نفس الفتيات اللواتي نما البظر لديهن بشكل أكبر تجتزن مرحلة من الطاقة الغريزية النشطة لا يستطيع فيها عضوها أن يكون ارضائياً. عدم الإرضاء هذا هو بلا شك أحد الأسباب التي من أجلها تهجر الفتاة الاستمناء خلال المرحلة البظرية لطفولتها. وإذا ما ادعت مراراً في تلك الحقبة أنه كان لديها قضيباً، فهذا الزعم لا يتطابق مع الآلية نفسها لمباهاتها المستقبلية الكاذبة: ومع أن هذا بني على تربية مغلوطة، فإن هذا الشعور يستجيب لنوع ما من الصحة، ويعقب هذا الإدعاء بامتلاك سابق لقضيب، كقاعدة عامة، هجر للاستمناء. لعل ذكريات الفتاة عن الإيجابية البظرية خلال مرحلة الاستمناء تدفعها بعد ذلك لمنح البظر قيمة واقعية لعضو يفي بالغرض قد كان موجوداً في السابق[1].

لعلنا مجبورون على الاعتراف بأن عدم الكفاءة الواقعية لهذا العضو على إشباع التحريضات الإيجابية والعدائية قد تؤدي لنتائج هامة. ونستهل القول، بأن هذا التصرف يتعارض مع تصرف الفتى، وهذه التحريضات التي تتطلب عضواً إيجابياً قد هُجرت. وهكذا فعدم الاكتفاء من هذا العضو قد يعتبر كسب بيولوجي وفيزيولوجي للاختلافات الجنسية النفسية. وإذا كان الأمر هكذا، فنحن على صلة هنا بظرف طبيعي، وعلينا القبول بأن نتائجه تسير بمسلك محدد مسبقاً بصورة بيولوجية يقود إلى نمو لاحق للأنوثة. ومع ذلك، فالأدوات السريرية التي تحت أيدينا تظهر أن هذا المسلك هو في الواقع متعرج جداً. بينما في المراحل السابقة كل طريقة للإشباع الغريزي كانت تتواجد بشكل مغلوط استبدلت بشكل أوتوماتيكي بأخرى، ويترافق الطور هذه المرة بالكثير من التعقيدات، ولكي نفهمها، علينا أن

---

[1] le "pénis illusoire" " القضيب الوهمي" لرادو Rado يبدو أنه يأتي بنفس التصور، Psychoanalyt. Quart., vol.2, 1933.

نتتبعها انطلاقاً من بدايتها. فنتائج الكبت التي تثقل الآن على الغرائز الإيجابية لها نوعان. أحد هذه النتائج هو مسعىً لتجاوز الكبت، وهو مسعى مدعوم بجميع ردود الفعل التي تعلق بعقدة الإخصاء الأنثوي. (ص 271) أما النتيجة الأخرى فنصادفها في النمو الأنثوي الطبيعي بعلاقته مع بنية الفتاة، أي أن الإيجابية المكبوتة تتقبل التوجه نحو السلبية. فقد اتخذ المهبل، العضو السلبي المتلقي، موضع العضو الإيجابي. يتم هذا الطور تماماً، إنما آجلاً؛ فلدينا موضوع هنا يجب رؤيته إذ له نتائج ضخمة: فهناك مرحلة طويلة تتوضع بين التوجه الأول نحو السلبية والكفاءة التامة للعضو المطابق وخلال تلك المرحلة ليس للفتاة عضواً تحت تصرفها، لأنه في هذه المرحلة من النمو، لا وجود له بكل بساطة! وهكذا تجد الفتاة نفسها وللمرة الثانية أمام خلو عضوي: في المرة الأولى كان ينقصها عضو إيجابي، والآن ينقصها عضو سلبي. إنها فقط بهذين الحدثين تشكل صدمتها التناسلية. وكما رأينا ذلك، يمكن لنتائج الحدث الأول أن تتشكل في مظاهر عقدة الخصاء. وبرأينا، نتائج الحدث الثاني تتشكل في تحرّك الميول المؤخرة الإرجاعية. وتتركز التخيلات الأنثوية للفتاة الصغيرة على أعضاء سلبية أخرى: فالمركبات الشرجية والفموية للغرائز الجنسية تعود للظهور[1]. والقلق النفسي والتخيلات المتعلقة بالولادة وبكل الحوادث الجنسية تترافق مع الوظائف الغذائية والإبرازية؛ إنها تتبع المرأة حتى سن الرشد وغالباً ما تولد أعراضاً عضوية هستيرية مرتبطة بهذه الوظائف. إن المهبل هو عضو سلبي ومستقبل بالكامل، ولكي يصير قابلاً للتهيج، ينتظر قدوم عامل إيجابي.

في المواد النفسية التي حصلنا عليها لدى تحليل نساء راشدات، وعلى الأخص العصابيات، رأينا بروز تحريض إلحاحي لعضو ناقص، والشعور بالدونية، الخ. وبحسب الأفكار التي أساندها في هذه اللحظة، فإن ربط ذلك بغياب القضيب لا يتناول إلا جانباً من المسألة. وهذه المهاترات تأتي، في الواقع، من أنه خلال المرحلة التي يكون فيها عدم الاكتفاء من العضو تقود إلى تحول محدد سابقاً بصورة بنيوية من ميول إيجابية إلى ميول سلبية، وأي عضو لن يكون مستعداً لهذه الميول الأخيرة؛ وبعبارة أخرى، تستمر الفتاة الصغيرة بحالة نقص لعضو من وجهة نظر وظيفية.

---

(1) Deutsch, H.: Psychoanalyse der weiblichen sexual funktionen.

وتتوضع صدمتها التناسلية، بمظاهرها العديدة اللاحقة، بين الـ "سيلا" غياب القضيب والـ "شاريبد" غياب وظيفة المهبل.

قد يمكننا أن نختبر، تحدونا ثقة بمقاصد الطبيعة، رؤية معنى عميقاً في هذا الفعل الموجود. فبين أطوار نمو الفتاة، شيء ما يشبه انقطاع التيار الكهربائي. منطقياً، هذه الأطوار يجب أن تجعل المهبل مستعداً بصورة وظيفية للحؤول دون حصول التحريضات الجنسية وهكذا يتهيأ للوظائف المستقبلية. لكننا رأينا عدم وجود شيء من هذا. ولا بد أن عدداً من الكتاب دعموا فكرة أن المهبل يبدي وجوده منذ مرحلة الطفولة. جوزين مولر[1] مثلاً تورد بعض حالات الإيجابية المهبلية الواضحة لدى الأطفال.

واستناداً لـ " ك. هورني"[2] إذا لم نلاحظ بوضوح وجود المهبل في مرحلة الطفولة، فلأن هذا الوجود مرفوض ومستنكر. وهي تؤكد أن مهبل الفتاة الصغيرة له أحاسيس تتطابق مع بعض العناصر النفسية. ودون أي شك أن تخيلات ذات طابع ماسوشي - سلبي تبرز مبكرة جداً وهي تتميز، كما ألحت على ذلك ميلاني كلين[3]، بقسوة خاصة. وغالباً ما نجد لدى الفتاة الصغيرة تخيلات عن تمزق "أحشائها" باختراق جسم عملاق أو بإخراج طفل. لكنني مقتنعة بأن هذه المشاهد لا علاقة لها بالأحاسيس المهبلية. إنها تتعلق بالأعضاء الداخلية للجسم، أي المعدة والأمعاء، ومسالك الاختراق أو الإطراح المتمثلة بالفم والشرج. وتترجم ضراوة هذه التخيلات بعنف العدوانية المتجهة نحو الداخل. وهكذا يبدو واقعياً أن السلبية والماسوشية هما إعداد لأنوثة المستقبل خلال مرحلة الطفولة؛ سيضاف لهذه العناصر لاحقاً، إذا كان النمو موافقاً، إعدادهما الصحيح واكتشاف المهبل في مظهره الوظيفي.

حول موضوع أن المهبل ليس عضواً فاعلاً خلال مرحلة الطفولة، أريد أن أوضح ذلك بمثال، فحينما يحدث شعور التوتر لحاجة ما في عضو ما غاياته سلبية

---

[1] Mueller. J. : A contribution to the problem of libidinal development of the genital phase in girls, Internat. J. Psycho- analysis, vol. 13, 1932.

[2] Horney, K.: The denlal of the vagina. Internat. , J.Psycho- Analysis, vol.14, 1933.

[3] Klein, M.: The psychoanalysis of children. Londres. Hogarth, 1932.

ومتلقية، تصدر ترتيبات لإرضاء هذه الحاجة. وأريد التحدث عن الحاجات الفموية للطفل، ولا أضع نصب عيني على المص فقط. فقد نلاحظ أن الأطفال الذين لا تشبع حاجاتهم الفموية يحملون كل شيء إلى فمهم، وبشراهة قصوى غالباً، إن كانوا جوعى أم لا. فثمة طفل، هدأ جوعه، سيرفض أي غذاء بقوة ومع ذلك سيضع في فمه حلمة الرضاعة، أو مصاصة أو أي غرض آخر. ومن المعروف أن هؤلاء الأطفال، المحرومون من إرضاءات المص، يكون نومهم مضطرباً. إن الإشراك الذي يربط هذه الحاجة بلذة الطعام ليس السبب الجوهري لاستمراره. حيث يضع المولود حديثاً أصابعه في فمه قبل أن يتغذى واضطراب الرّضع بالاستيقاظ لا يمكن أن يهدأ، خلال فترة من الزمن، إلا بالمص. لقد حملتني ملاحظاتي الشخصية على الظن بأن شكاوي مرضانا ضد أمهم، وشعورهم بأنهم غُبنوا، الشعور الذي يعود لطور الفطام، لا يرتبط دوماً فقط بالحرمان من الثدي باعتباره مصدر الحليب الأمومي. فالأطفال الذين، بحسب بعض الأحكام التربوية المسبقة، وجدوا نفسهم محرومين من أي مص يميلون على الأخص إلى إظهار رد فعل في ذلك يدوم طويلاً. ويحق لنا تماماً أن نتكلم عن الفم بالمماثلة لأن الوظيفة اللاحقة للمص الاستقبالي للمهبل يشبه كثيراً وظيفة الفم.

فمع أننا لاحظنا لدى الطفل ردود فعل على حرمانه من المص، لا نجد أي إشارة عن حاجة مهبلية مماثلة تدفع الفتاة الصغيرة لأن تدخل في مهبلها أشياء أو أفعال أخرى مماثلة. ونصادف من وقت لآخر مظاهر تفترض أحاسيس مهبلية، أو ملامسات أو حتى إدخال أشياء، الخ. إنما يظهر بحث معمق أن هذه الأفعال لا صلة لها بالأحاسيس المهبلية " العفوية" وأن أسبابها عادة خارجية مثل: طفيليات، التهاب مثانة، عادات حمام أو تهيج مباشر. وغالباً ما نحكم خطأً على أحاسيس مهبلية لتهيجات الحاجز الخلفي للمهبل إن كان بسبب الإمساك أو حقن شرجية[1].

وما يبرهن غياب الوظيفة المستقلة للمهبل في مرحلة الطفولة أنه حتى عندما تتأكد الميول السلبية الماسوشية للفتاة الصغيرة بالاستمناء، يبقى هذا متركزاً على

---

(1) Deutsch, H.: opt. cit. أنا مدينة كثيـــراً للدكتـــور ف. كلوتييـــه من Home de la nouvelle-Angleterre على كتابة المسافرون الصغار Les Petits voyageurs. لأنه كان لطف منه أن يضع تحت تصرفي ملاحظاته الخاصة لعدد كبير من الأطفال. لقد أظهرت تلك الملاحظات أن الاستمناء المهبلي المفرط هو المؤثر دائماً تقريباً في تهيج سابق.

البظر. ويمكنني أن أؤكد بصورة مطلقة ملاحظات فينيشل[1] حول هذه النقطة. ولدى الكثير من النساء، يحتفظ البظر بهذه الوظيفة طيلة الحياة، وغالباً ما يكشف الاستمناء البظري الطفولي عن عامل مهم على نحو خاص. فإذا تخلت الفتاة الصغيرة عن أي وظيفة جنسية بسبب ذلك الغياب للعضو المتحقق منه مرتين خلال مرحلة التحريض، فإنها تتعرض إلى فقدان أي قابلية للإرضاء الجنسي كما تتعرض لخطر "aphanisis" لكي نستخدم عبارة "ي. جونز"[2].

إن تيقظ المهبل على كامل وظيفته الجنسية يتعلق كلياً بإيجابية الرجل؛ فهذا الغياب للإيجابية المهبلية العفوية تشكل الأساس الفيزيولوجي للسلبية الأنثوية. إن مجاراة البظر، الذي يستولي على التحريضات التي لا يمكن للمهبل أن يقوم بها، والصدمة التناسلية، هي عوامل تهيأ لكبت جنسي مستمر، وبرودة جنسية. وهذا الاستعداد يحصل في مرحلة الطفولة وهو مسؤول عن الحالات المتعددة جداً للبرودة الأنثوية. ولعل إمكانية تخطي الكبت يتعلق بالحوادث النفسية اللاحقة وعلى الأخص حوادث مرحلة البلوغ. فالعصاب مثلاً غالباً ما يجعل امرأة ما عاجزة عن تخطي استعدادها للبرودة. ومن ناحية أخرى هناك حالات عصاب خطرة لا تقلّص إمكانيات الإحساس الجنسي؛ وبالمقابل، لا تبادر بعض النساء السليمات نفسياً في التغلب على كبتهن الجنسي إنما تتغاضين عنه كثيراً[3]. وفي ثمة حالات، غالباً ما تنسب الطاقة الجنسية إلى الوظيفة التناسلية فالروح الأمومية تقوم مقام الإحساس الجنسي بشكل كامل. ومما لا جدل فيه أن الإلزامات التي يفرضها المجتمع على الأحاسيس الجنسية الأنثوية قد تفاقم الاستعداد للكبت.

وبإمكاننا الآن ترك مسألة أصول السلبية الأنثوية ونتطرق إلى أخرى ترتبط بها، إنها مسألة شهوة العضو الذكري ونتائجها. لكن، بما أننا لم نحاول ربط هذه النقطة الخاصة للمشاعر التناسلية لشهوة الفتاة، فينبغي علينا أن نتناول المسألة الآنفة قليلاً.

---

[1] Fenichel, O. : Weiteres zur preoedipalen Phase der Mädchen, Internat. Ztschr. F. Psychoanal., vol. 22, 1934.

[2] Jones, E. : Early development of female sexuality. Papers on psycho- analysis, p. 558.

[3] DEUTSCH, H.: The significance of masochism in the mental life of women.

إنني متأكدة أن كل طفل، فتى أو فتاة، مهما كانت وضعيته العائلية، سواء أكان محبوباً أو مدللاً أو مهملاً أو محتقراً، وحيداً أم لا، فإنه يتفاعل برغبة كبيرة في ولادة أخ أو أخت له. وهو يغار من كل شيء، مما مع هذا الطفل الجديد ومما ليس معه. والفتى الصغير لا يأخذ بعين الاعتبار الميّزة التي يتفوق بها على أخته الصغيرة. وإذا تقدم نوعاً ما في نموه، فهذا الاكتشاف يثير خوفه، لأنه في جو عام من القلق النفسي. وإذا كان لا زال صغيراً وفضولياً في التبول، فيلاحظ نقص شيء ما للمولودة الجديدة؛ فينفعل باهتمام لهذا الاكتشاف لكن شعوره الرئيسي هو شعور غيره تجاه الحب، والرعاية، والتغذية، الخ. ، التي تتمتع بها القادمة الجديدة. فولادة منافس يظهر له شعوراً جديداً أو يعزز لديه شعوراً كان معروفاً مسبقاً. وبحسب درجة نموه، تأخذ غيرته طابعاً فموياً أو تحمل على الأطوار الغذائية أو بالأحرى ترتبط بوظائف البروز أو بطقوس الحمام.

وهكذا غيرة الفتاة كذلك تثار بالمنافسة، تماماً كالفتى، وتتعلق هذه الغيرة بكل ما يتلقاه المولود الجديد، الذي قد يتصرف بأغراض كانت بحوزتها. ونرى كذلك الراشدين يحسدون الآخرين دون أن يأخذوا بعين الاعتبار ما يملكونه هم أنفسهم. وعندما تكون فتاة صغيرة لا تتأثر كثيراً بعضو أخيها الصغير. إنها تهتم أكثر بأطوارها في التبرز وغالباً ما تتصرف في هذا المنحى كطفل رضيع لكي تشبه هذا الدخيل الصغير. إنها تغار من الرعاية الجسدية التي تقدم له، أو تحس بجرح شعورها بصورة رهيبة لأن أمها، لم تنتبه لما تستحقه على نظافتها، بينما تحب هذا الصغير البريء مثلها. وتثأر في ذلك بتوسيخ نفسها وقد تحتفظ طيلة حياتها برد الفعل هذا: " لا طائل في أن يكون المرء جيداً ويسعى في نيل الاعتبار طالما أن جميع الحالات تنال التقدير".

بعيداً عن الميل العام في الغيرة، تبدي الفتاة رغبة في العضو الذكري حتى لو رأت أن امتلاك هذا العضو يدل على دونية المولود الجديد. وهذا ما يحصل غالباً. في إحدى حالات الانحراف التي عرفتها (كان الأمر يتعلق بامرأة لا تثار جنسياً إلا بالانفجار بالضحك)، نلاحظ تحديداً هذه الطريقة في اعتبار القضيب كشذوذ.

غالباً ما تقول فتيات، خاصة من ليس لهن أخوة صغار:" آه، كان لي نفس مثل هذا الشيء أنا أيضاً " أو " لدي هذا الشيء أنا أيضاً ". إنهن بذلك تحبكن حوادث خيالية شعورية، وبدافع تفاخرهن، ترفضن قبول وجود شيء لا تمتلكن منه. وتتصور كثير من الفتيات أن جميع الأطفال الرضع لهم شيء يشبه القضيب وإنهم لن يحتاجوا إليه عندما يكبرون. كثيراً ما نصادف هذا الرأي؛ وتستخدمه الفتيات للمواساة عندما تجتاحهن الغيرة. أحياناً أخرى، فتيات صغيرات لا نتوقع منهن أي اهتمام فعلي للأمور الجنسية وتبدين مؤشرات برغبة عنيفة بالقضيب. فتمددن أيديهن على عضو الأخ أو رفيق اللعب وتعبرن بصدق عميق عن أمنية نزعه له. إنه أمنية تعبر عن الغيرة، لكن ذلك لا يعني شيئاً على الصعيد المستقبلي خلال نمو الفتاة؛ فهذا لا يعبر بعد إلا عن رغبة في التملك، وهي رغبة مشتركة عند جميع الأطفال وتمتد إلى كل ما يرونه في حوزة الآخرين وليس في حوزتهم هم. ومع ذلك، فمن الصحيح أن نلاحظ، منذ هذا العمر الوديع، اختلافات مميزة في الصفات والطباع بين الأطفال. إن ردود فعل الغيرة المسبقة هذه تتحكم في جزء بالطريقة التي تنفعل فيها الفتاة آجلاً عند الصدمة التناسلية، وخلال المرحلة البظرية. وبالنسبة لردة الفعل الخاصة ذاتها، ستتعلق إلى درجة كبيرة بتأثيرات المحيط، وخاصة لما ستكون عليه الاستعدادات بالنسبة للطفل المنتظر، والجو العائلي، وسلوك الأم تجاه الابن، الخ. وبالإجمال، يستنفد تأثير المحيط مؤثراته في تشكيل الطباع قبل أن تتدخل الانطباعات الجديدة. ولا ينبغي أن ننسى أن كل طفل يولد مع استعداد خاص مميز.

وبهذا فإن ميل الطفل للغيرة يظهر أيضاً بصورة مستقلة عن ولادة أخ جديد أو أخت جديدة. حيث يبدي الطفل الوحيد الغيرة كلما أبدى شخص من الذين يحيطون به، وعلى الأخص أمه، اهتماماً بشيء آخر غيره. لا نريد هنا أن نحلل بالتفصيل الاختلافات الموجودة بين الطفل الوحيد ومن له أخوة وأخوات. إنما نشير فقط إلى أن الغيرة، خاصية مميزة للأطفال من كلا الجنسين، وتظهر منذ نعومة الأظفار، سواء كان هناك أخوة وأخوات أم لم يكن، وبصورة مستقلة عن أية فضولية جنسية.

ولا يتخذ اختلاف المظهر الخارجي الجنسي أية أهمية إلا بتلك المرحلة من نمو الفتاة التي يكتسب فيها عضوها الجنسي (ونعني به البظر) معناه الوظيفي. اذكر

بملاحظة قديمة جداً أكدها لاحقاً جونز[1]، ورادو[2]، وليمبل دي غروت[3] فتاة في الشهر الثامن أبدت عدم اكتراث كامل لرؤية العضو الذكري؛ ولم يحصل إلا بعد ذلك، حينما اهتمت بشدة بأعضائها الخاصة، وأظهرت رد فعل قوي تأثري لهذه الظاهرة. وأكرر رأيي بأن التطورات الصادمة تولد لدى الفتاة حينها انطباعات خارجية ترسي، أو لا، أسس شهوة العضو الذكري.

تثير هذه الأطوار الداخلية لدى الفتاة اهتماماً شديداً بأعضائها الخاصة التناسلية وأعضاء الآخرين. وهي تصطدم بنوعين من ردود الفعل في العالم الخارجي: أولاً تحريم الأم الذي تحرص عليه في هذا الطور، ثم أفعال الأخ وابن العم والجار الصغير الذي يرغب أن يرى ويُري. وهكذا تلاحظ الفتاة الفارق، وفي أعقاب ذلك، تنفعل بأشكال مختلفة بحسب العوامل الموجودة سابقاً. هذه العوامل هي من ناحية نموها المميز، وبخاصة ميلها نحو الرغبة بشكل عام، ومن ناحية أخرى شدة صدمتها التناسلية التي تتعلق بدورها بشدة الحاجة الجنسية، وبأطوار الاستمناء، الخ. فشهوة العضو الذكري ونتائجها تنمو وتتهيأ على الصعيد العملي للحياة.

لكن التطور قد يتبع أيضاً مجرىً معاكساً. فاكتشاف الفارق الظاهري الجنسي قد يعزز اهتمام الفتاة بأعضائها الخاصة ويدفعها على القيام بتقصيات مثيرة على ذاقا. والإثارة، في هذه الحالة، أُعدت بتطورات غريزية داخلية لكن أُثيرت من الخارج وظهرت هكذا، منذ البداية، على علاقة بشهوة العضو الذكري.

يتشابك فيما بعد تسلسل الأحداث، وعندما نحلل الراشدين، من المستحيل أن نفصل الصدمة التناسلية الأولية عن شهوة القضيب. واعتقد أن هذا التشوش الزمني هو سبب النظرية المغلوطة والتي تهمل الصعوبة البنيوية للنمو ولا ترى إلا ما هو رد فعل عاطفي وتميز ثانوي لهذه الصعوبة.

وتلخيصاً لما جاء نقول، أن الفتاة تلاقي صعوبة أثناء نموها الغريزي. هذه الصعوبة قد تؤدي إلى نتائج عامة، طبيعية، أو تقود لردود فعل غير طبيعية وفردية.

---

(1) Jones, E : Papers on psychoanalysis, p. 562.

(2) Rado, S.: Fear of castration in women, Psychoanalyt. Quart., 2: 425, 1933

(3) Lampl- De -Groot, J. : The evolution of the œdipus complex in women, Internat. J. Psycho- analysis, 9 : 332 , 1928.

لقد درسنا النتائج الأولى: إنها تؤدي إلى السلبية الأنثوية الطبيعية وسنرى بعد ذلك حين ندرس ماسوشيتها في الباب التالي. أما النتائج الثانية فقد تكون غير سليمة، إنها تظهر صعوبة غير مضبوطة ولها تأثير صادم. ولعل رغبة القضيب تلعب فيها دوراً هاماً إذ أنها إحدى الصيغ التي تتجلى فيها الصدمة؛ وتثير أحياناً هذه الرغبة الصدمة لكنها ليست السبب الأول قطعاً. فالاكتشاف الذي قامت به الفتاة الصغيرة عما يميزها عن الفتى الصغير وهو التأكيد بالنسبة لها عن نقص أحست به سابقاً بنفسها؛ وهو إذا صح القول العقلنة التي توصلت إليها. إنها تعطي محتوىً واقعياً لتطور داخلي في إسقاطه على العالم الخارجي " ثمة عضو متواجد حقاً، تبدو تفكر هكذا، لقد كان معي ملء الحق إذن حين شعرت بنقص ذلك!".

وكما ذكرنا، رغبة القضيب ستتعلق بالاستعداد التميزي للفتاة، وبشروط أخرى درسناها بتوسع. وإننا نقبل باحتمالية علاقة سببية معكوسة.

وهكذا يتم إسقاط النزاع الداخلي على الواقع، ولذلك فجميع ردود الفعل اللاحقة تبدو متعلقة واقعياً باكتشاف القضيب. وتعودنا كثير من المواقف النفسية الأخرى على أنواع من العقلنة. وبوجه الاحتمال لاكتشاف القضيب فعل معزّز ومدعّم؛ إنه في جميع الأحوال تجربة واقعية تجر مظاهر الرغبة فالفتاة ترغب الآن أن تمتلك هذا العضو بصورة شعورية وتمنح رغبتها أداة واقعية جداً: إذ ترى هنا امتلاكاً محسوساً يمكن أن يمهد لمآرب مختلفة (كاللعب والتبول[1]). لكن السبب الديناميكي الواقعي لشهوة القضيب تكمن في تعمق أكثر ويشترط هذا السبب التجربة الواقعية بصورة مطلقة.

فحتى لو لشهوة القضيب معنىً ثانوياً وصادقاً، فالمعالجات التحليلية تتحقق من وجوده عند المرأة بتناسق ما علينا اعتباره "طبيعي". ولا يصبح غير طبيعي إلا حين يتجاوز حدوداً معينة ويؤدي إلى اضطرابات. ومن ناحية أخرى، لا يبقى معزولاً عن البنية النفسية؛ إنه يترافق بعناصر أخرى نفسية؛ فليس إلا هكذا يتدعم ويتخذ أهمية واضحة؛ وبالاشتراك مع بعض السياقات يمكن أن يكون مظهراً أو حتى مركزاً للعقدة الأنثوية للرجولة التي سندرسها لاحقاً.

---

(1) Horney, K: On the genesis of the castration complex, Internat. Psychoanalysis, vol. 5, 1924.

الفصل السابع

الماسوشية الأنثوية

لقد درسنا تكوّن السلبية الأنثوية ضمن المقياس الذي ترتبط به مع الصدمة التناسلية ومع تطور الغرائز الجنسية. و لم يهتم تحليلنا إذاً إلا بالميول الجنسية للمرأة. إنما حتى لو علّقنا أهمية كبيرة على التأثير الذي يمارسه الإحساس الجنسي على الشخصية في كليتها، "فعلينا أن نتذكر، كما قال فرويد[1]، أنه بإمكان المرأة ككائن إنساني أن تكون خارج ذلك" وعلينا كذلك أن نبحث عن مصادر أخرى لسلبية المرأة. ويبدو ذلك لنا أكثر بساطة، من الناحية المنهجية، أن ندرس هذه المظاهر مع مسألة الماسوشية الأنثوية. هاتان المسألتان متمايزتان إنما هناك ارتباط وثيق بين الماسوشية والسلبية. فكلتاهما تتولدان من بنية المرأة، هذه الآلية ذات الوجهين للمرأة تعيد نحو الداخل الطاقات التي كانت متجهة نحو الخارج، وضمن النطاق الذي تعكف فيه هذه الطاقات على النشاط والإيجابية، اعتبرنا أن السلبية كحالة بسيطة للكبت.

نحن نعلم أن نشاط الطفل، وحياته الغريزية كلها، مطبوعة بشدة بميول عدوانية، ونفترض أن الميول العدوانية، كلما كان هناك كبت للنشاط، تخضع

---

(1) Freud, S.: The psychology of women. New introductory lectures on psycho-analysis, p.185.

لنفس المصير. لكن قوهم لا تسمح لهم بالبقاء بحالة بسيطة من الكبت، إلهم يستمرون بالنشاط وما يتغير هو اتجاههم. هذا العدوان الدائر ضد أناه الخاص قد يقود إلى التدمير الذاتي إذا لم يكن يخضع هذا الطور بعد ذلك للتحول. وقد افترض فرويد[1] أن "إن نمو نزوات ماسوشي قوية تجعل الميول التدميرية المتجهة نحو الداخل عشقية". يرتكز هذا الافتراض على فرضية أخرى، في معرفة أن هذه الدوافع الماسوشية كانت موجودة مسبقاً، قبل ظهور العدوانية، وقد تعززت الآن. وربما الصلة الموجودة بين النرجسية والماسوشية والتي استندنا إليها لشرح علم نفس المرأة لها خلفية فيما قبل التاريخ؛ وربما كان هناك مرحلة سيطر فيها حب الذات النرجسي على الدافع لتدميري الموجه ضد الأنا، موجداً هكذا استعداداً مسبقاً للماسوشية. إن حب الذات هذا يجلب نصراً كاملاً لا تبدي فيه المرأة الطبيعية أي ميل لأن تلزم نفسها بألم جسدي أو معنوي لتحصل منه على لذة ما. و لم يحصل ذلك إلا آجلاً، في علاقتها مع أدواقا وفي مختلف الأفعال المرتبطة بالوظيفة التناسلية، حين سيتضح ميلها في إشراك اللذة بالألم.

سندرس فيما بعد الحوادث النفسية التي تعزز هذا الميل الأنثوي في السلبية والماسوشية. إن آلية التحول من الإيجابي إلى السلبي تطبع بمجمل الحياة الغريزية للمرأة. ولنذكر حالة خاصة: في انحراف " الملاوصة"، فتحب النساء أن يُنظر إليهن بطريقة سلبية استعراضية، بينما يفضل الرجال عادة أن ينظروا هم بأنفسهم.

ولتجنب أي سوء تفاهم، علينا أن نميز الماسوشية الأنثوية عن الماسوشية "المعنوية" التي تعد نتيجة لإحساس لاشعوري بالذنب والتي ترضي ميول معاقبة الذات، وليس ميول اللذة العشقية[2]. وبالطبع فإن الحدود بين الاثنين تكون أحياناً غير أكيدة، وفي تقييمنا لمظاهر الماسوشية الأنثوية، يمكننا أن نأخذ عنصراً وصفياً كمعيار للتمايز: مبالغة في المواقف الماسوشية، ميل واضح للتألم دون ثواب بالحب، الخ، يجب أن تجعلنا نعتقد بوجود المظهر" المعنوي" لهذه الماسوشية، ولا يمكننا الخلط مطلقاً بين الماسوشية الأنثوية بالانحراف الماسوشي الشعوري.

---

[1] Ibid., p. 158.

[2] يتحدث فرويد عن ماسوشية " أنثوية"، متميزة عن الماسوشية " المعنوية"

The economic problem in masochism, Collected Papers , vol. 2.

فالحياة الإنسانية كلها تقوم على سعي في الهروب من عدم الرفاهية والتألم، والمبدأ القائل بأن النساء، اللواتي تشكلن العدد الأكبر من الجنس البشري، هن ماسوشيات وتبحثن عن الألم والتألم يلاقي بالطبع الريبة والتناقض.

عندما تقول للمرأة الطبيعية بأن الماسوشية والسلبية هما العنصران الأساسيان لحياتها النفسية، ستنكر ذلك بالتأكيد. وستدحض في بادئ الأمر اتهام السلبية وهي تقول بأنها تمضي نهارها بالعمل وأنها لا تتحمل البقاء بدون أي شيء تقوم به. وبنفس الفعالية أيضاً سترفض اتهام الماسوشية، مصرّحة أنها تعرف ما تريد وأنها لا تعرف الخضوع لإرادة أي رجل؛ وفكرة أنها شديدة الرغبة بالألم والوجع وتسعى إليهما، تبدو لها فكرة منافية للعقل. وإذا تقول لها أن الماسوشية تشكل جزءاً مندمجاً في إحساسها الجنسي فتجيبك بأن ألم فض بكارتها أفسد عليها شهر العسل وأنها احتاجت كل حبها وحنانها تجاه زوجها لتحس هذا الألم. وإذا طلبت من امرأة حديثة أن تتحمل آلام الوضع دون اللجوء إلى الطرق الحديثة في التخدير وأن تكون وفية لوصية الكتاب المقدس"ستلدين في الآلام والأوجاع"، فسترفض بالتأكيد اقتراحك بغيظ. يقول لنا أطباء التوليد، منذ الاستشارة الأولى، تطلب كثير من النساء الحوامل تعهداً ببذل كل ما يمكن لتجنّب آلام ولادتهن. وبالواقع، تقلل الكلمات المهدئة للطبيب في هذا المنحى كثيراً من قلق المرأة النفسي. ويمكن أن نستنتج من هذا الرفض الشعوري للألم أن الرغبة في الألم، وإن كانت موجودة، فهي لاشعورية وأن المرأة نفسها تقاومها. وحين نفترض وجود عامل بنيوي وتشريحي في أساس الماسوشية الأنثوية، فنحن أمام هذه المسألة: كيف تتوصل المرأة إلى توجيه ميولها الماسوشية بطريقة تبدو في صالحها؟ سوف نحاول هنا أن نعترف بالمسالك التطورية للماسوشية والسلبية، واكتشاف كيف تتقبل المرأة ماسوشيتها وتدمجها في تشكيل شخصيتها.

لنعد إلى مرحلة ما قبل المراهقة للفتاة. فقد رأينا ذلك خلال تلك المرحلة، كانت الفتاة الصغيرة إيجابية جداً، وهي حرة نسبياً من الغرائز الجنسية، وإننا لا نلحظ في هذه الإيجابية أي نفور من الأنوثة، أو أي تشكيل لرد فعل، أو أية علامة للتسرب نحو الرجولة، الخ. فالفتاة الصغيرة الطبيعية والسليمة تسعى بإيجابية ونشاط إلى غزو العالم المحيط بها. وهي تكرر أو تستمر في سعيها الذي بدأت به خلال

مرحلة الطفولة الأولى، إنه سعي نحو التكيف، ونحو ضبط الواقع، ويشتد هذا السعي على نحو خاص في مرحلة ما قبل البلوغ.

لقد ذكرنا سابقاً أننا لا نعتبر أطوار النضوج كنتائج بسيطة لنمو غريزي أو كحلول لصراعات تضمنها هذا النمو؛ إننا بالأحرى نفترض، بالموافقة مع العديد من الكتاب المنتمين وغير المنتمين لمدرسة التحليل النفسي، وجود "وظائف أولية للأنا، الذي وهو يتحدد يشبه ذلك التناسق للوظائف الذي بواسطته نحس ونقيم ونذير العالم المحيط"[1]. هارتمن يدعونا إلى إدراج " أن مجمل الوظائف في الإطار الذي تعمل به، فعلياً، وفردياً أو بطريقة عمومية، خارج ساحة النـــزاعات النفسية"، تحت الاسم المؤقت "الفلك اللاتنازعي للأنا"[2].

إن فرضية الميل الإيجابي الذي يحدث بصورة مستقلة في الأنا ستساعدنا كثيراً على توضيح مفهومنا عن السلبية والماسوشية الأنثويتين. وفي ضوء هذه الفرضية، لا يعني التكيف القبول السلبي إنما المشاركة الإيجابية، بهدف التأثير وتحويل العالم المحيط.

ومن العسير على نظرية التحليل النفسي أن تتصور وظائف الأنا حين تحصل خارج فلك الصراعات الغريزية. وتبدو حرية وظائف الأنا تجاه العالم المحيط نسبية إلى درجة قصوى. وكل مرحلة جديدة من النمو ضمن " الفلك اللاتنازعي للأنا" تكون مشروطة بالمراحل السابقة والعوامل المحيطة.وهكذا فللفرد مشكلتان تتطلبان الحل: عليه التحرر بلا انقطاع من العلاقات السابقة، وعليه ضبط صعوبات العالم الخارجي. هاتان المشكلتان عسيرتان ويمكن أن يفشل الفرد في حل إحداها؛ إنهما عموماً مرتبطتان، وإذا لم تحل إحداهما، تبقى الأخرى أيضاً من دون تسوية.

عند دراستنا لهذا الصراع في سبيل تحرير الأنا، نرى أن العالم المنطقي للطفولة الأولى، علم يجب أن يكون مهجوراً قطعة قطعة في كل وثبة جديدة نحو الإيجابية، تمثله الأم. إن الاختلافات الجنسية لا تدخل اللعبة هنا . إذ يتلقى الفتيان والفتيات إشباع حاجاتهم الغريزية من الأم، وخلال مرحلة طويلة يتعلقون

---

[1] Hendrick, I.: Work and pleasure principle, Psychoanalyt. Quart. , 12: 313, 1943.

[2] Hartmann, H: Ich- Psychologie und Anpassungsproblem , Internat . Ztscher. F. Psychoanal., 24 : 66, 1939.

بمساعدتها ودعمها، وتحديداً في الوظائف الأكثر إيجابية لأناهم. مثل النهوض من على الأرض، أو المشي، أو التغذية، أو تعلم رؤية المخاطر وتجنبها، كل هذا يحصل للمساعدة الفعالة للأم. إن تعلق الطفل بأمه ليس له إذاً طابعاً غريزياً فقط، إنه أيضاً نتيجة ضرورية لتلك المرحلة الطويلة التي كان يحتاج فيها الطفل للمساعدة. ومنذ البداية، تتركز الدوافع السلبية للأنا على الأم بينما تحيد الدوافع الإيجابية عنها. وإذا اختبرنا المؤشرات الغريزية والعدوانية والتي تخضع دوافع الأنا لها، سنرى هنا ظهور علاقات معقدة جداً حيث يكون هذان العاملان تارة متعارضان وتارة أخرى يزعج أحدهما الآخر.

وحين يحيد الطفل، بشدة متنامية، عن الأم وعن الارتباطات الطفولية في صالح التكيف الإيجابي مع الواقع، يكون هذا الواقع واضحاً أكثر فأكثر وممثلاً بالأب الذي يكون مخلصاً مع الفتيان والفتيات سواء بسواء. إن علاقة الأبوين بالأولاد توازي علاقة الأولاد بالأبوين: إذ يتعلق الولد بأمه بشدة أكبر حين يكون محتاجاً إليها أكثر؛ كما يبدأ الأب بنيل اهتمام فعلي من الولد عندما يصبح مؤهلاً لتلقي تأثيره ويبدي فضولاً أكثر للعالم الخارجي.

فلا تهجر أي صلة عاطفية دون أن يشتمل ذلك على مشاعر سلبية؛ وفي الحياة العاطفية للطفل تكون التبعية دوماً متطابقة مع الحب فيما يترافق الصراع من أجل الاستقلالية بالعدوانية. ويجب على هذا الصراع أن يستخدم المشاعر السلبية ليتخطى الصلة الأمومية والخوف من فقدان الأم نفسها. وبهذا ينشأ القلق النفسي الطفولي خلال مرحلة الصراع من أجل التحرر من مصدرين العدوانية المستخدمة لبلوغ هذا التحرر والخوف من فقدان الأم.

وفي هذا الصراع، ينصرف الفتيان والفتيات عن الأم ويتجها نحو الأب.ويستخدمون جميعهم مشاعر سلبية، أي عدائية ضد الأم، كقوة للتحرر.

لا نستطيع أن نؤكد أن الدوافع الإيجابية للأنا كافية لأحداث هذا الانعطاف المتحول من الأم نحو الواقع إن لم تساعدها قوى أكثر عمقاً وأكثر غريزية. ولقد شهدنا عدداً كبيراً من الدوافع الملحة للأطفال من كلا الجنسين في هذا الانصراف عن الأم مثل: الحرمان، والإذلال، والغيرة، وقيود الحرية الجنسية، دون اعتبار الميل العام للطفل للعدوانية وتناقض وجدانه العاطفي. وللفتيات دافع إضافي هو في ردود

الفعل العاطفية للصدمة التناسلية، التي طالما تلمن أمهن في كونها المسؤولة عن دونيتهن. ومع أننا لا نستطيع تحديد سياق زمني لهذه التطورات، يمكننا أن نسلم أن جميع هذه العواطف تدعم السعي من أجل الاستقلالية بل ربما لا غنى عنها لهذا السعي.

وقد نسأل ما هو التوجه الجديد نحو الأب؟ وما ذا ينتظر الفتى والفتاة منه؟ وخاصة تحالف ضد الأم في صالح الواقع. لعل الأب هو الممثل للواقع والعالم الخارجي حيث يريد الأطفال أن يعيشوا فيه كراشدين. إنه حلف ذكوري، متحرر من التعقيدات العاطفية ويقوم على المنافسة بالنسبة لمحبة الأم وعلى مرأى من الطرفين. وهكذا يدعم الأب الرجولة الفتية لابنه ومنذ ذلك اليوم، يلتزم كليهما صراعاً ليس لصالح الأم إنما ضدها. ونلاحظ لدى الذكور، في مراحل مختلفة من حياتهم النشطة الإيجابية، موقفاً تنازلياً، وحمائياً وفيه بعض الاحتقار الخفيف تجاه الأم. وجدير بالذكر أن الأب يبدي عادة ميلاً لدخول تحالف يقوم على هذا الموقف. إنما إذا كان الأب قاسياً تجاه الأم ويعاملها معاملة سيئة، فالابن يرفض التحالف، ويتقرب من أمه تحت ضغط مشاعر الذنب. وفي حالات مشابهة، يكون تكيف الفتى مع الواقع متناقضاً بتفاقم العقدة الأوديبية. وهنا الاضطراب المغضب جداً والذي يمكن أن يؤثر على نموه لأنه الأكثر دواماً.

والأم الأنثوية والحساسة تساعد ابنها على التوجه نحو الواقع، وتسهل عليه إيجابيته ونمو الأنا عنده، بل وعليها التخلي من أجل ذلك عن الارتباط الحنون الذي كان يكنه لها.

علينا أيضاً ملاحظة الفتى ليكون جديراً بتفهم الفتاة بعد ذلك على نحو أفضل. إن علاقة الرجل بالرجل لا تبقى دوماً بحالة انسجام. حيث يشرع الأب والابن بأفعال مشتركة في العالم الخارجي، وتتنوع هذه الأفعال بحسب الوسط الثقافي، لكنهما يشرعان بها لأسباب مختلفة : فالأب لكي يجعل ابنه قوياً ورجولياً، والابن لكي يكون رجولياً كأبيه. فهناك أساليب غير لائقة ومنافسة محدودة "من أجل الضحك" مع الأب تشكل التعبير الطبيعي لعدوانية الفتى. وفي لحظة معينة، على الفتى أن يخضع للهزيمة خلال هذا الصراع "من أجل الضحك". وطبيعي أن يتحول هذا الصراع على أفراد من نفس القوة أو أقل، وستكون مهمته الآن تحطيم

"الطاغية" بمساعدة أخوته (أو أصدقائه). وخلال مرحلة ما قبل البلوغ والبلوغ، نجد الفتى مرتهناً في هذه الصراعات التي توجه الآن ضد الأب وضد أولئك من يشترك معهم.

ويمكن لعلاقة الأب بالابن أن تأخذ أيضاً طابعاً أكثر سلبية. حيث يقبل الفتى هزيمته ويرغب بنيل محبة أبيه، أو يقوم بتسوية حل وسط. فالرجال الذين يحافظون على رجوليتهم لكنهم لا يتطلعون، طيلة حياتهم إطلاقاً، لتبوء المواقع الأولى إنما الأعمال التابعة وحيث يريدون نيل محبة وتقدير رؤسائهم كـــ " ذراعهم الأيمن" هم النموذج الأولي لثمة تسوية حل وسط.

ومن المؤكد أن هذه الميول الإيجابية التي تنبعث من الأنا تكون مضطربة أو ميسرة بسبب صراعات الغرائز. فالتحالف مع الأب، على سبيل المثال، مشروع لتعزيز الأنا، ويمكن أن يكون مضطرباً بتطورات غريزية تستثير تطور نحو المثلية الجنسية السلبية.

والآن لنختبر حالة الفتاة الصغيرة. كيف تتأثر بالوسط المحيط في توجهها نحو الأب؟ لعل تأثير الأم له مفعول كابت على الفتاة أكثر مما كان على الفتى. حيث تحس الأم، (وإحساسها مبني على أفعال منطقية) أن الفتاة هي الأضعف وأنها بحاجة للمساعدة أكثر من الفتى، وأنها لا يمكن أن تندفع نحو الإيجابية دون أن تعرض نفسها لأخطار. وبالمحصلة، فإن التأثير الكابت للظروف يظهر في البنية البيولوجية للفتاة. إنها تمضي نحو الأب كالفتى وتسعى في تأمين مساعدته. إن الطور هنا أكثر تعقيداً والحل أكثر تنوعاً من حالة الفتى. فغالباً ما يستجيب الأب لطلب ابنته وخاصة إن لم يكن عنده ابن. وقد نرى خطراً، في تلك الإيجابية المدعومة من الأب على أنوثة الفتاة. إنما ذلك لا يبدو دوماً صحيحاً. إن الإشباع المعقول للحاجة الإيجابية التي يجب أن تتحرر من الوصاية الكابتة للأم تظهر برعاية مناسبة للتساميات اللاحقة والعلاقة الإيجابية المستقبلية والحانية مع الأم والتي لها أهمية كبرى من أجل أنثوية الفتاة. وفي كل درجة من النمو، يحتوي كبت الميول الطبيعية على بذرة من الاضطرابات اللاحقة. ونعتبر إتمام كل مرحلة من النمو كاكتساب لاستعداد ما من أجل المستقبل. فمرحلة البلوغ ستضع هذه المكتسبات بشكل واضح. إن العلاقة الإيجابية للفتاة مع أبيها (إن لم تعانِ تلك العلاقة من بعض

التشوه) ستظهر أيضاً خلال مرحلة البلوغ بميول إيجابية لتساميات لها غالباً طابع اندماج مع الأب، دون أن تتضمن أي خطر على نمو الأنوثة.

لكن هذا النمو الطبيعي نحو الإيجابية قد يتعرض لاضطرابات مختلفة؛ ولن نأخذ بعين الاعتبار منها إلا الأكثر تكراراً ونمطية. فعلاقة الفتاة مع أبيها قد تستنفذ كل المصادر العاطفية التي، عند النضوج الجنسي ، قد تستخدم لأدوات في المشاعر التبادلية الجنسية. والمبالغة في تقدير الأب التي توجد في مثل هذه العلاقة الإيجابية لا تتحول بلا مصاعب إلى رجل آخر والذي سيتعرض لتطلبات قاسية. ذلك ما يعقد اكتشاف أداة الحب والمتطلبات المتجددة باستمرار التي ستفرض على الرجل والتي قد تشكل عقبة كبيرة في طريق سعادة الحب والزواج.

وقد يحصل في أحيان أخرى، وذلك في عمر وديع جداً، انشطار كنّا قد تحدثنا عنه؛ إذ أن الميول الإيجابية المتسامية للفتاة مرتبطة بالأب في حين أن تخيلاتها الجنسية تأخذ طابعاً سلبياً ماسوشياً بصورة استثنائية. ومن اللافت تحققنا كيف أن الفتاة التي تحتفظ بإيجابية أناها والتي تستخدمها لتسامياتها، هي سلبية وماسوشية إلى أقصى حد في سلوكها الجنسي؛ أو أنها تبقى وحيدة عشقياً، ومتجنبة أي خطر، أو تصبح ضحية لرجل شرس. هذا الانشطار هو غالباً نتيجة للاندماج بالأب، والذي سيستمر بع ذلك في تسامٍ سعيد يكون فيه مركب العشقية الأنثوية باق على حالة من الماسوشية الطفولية. إن الموقف العام لهؤلاء النساء أمام الحياة قد يكون إيجابياً ورجولياً، ويمكن أن تظهرن ممانعة خاصة وعدوانية في معركة الحياة. هذا الموقف الرجولي يكون أحياناً ذو تشكيل تفاعلي مجهض، ومحنة للتهرب من أنوثة مفرطة في الماسوشية. لكن رد الفعل لا يؤثر على كل الميل الغريزي، ويظهر التحريض الماسوشي من جديد في كل شعور لهذه المرأة. وقد لا ينجح الهروب هنا إلا إذا هُجرت الأنوثة بالكامل.

يبدأ الانشطار منذ تأسيس العلاقة الإيجابية مع الأب، ويظل مجال التحسس لاشعورياً إلى أن يتم التوصل إليه بتدرج تصاعدي. والأداة في الميلين الإيجابي والسلبي الماسوشي هو الأب. وبصورة نفسية، كأن الفتاة لها والدان أبٌ " مضيء " علاقتها معه شعورية تقوم على الإيجابية المتنامية، وأبٌ "مظلم" تحمل معه كل مخاطر القسوة والإغواء والذي يغذي كوابيس القلق النفسي. وفي التشكل التخيلي الذي

يدعى "الرواية العائلية"، ينكشف هذا الانشطار بوضوح خاص. وتمتلك الفتاة انطباعاً تتصور فيه بواقعية تامة أن لها أبوين. أحدهما الأب الفعلي؛ ويمكن للتيار الماسوشي الذي اتجه نحوه أيضاً أن يتأكد بطريقة شعورية إن وجدت، وبالإيجابية التخيلية، المتوجهة نحو الأب الآخر. ولا يظهر الانشطار في العلاقة مع الأب إلا في مرحلة البلوغ، عندما يشوب الحياة العاطفية تياراً تحسسياً قوياً جداً بحيث أن العلاقة الوادعة مع الأب والاندماج معه لا يستطيعان مطلقاً مقاومة التحريضات الجنسية. فالاندماج مدمّر، والصلة الطبيعية لا توجد مطلقاً بين التيارين الإيجابي والسلبي، وبنهاية المطاف، نشهد بروز إيجابية رجولية أو ماسوشية متفاقمة.

لكن أيضاً هذه الصعوبات يمكن تجنبها. فغالباً ما تدوم العلاقة مع الأب منذ الطفولة الأولى؛ وأحياناً لا تبدأ إلا مع النضوج الذهني للفتاة. وقد تقود إلى السعادة والإشباع، حتى لو تثبتت الإمكانيات العشقية للفتاة عند حد العلاقة المتسامية مع الأب. ولعل تخلّي الفتاة عن الإتمام العشقي لا يجب أن يُفهم بحسب قواعد نمطية. حيث تعلمنا الملاحظة أن علاقة البنت بالأب المتسامية بصورة قوية لا تشمل بالضرورة على عصاب أو مشاعر حرمان أو نقص، حتى لو كان شُلت الحياة العشقية للفتاة. فتحقيق الغايات الحقيقية للحياة لا يرتبط بالضرورة بإحساس جنسي طبيعي.

غالباً ما تأتي العلاقة مع الأب بمبادرة منه، وبه تكمن الأسباب النفسية التي تدعمها. إنه يطلب أحياناً من ابنته أن تقوم مقام الابن الذي لم يُرزق به أو الذي أحبطه، وفي توريث قيمه الروحية؛ وغالباً ما يتحول حب الرجل لزوجته على ابنته ويجد فيها شكلاً مرضياً شريطة أن يكون التسامي ناجحاً نجاحاً تاماً. فالجدير بالذكر، إن ثمة علاقة غالباً ما تحصل مع الابنة الثالثة، وخاصة إذا كانت الأصغر. ويجري كل هذا كما لو أن علاقة الأب مع ابنته تجردت من مخاطرها وتحررت، من خوف الزنى مع البنتين الأكبر. وتبدو ساندريون، الابنة الثالثة مشار إليها بصورة خاصة لاختيار حب أبيها بسبب حاجتها للمساعدة ولأنها تبدو غير عدائية. وتلعب بالتأكيد الحاجة لإنقاذ الفتاة الصغيرة من اعتداءات أمها وأختيها دوراً كبيراً هنا. ولن ندرس هنا الأسباب الأكثر عمقاً لمثل هذه العلاقة[1].

---

[1] يخضع فرويد دور الأخت الثالثة إلى تقص تحليلي نفسي عميق في:
Motif de Kästschenwahl, Gesammelte, vol. 10, p. 243.

شكل آخر من إيجابية الفتاة يكمن في تشكيل تحالف مع فتيان؛ إنها تقوم بذلك غالباً إذا كان عندها أخوة ومن اللافت أن نرى بأية سهولة تتحول الحاجة لإيجابية صبيانية إلى اتجاه ماسوشي. ويقبل الفتيان الفتاة في ألعابهم كنظير لهم شريطة أن تتحمل الضرب بين الفينة والأخرى وأن تجبر على أفعال مضحكة ومُذلة. فهي إذاً صيحات يأس، وتظلم ودموع؛ لكن بعد أن تفرّج الماسوشية الصبيانية سرعان ما تنخرط من جديد في نفس الألعاب. إن ذلك مثال نمطي عن الإشباع المزدوج. وبإمكاننا الاعتقاد أن الفتاة الصغيرة قبلت بالتألم لتتمكن من إشباع حاجتها الطبيعية للإيجابية. إنما لا من شيء في هذا، في الواقع أنها امرأة صغيرة، وتلعب عندها العناصر الإيجابية والماسوشية لعباً متوازياً. وفيما بعد لن يقبل أناها بسهولة هذه اللعبة المزدوجة، وسوف تبرز صراعات سيكون حلها أحد أصعب مهماتها.

حتى الآن، سعينا في تتبع مسالك الإيجابية الأنثوية في الحالات التي كانت تنم عن إمكانيات خاصة في النمو. تلك الحالات ملائمة طبعاً في غاياتها الإيجابية، إنما ليس دوماً لانسجام كامل الشخصية. ونحن لا ندعي أن إيجابية الفتاة، في شروط أقل ملاءمة، مصيرها الفشل؛ فصيغها تختلف عما نراه عند الفتى وحاجتها لأن تحس بها ليس لها نفس الموقف الميّال للقتال. وعلى عكس ما نراه لدى الفتى، تصادف إيجابية الفتاة، على درب التكيف مع الواقع وتصفية الارتباط الأمومي، كبتاً يفرضه العالم الخارجي على نمو أناها.

ويبدو فعلاً أن جميع أشكال إيجابية مرحلة الطفولة، مهما كان مصدرها، تترافق بميول عدوانية، وأن مصير هذه الميول يشكل عاملاً رئيسياً في الاختلاف النفسي للمرأة عن الرجل. ولعل الفتى الذي يتحرر من تعلقه بأمه أكثر من إيجابي: إنه يحارب من أجل وضعه الإيجابي ويجد هكذا مخرجاً لعدوانيته. وعند أوان نموه الجسدي والنفسي تتوزع قواه الإيجابية والعدوانية بطريقة تعز أناه وتجعله مقبولاً من المجتمع.

إنما ما يتعلق بالفتاة، فالعالم المحيط يمارس تأثيراً كابتاً على عدوانيتها وإيجابيتها في آن واحد. وتتعلق نتائج هذا الكبت بشدة مؤثرات المحيط وبقوة الحاجة لإيجابية الفتاة. حيث تعمل قوى العالم الخارجي والداخلي هنا في نفس

الاتجاه، أي أن الحاجة لإيجابية المرأة هي الأضعف والكبت الخارجي هو الأقوى. وقبل كل شيء، المكبوتة هي المركبات العدوانية؛ ولا يرفضها المحيط الاجتماعي فقط إنما يضمن نوعاً ما أنا المرأة بتقدمات ما ليجعله يتخلى عن تلك العدوانية. وبغرض تبسيط عرضنا، قسمنا محيط الطفل إلى جزأين: من ناحية عالم الأم، التي تحب وتكبت طفلها، موصية إياها بالسلبية، ومن ناحية أخرى، العالم المحارب للأب الذي يشجع إيجابيتها. وتلعب أطوار النمو دوراً داخل الموقف الثلاثي الذي نصادفه بلا انقطاع. لقد رأينا أطفالاً من الجنسين يطلبون من أبيهم، ممثل الواقع، أن يساعدهم على التحرر من الأم. إن التماس الفتاة هذا مقبول أحياناً فيما يخص الإيجابية، ومرفوض قطعاً فيما يخص العدوانية. أأرينا أباً يقوم بحماقة مع ابنته خلافاً للصورة القياسية؟ وهل يشجعها على صراعات موالية؟ لعل الهدية التي ترى الفتاة نفسها تتلقاها من والدها، بصفته يمثل العالم المحيط، تكمن في حبه وحنانه. إنها تتخلى لأجل ذلك عن الإسراف في لذات إيجابيتها، وعلى الأخص بعدوانيتها.

وبالمحصلة، تهجر الفتاة عدوانيتها من ناحية بسبب ضعفها ومن ناحية أخرى بسبب محرمات العالم المحيط، وخاصة بسبب هدية الحب التي مُنحت إياها كمكافأة. ونصادف هنا طوراً نامياً يلعب دوره بلا انقطاع عند المرأة؛ فإيجابيتها تصبح سلبية، وتهجر العدوانية مقابل لذة الحب. وبعد هذا التخلي، على القوى العدوانية التي لم تصرف بشكل فعال أن تجد مخرجاً، وهي تقوم بذلك بطبع الحالة السلبية " أن تكون محبوبة " بطابع ماسوشي. لقد حاولنا آنفاً أن نفسر السلبية الأنثوية بالفارق الظاهري التشريحي بين الجنسين. ويلائم التفسير نفسه الماسوشية الأنثوية. فغياب العضو الإيجابي أدى إلى توجه نحو السلبية والماسوشية. ولابد من ملاحظة أن تطورات الأنا، والغرائز، والعوامل البنيوية، والتشريحية، والتي تأتي من العالم المحيط، تبدو تتحد كلها لتنتج الأنوثة.

ولقد رأينا أنه حتى التساميات الإيجابية الأكثر نجاحاً للمرأة لا تبدو تحررها تماماً من الدوافع الماسوشية. وتكلمنا عن النمط الإيجابي الذكوري والذي تكون لديه ميول قوية ماسوشية مرفوضة ومفصولة. وبالإجمال، يبدو أن الأسلوب الأنثوي في تسامي الدوافع الماسوشية يكون ناجعاً أكثر من الأسلوب الإيجابي. فـ "المرأة الأنثوية" التي وصفناها في الباب السابق تؤكد لنا هذا الرأي. والمرأة الأنثوية

هي بالطبع مسلحة على نحو أفضل لضبط ماسوشيتها الأنثوية التي لا تكون من النمط الإيجابي.

وتقودنا ملاحظاتنا إلى تصحيح بسيط لفرضيات التحليل النفسي عن نمو الفتيات[1]. فالملاحظات التحليلية النفسية القديمة لنمو الفتاة الصغيرة انشغلت بغرائزها الجنسية على نحو خاص. وندرك أنه في تعلقها بأمها تتمثل الفتاة الصغيرة، المرأة المصغرة، موقفاً عشقياً سلبياً تجاه والدها، هذا الموقف الذي هو مركز العقدة الأوديبية الأنثوية. لكننا متنصل من هذا الموقف، على عكس رأينا الأول، بحجة أن التوجه الأول للفتاة نحو الأب له طابع إيجابي وليس سلبي، وأن موقفها السلبي ليس إلا نمواً ثانوياً. فيما التوجه الإيجابي يكون على علاقة بطور من النمو والتكيف مع الواقع. وخلال مرحلة ما قبل البلوغ، هذا الطور يتكرر ويمتد وقتاً، خلال مرحلة البلوغ، في اندماج بالأب يكون كقاعدة تقريباً.

إن وثبة الفتاة نحو الإيجابية تقابل عادة، لدى الأب، بموقف يصل إلى حد كبتها. فهو يمثل بهذا العالم المحيط الذي سيمارس باستمرار لاحقاً هذا التأثير الكابت على إيجابية المرأة وسيعيدها إلى دورها السلبي بنيوياً والمحدد مسبقاً. وهناك عنصر آخر، في موقف الأب هذا والذي له أهمية حاسمة في نمو المرأة، ويبدو، دون أن يكون شعورياً، كمثير تتحول بمساعدته المركبات الغريزية العدوانية للفتاة إلى مركبات ماسوشية. ويتبين المظهر الماسوشي للعلاقة بالأب في الألعاب الإيجابية التي تشرع بها الفتاة معه، تلك الألعاب تتخذ بعد ذلكم طابعاً أكثر فأكثر عشقياً. وتكفي ملاحظة الاغتباط المخيف للفتاة الصغيرة عندما يكون معها والدها بالألعاب البهلوانية، تلك الألعاب التي غالباً ما تسبب لها الألم، عندما يلقي بها في الهواء أو يهزها حين تركب على كتفيه. وعندما تغيب هذه الإثارة من قبل الأب، تتعرض الفتاة لملاقاة صعوبات في نموها كامرأة.

إن ما ذكرناه حول علاقة البنت مع أمها يتطلب كذلك بعض التعديل. إن الموقف الحاقد الذي نلاحظه عند مريضاتنا يمثل عادة تفاقم عصابي للعداء. وخلال نمو طبيعي أكثر، يحصل التفكك عن الأم بصورة تدريجية، خطوة فخطوة. وهذا

---

[1] Freud. S. : Op. cit., p. 174.

الطور هو نزاع بين التعلق والتفكك؛ ويتلقى هذا الأخير منافسة جديدة لصالح محبة الأب، ومركبات جديدة من الحقد، إنما في الحالات الملائمة، يتوصل التطور إلى علاقة إيجابية، وادعة، متصالحة مع الأم، وهذه العلاقة هي إحدى الشروط الضرورية جداً للانسجام النفسي المستقبلي للمرأة. وقبل أن يتم ذلك، تمر علاقة الفتاة بأمها بمراحل مختلفة تشتمل كل منها على مخاطر خاصة. ولكي نفهم هذه المخاطر، ينبغي علينا تعديل المبادئ المقبولة تعديلاً معتبراً والخاصة بالعلاقات ما قبل الأوديبية، والأوديبية، وما بعد الأوديبية مع الأم. فليس هناك إلا علاقة وحيدة مع الأم، منذ الولادة وحتى الممات، مهما كانت التلونات التي تظهر خلال نمو الطفل.

وبصورة تناقضية ظاهرياً، تكون علاقة الفتاة مع أمها، دائمة أكثر، وأكثر شدة، وأكثر خطورة من علاقة الفتى. ولعل الكبت الذي تصادفه عندما تتجه نحو الواقع يسوقها إلى أمها خلال مرحلة تكون فيها متطلبات الحب أكثر حيوية وطفولية. هذا التراجع غالباً ما يكون مسؤولاً عن العصابيات الأنثوية والاضطرابات الخطرة في تشكل الطباع.وعندما يعود التطلع في الذهاب لما قبل بصورة عدوانية، يشحن هذا التطلع بعناصر ماسوشية؛ إنه يدفع الفتاة على نحو خطر لاتخاذ موقف سلبي ماسوشي أمام أمها واستعداد أكثر دون شك للشعور الجنسي المثلي الذي شكله رجوليتها (الفصل التاسع).

ومما تجدر ملاحظته أن أنماط العصاب التي نصادفها أكثر فأكثر في أيامنا تكشف عن هذه العلاقة السلبية الماسوشية الطفولية مع الأم كشفاً دقيقاً؛ وفيما مضى، كنا نصادف بشكل أكبر تبعية العلاقة الأبوية وعقدة الرجولة. وفي الحالات التي نفكر بها، تتخذ العلاقة مع الأب شكلاً ذو اتهام مزدوج. أولاً، الملامة لعدم مساعدة الفتاة على نحوٍ كافٍ في "مسعاها الإيجابي" للتحرر من أمها؛ وبعد ذلك لهذا اللوم طابع أكثر عشقية، فالأب متهم بعدم معرفته، بسبب حبه، منع عودة الفتاة لأمها.

هذه العلاقة التراجعية مع الأم تتضمن أخطاراً تفوق بالطبع تلك الأخطار المتعلقة بالموقف الماسوشي تجاه الأب. وبإمكاننا أن ندرك الآن لماذا ترفض المشاعر الجنسية المثلية الأنثوية بخوف. إذ أن الإشباع من هذه الرغبة العشقية لا يمثل فقط

عودة إلى شكل طفولي في الوجود، إنما أيضاً اتحاداً عميقاً مع الأم، اتحاداً طابعه تراجعي بصورة شديدة ويتضمن تهديداً بالجنون وحتى بالموت.

وبهذا فالنكوص نحو الأم الذي نعتبره كطور طبيعي، مع أنه لا يخلو من المخاطر، يمنح الفتاة فرصة للتصالح مع أمها والتحرر من عدوانيتها وتعلقها الماسوشي في آن واحد. لعل مرحلة البلوغ الناشئ، التي يتواجد خلالها ذلك النـــزاع بين العدوانية والتبعية، تمدنا بأفضل فرصة لدراسة تلك العناصر.

فالموقف السلبي الماسوشي تجاه الأب، ويعني تجاه الرجال والحياة عموماً، يظهر بوضوح خاص خلال مرحلة البلوغ. لكن المحللين النفسيين للأطفال يحدثوننا أيضاً عن ضراوة العدوانية الطفولية وعن ترجمتها السادية التي يطبقها الأطفال على الجماع. وفي تحليلات الراشدين، تؤكد أبحاث تخيلات مرحلة الطفولة هذه الملاحظات؛ ولا نعلم بأي مقياس تأتي هذه التخيلات من أحداث واقعية (فالطفل تمكن من سماع أهله وامتلك تقارير أو لاحظ الأفعال الجنسية عند الحيوانات)، ولأي درجة نحن على صلة هنا بهذه التخيلات ذات الأصل العميق جداً، وربما المشرطة بفقه التكوين. فالتحليل النفسي لا يستطيع أن يثبت الآن إلا وجود هذه الظواهر، وليس تكوّنها . وإذا لاحظنا بصورة إدراكية نمو الفتيات، نمتلك انطباعاً بأن الأحلام والمخاوف المتعلقة باختراق الجسد (ليس عادة بالفوهة التناسلية) تظهر بشكل مستقل عن كل ملاحظة فعلية للجماع.

كما تكشف الحياة التخيلية للفتيات خلال مرحلة البلوغ عن مضمون ماسوشي بصورة ظاهرة. فتخيلات الاغتصاب تبقى غالباً لاشعورية إنما تظهر في الأحلام، وأحياناً في بعض الأشباح، وغالباً ما ترافق الاستمناء. وتتمثل في الأحلام والاغتصاب على صورة ظالم رهيب مسلح بمدية، أو لص يكسر النافذة، أو سارق يسلب غرضاً ثميناً، إنها شخصيات نمطية تتوارد معظم الأحيان إلى أحلام الفتيات الصغيرات. وتختلط تلك الأحلام بالخوف وليس بالمتعة وتختلف هنا عن أحلام مرحلة بلوغ الفتى، ذات الطابع الجنسي البحت والتي يتبين تأثيرها بالتلويث الليلي.

إن التخيلات الشعورية الماسوشية للاغتصاب هي مع ذلك عشقية بلا شك طالما أنها مترافقة مع الاستمناء. وهي ذات طابع أقل جنسية من الأحلام الرمزية،

وتتضمن كلمات وإذلالات؛ وبالواقع، من النادر أن تكون الأعضاء التناسلية نفسها هدفاً لفعل العنف. وفي بعض الحالات، تكون هذه التخيلات قاسية قليلاً، ويكمن فيها العنصر العشقي وبهذا الفعل تكون إرادة الفتاة مروّضة من الخارج. ونميّز فيها غالباً فعلين: الفعل الأول ماسوشي، يثير التوتر الجنسي، والثاني، عشقي، يمنح لذّات الحب والرغبة. وتختفي هذه التخيلات عندما يُهجر الاستمناء ويتيح المجال للافتتان العشقي المجرد من الإحساس الجنسي المباشر. ولا يترجم الميل حينئذ إلا بالحنين وبالرغبة وبالتألم من أجل الحبيب (والذي غالباً ما يكون مجهولاً) . إن الهيمنة المسبقة للعنصر النرجسي في التخيلات العشقية هو بحد ذاته انتصار على العنصر الماسوشي. وتحتفظ كثير من النساء بهذه التخيلات الماسوشية حتى عمر متقدم. مثل هؤلاء النساء بعيدات جداً عن أي فسق ظاهرأو انحراف جنسي؛ وعلى العكس، إنهن حساسات إلى أقصى حد وتظهرن حقداً لأي مكابدة جسدية أو معنوية تتعرض لها. وعند تلك النساء، يهيمن بشكل خاص التمني النرجسي في أن تكن محبوبات ومرغوبات لذلك ما يعني بالأمر هو تجارب يبحث عنها بصورة شعورية.

ونلاحظ، حتى دون تقص تحليلي معمق، أن خيالات الاغتصاب ملونة بخيالات الإغواء والتي هي بالنسبة لنا مبتذلة جداً في الروايات الهستيرية الكاذبة. وفيما يتعلق بالإغتصاب أو الإغواء، تظهر التخيلات كأنها حقائق وبصورة متعمدة وتأخذ ذلك المظهر الأسطوري الهوسي بصورة نمطية بحيث نجدها في الأكاذيب الروائية الفروسية الوهمية لمرحلة البلوغ (راجع سابقاً). أي أنها تسحب حقيقتها الظاهرة من الواقع حيث يوجد خلفها تجربة واقعية إنما مرفوضة. ولتخيلات الاغتصاب هذه محاكاة للواقع جارفة جداً بحيث أنها تخدع القضاة الأكثر تمرّساً خلال الدعاوي حيث يتهم رجال أبرياء باغتصاب نساء هستيريات. وتجربتي الخاة في حكايا اغتصاب روتها نساء من العرق الأبيض واتهمن فيها زنوجاً (وتعذبن فيها أحياناً بطريقة مذهلة) علمني أن عدداً كبيراً من هذه الحكايات الوهمية أتت من رغبات ماسوشية لأولئك النساء[1]. وقد لفت فرويد الانتباه[2] حول هذا الموضوع

---

[1] Dollard. J.:Caste and class in a southern town. Published for the institute of Human by Yale. University Press. 1917.

[2] Freud, S. : The psychology of women. Nea introductory lectures on psycho-analysis. P. 164

بأن المريضات الهستيريات غالباً ما تدعين بأن أبيهن قد أغواهن، وأن هذا التخيل يخص الأم. على خلاف الإغواء من قبل الأب، " الذي له عمقاً واقعياً، إذ أن الأم، التي رعت جسد طفلها، قد تثير فعلياً لديه أحاسيس لذة عند مستوى الأعضاء الجنسية".

وملاحظاتي الخاصة جعلتني اعتقد أن التخيلات المتعلقة بالأب قامت كذلك على إغواء فعلي. والطابع الأكثر ضراوة لهذه التخيلات يأتي من أن ذلك الإغواء حصل في ذروة المرحلة الماسوشية، حين كانت إيجابية الفتاة مكبوتة بحنان أبيها. لقد سبق وتحدثنا عن الألعاب المشتركة مع الأب، تلك الألعاب التي طُبعت بلذة قوية جداً من الماسوشية.

تخيل آخر مألوف جداً عن الاغتصاب بنوع من الخلاعة الماسوشية وسط موقف ثلاثي. في هذا التخيل الخاص جداً، شخصية أنثوية تجبر الفتاة على الخضوع لأفعال جنسية يقوم بها رجال بأمرة الشخصية الأنثوية. هذه الشخصية تقيّد الفتاة، وتكمم فمها، وتسخن الحديد حتى يتوهج؛ ثم يطبق الرجال هذا الحديد على الأعضاء الجنسية للفتاة. وأحياناً تدخل الشخصية الأنثوية الرجال الواحد تلو الآخر، ويسيئون معاملة الفتاة. ويلعب الإجبار المفروض من المرأة الدور الأساسي. ومن السهل رؤية عناصر التماس في هذه التخيلات، فالألم يهدئ شعور الذنب الذي يحرص اللذة، والاغتصاب يحرر الفتاة من مسؤوليتها، والإجبار الذي تمارسه المرأة يمثل الأم ويعوض تحريماها. وإن صح القول، كل وظيفة ماسوشية تشتمل على مركب الماسوشية الأخلاقية التي تستخدم في تهدئة مشاعر الذنب. إن السبب الأصلي لكل هذه الطرق للمتعة الماسوشية يكمن في الحاجات العشقية للمركبات الغريزية المرفوضة والتي برزت ثانية علناً في الحياة التخيلية. ومن الواضح أن هذه التخيلات لا يمكنها أن تصل إلى الشعور إلا بغطاء عقوبة مؤلمة وبعدم قبول الأداة الواقعية.

لعل كل ما يحدث خلال مرحلة البلوغ مهم جداً لنا إذ يوضع فيها حجر الأساس الثاني لشخصية المستقبل (حيث يوضع الأول في مرحلة الطفولة). علاوة على ذلك، فإن القوى الغريزية التي لعبت دورها في مرحلة الطفولة تلعب هذا الدور من جديد الآن وبنفس الطريقة. ولن يفلت هذا السن من الأشباح التي تعود،

وتعطينا معلومات عن مراحل النمو السابقة. ومن بين الأشباح توجد ميول ماسوشية متأججة والتي، كما نرى ذلك، ليست هي مهمة مرحلة البلوغ في توجيه هذه التخيلات في مسالك طبيعية.

إن تخيل الاغتصاب والإغواء، بإحساسهما الجنسي البدائي الذي يخص الجسد بصورة مباشرة، هو أقل خطراً من التخيلات الماسوشية الأخرى، وهي في معظمها لا شعورية، ولا تستهدف الغاية الجنسية الفظة بصورة مباشرة. وإذا كانت تخيلات الاغتصاب مرضية على نحو مباشر، فإنها قد تؤدي إلى الانحراف الجنسي، لكن هذا الأمر نادر إلى أبعد حد؛ ونعلم أن الانحرافات الماسوشية هي عند النساء أكثر ندرة من عند الرجال. وعندما نصادف إحداها، فتكون ذات محتوى مختلف اختلافاً كاملاً عن محتوى تخيل الاغتصاب، حيث يكون بصورة أساسية في الرغبة بالضرب.

ونساء هذا النمط اللواتي كان لي فرصة في اختبارهن أكدن على أنهن لا تشعرن بأي إحساس لذة عندما تضربن، وأنهن تقبلن هذه المعاملة جزئياً لأسباب مهنية أو مالية (حيث تعملن عاهرات مثلاً) ومن ناحية أخرى لتقدمن أنفسهن "أضحيات غرام" لعشاقهن الساديين. ومن المثير ملاحظة أن الرغبة الماسوشية مشبعة هنا بانعطاف غير مباشر، أي باختيار أداة حب سادي والتغاضي عن انحرافه الجنسي، بينماالإشباع المباشر مرفوض. وهناك نوع أخطر من التخيلات الجنسية، إنها تخيلات العهر التي ترتكز، وخاصة في المدن الكبرى، على حوادث الإثارة في الحياة الليلية على الطرقات العامة، وعلى القصص التي تروى حول هذا الموضوع، وعلى الروايات الشعبية. ولعل أخطار التحقق كبيرة بشكل خاص على الفتيات الشابات اللواتي تنتمين لطبقات اجتماعية حيث قد يستخدم الفقر هذا كعقلنة ويحث عليه. لقد تحدثنا عن ذلك بخصوص إيفلين. ودرسنا تلك التخيلات مع الماسوشية الأنثوية لأن الماسوشية عادة تكوّن الموضوع الرئيسي لتخيلات العهر.

هناك سببان رئيسيان لهذه التخيلات من مرحلة البلوغ. يكمن السبب الأول في الحركات المبهمة للتهيج الجنسي؛ وله طابع غير دقيق وغير متموضع بصورة جنسية؛ ويكمن الثاني في تكثيف ملازم للمقتضيات المثالية النرجسية التي، كما رأينا، تصف مرحلة البلوغ.

فالحالات القلقة وتخيلات العهر تظهر كنتائج للتوتر الذي يتواجد بين هاتين القوتين باتجاه معاكس. ونعلم التعرف عليهما بطرق مختلفة. أحياناً تتوارد إلى الشعور وتشترك سراً مع أشخاص آخرين؛ وأحياناً تمر في الفعل، وتكشف غرابتها ورتابتها عن معناها العميق. إنما أفضل وسيلة لبلوغها هو التحليل النفسي. وما أن يتم التعرف عليها بالتحليل النفسي، حتى يتكشف القناع بيسر في مظاهر أقل وضوحاً. ويوجد أنماط لتخيلات العهر، خاصة خلال مرحلة البلوغ. وفي أحد هذه الأنماط، نجد الأنا المثالي زهدي ونرجسي لأقصى حد، بينما ينظر للأحاسيس الجنسية كشيء متدنٍ ومعيب جداً. ويرتبط الفعل الجنسي بفكرة خضوع المرأة للرجل، تلك الفكرة ذات الجذور العميقة جداً تستعصي على أي تصحيح عقلاني.

الأنا الأعلى هنا يرفض كل حرية جنسية، بما فيها حرية التخيل. ويدان التصور الداخلي للغريزة الجنسية بعبارة قاسية " أنت عاهرة! " وكل دافع يتخذ شكل تحقق ماسوشي مذل " أنا عاهرة!" ولتخيلات هذا النمط من الفتيات طابع مذل ومحتقر على نحو خاص. وينظر للتقارب البسيط لرجل ما كاعتداء جنسي محتقر؛ ويترافق ذلك بالاتهام الذاتي " أنا بنفسي حرّضته"، وهو اعتراف من الحياة التخيلية الشعورية واللاشعورية. وعندما يترسّخ هذا الموقف، أو يجلبه بالتأكيد الأنا الأعلى (وذلك يقود إلى حياة زهدية)، أو أنه خيال العهر؛ يتخذ هذا حينئذ أشكالاً مختلفة. قد يتحقق بزواج محترم حيث التقرب الجنسي للزوج يُحس كمهانة وسقوط؛ أو أنها أفعال واقعية منحصرة بالعهر والمترافقة بصراعات داخلية هي الأخطر وذات شعور بالذنب. فقد درست امرأة كانت تظهر على نحو مباشر هذا الانشطار وهي تسير بحياة صارمة ومحترمة يتخللها فترات كانت تذهب خلالها في الشوارع تعرض نفسها للمارة بمبالغ زهيدة.

يتضمن نمط آخر من التخيّل الأم بطريقة شعورية على نحو أو آخر. وبحسب هذه القصة الخيالية، قبلت الأم حياتها الجنسية ليس من أجل اللذة (لأنها امرأة محترمة)، إنما فقط مراعاة للأب. وفي هذا التخيل، تتطرق الفتاة لبعض الحوادث التي تجعلها تفكر بها، إن صح أو خطأ، بأن الميزات العشقية للأب كانت مضنية ومذلّة بالنسبة للأم. وقد يحدث أن الأم، أمام حملٍ جديد لم تكن ترغبه، وتقول، إما بصورة صادقة وإما لتعتذر أمام أطفالها، أمراً أو آخر يعطي هذا

الانطباع، وأن ذلك لفت نظر ذهن الفتاة الصغيرة. إنها تريد أن تستمتع بإحساسها الجنسي، أي ألا تكون محترمة كأمها، وتريد أن تحب بحرية، وأن تكون عاهرة. ومع أن هذا الحل يتعارض مع أسلوب حياة الأم، يبين الاندماج مع الأم في هذا الشأن على أن تخيل العهر يحتوي أيضاً على عنصر ماسوشي في الخضوع لإرادة الرجل.

وهناك نمط آخر أيضاً من التخيل على عكس السابق. لكن هذه المرة، تكون الأم المحترمة منحطّة، طالما صار عندها أولاد، إذاً حياة جنسية، في مستوى عاهرة، وشعور الفتاة يرفض أي تماثل معها. وقد يصل الحط من قيمة الأم إلى حقد وغضب هائج؛ لقد تحرّك تخيل العهر ضدها وأصبح على المحك. وحين تجعل الأمُ المنتقصةُ القيمة في تقييد حرية تحرّك الفتاة وتظهر مخاوفاً على أخلاقيتها، تطلق أفعالاً لم تكن موجهة ضدها في بادئ الأمر،لكنها، في بعض الظروف، قد تصبح خطرة جداً بالنسبة لابنتها. وهنا يكمن العنصر الماسوشي فيما تكون مغامرات الفتاة عادة ضحلة الإرضاء جداً وتسبب لها صراعات مؤلمة مع العالم الخارجي. ويؤدي الشجار العنيف مع الأم إلى كثير من حالات الفرار. وهنا أيضاً يظهر الاندماج مع الأم بصورة غير شعوريا.

ويتقارب من هذا السلوك، سلوك الفتاة التي تتخيل، على صح أو على خطأ، أن أمها كانت أو تكون عاهرة. وهي تبني حياتها الخاصة مكرهة نفسها على طراز تلك الأم. وغالباً ما يحصل ذلك مع فتيات التبني أو اللواتي تربين في نزل عائلي. ولعل غياب الأم الفعلية، أو نقص معلومات حول هذا الموضوع، يغذّي هذا الخيال ويقود إلى اندامج مع الأم المجهولة كيفما يمثّلها الخيال.

ومن الجدير بالملاحظة أن أماً تسلك سلوكاً سيئاً بصورة واقعية تنمّي تخيلات العهر هذه وتحققها بدرجة أقل من القصة الخيالية والغير واقعية بكاملها لأم مماثلة. وفي الحالة الأولى قد تلاحظ الفتاة حياة أمها بصورة شعورية وترفض أن تتشبه بها؛ وفي الحالة الثانية، تكون الأم وسيلة مستخدمة بأسباب لاشعورية بحيث قد لا تجيد الإرادة التأثير.

تخيلات أخرى للعهر تشرك الأب بصورة مباشرة. فمثلاً، الفتاة التي تربطها بأبيها علاقة متسامية جداً والتي ترى أن هذه العلاقة قد تحطمت باقتراب نضجها

الجنسي (والأب يكون غالباً مسؤولاً عن هذا الانقطاع) تثأر لنفسها بصورة ماسوشية وتخدع والدها باستمرار مع رجال غيره. ويتخفى العنصر الماسوشي خلف أفعال عدائية. وتحس الفتاة بالانتقاص من قيمتها بسبب رفض والدها لها وتعزز من انتقاص قيمتها بالتقليل من دور الأداة الجنسية بتقديمها لأي كان. فالشراكة القديمة بحب الأب مع الأم، حيث كانت تتخذ فيها الجزء الروحاني "المفضل" وتترك للأم الجزء الجنسي، تنقطع الآن، والدوافع الجنسية التي رفضتها الفتاة تبرز من جديد وتُسقط على رجال آخرين. وفي كثير من الحالات المشابهة، تكون العلاقة مع الأب وادعة جداً، وخاصة على الفتاة الأصغر أو إحدى الصغيرات من بين عدة فتيات. وهي تفقد وضعها المتميز حين تكبر وتعامل كأخوتها. وهي تثأر من عدم الوفاء هذا بعدم الوفاء؛ " جميع الرجال بدلاً من رجل وحيد" إنها تنحط لهذا الدور الجنسي الذي عزته سابقاً لأمها. ويشكل هذا الرفض للأب خلال مرحلة البلوغ سبباً مألوفاً جداً ليس فقط للتخيلات إنما لردود الفعل المحبة للانتقام والتي يبين محتواها الماسوشي الشعور المرفوض قديماً للأب.

ولعل الشخصية الواقعية للأب تلعب دوراً هاماً على نحو خاص خلال مرحلة البلوغ. وبصورة متناقضة ظاهرياً، قد يتمثل الفسق بالبحث عن أبٍ يليق بالاعتبار ليحل محل الأب الفعلي المنتقصة قيمته. ويبدو ذلك كشيء لا يصدق، فنرى فتاة ذكية، وحتى الآن بفطرة سليمة، تهب نفسها لأول رجل تصادفه لتعيد تجربة الطلاق، وتفخر باستمرار وبساطة بعشيق بالكاد أن تعرفه. وهي تقول لنفسها "إنه مدهش". فتاة كانت حاملاً بعد فعل من هذا النوع وكانت تتوقع بكل ثقة أن ترى صديقها يأتي ذات يوم إليها ما أن يعلم بأنها في حالة حرجة. لأنه، بعد كل هذا والدها كان دوماً حاضراً لنجدتها عندما تحتاج لذلك.

والآباء الذين يكونوا قساة مع زوجاتهم، أو الذين يشربون ويبقون أولادهم في حالة من القلق النفسي المستمر، لهم، دون شك، فرص أقل في أن يؤمنوا لبناتهم انتصار الميول الزهدية من الآباء السلبيين الضعفاء أمام زوجاتهم. فالأمر فقط حين يكون الأب شرساً (والحالة ليست نادرة) يتذبذب بين الشراسة والحنان تجاه ابنته فيعزز ارتباطاتها الماسوشية، تلك الارتباطات التي تدوم بعد ذلك، وغالباً في الفسق. إن الأب السلبي، غير قادر على حماية ابنته في نزاعاتها المألوفة مع أمها خلال مرحلة

ما قبل البلوغ، مما يؤدي غالباً، أكثر من حالة الأب الشرس، إلى ميول محبة للانتقام. ومن اللافت أن نتحقق أن الفتيات اللواتي تلجأن للفرار لهم غالباً أب سلبي.

أسباب عديدة في تخيل العهر، لم نعزل منها إلا الأكثر نمطية. ومهما كان الوسط الثقافي، فالآليات النفسية تبقى نفسها، مع أن أشكال هذه الأوهام وطرائقها في التحقق تتنوع كثيراً. فالفتاة التي تتلقى تربية متشددة تختلف بتصرفاتها عن الفتاة البروليتارية. ونصادف هذه الأخيرة في الخدمات الاجتماعية، أما الأولى ففي نصرة المحرومين وفي المصحّات؛ والأخيرة تخضع سلوكها للمنطق وهي تشرح أنه لم يقدم لها الاهتمام أبداً أو في اتهام صعوباتها الاقتصادية أنها كانت السبب في اضطراباتها؛ والأولى تكون عرضة " للعصاب" .

وقد تبنى تخيلات العهر التي وصفناها باختصار بصورة غنية، وكل تفصيل فيها يطابق عنصراً لا شعورياً. الاختطاف والإقامة الجبرية في منـــزل دعارة دون احتمالات الاتصال بالعالم الخارجي، أو اغتصاب من رجال من كل الأصناف ، أو العرض للبيع في سوق الرق الأبيض، أو رحلات إلى بلدان غريبة، أو ظهور امرأة خسيسة تلعب عادة دوراً هاماً وتدير تجارة العبيد، والوصول أخيراً إلى "منقذ" تسترد حبه امرأة سافلة، تلك هي أحلام تكثيف مألوفة لأمور مسموعة أو مقروءة، مشتركة مع الحياة النفسية الخاصة للفتاة مع أفكارها الوهمية حول الأحاسي الجنسية.

أولئك الذين درسوا حياة العاهرات المحترفات يلاحظون غالباً بمفاجأة أن كيانهن بصمة قوية لهذه التخيلات. والأكاذيب التي تحبها تلك النساء، تقال بدرجة كبيرة، لرجال بسطاء تماماً، وتتعلق بمواضيع خيالات مرحلة البلوغ. وفي البداية إنه الرجل الرائع عادة الذي أغوى وهجر الفتاة أو الذي، بترجمة تراجيدية أكثر، أسلم الروح. إنه المسؤول عن كل بؤسها. وهناك امرأة خسيسة جعلت منها عبدة، وهناك غيرة العاهرات الأكبر عمراً اللواتي جعلن حياتها لا تطاق، الخ . وهناك "زبائن" أكثر بساطة يبرعون بالرواية لهم عن حكايات اختطاف، وتهريب الرقيق البيض، والزنزانات المظلمة القاسية، الخ. أكاذيب "العاهرات" هذه هي بالواقع ترائيات عادية تصاغ من العاهرة والزبون في آن واحد. وتجيد العاهرات اللواتي

تمتلكن حساً داخلياً أو المتمرسات تكييف أكاذيبهن مع نفسية الزبون. فالشاب الماسوشي يندمج بيسر مع الشابة "المضطهدة" ويملأه الغضب من "السافل الفظ" بل ويحاول انقاذ هذه المرأة ويجد نفسه محبطاً لأقصى درجة حين ترفضن الضحية عرضه. أما السادي فيعيش بتفويض بشاعات هذه الحكايات ويتولى في هذه الخيالات الدور الإيجابي للمحرّض؛ وهكذا يبادر إلى تجنب مشاعر الذنب ومسؤولية انحرافه الجنسي.

إننا ندرس هنا مشكلة العهر من وجهة نظر نفسية. والحق يقال، أن هناك من بين المحترفات، فتيات ضعيفات من الناحية الروحية والمعنوية واللواتي اخترن هذه المهنة بصفتها الحل الوحيد المتاح لمشكلتهم الاجتماعية؛ ولقد منحتهم فرصة لكسب عيشهم وهن لا تعلقن أي معنًى عاطفي على هذه " المهنة". أما إدانة المجتمع فلا تهمهن في شيء؛ زيادة على ذلك؛ أنها غالباً ما تُنسى تماماً، ويكون عالم العهر مجتمعاً مصغراً له أنظمته الخاصة وعلى أعضائه مراعاة هذه الأنظمة بطريقة مشددة على نحو أو آخر. وقد لا تحسن المقتضيات الأخلاقية للمجتمع إيقافهن؛ فهي قد لا تمسهن إلا بعقاب. وبالنسبة لكثير من العاهرات، لا يشكل هذا النمط في الحياة إلا استمراراً لنمو خلقي قادهن إلى هنا منذ بداية حياتهن.

لعل القوانين الأخلاقية الأكثر بساطة لا تأثير لها مطلقاً على هؤلاء النساء، إذ أن هذه القوانين الأخلاقية تستند على قيم غريبة عنهن إلى أبعد حد. وتكرس القوانين الأخلاقية بنظرهن الظلم الذي لا يحتمل عدا عن أنها تتضمن متطلبات فيها الكثير من التناقض. ولدى كل نقمة معنوية، أو أي محاولة لدفعهن على تغيير نشاطهن، تنفعلن بصفاقة. ولماذا تقبلن هذه المقترحات الإصلاحية الأخلاقية إذا كان المجتمع الكبير لا يتمثل لهن إلا بالشرطة والسلطات التي تكرهنها وتكافحن ضدها؟ كما لم تجربن تلك الوعود بالسعادة في عائلة لائقة، حيث تنحصر وجهة نظرهن عن الحياة في العائلة أنها ليست إلا مصدراً للألم والخيبة والضجر القاتل.

وبالنسبة لنفسيتهن الطفولية، العالم هو "غرفة أطفال" حيث تتشخص البنى الاجتماعية بما يمثلها، وتتجه عواطفهن ضد هؤلاء الممثلين. إن الكثيرين الذين درسوا هذه المشكلة يعتقدون أن العاهرات "نشأوا" هكذا، ولإثبات ذلك، يظهرون أن كل عاهرة سُحبت من وسطها ووضعت في وسط جديد أكثر ملاءمة يعود

بتحركها الخاص إلى حياتها القديمة. ومن الصحيح أنه في هذه الحالات حاجة قوية تتضح بصورة أقوى من كل شيء. فالدوافع التي تأخذ دورها هنا هي بالطبع نفسية، لكنها مكتسبة وليس فطرية. ونريد أن نسرد قصة عاهرة ستشكل مثالاً حسناً عن العقلنة الاجتماعية لسلوك محدد بصورة نفسية. هذه العاهرة التي سنسميها آنا، كانت إحدى المريضات المزعجات لعيادة نفسية حيث كانت ترسل من وقت لآخر بسبب أزمات هياج. لقد كانت " في اللائحة" (كما جرت العادة في أوروبا)، ولدى كل مراقبة دورية للشرطة، كانت تقاوم كل اختبار بشدة. وذات يوم، ظنت نفسها مصابة بمرض في الأعضاء التناسلية، فراجعت الطبيبة؛ وقامت بـــ"الجلبة" المعتادة، وفي أعقاب ذلك خضعت للملاحظة نفسية. وخلال إقامتها الأخيرة، أخافت الأطباء؛ وكانت تحقد عليهم جميعاً، وتتصرف بقلة حياء بحيث توجب عزلها، بعيداً عن المرضى الآخرين؛ ومع ذلك لم يصعب على الممرضات والطبيبات الوصول إليها. وبعد مضي بعض الوقت توصلت لكسب ثقتها، وكنت أراها بانتظام، خلال ثلاث سنوات.

ومن المدهش، أن نرى كم تركت مهنة آنا القليل من الآثار الظاهرة عليها. إنها شقراء ذات عينين زرقاويين بريئتين، وبشرة بيضاء شفافة يمكن من خلالها رؤية شرايينها الزرقاء، مما كان يعطي وجهها سحراً خاصاً. لقد كان تاريخ حياتها مميزاً جداً. كانت من عائلة بروليتارية؛ والدها كان يشرب، أمها كانت مريضة، تعيسة، أضنى العمل والحزن جسدها قبل الأوان؛ فحملتها شابات تحطن بها على استخدام هذه الوسيلة السهلة لكسب العيش. ومع أنها تصرفت بعد ذلك في المشفى كمريضة نفسية حقيقية، لم تكن تظهر أي علاقة صادقة على مرض نفسي. وكانت لا تبدو مريضة أكثر من الفتاة المتوسطة. لقد مارست العهر لأسباب اقتصادية، وتأقلمت بسرعة مع مهنتها التي أصبحت كل عالمها. ولم يكن لها أي رأي أخلاقي حول العهر، واحتقاراً للعالم الخارجي كان صادقاً. والنظام الاجتماعي كان يمثله بنظرها رجال يحتلون مواقع هامة وعالية كانت تصنف أطباء المشفى معهم. ولما سألتها لماذا تكره وتحتقر هؤلاء الرجال يضعُ قناع الأدب، وضبط النفس، كرجال لهم أهميتهم، ويسلكون مسالك الأغبياء؟... إنهم يأتون إلينا من أجل اللذة مقابل المال. وإذا صادفتهم أقل ممانعة، يتباكون ويتوسلون أو يهيجون غضباً".

وهكذا بدا لها علم الرجال الذين لا يتصنعون الحنان والحب إلا ليتصرفون كالبهائم. وكلما أراد هذا العالم أن يفرض عليها سلطته، تجيبه آنا بإفراغ كل شحنتها من الهياج والإحباط؛ إذ أنها تشرك دوماً هؤلاء الرجال بالموقف الذي ينـــزلهم إلى مستوى الحيوانات. وكانت آنا تمارس الدعارة لأسباب اقتصادية؛ إنما تمارس مهنتها بإكراه وضغوط نفسية. لقد أحبت فيما مضى أباها واحتقرت سلطته. وعندما شهدت مشاهد قاسية كان يظهرها لمتطلباته الجنسية مع الأم، جعلت تحتقره وتحقد على هذا الرجل "المحترم"؛ وهياجها ضد أبيها، كان هياج ضعيف بصفتها طفلة، أما الآن فتفرغه على الرجال الآخرين "المحترمين". و لم تكن تؤمن إطلاقاً بقابليتهم للاحترام، حتى حين كانوا يتصرفون بطريقة صحيحة. وقد سنحت لآنا عدة فرص بالزواج، لكنها رفضت جميع الطروحات، محبطة من الحياة العائلية التي شهدتها في طفولتها. إنها لم تكن تدرك أنها تستمر بالواقع في تولي الدور الماسوشي لأمها في مهنتها.

فسارت آنا بحياة مزدوجة، وكانت تؤكد أن كثيراً من العاهرات تعشن هكذا على وجهة نظر ما. وكانت تحب الكتب والموسيقا وترغب بأخلاقية واضحة جداً بحيث قبلتها طواعية؛ تلك الأخلاقية فقط لم تكن موجودة إطلاقاً بالنسبة لها. إذ لم تكن عدائية إلا تجاه الرجال "ذوي الاعتبار"؛ أما تجاه الشبان الفقراء العديمي التجربة فكانت لطيفة وكثيرة الفضل، كما ارتبطت ارتباطاً وفياً مع رئيسة الممرضات ومعي. وخلال سنوات ولم نستطع أبداً أن نمارس أدنى تأثير على سلوكها. و لم تكن تكذب علينا أبداً، عدا مرة واحدة على رئيسة الممرضات ومرة علي. وقد حدثت الممرضة عن طفل ادعت أنه لها وطلبت إليها أن تتبناه إن ماتت. وأعطتها العنوان الدقيق حيث يوجد الطفل ومختلف المعلومات عنه. وتحدثت لي عن علبة مجوهرات صغيرة قالت أنها وضعتها في صندوق؛ وكلفتني أن آخذ هذه العلبة بعد وفاتها وأن أتصرف بها لغايات خيرية. و لم تعلم الممرضة بالسر الذي أودع لي وأنا كذلك، إذ طلبت منا آنا الكتمان. وحين ماتت آنا بمرض السل، تبين أن هاتين الحكايتين إلى الرجل الذي أقامت معه أول علاقة جنسية كمحترفة. وبحسب أقوالها، هذا الرجل كان يحبها ويرغب الاقتران بها، لولا أن عنده امرأة وأولاد.

ومع أن مسألة الدعارة مجال عمل خاص ومعقد ويجب تركه للأخصائيين، لكننا سندرس أيضاً بعض المظاهر بسبب الأهمية النفسية الكبيرة التي نحصل عليها.

إحدى هذه المظاهر هي علاقة العاهرة مع قوّادها. فإذا كانت الصلة بين العهر (الخيالي أو الفعلي) والميول الماسوشية هي بنية نفسية، فتبرهن هذه العلاقة أن الماسوشية تلعب دوراً كبيراً في حياة العاهرة. ولا يوجد شابة تمارس هذه المهنة دون "مدافع" عنها. ونسعى أن نترجم كذلك هذه المؤسسة كنتيجة لموقف اجتماعي للعاهرة. وأنها تُستغل، بلا دفاع، من قبل " المعلمة". و"المدافع" (القواد) يدافع عنها ضد تعديات العالم الخارجي، كأب أو أخ أكبر. إنما هو ذاته يستغلها بطريقة شرسة، ويشغلها بقسوة ليزيد أرباحه، ويأخذ مالها، ويضربها ويعاملها معاملة السوء مقدماً لها لذة الحب. والعاهرة، الباردة بسبب المهنة، تحس بأعلى درجات نشوة الحب بعد فسق ماسوشي مع عشيق شرس. إنها ترتبط بأعلى درجات الحنان، وتقلق كأم حين يمرض، أو يحتاج أو يتعرض للخطر. وبالإجمال، تعرف معه كل سعادة الحب الأنثوي. الشذوذ الوحيد هنا، يكون في أن السعادة مرتبطة بشروط ماسوشية.

لهذه العلاقة مظاهر تبدو لنا مبتذلة تماماً. فهذا الرجل يحمي الفتاة الشابة من المرأة الخسيسة، أليس هو ذاته الذي أنقذها، في تخيلات الفتاة البالغة، من براثن الساحرة، والفارس الساحر الذي حررها من النشوة ذات التأثير السيء؟ ولنتذكر اللوم اللاشعوري الذي وجهته الفتاة لأبيها لأنه لم ينقذها من نفوذ أمها. نحن نعلم جميعاً أن هذا الدور ينهض به أيضاً الأخ الأكبر وأنه يدافع بالواقع، عن أخته الصغيرة التي تريد أمها معاقبتها. ألا تُشيد الفتاة بقوة "أخيها الأكبر" أمام صديقاتها، تماماً كما تعجب العاهرة الصغيرة ببطلها المفضل "لويس الجميل" ؟ ومن ناحية أخرى، أي أخ بكر لم يخضع أخته الصغيرة لعدوانيته المذلة جداً؟ ألم تحيا كل امرأة مرحلة أثيرت خلالها لا شعورياً وباستمرار بمعاملة سيئة؟

شخصية أخرى من الحياة العاطفية للعاهرة إنها "المرأة الخسيسة" ، والتي غالباً ما ترتبط بها الفتاة برباط حقد شديد ومع ذلك أيضاً صلات من الحب صعبة التفكك : إن الذين يدرسون مشكلة العهر غالباً ما يجدون صعوبة في إدراك لماذا أولئك الفتيات عاجزات عن التخلص من براثن تلك النساء، حتى حين تتاح لهن الفرصة. وما يجعل الأمر مستحيل، هو صلة الحب الماسوشي لدرجة عميقة والكائن بين العاهرة و"معلمتها"، كيف نشهد، ضمن هذه الحثالة المؤنثة من المجتمع

الإنساني، لوناً من ذلك الوجه الأنثوي المثالي تكن له الفتاة المنتشية حباً متوحشاً جداً، حباً ممتزجاً عادة بالشجن والمتعة، وتبدي له الفتاة حنيناً مؤلماً ؟

"روح الشبيبة وشوارع المدينة "[1] هذا الكتاب لـــ جان آدامز التي تكافح ببسالة، ككل من يعرفها، من أجل التقدم الاجتماعي، تروي لنا قصة نساء هن مثال مأساوي لعلاقة الحب الماسوشي. حيث تتغذى بطولتهن من حاجة ماسوشية في تدمير أنفسهن، وتضحيتهن في الحب تأتي من قسر داخلي وبالطبع لا يمكن إدراكها دون تجربة واقعية نفسانية. تحدثنا إحدى هذه الحكايات عن موللي، هذه الفتاة الشابة التي تزوجت محترف جريمة اسمه جو. وقد سجن جو لمدة عامين. كانت موللي وفية له لمدة عام، ثم قررت أن تطلب الطلاق الذي حصلت عليها بيسر. ثم تزوجت رجلاً غنياً، شريفاً، وعاشت ضمن وسط من الناس " كما يجب"، ثم أصبح عندها طفل وكانت أماً رؤوماً له. وبدت جميع أحلامها قد تحققت. ذات يوم، حينما كانت تنـــزه طفلها، علمت أن جو قد عاد إلى شقتهما القديمة و"جن هياجاً" ضدها لأنها هجرته. فعادت إليه دون لحظة تردد. وشهدت حياة بؤس وإذلال. وسكنت حياً من أقذر الأحياء، ثم غادرت غرفتها المفروشة لتسكن بأخرى، وكانت منفية عن المجتمع؛ ورفض جو الزواج منها ثانية مع أنها أنجبت منه عدة أولاد غير شرعيين. وكانت تقول دون تشكي: " كل شيء على ما يرام بالنسبة لي طالما أن جو ليس في السجن". و لم تعبر أبداً عن أدنى أسف.

قدمت ذات يوم فتاة ساحرة الجمال نفسها وهي ترتجف إلى "هول هاوس" وكان وجهها متورم، وغارقة بدموعها، ويسيل دمها من الكلمات التي كان عشيقها قدمَنّ عليها بها. "يخطر له أن يضربني عندما يكون مخموراً" هوذا التفسير الوحيد الذي أدلت به (والذي قالته باسلوب اعتذار).

إنها لم تكن متزوجة، وليس لديها أطفال، ويضربها صديقها بشراسة بحيث خلال مرتين أوشكت على الموت. وكان المرشدون الاجتماعيون يريدون تقديم العون لها وإبقاءها في "هول هاوس" لبعض الوقت. لكنها ما أن شعرت بالتحسن، حتى طلبت الخروج بإلحاح، وهي تقول بأن عليها الاهتمام بشؤون المنـــزل من

[1] Addams, J.: The spirit of youth and the city streets. New York : MacMillan, 1930, pp. 37-43.

أجل بيير الذي يعود دوماً متعباً جداً من مجالس سكره. و لم يتمكن أحد من ثنيها عن الكف عن الذهاب إليه. لقد كانت خاضعة لماسوشيتها، والأكثر استعباداً من كل أشكال الحب.

عدد كبير من المسائل النفسية التي على مراكز الخدمة الاجتماعية أن تهتم بها من أجل زبائنها التابعين لارتباطات ماسوشية مشابهة. وتكمن الصعوبة الكبرى في هذه المسائل في أنها عادة لاشعورية أكثر وعقلانية على نحو أفضل من الحالات المأساوية التي ذكرتها جان آدامز.

لا تقصد هؤلاء النساء دور الخدمة الاجتماعية إلا لأسباب تتعلق بالصعوبات المالية. فعبوديتهن النفسية تتخفى خلف عبوديتهن الاقتصادية؛ وكل ما يمكن فعله لمساعدتهن يبوء بالفشل لأنهن تجدن باستمرار، حتى لو تحررن من تبعيتهن الخارجية، عقلانيات بارعة لوضع أنفسهن تحت خضوع رجال قساة، وضعاف، أو غير جديرين بالثقة. وتبدو جهود المساعدين الاجتماعيين لا فائدة منها على نحو خاص عندما تُخدع المرأة من قبل الرجل وتعلم ذلك. وبصورة أو بأخرى، وحتى عندما يتعدل الوضع المالي، وحتى عندما تتمنى المرأة المضطهدة بصدق ظاهر أن تجد السلام وتحقق تمنياتها، فجميع الصعوبات تنطلق ثانية نحو الأجمل. إن الماسوشية الأنثوية حينما تعاش بصورة سيئة، هي مسألة نفسية خطيرة بل وأحياناً اجتماعية.

نحن نعتبر هذه الأطوار إبراز لحالات نفسية أنثوية "طبيعية"؛ أي أنه إذا صح القول، تتعرض المرأة، برأينا، إلى مخاطر جمّة خلال نموها. ومع ذلك علينا، حول هذه النقطة، أن نستبق الأمور قليلاً. لقد رأينا هذه الأطوار كما لو كانت من خلال عدسة مكبرة تحدد صفاتها، المتلازمة مع طبيعة المرأة؛ لكننا لا زلنا لم ندرس حتى الآن الطرق التي يتمكن من خلالها " الأنا" أن يضبط المخاطر التي تتهدده.

علاوة على ذلك، يمكن للقارئ أن يلقي نظره للاستعداد الماسوشي، في الحلات المذكورة أعلاه، والمترافقة بأطوار نفسية متعددة يعطي وجودها لهذا الاستعداد حيويته وفعاليته. إن ما يحدد بقوة التشكيلات التخيلية والأفعال الواقعية يكمن في مجموعة عناصر مثل الذكريات المتفتحة، والحوادث المبهمة الماضية البعيدة والتي تمثلت من جديد، والتبريرات المختلفة اللاشعورية المحرّضة، والعديد من الانطباعات الفردية المستخدمة، وعلى الأخص الاندماجات الواقعة. وتدعم جميع

هذه العناصر بالقوى العدوانية والتي لا تعني الميل الماسوشي بشيء إنما بمشاركتها، تنطلق الصعوبات.

هذه العناصر الإضافية مسؤولة عن "فيض" من الميول الماسوشية. ويمكن لهذا الفيض أن يظهر بصور مختلفة. لتأثيرات المحيط قد تسهم فيها، أو أن التجارب قد تزيد من حدة الميول العدوانية؛ تلك الميول تتحول حينئذ ضد الأنا. ولقد رأينا أيضاً الدور الكبير الذي يلعبه الاندماج كما نعلم الأهمية الخاصة لهذا الطور خلال مرحلة البلوغ. لكن أكبر مساهم في فيض الماسوشية الأنثوية ويعطيها طابعها التدميري الذاتي، هو الماسوشية المعنوية، أي الشعور بالذنب ونتائجه. ويتدخل هنا فارق أساسي بين الرجل والمرأة. وحين نصادف عند الرجل انعطاف سلبي ماسوشي أنثوي نتحقق دوماً أنه ظهر تحت ضغط من مشاعر الذنب وأن "ماسوشيته المعنوية" لم تكتسب طابعها العشقي الأنثوي إلا بصورة ثانوية. والعكس لدى النساء: إذ عندهن الماسوشية الأنثوية أولية بينما الماسوشية المعنوية الأخلاقية ثانوية. وهذه الأخيرة تبحر تحت الراية الخاطئة للعشقية، لكن طابعها التدميري يخونها. ونرى مثالاً كلاسيكياً حول ذلك في حالة موللي، التي ذكرها جان آدامز، حيث لم نر بوضوح إلا قوة الحب حيث إدراكنا فقط تأثيرات شعور قاس بالذنب.

وفي حالات أكثر رقة، يصعب فيها أكثر وضع الحدود الفاصلة. يسعى المساعدون الاجتماعيون في الكشف عن الدوافع النفسانية الثانوية التي تحطم حياة أولئك النساء؛ إنما ليس من الممكن دوماً تفعيل هذه الدوافع. فالخضوع الماسوشي العشقي للمرأة يتنوع بكثافة ضخمة، وبقدر ما تنال إرضاء من الألم، بقدر ما يصعب التأثير فيها. ولن نهتم هنا بالطريقة التي تروض بها الماسوشية الأنثوية المركبة من عناصر غريبة، وبخاصة الماسوشية المعنوية. فذلك يعد جزءاً من نظرية الأمراض العصابية.

فينبغي علينا الآن صياغة واضحة للمسائل التي تحتاج للرد عليها. فنحن نقبل بوجود طور كبت خلال نمو المرأة، ونريد أن ندرك كيف تتمكن من استخدام الطاقات السلبية الماسوشية الكامنة في أناها وتتجنب الأخطار التي تهدد شخصيتها.

وعند دراسة مرحلة البلوغ، أولينا عناية لاهتمامنا أولاً بالأطوار التي تحصل خارج نطاق النمو الغريزي. فالأنا الإنساني مزود بحب شديد للهو الذي، ضمن

شروط طبيعية نسبياً، يكتفي بتفادي فعل تدميري ذاتي. ولقد رأينا أن مرحلة البلوغ هي المرحلة التي يكون فيها الهو النرجسي في ذروته؛ وبنفس المرحلة، بحسب رأينا، يتنقل إبراز وحراك الماسوشية الأنثوية. ويبدو أنه خلال نمو طبيعي، أي إذا لم تكتسب الأطوار شدة مفرطة، يمكننا أن نزهو بحب الهو لإبعاد جميع المخاطر.

بأي طرق تحقق الأنا ذلك؟ الطريقة الأبسط والأكثر مباشرة هي تلك التي رأيناها في نشاط الفتاة الطبيعية. إنها تسمو بالحاجة العشقية، فتأتي هكذا بطريقة غير مباشرة بالمركب الماسوشي تحت مراقبة النرجسية وتشبعه بلا مخاطر. إنها تكافح ضد التخيل الاستمنائي للاغتصاب بكل الأسلحة التي تحت تصرفها ضد الاستمناء. وأعتقد أن الاستمناء يهجر بصورة طبيعية أوتوماتيكياً في مرحلة الطفولة ومرحلة البلوغ إذا تخلى الأنا عن إرضاء الحاجة بانشغاله خارجاً بطريقة أخرى. تتصرف الأنا كمرب يحيد الطفل عن الاستمناء بواسطة أنشطة أخرى أولى من وسائط التهديد أو العقاب. ولا ينجح دوماً هذا التحويل حينئذ تنطلق جميع الصراعات حول الاستمناء والتي تسبب مصاعب لمرحلة البلوغ ولصراعاتها العصابية. ولن ندرس هنا هذه الصراعات؛ لنتذكر فقط الأحلام والحالات القلقة، ومختلف الأشباح المؤقتة الأخرى التي نشير إليها، وحتى في شروط طبيعية.

إن تسامي الأحاسيس الجنسية بالعشقية هو طور يستمر إلى مرحلة المراهقة ويكوّن مركباً مستمراً للحياة النفسية للمرأة. لقد وصفنا أحد نتائج نمطيات هذا الطور كشكل دقيق للتسامي حيث تتوزع القوى بانسجام كلمل بين الأنا النرجسي والماسوشية الأنثوية. وقلنا أن هذا الطور كان " تكثيفاً للحياة الداخلية" و"إيجابية موجهة نحو الداخل". إنما من الضروري، من أجل النمو المنسجم، أن أي مركبات نفسية تسهم فيه لا تتضخم، وبشكل خاص مشاعر الذنب والماسوشية المعنوية لا تمارس أي تأثير مشوّش. ويبدو أن هذا الانسجام يتبع إلى درجة كبيرة إمكانية تجاوز فائض من العدوانية؛ وقبل كل شيء، على الحقد والخوف الذي تكنّه الفتاة لأمها أن يخلو المكان لمشاعر الحب والحنان.

إن ما تحققه المرأة التي تخص نمطنا العشقي بالحب، تحققه غيرها من النساء بوسائل أكثر تعقيداً، وأكثر اجتماعية. فالمجاملة التي تكرّس لقضية أو لكائن إنساني بمحبة وتفان قد تعبر بشكل غير مباشر عن ماسوشية أنثوية. وهنا أيضاً، كما عندما

تأخذ مظهراً جنسياً، قد تتجاوز الماسوشية الحدود الطبيعية: عندئذ تتعرض المرأة ببهجة للحرمان، والآلام، وحتى للموت. وفي ازدرائها بالمخاطر التي تهددها، تحس، تماماً كالمرأة من النمط العشقي في موقفها الطبيعي، بإشباعين: فالماسوشية تأخذ اسماً مستعاراً هو "البطولية"، والأنا يخرج بميزة كبيرة من الموقف، وخاصة في إشباع حبه من الهو، وهكذا يكون قد خلق، في الحالتين، موقف تسوية وسط بين العدوانية ضد الهو وبين حب الهو، أي بين الماسوشية والنرجسية.

وغالباً ما يكون الاستعداد الماسوشي للتضحية قناعاً لدوافع سادية بحيث يريد الشخص تجنبها بالخوف من ضياع حب العالم الخارجي أو بشعور الذنب. ولسنا على صلة هنا إطلاقاً بالماسوشية الأنثوية، عدا عن أنه ليس من السهل دوماً رؤية الفارق. فكم من مرة نرى نساءً غير ناجحات في تجاوز منسجم لماسوشيتهن والتي مظهرها العصابي يلفت نظرنا بوضوح! إنهن لا تستطعن العيش دون إرضاءات نرجسية، إنما كل إرضاء من هذا السياق، في الحب أوفي الطموح، يكون مسبوغاً بشدة بدوافع ماسوشية بحيث يجب أن ترفضنها على أنفسهن. إنهن تعترفن بعجزهن، وتشتكين من غرور المساعي التي تقمن بها لإيجاد أي كان يرضيهن في الحب أو في الإيجابية. ولدى النظر من الخارج، لا تبدو حياتهن عصابية، فهن لا تبحثن عن التألم بصورة مباشرة الذي قد يكشف عن طبيعة الماسوشية من تصرفاتهن. وعلى العكس، فلأنهن تتجنبن كل المخاطر الماسوشية المباشرة، تكون حياتهن فارغة؛ فماسوشيتهن تتأكد بصورة التخلي عن القيم الإيجابية في الحياة.

ونصادف أيضاً نوعاً من المرأة تستخدم، لتتجنب ولترضي تمنيات ماسوشية، طرقاً مكتسبة خلال المراهقة واحتفظت بها خلال النضوج. إنها تدع نفسها للإثارة بالأوهام والتساميات العشقية. إنها تحب مداعبة حلم محرم أو سر يتيح لها نسيان ودفع تحريماتها اليومية. وهي تلجأ للمشاركة في حركات أيديولوجية غالباً من نوع مجرد جداً، وتتوه في تخيلات أهمية وعظمة أنشطتها، ولغاية وحيدة هي تحمل خيبات متكررة. وبما أن هؤلاء النساء موهوبات غالباً بذهن نقدي ممتاز، فمن الواضح أن هناك دافع لاشعوري ما يلعب دوراً في سلوكهن. وغالباً ما يكون هذا الدافع ماسوشية لاشعورية لا يمكن أن تستوعب بصورة طبيعية لأنها مكثفة جداً. وبالمقابل لا نجد عند الرجال موقفاً مشابهاً إلا خلال مرحلة المراهقة أو في حالات

العصاب الخطرة. أما لدى النساء، فعلى العكس، الأمر ملائم بتكيف كاف مع الواقع؛ وهو عام ومألوف جداً. "فمزاج الألم لا تقارن قوته بين الرجال والنساء".

وغالباً ما تكون النساء سريعات في التعبير عن السخط الشديد. إنهن تشتركن بالاحتجاجات العنيفة المجهولة والملازمة للحركات الثورية. ومعظم الوقت، تحتججن لاشعورياً من قدرهن الخاص. وتتخذن موقفاً ضد دورهن الغير مرضي بالاندماج مع الكائنات المضطهدة اجتماعياً أو الطبقات غير المالكة. وعند الكثير من النساء، يعبر ذلك عن نوع من "الاحتجاج الذكوري" وعد إرضائهن المتسامي المجتمعي، وعن قدرهن كنساء. ولو تسنح الفرصة لملاحظة أولئك النساء ولو لم تدعن أنفسهن تتهن بالدور الذي تلعبه عقدة الرجولة، لأدركنا أن لديهن ماض ماسوشي شديد وأنهن عانين من طغيان سادي متنوع. فقد نجد في طفولة أولئك النساء أباً طاغياً وتوجه إيجابيتهن المتسامية بصورة لاشعورية ضد ذلك الذي اضطهد أمهن وقيد حريتهن. ومن المثير ملاحظة أن النساء اللواتي قدن حركات ثورية كالحركة المعادية للقيصرية كن غالباً بنات لجنرالات متسلطين، أو هذا ليس إلا تناقضاً ظاهرياً، لأتباع مضطهدين. إنهن تتصفن جميعهن بروح خارقة من التضحية وبحاجة للتألم من أجل أفكارهن. وفي حياتهن الغرامية، أو إذا كن زاهدات دون أي اهتمام عشقي، تنذرن كل أنوثتهن للقضية، أو تتألمن من عذاب الرغبة والحرمان لأن عملهن في معظم الأحيان يفصلهن عن عشيقهن؛ وأحياناً تكرّس أنفسهن وتحببن رئيسهن بطريقة ماسوشية. وضمن سلوك النساء اللواتي كان أبوهن سلبياً ومتسامحاً، الاندماج مع هذا الأب يلعب دوره، إذ أن هؤلاء النسوة أخذن بحسبانهن بطريقة إيجابية الاحتجاجات المردودة للأب. مثل تلك النساء تبحثن وتجدن عادة الحبيب الذي يطغى عليهن، وهذا العشيق يعطيهن ما لم يعرف الأب إعطاؤه.

ولدى بعض النساء تنبثق الماسوشية المردودة ثانية بعيداً عن مصادرها، وتستعيد نساء أخريات بصورة مباشرة ماسوشية لم تكن قد أشبعت قديماً. يتأكد أحياناً هذا العامل القوي جداً للأنوثة بصورة مباشرة، وأحياناً أخرى بطريقة مرتدة؛ وأحياناً ضمن الحب العشقي، وأحياناً أخرى تحت قناع الرجولة. وعند وصولنا لهذه النقطة، يدنو التفهم النفساني بصورة لا يمكن تجنبها من الأحكام القيّمة. فليس الأمر سيان أن المرأة تستخدم فائضها من الماسوشية في الدعارة أو

الأعمال البطولية، ولا يمكن أن يكون الأمر سيان أن رجلاً يصبح، في أعقاب قوة إيجابية عدائية غزيرة، فرداً في عصابة أو بطلاً في خدمة مبدأ عظيم. إن الأمر لا يتوقف على مساهمة الحارس النرجسي، في رفضه للماسوشية، وفي الانسجام الداخلي للمرأة العشقية، أو في التخلي عن الإشباع المباشر بالسماح بالتضحية الماسوشية من أجل هدف لا شخصي. فلدى النساء اللواتي تعطين قيمة للإنجازات الاجتماعية، نستطيع ملاحظة التعاون المنسجم للمركبين في مجالات بعيدة عن العشقية. وقد لفت نظري مثلاً، ما قرأته في مجلة "فيرا فيغنر"[1]، الثورية الروسية، بشأن كلمة " أنا " المستخدمة استخداماً نادراً في معناها الأناني. إنها تمثل دوماً جزءاً من كل؛ والإنجاز الفردي يختفي بتواضع خلف العمل البطولي للحركة. وعالم النفس، بالنسبة للكاتب، لا يجب أن يخدع بمعرفته بمصادر وآليات الظواهر النفسانية، بل يجب أن يقيمها بحسب قيمتها الاجتماعية.

وكاتبة الاختزال الصغيرة التي تعبد مديرها، مهما يكن، والتي تتحمل أسوأ حالاته المزاجية، وهي تقول في نفسها: ذلك في سبيل الحفاظ على موقعي في العمل، والمرأة الحساسة التي لا تستطيع هجر زوجها الشرس لأنها تحبه بالرغم من (واقعياً بسبب) شراسته، والمعاونة النشطة والموهوبة التي تكرس مواهبها الحدسية لمؤلّف معلمها، كل هؤلاء النساء سعيدات بدورهن ويرفضن شهواتهن العشقية. والفلاحة السلافية التي تترك زوجها الكسير يضربها تصرح بحزن "إنه لا يحبني، إنه لا يضربني إطلاقاً"، والتي تقوم بأعمال بطولية والعاهرة، كلهن سعيدات أو بائسات بحسب درجة ماسوشيتهن الأنثوية وبحسب الطريقة التي تكن فيها جديرات باستعمالها واستيعابها. وبحسب نجاح أو فشل هذا الاستيعاب، فالمرأة تتوصل إلى أنوثة منسجمة، أو تصبح عصابية، أو تكتسب شخصية ماسوشية مرضية. وفي جميع هذه الأمثلة، نجد الحدود غير دقيقة بين "الطبيعي" و"المرضى". هناك شيء مشترك، مهما كان شكل المركب الماسوشي: أنه يبقى لاشعورياً تماماً على اعتبار أنه مصدر أو شرط للذة. حتى النساء اللواتي ماسوشيتهن من حيث الكمية تتجاوز حدوداً "طبيعية" لا تتدركن أنهن هيجن الموقف الماسوشي أو تتلاءمن معه بسبب التألم الذي تجدنه به، وليس بالرغم من هذا الألم.

---

[1] FIGNER, V.: Nacht über Russland, Berlin, Malik, 1928.

على إحدى وظائف المرأة أن تمتلك ماسوشية ما لتتكيف مع الواقع. إنها وظيفة التكاثر: فمن البداية إلى النهاية، وحتى عندما تخدم هذه الوظيفة مقاصد اللذة، فإنها تستوجب قبول تألم مؤكد. وبالنسبة للمرأة، فإن المخاطر الواقعية المرتبطة بخدمة الجنس البشري تدفعها لتستوعب ماسوشيتها الأنثوية وقلقها النفسي الإنساني. ويبدو هذا الإنجاز يسير عكس البحث الفردي عن المتعة. على أهميتين متناقضتين أن تتصالحا في الوظائف التناسلية، إحداها للفرد الذي يبحث عن المتعة والأخرى للجنس الذي يتضمن التألم. هذه المصالحة غير ممكنة إلا إذا التألم أخذ طابع المتعة. وكل الإعداد النفسي للمرأة للوظائف الجنسية والتكاثر يرتبط بالأفكار الماسوشية[1]. فالجماع مشترك فيها بفض البكارة، وفض البكارة بالاغتصاب وبالتألم الناتج عن احتراق الجسد. إن التقبل الجنسي، والإعداد النفسي للفعل الجنسي، يسحبان مركباتهما الماسوشية من مصدرين، أحدهما طفولي تراجعي يعتمد على البنية الأنثوية والآخر " واقعي". لأن فض البكارة هو في الواقع مؤلم ويتضمن تدميراً لجزء من الجسد. فتخيل الاغتصاب ليس إلا مبالغة للواقع. واشتراك التألم مع المتعة أو المتعة مع التألم قد يؤدي إلى صلة منحصرة جداً بين الاثنين بحيث اللذة الجنسية تصبح تابعة للألم. وهكذا يكتسب الإحساس الجنسي الأنثوي طابعاً ماسوشياً. وبعض الماسوشية ضرورية في الواقع للمرأة كإعداد نفسي للوظائف الجنسية، إنما بالطبع ينجم عن ذلك خطر الشطط أو التشويه المرضي.

والسبب الثاني لهذا الإشراك بين التألم والمتعة ينجم مباشرة عن الوظيفة التناسلية. فكل التخيلات الشعورية واللاشعورية للولادة، في جميع الأعمار، لها مظهر مؤلم وخطر. وكذلك أمنية إنجاب طفل تتخذ طابعاً ماسوشياً الأمر الذي يشترك مع هذه التخيلات. وهنا أيضاً إنه " واقع" آلام العمل وكل الطور الدموي للولادة الذي يجعل الماسوشية ملائمة للتكيف مع الواقع. ونجد هنا الخط نفسه في التشوه المرضي. إن متعة امتلاك طفل قد تحل محل ألم الوضع وآلام الأمومة، وهكذا تكون وظيفة التكاثر كلها مزودة بطابع ماسوشي على نحو غير طبيعي.

إن علاقة المرأة مع أعضائها التناسلية، وجـــرح الصدمة التناسلية، والمركبات العاطفية لعقدة الإخصاء الأنثوي التي سنتكلـــم عنها بعد ذلك، وفترة

[1] DEUTSCH, H. : The significance of masochism in the mental life of women.

الطمث، كل ذلك يساهم بالطبع في إضفـــاء طابع ماسوشي على الوظائف الجنسية.

وهكذا نرى أن الماسوشية تلعب دوراً مضاعفاً في الوظائف الجنسية للمرأة وفي وظيفتها التكاثرية. إنها تستخدم، من ناحية، التكيف مع الواقع للرضى الضروري بالتألم؛ ومن ناحية أخرى يحث إفراط الماسوشية على الدفاع، وعند التهرب من أخطار الماسوشية المفرطة، تنحرف المرأة عن مهماتها، وعن أنوثتها. وللماسوشية إذن نفس نتائج الإفراط في الحساسية الغير طبيعي والذي ينتج عن حب مفرط للهو. وتثير فرط الحساسية هذه الدفاع الذي قد يؤدي إلى جميع أنواع الاضطرابات في الوظائف الأنثوية. وهكذا فالخوف من التألم قد ينتج إما ماسوشية مفرطة، أو تشدداً نرجسياً مفرطاً للأنا الذي يرفض قبول أية مضايقة. كل من هذين العاملين الحامين للنفسية، الماسوشية والنرجسية، قد يلعب دوراً ضد مقتضيات وظيفة التكاثر. وهكذا فقدر المرأة، بصفتها خادمة للجنس البشري، يتعلق بالتعاون المنسجم بين الماسوشية والنرجسية[2].

---

[2] لـــدى وصـــولنا لهذه النقطة، أريد الدفاع عما كتبته بحق ترجمة خاطئة. ويدعم k. Horney اعتباري أن الماسوشـــية الأنثوية كـــ " قدرة أولية للحياة العقلية للمرأة " وأنه بحسب رأيي، " ما ترغبه المرأة في نهاية المطاف في الجماع هو الاختطاف والاغتصاب؛ وما ترغبه في حياتها العقلية، هو أن تُذل" ومن الصحيح أني أعتبر الماسوشية كـــ " قدرة أولية للحياة الأنثوية" إنما في دراساتي السابقة وفي هذه أيضاً، سعيت لأن أبين أن إحـــدى مهمات المرأة هو ضبط الماسوشية، وتوجيهها في مسلك طبيعي، والدفاع عن نفسها ضد هذه الأخطار التي، استناداً لـــ هورني سأعتبرها القدر " الطبيعي" للمرأة.

Cf. K. Horney: New ways in psychoanalysis. New York, Norton, 1938, P.110.

الفصل الثامن

المـــرأة "النشيطـــة"
عقدة الرجولة

لقد حاولنا تحديد تصورنا للأنوثة، لكننا قمنا بذلك بعبارات قد تناقض بعض المعطيات الثابتة، وقد لا تحمل هذه العبارات أية قيمة إلا إذا نوقشت هذه المعطيات.

ومن أحد تصوراتنا في التحليل النفسي تصور لازال بحاجة للتوضيح، إنه عقدة الرجولة عند المرأة، وكذلك العقدة الكلاسيكية والتي هي مع ذلك مغضبة وموضع نقاش، إنها عقدة الرغبة في القضيب.

وتلعب الأنوثة، كما عرفناها، دور النواة حيث تأتلف العناصر البيولوجية، والفيزيولوجية، والتشريحية الظاهرية، والنفسية. فالعوامل العضوية ثابتة نسبياً، بينما تتنوع العوامل النفسية تبعاً للفرد، وتبعاً لأطواره الداخلية وتأثير الوسط الذي يحيط به.

ومع أن تفاعل جميع هذه العناصر يترجم بتنوع فردي كبير، فإن النواة تتبلور بتأثيراتها المؤتلفة. ويتشكل بهذا "الجوهر الأنثوي". ويضاف إلى ذلك عناصر إضافية، متنوعة وذات أشكال متعددة، وبعضها قد يشكل جزءاً من البنية النفسية الثابتة للشخصية الأنثوية. وهناك ظواهر أخرى نفسية صادرة عن الصراعات،

والتسويات، وآليات الدفاع، الخ. قد تكون " مهمّشة" لأنه، مع أنها نمطية ومألوفة لكنها تبتعد عن النواة المركزية. ولو المركبات الذهنية التي لا تتعلق بالأنوثة لم تكن ضمن علاقة منسجمة مع النواة الأنثوية، فإن صراعات صعبة الحل تظهر وتتجلى بأعراض عصابية. وأحياناً قد ينجح عنصر ملحق في أن تحيل موضعاً مركزياً ويمنح المرأة عندئذ صفة أقل أنثوية، ومع أنها ليست غير طبيعية أو مرضية.

لقد حددنا عدة ميول واعتبرناها أنثوية بصورة نمطية. وإذا صادفنا عند رجل أثراً لصفة أنثوية، فنعتبرها إحداها. فعلى سبيل المثال، درجة ذات شأن نسبياً من السلبية، تعير الرجل صفة أنثوية، كنتيجة ملحقة لأطوار نفسية غير طبيعية.

ولهذا السبب، فيما يتعلق بالمظاهر المباشرة للأحاسيس الجنسية، نرى مبدأ ما نسميه تقسيم العمل يلعب، بصورة واضحة، دوراً على الصعيد العضوي؛ أي أن الإيجابية هي من نصيب الرجل، فيما السلبية من نصيب المرأة. وهنا أيضاً نريد أن نلح على أن السلبية لا تعني البلادة أو نقص الطاقة الجنسية. فهذه الطاقة قد تكون من الناحية الكمية كبيرة جداً؛ وفي هذه الحالة، تظهر بكثافة الاستعداد " المتلقي ــ السلبي". كما يذهب منها للماسوشية؛ ولو وجدناها ذات شأن كبير عند الرجل، لأمكننا بحق أن نلحقها بشعوره بالذنب، ونفهمها كماسوشية أخلاقية. أما الماسوشية الأنثوية فهي على العكس تُدمج ضمن شخصية المرأة، وهي قابلة للتمثل ويمكن أن تكون متسامية بصورة قطعية لدرجة أنها يصعب تفرّدها إلا إذا ما بلغت كثافة مفرطة فتدخل بصراع مع باقي الشخصية الأنثوية، وتشكل عندئذ ظاهرة مرضية.

لقد تصورنا إنجاز الأنثوية كـــ" تغيير في توجيه " القوى الإيجابية - السلبية. فلتوضيح أكثر ولتجنب سوء الفهم، سوف نلخص بصورة مختصرة تصورنا للطور الذي يتضمن ذلك.

يستثني رأينا حول الطفولة الأولى للفتاة الصغيرة الافتراض التحليلي النفسي والذي بموجبه تكون البنت الصغيرة في هذه المرحلة ذكورية. إذ تظهر الملاحظة المباشرة أن الفتاة الصغيرة، منذ البداية، تبدي سلوكيات أنثوية. إلا أن الأطفال من كلا الجنسين يتشابهون كثيراً، ليس لكونهما ذكوريين، إنما لأن التمايز التحديدي يتدخل فيما بعد. إنهم يتشابهون صبيان وبنات في السلبية والإيجابية، وخاصة

بالسلبية. فالأطفال من كلا الجنسين لهم دوافع عدائية ويتكيفون مع الواقع بأساليب متماثلة، ويتغذون في أحضان الأمومة، ويتعلمون النظافة ويحصرون علاقاتهم بشخص وحيد هو (الأم).

يتوضع التمايز التحديدي للجنسين في تلك المرحلة التي تكون فيها الإيجابية المتنامية للغرائز وللأنا تؤدي إلى نتائج مختلفة لدى الفتاة ولدى الفتى. فمهمة الفتى تكون في التخلص من العنصر العدواني، ووضع جميع ميوله النشطة تحت تصرف الأنا وتكيّفه مع الواقع. ومن خلال الفوضى والقلق النفسي الذي يعتري فترات نموه، ينجز بالنهاية نشاطه الطبيعي كفتى في العالم الخارجي. وتدل ميوله الغريزية والعدائية والتناسلية على الطريق؛ وستعين بالتربية التي يتلقاها وبحاجته الخاصة لضبط الواقع. ويتحرر رويداً رويداً من طفراته الغريزية. ومن خلال هذا النمو الغريزي، تتشكل الأنا، وإذا تم ذلك بصورة طبيعية، سوف يتمكن من توجيه قوله النشطة نحو العالم الخارجي.

المسعى نفسه نحو النشاط والإيجابية يصف أيضاً أنا الفتاة الصغيرة. إنما على خلاف ما نراه لدى الفتى، فالقوى النشطة العدوانية للفتاة تخضع لكبت خارجي وداخلي. وتساهم جميع أنواع العوامل المكونة لبنيتها البيولوجية، من مظهر تشريحي، وتأثير الوسط، في هذا الكبت. وينبغي علينا الآن تصحيح وتحديد ما أتينا على ذكره: إذ أن هذا الكبت يكون جزئياً فقط. فكثير من القوى النشطة والعدائية تُحتفظ وتشكل عناصر إيجابية في الحياة الذهنية الأنثوية. وبشكل عام تُدمج بصورة منسجمة مع كامل البنية، حتى ولو عزيناها لطابع ذكوري. وبحسب هذه الطريقة في الرؤية، فــ"الجوهر الأنثوي" يوصف بكبت مترافق بعدد كبير من الميول النشطة والعدوانية الغير مكبوتة. ولتحقيق هذا التوازن، تكون البنية النفسية ضرورية حيث تقود هذه الميول ليس إلى ظواهر غير طبيعية إنما إلى نتائج طبيعية وإيجابية، ونحن نريد خلال ذلك القول بأن نشاط المرأة يكتسب طابعاً غير طبيعي ومشوش فيما إذا أتى بصراع مع باقي شخصيتها، أي مع جوهرها الأنثوي. وهذا فقط عندما نتمكن من الحديث عن عقدة الرجولة. إنما قبل أن نأتي على ذلك، لندرس النشاط الأنثوي الطبيعي. ما هي أصوله وغاياته؟ فهذا يهم الأنا على نحو خاص الذي يختفي نشاطه كقوة ملازمة للنمو النفسي.

ولقد رأينا سابقاً أن الحاجة المتنامية لضبط الواقع تلعب دوراً هاماً لدرجة قصوى عند أطفال الجنسين في تحولهما من الأم إلى التقرب من الأب. كما رأينا أنه، أثناء هبّة الأنا نحو النضوج، يكون الاندماج مع الأم النشطة خاص بتوجيه الفتاة الصغيرة نحو غايات نشطة. فالأم هي النموذج الأولي لابنتها في الميول النشطة والمترافقة بالأمومة. والاندماج مع هذه الأم النشطة يعبر عن نفسه على نحو خاص في ألعاب الفتاة الصغيرة؛ ونصادف ذلك في علاقاتها مع أخوتها وأخواتها الأصغر، ومع الحيوانات الصغيرة، ومع الدمى، الخ. ولا يمكننا القول هنا إذا ما يتعلق الأمر بعامل نفسي أو بيولوجي والذي، منذ الطفولة، قد يتضمن غريزة أمومية بدرجة ما. وفي جميع الأحوال، فالنشاط الذي نراه عند الفتاة الصغيرة كتأثير لاندماجها مع أمها النشطة يكتسب استقراراً واقعياً ويشكل أحد سمات المرأة. وفي الواقع يبقى هذا الاستقرار حاضراً دوماً، ومكثفاً في مرحلة البلوغ على نحو خاص، وفي هذه المرحلة يتخذ مظهراً جديداً بما ينبئ عن الأمومة. فطبيعة هذا النشاط مميزة جداً؛ فهو لا يخص فقط مشروع إنجاب الأطفال والاعتناء بهم وترتيبهم؛ إنما هو أيضاً على علاقة وطيدة بالمواقف التي تتميز الفتاة الصغيرة بها باكراً عن الفتى. وتكون مؤشرات الاختلاف بين الجنسين ظاهرة بشكل واضح في ألعاب الأطفال. فنشاط الذكر الصغير متجهة نحو الخارج؛ تطلعات للانطلاق نحو الأمام، وإلحاقات لعناصر خارجية على الأمور التي يبنيها، وأحياناً تدمير لما سبق وصنَعَته، كل هذا يخص الفتى. وإذا ما بنت الفتاة الصغيرة بيتاً، فلكي تضع فيه دوماً شيئاً ما، إنها تغلق أبوابه وتحتفظ بعناية بما بنته. وتتكون ألعابها في بناء عش، ووضع الأشياء ضمن إطار تحرص على تنظيمه.

وعندما يلعب هذا الشكل من النشاط دوراً رئيسياً في بنية الشخصية، فينمو نمط أنثوي بحيث، ضمن شروط ثقافية ملائمة، يماثل نمط الأم النشيطة " المهيمنة". ونشاط هذه المرأة ليس ذهنياً بالضرورة، إنها لا تتطلع قبل كل شيء إلى منافسة الرجال. بل إنها تخلق حولها على نحو يسير، بمحض إرادتها ومتأكدة من غاياتها، جواً سلطوياً أمومياً.

ويعتبر هذا النمط للمرأة قريباً جداً من النمط الذي أسميناه عشقي نشيط. ومع أن مركباته العشقية والسلبية ضعيفة جداً، تضيف هذه المرأة، مثل نمطنا

الأنثوي، نشاطاً موجهاً نحو الداخل إلى نشاطها الخارجي، لكن هذا النشاط يستخدم لأغراض عشقية أخرى. ونشاطها الذي يأخذ طابعاً أمومياً، يستهدف، إذا واتت الظروف الاجتماعية، إلى إنجاب مزيد من الأولاد، أو في التضحية في أنشطة بديلة. حيث تؤسس دوراً للأطفال، أو دور حضانة، أو أعمال مشابهة، على نطاق واسع إلى حد ما. وبنفس الوقت، ونتيجة لهذا النشاط المتجه نحو الداخل، فهي دينية بصورة عميقة، دون أن تنتمي دائماً لجماعة مؤسسية. إنها تهتم بالثقافة والتطوع المحافظ. وما ينقصها عادة الحماس الثوري، لكنها مؤهلة لأفعال حاسمة لدعم نظرياتها. وضمن العائلات التي تكون فيها الأم من هذا النمط، يترسخ نوعاً من الأمومة السلطوية، إذ أن الأم لا تدير بيتها فقط إنما أيضاً مصير شؤونها الخاصة. وبالمختصر إنه النمط من النساء الذي حدد فوقعه باشوفين، الذي كرّس نفسه لدراسة السلطوية الأمومية، في السنين الأولى من التاريخ الإنساني[1].

وفي أيامنا هذه، تتواجد امرأة من هذا النوع في شروط ثقافية مختلفة، لكنها تمثل المبدأ الأمومي ذاته، وبمعنى نفسي عميق. إنها تبرهن لنا أنه، لو تحولت الأشكال العديدة للحياة والتنظيم الاجتماعي في مجرى التاريخ الإنساني، ولو تغيّرت الأديان والمثل والقيم، فبعض الملامح النفسية للفرد باقية على مر القرون بالغم من كل شيء. هذه السمات السلطوية الأمومية تتسق في بعض الاطروحات، إن كانت أساطير، أو حضارات متمايزة على نحو ثابت؛ بعضها بارز، وبعض الآخر يختفي ليعود للظهور فيما بعد.

والسطور التالية مأخوذة عن كتاب باشوفين: السلطة الأمومية والدين البدائي:

أقدم من المرسَل المرسلة؛ وأكثر ثباتًا في الوفاء، وحزمًا في الإيمان، والروح الأنثوية. المرأة، الأضعف من الرجل، قد تسمو مع ذلك أحيانًا لمراتب أعلى منه؛

---

(1) Bachofen, J. J: Mutterecht und Urreligion. Leipzig. Koerner.
لسنا هنا بصدد اتخاذ موقف من الجدل المفتوح حول الدقة التاريخية لنظريات باشوفين. بل يمكننا مناقشة وجود " سلطة نسائية أرضية"، حيث كانت الأم على رأس النظام الاجتماعي : إذ الطريقة التي عرض باشوفين فيها هذه النظرية هي ذاتية وقابلة للنقاش. إنما من غير المشكوك به أن تلك القدرة لصورة الأم موجودة في الأساطير، وكذلك في العديد من القصص الخيالية القديمة. ونحو ندين بدراسة مثيرة للاهتمام لهذه المسائل لـ:
Beata Rank : Zur Rolle der Frau in der Entwicklung der menschlichen Gesellschaft, imago, vol 10, 1924.

إنها محافظة أكثر، ومتعلقة بعباداتها أكثر، وبصورة شعائرها... إنها متحدرة مباشرة من " ديميتير"، الأم الأرضية تصبح إن جاز التعبير الممثل الفان للأم الأرضية البدائية، وكاهنتها، الكاهنة الرئيسة في أساطير إيلوزيس، كما ترى نفسها ملزمة بتنسيق أسرارها. والأولوية الدينية للأمومة التي تعطي الحياة تقود إلى حياة المرأة الفانية... والسر يشكل الطبيعة الصحيحة لكل ديانة، وكلما لعبت المرأة دوراً قيادياً في تعبد الحياة، تظهر ميلاً من أجل السر. وهذا يستجيب لاستعدادات طبيعتها حيث يتزاوج على نحو صعب التفكك، الاحساس الشهواني وما فوق الاحساس الشهواني، في حلفها الوطيد مع الطبيعة ومع المادة، والتي مظهرها الفان يوجد فيها حاجة للفكر المواسي.

وهكذا فسيطرة الأم، المتحدرة من "ديميتير"، تبعاً لباشوفين، تكون مزاوجة بين التعبد ونمو السر، ومافوق الطبيعي، والديني، وتتميز بظهور صور متسامية لكاهنات أنثويات. فحضارة الحكم النسائي كرست الأمومة، واتسمت بتكثيف لسرية الدين؛ وكانت المرأة في ذلك الحارس الضاري للأسرار، وللشريعة وللسلام.

هوذا النموذج الأولي للمرأة النشطة- الأمومية، والتي تحمل في روحانيتها مركباً أنثوياً بدائياً. هذه الصفة تربطها بالمرأة العشقية - الأنثوية المتجهة نحو الداخل، بالرغم من أن هاتين الامرأتين مختلفتان اختلافاً جوهرياً.

ومرة أخرى نلح على أن تصنيفاتنا وضعت فقط لغاية توضيح العرض؛ فعندما نتحدث عن أنماط، فمع تحفّظ دائم بالأنماط الصافية لا وجود لها عملياً، وأن في داخل كل نمط مكتشف في الواقع، نجد دوماً آثار نمط آخر، وأحياناً العكس تماماً. وهكذا، فبين الأنماط النشطة - الأنثوية، غالباً ما نصادف نساء، رغم استعدادهن للسلطة الأمومية، تظهرن ميولاً لا تتوافق مع النمط الصافي. وفي الواقع، تظهر غالباً ثمة آثار "غير صافية" حتى لدى نساء السلطة الأمومية لباشوفين. وحتى خلال مرحلة هيمنتها تبدي المرأة، الأضعف من الرجل، ميلاً متولداً من شعور ضعفها، في إخضاع الجنس القوي بوسيلة التأثير الديني والقيم الأخلاقية. "بالاستعانة بمثل هذه القوى، أمكن للجنس الضعيف أن يحارب الجنس القوي وينتصر عليه". وحتى من دون أن تكون مدركة لغاياتها، تحافظ الممثلة الحديثة لهذا النمط للمرأة في ذاتها على ميول تستهدف إضعاف الرجل وجعله عبداً. فليس

بمحض الصدفة أن أزواج بعض النساء، مع أنهم يعيشون في حضارة مجتمع أبوي ويمتلكون حقوق وواجبات الأب، نراهم يرفضون دورهم القيادي. وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن أبناء هؤلاء النساء، يملؤهم الإجلال والإعجاب لأمهم النشيطة ويتقبلون أيديولوجيتها السامية، ويظلوا سلبيين ، أنثويين، وتابعين بقوى تشل نشاط الأشخاص المحيطين بها، وتصبح هكذا خطرة، وبنحو خاص على العناصر الذكرية من العائلة.

وتدفع بعض العائلات المشابهة مع السلطة الأمومية البدائية بعيداً جداً بحيث لا ترث الفتيات فيها الخيرات المادية للعائلة، إنما كنوزها الروحية. ويقوم الرجال بمهنتهم خارجاً، يكسبون المال، وينهكون بمنافسات قاسية، بينما النساء، أمهات وبنات، تتثقفن بقيم روحية في المجالات الدينية، والذهنية، والفنية.

وبقدرها ما تكون تلك النساء الأموميات النشيطات مقبولات في هذا الدور من قبل محيطهن، فلا تتعرض لمظاهر عقدة الرجولة. فقط عندما يتناقض نشاطهن الأمومي مع العالم الخارجي تظهر بصورة عميقة، وهي رغبات خطرة بالنسبة لها وبالنتيجة مردودة. وما هو مردود، غالباً ما يعود للظهور وبصورة مأساوية. ونجد ذلك بصورة رائعة بشخصية " كارمن"، بائعة السجائر الاسبانية، التي خلدتها أوبرا "بيزيت". والمأخوذة دون شك عن شخصية واقعية، إنها بطلة العديد من القصص الشعبية و الحديثة والتي أشهرها قصة " برسپير ميريميه". وقد نُسب إليها دوماً سحراً أنثوياً نرجسياً لا متناه، والذي استخدمته لسلب قلوب الرجال لغاية سادية قاسية.

كيف ندرك أن درجة من القسوة وعدم التأثر لا تشلنا ولا تحمينا من الفتنة؟ وما نشعر به باستمرار أن كارمن لا توجه سلاح عدوانيتها ضد الغير فقط، إنما ضد نفسها أيضاً، لكي ترضي ماسوشيتها الخاصة. وحين تتلذذ بصورة سادية بعذاب الغير، تتذوق في ذات الوقت، بطريقة ماسوشية، ذعر الختام الذي تعده بنفسها لقدر عديم الرحمة. وبهذا الفرح السري المسبق تكمن كل القوة الماكرة للتحريض الماسوشي. وكم سَهُل على كارمن الموت على يد مصارع الثيران! لكنها اختارت رجلاً سلبياً وضعيفاً لإغوائها البطيء الفتاك. ومن خلال هربها ومصالحتها مع الضابط الضعيف، انجذبت كارمن بيقين الخاتمة التي تمنتها كطفل يحب اللعب

بذبابة سيقتلع لها أجنحتها. والذبابة هنا، هي قلبها كامرأة تتحرق من الرغبة الماسوشية.

كثير من النساء، نساء أنثويات، تأثرن بصورة عميقة لمصير كارمن وتعترفن وهن تنتحبن بأنهن يشبهنها. وقد نخطئ بالظن أنهن تندمجن معها في قوتها الإغوائية أو ساديتها التي لا تعرف الرحمة. إن ما يحركهن في لاشعورهن، هو الماسوشية الأنثوية الشديدة والمأساوية لكارمن.

وفي الأوساط "المتطورة" يبدو أن سلبية المرأة في الموضوع الجنسي بطلت موضتها بصورة قاطعة؛ فالمرأة في هذه الأيام، قد تختار أداتها وتتخذ المبادرة. سلوك كهذا يخالف القوانين البيولوجية والنفسية. وأولئك الذين يرون فيه تعبيراً عن تطور اجتماعي تقدمي هم ضحية الأوهام. فلا يوجد هنا، كما يعتقدون، " تحرراً" للمرأة تجاه بلية اجتماعية تدينها بالسلبية. وفي ضوء علم النفس، نرى أن قلب الأدوار هذا يأتي معظم الأحيان من نوعين متلازمين من القلق النفسي: تستخدم النساء الإيجابية والنشاط كوسيلة للدفاع ضد الخوف من السلبية، مثل كارمن التي استخدمت عدوانيتها ضد ماسوشيتها؛ ويتفادى الرجال مسؤولية ومسعى الغزو النشط. هذا التقدم الظاهري يبطن الاضطراب العصابي للجنسين.

وعندما نتحدث عن نشاط المرأة، نصفه أحياناً بـــ " الذكوري". ونؤكد مع ذلك بوجود نشاط أنثوي. وهكذا يبدو أننا نناقض أنفسنا. إلا أن هناك تلازم بين المبدأين، ويأتي هذا التلازم من مورثهما، ومن تطورهما في النمو، ومن تشابههما مع المركبات الغريزية العدوانية. تقود هذه المركبات الغريزية العدوانية، تقود خههذه المركبات الفتى مباشرة إلى الرجولة؛ وهي معرضة عند الفتاة لكبت القوى النشطة التي تستمر مع هذا الكبت وضمن بعض الشروط تظهر أصلها الذكري، وخاصة حينما تترافق بميول عدوانية قوية. وكما رأينا، تمايز الجنسين إلى مذكر ومؤنث يسبقه مرحلة ممارسات جنسية تترك، عند الواحد والآخر، آثاراً واضحة على نحو أو آخر. وتظهر لنا تقصيات التحليل النفسي أن الأمر يتعلق هنا عادة بتطور نفسي، يرتكز أو لا يرتكز على عامل بيولوجي.

وهذا يصحبنا إلى عقدة الرجولة عند المرأة.

وبالنسبة لنا، تتصف عقدة الرجولة بتفوق الميول النشطة الإيجابية والعدوانية التي تؤدي إلى صراعات مع المحيط وخاصة مع ما تملكه المرأة في ذاتها من أنوثة. إن الأشكال المختلفة لهذه الصراعات تتوافق مع أنماط مختلفة. وتحت أبسط مظهر لها، تبدو الرجولة كعدو مباشر للميول الأنثوية واضطراب لعبتها. وتظهر هذه الاضطرابات خاصة في الحياة العاطفية وفي جميع الأحداث الأنثوية تحديداً، من استمناء، وحمل، ووضع، الخ. وهنا أيضاً قد نصادف دائرة معيبة: فالخوف من الأنوثة يحرك الميول الذكورية، والتي بدورها تزيد الاضطراب. هذا الخوف يخص على نحو خاص الوظائف التناسلية، وليس من المدهش أن نصادف عقدة الرجولة في مرض هذه الوظائف. ومن وجهة نظر علاجية، من المهم أن ندرك أن عقدة الرجولة تغطي مجدداً ليس احتجاجاً على الوظائف الأنثوية، إنما خوفاً من هذه الوظائف.

مظهر آخر للصراع الموجود بين الأنوثة والرجولة يأتي من أن اهتمام المرأة يتجه هنا نحو غايات يجب غزوها وتحس الأنوثة على أنها عقبة يجب نبذها. وقد يتنامى حينئذ شعور بالدونية، وتدرك المرأة أن مركبات شخصيتها تناقض مقاصدها. وفي هذه الحالة، قد تتخذ عقدة الرجولة نمظهر اكتئاب، إذ أن المرأة تشعر نفسها عاجزة، ومحكوم عليها بعدم النجاح أبداً.

وفي حالات أخرى، تكون القوى الذكورية- النشطة لحسن الحظ متسامية إلى أبعد حد، لكن هذا يتحقق إما على حساب قيم أنثوية، أو في نزاع مستمر مع ذاتها. ونجد أبسط مثال حول ذلك في الأم التي، كلما نجحت في نشاطها المهني أو أرضت طموحها، بعيداً عن الإحساس بالسعادة، تتعذب من مشاعر الذنب تجاه أولادها. كما نجد أيضاً نساء تتذبذن باستمرار بين نوعين من الواجبات، واجبات الزوجة والأم من جهة، وواجبات العمل من جهة أخرى، والتي لا تجد إرضاء في أي منها. إن الصراع بين هذين النوعين من الواجبات يأتي عادة من إضفاء صراع عاطفي عميق على الحياة الخارجية. وتحول المرأة النشطة في الواقع على غايات ثانوية، طاقات نفسية استثمرتها عادة بصورة مباشرة على أدوات تحيط بها، وبخاصة أولادها. وبصورة تبادلية، لا تستطيع استخدام جميع طاقاتها النفسية لغاياتها لأنها بكونها امرأة، تستثمرها استثماراً عاطفياً في علاقات أكثر مباشرة.

وتظهر عقدة الرجولة بطريقة أكثر دقة ومكراً لدى النساء الناجحات نجاحاً لامعاً في تصعيد نشاطهن الذكوري إنما لا تدركن أهٰن تدفعن ثمن هذا النجاح بجزء كبير وثمين من قيمهن الأنثوية. فعقلانية المرأة مرهونة، إلى درجة كبيرة، بخسارة مواصفات أنثوية جميلة، إنها تمتص نسغ الحياة العاطفية وتؤدي إلى إفقارها سواء بمجملها أو بصفاتها العاطفية المعينة. فالمرأة الذهنية ليست " أوتونويه" الحكيمةالتي استقت حكمتها من مصادر عميقة من الحدس، هذا الحدس الذي منّ الله به على المرأة الأنثوية؛ وكل ما يمس البحث والمعرفة، وكل أنواع التطلعات الثقافية الإنسانية التي تتطلب نهجاً موضوعياً قاسياً هي، عدا استثناءات نادرة جداً، المجال الذهني الذكري، والقدرة الروحية الذهنية للرجل ، تلك القدرة التي بواسطتها يمكن للمرأة أن تنافس بصورة نادرة. وكل ما نلاحظه يؤكد هذا الشأن بأن المرأة الذهنية مسترجلة، وأن المماحكة الباردة العقيمة حلّت محل المعرفة الحدسية الحيوية. وينطبق عليها بصورة خاصة ذلك المقطع لــ "غوته" :

صدقني، ذلك الذي يماحك
كحيوان على أرض بائرة
ينعطف بالدوران بأمرة روح شريرة
بينما يخضر المرعى قريباً جداً من هنا

"فالمرعى الأخضر" هنا يمثل العاطفية الأنثوية، "والأرض البائرة " هي الذهنية الاستطرادية التي تلتزم بها المرأة بعقدتها الرجولية.

بإمكاننا وصف عدد لا حصر له من أنماط النساء الذهنيات- الذكوريات؛ إنما سنصف أحدها على نحو خاص لأننا نصادف كثيراً المرأة التي تجسده والتي تعتبر مثيرة جداً. وبمقارنة هذا النمط بالأنماط الأنثوية الأخرى تلك، سنبرز الأفضل. وتستبدل هذه المرأة في ذاتها الحرارة الملأى بسحر المرأة الأنثوية- العشقية بالتزلف. وهي عادة لا تنافس الرجال، إذ أنها ذكية على نحو يجعلها تعرف حدودها. إنما تسعى للسيطرة على النساء الأخريات، والأكثر موهبة منها، بتصنعها احترام واعتبار رجال كنظراء لها. إنها تحب الاندماج مع الرجال جهاراً؛ ولا تقوم بذلك بجاذبية حدسية، كما تفعل المرأة الأنثوية، إنما بأسر أفكار الرجال، إن صح التعبير، وبتوزيع إعجاب متزلف عليهم. وتلعب عقلانيتها دوراً في أطر محدودة؛ فغالباً ما

تنجح بتقليد إنجازات الغير بأمانة بفضل امتلاكها لموهبة وظيفية (صحفي مثلاً، أو واعظ، أو استاذ) الخ. وتفسر افتقادها للأصالة، التي لا تشعر بها، بالكبت الذي تأمل أن تتحرر منه.

ولعقدة الرجولة لهذا النمط الذهني عادة أصل معين، إذ هي نتيجة غير مباشرة لأنثوية متناقضة. ولتوضيح هذه النقطة، لنقارنها بالمرأة النشطة- الأمومية، إذ تمثل نمط "ديميتير" التي تتلقى شخصيتها آثاراً معينة من العلاقة القوية الأم- البنت، باندماج الأم النشطة. فالمرأة الذهنية الغير أنثوية التي ندرسها الآن ليس لها أم بالمعنى النفسي للعبارة. إنها أشبه بـــ "پالاس آتينيه" الخارجة من رأس أب، إذ أردنا هنا استئناف تشابيهنا الاسطورية. وهي تختلف كذلك عن المرأة النشطة التي تحدثنا عنها آنفاً، والتي يلعب الاندماج بالأب لديها دوره، في أن أناها مفقر إلى أقصى حد بإلغاء الأم. والأمر الجدير بالملاحظة أننا لا نجد في مرحلة طفولة هذا النمط أية منافسة أو غيرة تجاه أخوها، في حين أن ذلك متوقع منها. بل على العكس تحالفت هذه المرأة مع أخوها، على غرار " پالاس آتينيه". وفي أساس هذا التحالف، يوجد عادة غيرة تجاه الأخت الصغرى أو الكبرى، إن كانت أجمل أو محبوبة أكثر. وبالاندماج مع أخوها، تفوق هذه المرأة أختها وتقصي أمها وأخوها وأنوثتها الخاصة من حياها العاطفية.

وتظهر أنماط أخرى نشطة- ذكورية، بطريقة مباشرة أكثر، إفراطاً في قواها النشطة- العدوانية. كالساحرة السادية التي تمتطي مكنسة، أو المرأة التي تشفي البسطاء، مزودة بعصا طويلة وحاملة على ظهرها حقيبة سرية، وشخصيات أخرى كثيرة من القصص الاسطورية والفولكلورية، ولاتي تظهر تماماً الازدواجية الموجودة بين العدوانية والرجولية عند المرأة. وتبدو لنا هذه الازدواجية ذات أهمية رئيسية؛ إذ بحسب تصورنا لنمو المرأة، تتخذ رجوليتها، كمصدر، من فائض القول العدوانية التي أفلتت من الكبت والتي لم تستثمر بصورة مباشرة كما يحصل عند الرجل. ولهذا السبب تكون المرأة الرجولية عدوانية أيضاً.

لهذه الشخصيات الأنثوية النشطة- العدوانية، التي تكافح بلا هوادة لتقدم نشاطها المفرط هدفاً عقلانياً، والتي لا تهتدي للسلام أبداً، سلوكاً ذا طابع هيستيري هوسي على نحو واضح. وحين ندرسها عن قرب، نتحقق من الصلة

الوثيقة فيها التي تشرك نشاطها بالعدوانية والرجولية. وتفاعلهما المستمر يستخدم مقصداً مضاعفاً: فهو يسعى لإيجاد مخرج للإفراط في قواها العدوانية، وهو يظهر رفضها للموقف السلبي الأنثوي، وعدم تقبلها لغياب العضو الذكري.

كانت لي فرصة في ملاحظة مطولة لامرأة بدا مزاجها غريباً جداً إذا لم يُفسر بالتحليل[1]. إن الحوادث المتعددة المؤسفة التي طبعت حياتها لم تترك أي أثر فيها؛ وكانت تستجيب لدى كل حادث برباطة جأش شامخة، ملحة في كل مرة على ما يبقيها سعيدة. ولا يمكننا أن نتحدث عن بلادة في شأنها إذا كانت طافحة بالعواطف، وملتزمة باستمرار بصداقات جديدة وحب جديد، وبدراسات تنجح فيها بجدارة، الخ. وفي أثناء علاجها، تمكنت من التحقق من عدم اكتراثها بقدرها. وفي هذه الحقبة، هجرها زوجها وعشيقها، وفقدت جزءاً كبيراً من ثروتها وعانت من تجربة مأساوية عندما تخلى عنها ابنها الأكبر والذي كانت متعلقة به كثيراً. ولا شيء من كل هذا استطاع أن يمس صفاءها؛ وفي كل مرة كانت تجد مباشرة وسيلة لتحقير ما فقدته وأن تخلق لنفسها اهتماماً جديداً يحد وينفي من مكابدتها. وكانت تتوصل دوماً إلى هذه الخاتمة: " بالمحصلة لم أخسر شيئاً ".

لقد أدركت بوضوح، لدى هذه الصبورة، أن كل آليتها في النفي بدأت بالارتباط مع ولادة أخيها. في تلك اللحظة، كان تصرفها لافتاً جداً بحيث اعتُبر، ضمن عائلتها، كنوع من الاسطورة. وخلال فترة قصيرة (كانت آنئذ فتاة صغيرة)، أظهرت عدوانية هائمة ضد المولود الجديد؛ ثم جاءت مرحلة كانت تدعي فيها أنها مليكة كل الأشياء التي تعلم تماماً أنها ستكون محرمة عليها. وكانت الروايات الخيالية تطيب لها، إذ كانت تروي جميع أنواع القصص الوهمية لغاية إظهار أنها كانت تمتلك بالواقع كل ما أرادت أن تمتلكه. وذات يوم، على سبيل المثال، وخلال درس في التربية الدينية، قالت أن أباها قد أعطاها " دير آرارات" وأنها بنت فيه بيتاً لدميتها.

وخلال سنوات تلت، تقبلت تسوية ما مع الواقع؛ في مسعاها لتعديله في اتجاه وجهات نظرها، وفعلت ذلك بصورة تستطيع أن تنفي باستمرار عجزها

---

[1] Deutsch, H.: Zur Psychologie der manisch- depressiven zustände, insbesondere der schronischen Hypomanie, Internat. Ztschr. F. Psycho- anal. , vol. 19 , 1933.

وعدوانيتها أيضاً؛ لكنها توقفت عن سرد القصص الخيالية. وليس إلا من خلال العلاج حتى أصبحت مدركة لمزاجها المرضي وللمساعي التي كانت تقوم بها لتبرهن أنه لم يكن ينقصها شيئاً على الإطلاق.

لقد خدمتنا هذه العصابية كمثالاً لأن تصرفها لا يختلف إلا بشدته عن تصرف الكثير من النساء السليمات. فعدد كبير من أولئك، المجددات في ميادين هامة للنشاط، ساميات بحسهن وجهودهن التي لا تعرف الكلل، نافعات بطاقتهن لرفاهية الإنسان، وتشبهن إلى حد كبير مريضتي المهووسة الهيستيرية. ويجدر بي ألا أذكر أساميهن احتراماً لإنجازاتهن.

تصادف هؤلاء النساء عموماً إحباطات كبيرة في حياتهن الغرامية. فالنشاط المفرط وعدم الاستقراراللذان يصفهن، يظهران عادة في الجزء الذكوري من حياتهن. أما عشقياً، فهنّ مستقرات جداً، أي أنهن لا تغيرن أداة الحب بسهولة وأن الحب لا يحتل مكانة كبيرة جداً في حياتهن. وما يعقّد مسألة اختيار أداتهن، هو تفضيلهن للرجال السلبيين؛ ثم تضغطن عليهم بعد ذلك باحتدام وهياج ليصبحوا إيجابيين وتنكدن عيشهم وتظلمنهم باستمرارلأنهم ليسوا فعاليين على نحو كاف. مثل "برونيهيلد" تبحثن عبثاً عن "سييجفريد" الذي قد يجعلهن أنثويات، إذ تتجنبن الرجال النشطين؛ والرجال السلبييون ليس في مقدورهم مطلقاً أن يصبحوا "سييجفريد"، وخاصة ضمن الجو الذي خلقته هؤلاء النساء. إن علاقاتهن مع الرجال الإيجابيين تنقلب دوماً إلى صراعات يتنافس فيها الشريكان بالعدوانية والحقد.

هناك نمط آخر من المرأة المفرطة بالنشاط يظهر أيضاً في المضمار الجنسي. فيما كان يعدل النمط السابق من اهتماماته الغير عشقية، يغير هذا النمط من أدواته في الحب. ونصادف هذا النمط على نحو خاص في مجال العهر، بما يفسر جزئياً عقدة الرجولة. فالعاهرة التي درسناها في الباب السابق كانت تفصح عن ذلك بالماسوشية.

وجميع النساء الرجوليات اللواتي وصفناهن حتى الآن لاشعوريات في رجولتهن ونفورهن من كونهن أنثويات. وأحياناً هنّ أنثويات ظاهرياً بل وتسعين في إبراز هذه الصفة عن ذاتهن. ومساعيهن لتكنّ أنثويات هي مستمرة وعبثية كمساعيهن لتكنّ ذكوريّات.

وتظهر الملاحظة النفسية أن هذا التخلي عن الأنوثة والتوجه نحو الرجولة يتضمن طوراً معقداً له أسباب عديدة[1]. إن ترسّخ الصراعات النفسية التي تظهر هنا يتكون باستعداد خاص، ويتولد بالأطوار التطورية التي درسناها.

إن الأسباب النفسية لهذه الصراعات متعددة بشكل فريد. ولن نذكر منها إلا البعض الذي له علاقة بعقدة الرجولة. فالاندماج مع الأم يلعب بصورة أكيدة دوراً كبيراً في نمو الأنوثة. ولعل النبذ الصافي والبسيط للأم أقل ضرراً من صراع يقوم بين الرغبة في رفضها والرغبة في التعلق بها. ويمكن للفتاة البالغة، مثلاً، عند تشكيل أناها الأعلى، أن تنبذ تماماً اندماجها بأمها في التقليل من قيمتها بصورة شعورية أو لا شعورية، وتختار صيغة مختلفة تماماً. فإذا كانت الأم منبوذة، في هذا السن، عند تشكيل الأنا، فالصيغة الجديدة مستعارة من الأب. ويمكن للشخصية العاطفية للفتاة أن تتشكل مع ذلك استناداً للأم، من ناحية لأن الاندماج الطفولي لازال مستمراً، ومن ناحية أخرى لأن الفتاة تتنافس مع الأم في الحصول على حب الأب. وهذا يقود إلى صراع بين اندماجين؛ وقد ينحل هذا الصراع بصورة ملائمة، أو يولد توتراً داخلياً لا يمكن حلّه إلا برفض أحد المركبات والنمو المفرط للآخر. وإذا كان الجزء الأمومي من الشخصية مرفوضاً، فسيظهر الجزء الأبوي، كرد فعل، بكثافة كبيرة وينفي خصمه؛ وسنكون على صلة إذاً بشكل يتخذ الرجولة كرد فعل. والنساء اللواتي لهن هذا النوع من الرجولة ترفضن أي فعل أو عاطفة أنثوية وتقمن بكل ما يظهرهن رجوليات. ومثل هذا الرفض قد يفقر ويدمر الحياة العاطفية للمرأة، إذ أنها تحتقر وتنبذ كل ما هو عاطفي. وتزهو تلك النساء ببرودة أعصابهن كبرهان عن قوة طباعهن، وتشتكي أخريات من ذلك دون أن تدركن أن فقرهن العاطفي هو شرط لا مناص منه لذلك المركب الذكوري الذي قبلنه في ذواتهن.

لعلها ظاهرة تلك التي نلاحظها غالباً، وخاصة لدى الفتيات الشابات الموهوبات اللواتي تنجحن في مجالات ذهنية أو أي مهنة ما : إذ تبدين ذعراً فجائياً من فكرة هجر دورهن كامرأة ومن التخلي الكامل عن إشباع رغباتهن الأنثوية في

---

[1] Horney, K. : The flight from Womanhood, Internat. , J. Psycho- analysis, 1926.
يعطي الكاتب دوراً خاصاً لعقدة أوديب في تحركات هذا الهروب.

صالح نشاطهن. ويُسقط هذا الخوف أحياناً بطريقة عصابية على الجسد وقد يعبرعن نفسه هكذا: "هناك شيء ما على ما يرام، فشعري كشعر رجل، وأعضائي الجنسية ليست طبيعية". فالانطباع بأن الأعضاء الجنسية لها مظهر رجولي يعبر عن التمني الغير مشبع في أن تحب وتُحَب كامرأة؛ وحين تتصور ميولها الذكورية داخلياً، تشعر الفتاة الشابة بأنها مضطربة في أنوثتها وتحيل على جسدها مصاعبها النفسية. ويمكننا أن نعترض، في هذه الحالة كما في كثير غيرها، على موضوع أن عدم الرضا عن الجسد الخاص يعبر بصورة غير مباشرة عن نقص العضو الذكري. لكن ذلك لا طائل له؛ فلا ينبغي أن نضيع بصيرتنا بأننا على صلة هنا بنزاع يتغذى من جهتين، أن هناك أمنيتين لا يتم أي خيار بينهما، فقد تكون الفتاة سعيدة بكونها رجل لكنها لا تريد التخلي عن إتمام رغباتها الأنثوية والعكس بالعكس.

وفي حالات أخرى، يقود غياب الانسجام بين اندماجين إلى انشطار: جزء من الشخصية، الجزء العاطفي مثلاً، يبقى أنثوياً؛ أما الذهني، فهو يتجه نحو الحياة الواقعية والعمل، ويتصرف باسلوب ذكوري. وقد يتكرّس الجزء العاطفي الأنثوي بشكل حصري للأحاسيس الجنسية والعشقية، أو قد يتضمن جزءاً من التساميات. وقد يؤدي هذا الحل إلى انسجام سعيد وانجازات ممتازة. لكن الانسجام يحطم عادة عندما تظهر متطلبات مفرطة سواء في الحياة العاطفية- الأنثوية أو في الفاعلية الذكورية.

ونجد مثالاً واضحاً لدرجة فريدة في هذا الصراع بين الأنوثة والرجولة عند "جورج ساند" الروائية الفرنسية . فصراعاتها نمطية جداً وواضحة جداً بحيث تكوّن تصويراً متكاملاً لرؤيتنا النظرية[1].

سحرت "جورج ساند" جميع كتّاب السيرة الذاتية في جميع البلدان، وقد كتبوا عنها كتابات ضخمة. ولن التمس من حياتها إلا بعض الأفعال التي ستوضع مسألتنا.

هناك صورتان "لجورج ساند" متباينتان بطريقة لافتة.

---

[1] إن الدراسة التالية مأخوذة عن تجربة هامة جداً نشرت سابقاً من قبل الكاتب:
Ein Frauenschicksal : George Sand,Imago, vol..14,1928.

على إحداها، نرى امرأة قوية على نحو ما، أمومية، حاملة أولادها على ركبتيها؛ وعلى الأخرى، شخصية ذكورية، مرتدية ثياب رجل، وبشعر قصير وسيكار في فمها؛ ولا ينبغي أن ننسى أن "جورج ساند" كانت تعيش في عصر لا توجد فيه هذه الصورة غريبة ومبتكرة جداً، وقد لا نجدها في أيامنا هذه. وتظهر هاتان الصورتان منذ البداية نوعاً من الشخصية الازدواجية، وانشطاراً، وصراعاً بين ميول ذكورية وأنثوية. وتعبر هذه الشخصية الازدواجية عن نفسها حتى في اسم الفنانة. فقد كان اسمها كفتاة شابة " أورور دوپان"، واسمها كامرأة كان "السيدة ديدوڤان". لكن الاسم الذي جعلته شهيراً في الأدب كان اسمها الذكري "جورج ساند".

إنها النمط الكلاسيكي للمرأة- الرجل، لهذا الكائن الغريب الذي يمتلك روحاً ذكورية في جسد امرأة. ولو درسنا حياتها بإمعان، لرأينا أن عقدة الرجولة، حتى في شكلها الصافي، تأتي من محاولة فاشلة لتحقيق السعادة بهيئة أنثوية؛ إنها فرصة للسعادة تقع بعيداً عن الحدود الأنثوية. وسوف نرى أن الأسباب العميقة التي حرمت "جورج ساند" من أنوثتها تكمن في تجاربها في مرحلة الطفولة. لقد منعت هذه التجارب أنوثتها منعاً باتاً من أن تحقق إتمامها السعيد.

ونحن نعلم أن "جورج ساند" سلكت حياة فاسقة جداً وسببت الأذى للكثير من الرجال. وقد اختارت عشاقاً من هؤلاء الرجال بحيث يمكن أن نطلق عليهم أنصاف نساء. وقد جرى الحديث بظرافة عن "السيد ساند" و "السيدة موسيه". وكلنا نعلم كذلك أن "شوبان" كان أحد ضحاياها، وكان ذو طباع أنثوي. وكنا نجد طبيعياً أن تختار هذا النمط من العشاق، طالما هكذا كانت الأنثى تعادل الذكر. ونقول كذلك أن "جورج ساند" الذكورية كانت تحب الرجال الأنثويين.

وانتهت كل من الحبكات الغرامية العديدة لـــ "جورج ساند" بنفس الطريقة الكارثية، فقد كان الرجل يدمّر، ورجولية، "جورج ساند" تزدهر. إنما في نفسها أيضاً كان شيء ما يتدمر ويتحطم. وسنعكف بصورة خاصة على هذا الجزء من شخصيتها، لأنه هنا ينعقد سر هذه الرجولة التي نريد محاولة فهمها.

إننا نمتلك مفتاحين لفتح الأبواب التي تقود إلى سر هذا القدر، إنهما مذكراتها الحميمة[1]، ورواياتها. ولن نهتم هنا بأفكارها العلمية، والفلسفية والاجتماعية، تلك الأفكار التي توصلت من حين لآخر إلى مستوى الذكاء الذكري. وقد عوملت على قدم المساواة مع "سانت بوف، وديلاتوش، وبيير لورد، ولامونيه، وفلوبير، وليه غونكر، وبالزاك، وديلاكروا"، وكثيرين غيرهم.

وبالرغم من حدسها الفريد، الذي بلغ حد العبقرية، وبالرغم من السعي الذي قامت به لتفهم نفسها، كانت شخصيتها الخلاقة مقسمة. جزء منها كان يمد مؤلفاتها في السير الذاتية بالمادة من حياتها الشعورية؛ ويظهر الجزء الآخر في رواياتها، بأسماء مختلفة وشخصيات متعددة، تخون ما أخفته بصورة عميقة في لاشعورها.

وكانت جورج سانت في أوقات إبداعها الأدبي تشهد نوعاً من حالة آفلة تلغي معها الواقع صراحة وتثبت في رواياتها. وكانت تحلم، وتذوي في أحلامها، مثلما كانت تفعل في طفولتها تماماً؛ وعندما كانت فتاة صغيرة، كانت تخيف وتشغل بال كل أولئك الذين يقتربون منها. وجورج ساند نفسها كانت تقول أنها لم تحيا أبداً ما وصفته في رواياتها، عندما تتحدث عن وجودها الشعوري على الأقل. واستناداً لمن كان يعرفها، من اليسير العثور عليها من بين بطلات رواياتها؛ لكنها كانت ترفض إقامة توازٍ واضح بين التجربة التي تبنيها السيرة الذاتية وتلك الكائنة خلف رواياتها، وبين التجربة الشعورية لمذكراتها والتجربة اللاشعورية للعمل الخيالي.

وباللجوء إلى المنهج التحليلي، سوف نحاول فهم كيف أن المسائل العالقة من مرحلة طفولة جورج ساند، والمرفوضة في لاشعورها، تتمثل بشكل ضروري في حياتها كراشدة؛ وسنظهر أن الظروف العرضية الطارئة الغريبة في تلك الحياة كانت تولدات مخلصة لمنحى مطبوع بشكل مسبق في حياتها العاطفية.

فمنذ ما قبل ولادتها، وجهت قدرها إلى درجة ما كوكبة عائلية محددة تماماً. كان والدها "موريس دوبان"، ابن "أورور دي ساكس" وحفيد الأمير "موريس

[1] Journal intime (posthme), Paris-Calman – Lévy, 1926- Histoire de ma vie (3 vol), Paris, Calman – Lévy, 1926.

دي ساكس" الذي أخذ لقبه. فالأمير موريس كان ابن الملك "بولون فرديريك أوغوست الثاني" والأميرة " أورور كونيغسمارك"، التي أخذت جورج ساند بدورها لقبها. وإني أذكر تسلسل الأجيال هذا لأنه يفسر الكبرياء العائلي لجدة جورج ساند، السيدة دوبان البكر. وأم جورج ساند، بالمقابل، كانت من أصل متواضع؛ وكانت ابنة لبائع طيور يجلس على أرصفة نهر السين. وقد نسبت الجدة بصورة كاملة لابنها الارتباط القوي الذي يربطها بأبيها الشهير. وكان على موريس أن يكون التجسيد الثاني لموريس الأب. وعليه أن يستجيب لمتطلبات الحب التي لم يكن والده يستجيب إليها. ولم يكن نادراً على الأمهات أن تفرضن هذه المتطلبات الخطيرة على أبنائهن. والمتوقع من الأم الاكتفاء بحالتين: إما الاكتفاء بالفخر بابنها، أو أن تكون الأداة الوحيدة لحبه. وقد وجهت الجدة ابنها الوحيد، الذي يمتلك مواهب ذهنية استثنائية، نحو دراسات متطورة جداً، وجعلته يكتسب الثقافة التي حصلت عليها هي نفسها من آثار أبيها.

لقد كانت العلاقات الحارة الموجودة بين "مدام دوبان" وموريس ذات طبيعة ذهنية، قائمة على اتحاد خلقه الدراسة. والابن وضع نهاية لهذه العلاقة بطريقة مميزة جداً، لقد قام بجهد ليتحرر وذلك باختياره لزوجة مناقضة لأمه تماماً. وهذه المرأة هي "صوفي" أم جورج ساند، لقد كانت من عامة الشعب وتتباين بشدة مع الجدة الارستقراطية. وبالكاد أن تكون قادرة على الكتابة بصورة سليمة. وهي مكونة على نمط عاهرة، فكانت النقيض الكامل للمدام دوبان التي تعرف بطهارتها بصورة جوهرية. وفي حين كانت الجدة متحفظة وسيّدة نفسها، كانت صوفي مزاجية ومجردة من التكلف. وبينما لا تتصور السيدة دوبان أمومة بلا زواج؛ كان لصوفي أولاد غير شرعيين.

وقد قام بين الامرأتين صراعاً بلا رحمة، كالذي يمكن أن نراه بين امرأتين تتشاجران على حب رجل واحد. وقف موريس بين الخصمين، مرتبطاً بكل منهما. ولم يستطع التخلي على أي منهما، إذ تتوافقان على مظهرين مختلفين من ذاته، حاجته للحنان الذي كان يربطه بأمه، وحاجته للأحاسيس الجنسية التي يجد في صوفي تلبية لها. وانطبعت كل حياته بهذا الانشطار المميز. وتنافس الامرأتين عاد بعد ذلك على الطفلة. فالامرأتان تحولتا شيئاً فشيئاً إلى شريرتين حقيقيتين،

وتتصارعان على الظفر بقلب الطفلة كما تصارعتا فيما مضى من أجل موريس. أما الفتاة الصغيرة أورور فكانت أنثوية جداً؛ وتتشابه بجميع الصور مع أية فتاة طبيعية. ومثل جدتها وأمها، تريد أن تكون أداة الحب الوحيدة لوالدها وهكذا تدخل في منافسة مع أختيها الأكبر. ولم يُشار إلى ذلك في مذكراتها لأنها لم تكن شاعرة به بصورة واضحة؛ إنما إيحاءها كفنانة، ورواياتها، وتخيلاتها التي كانت تمثل لاشعوراً مزدوجاً في أوقاتها الحالمة، ارتبطت بصورة غير مباشرة بهذه الأحداث.

إنه لمن المبتذل تماماً أن تكره الفتيات أمهن لتكن الأداة الوحيدة لحب والدهن، إنما هن تسعين للاندماج مع الأم، والتشبه بها، وتحديداً للظفر بحب الأب. ذلك هو الدرب الطبيعي للأنوثة الراشدة. فالحقد يهجر شيئاً فشيئاً، وتصبح الأم نموذجاً للأنوثة.

ولكي يتوصل طباع الفتاة إلى الاستقرار، على الأنا الأعلى أن تتشكل بانسجام مع النموذج المزدوج للأب والأم. وبهذا فشلت أورور المسكينة تماماً. فلم تنمو شخصيتها بصورة منسجمة، وكان ذلك إفلاس للأنا الأعلى. طفلة لها أمّان كلتاهما تحبان الأب وتريدان الحصول على حبه. فهل سوف تقوم مثاليتها الأنثوية- الأمومية على هذين النموذجين؟ فالجدة كانت تحب أورور الصغيرة كابن، وتناديها "ابني"، وتلح على تضمينها صفات صبي. ووضعت الصغيرة أورور في موقف مفجع بالنسبة لأنوثتها حين تصرح لها : " أنا كوالدك".

أن تكون محبوبة من أبيها، فهذا يعني حسب عقلية الجدة التشبه بها، أي التشبه بهذه المرأة المسنة التي يحترمها والدها ويؤلهها. أما المرأة الأخرى، حسب اعتقاد السيدة دوبان، فتلك الغريبة العدوة لا تستطيع اجتذاب الرجل إلا بإحساسسها الجنسية.

وهكذا موقف أورور اتخذ حيال الرجال نموذج حب الجدة لموريس، فتصرفت تجاههم كأم تجاه طفل يحتاج لمن يهديه.

ولسوء الحظ تمعن آليات العالم النفسي في لعبتها بعد بلوغ الهدف وتتجاوزه؛ وكان على أورور، وهي تحيا ثانية باستمرار، مغامراتها الغرامية، علاقة الأم بالابن، أن تهمل مثل جدتها لصالح عاهرة. وهي ذي الصفة الوحيدة الثابتة في

حبكاتها. والمخطط في ذلك يكون قد شُكل مسبقاً في طفولتها الأولى مشابهاً لذاته بصورة دقيقة، هذا المخطط يتكاثر باستمرار خلال تجاربها اللاحقة.

وكانت أم أورور تحقد على الجدة وتسعى، بانتقادات مستمرة، أن توحي لابنتها نفس الحقد. وكانت تبدي الاحتقار اللاذع للأفكار الارستقراطية والإقطاعية للجدة، لتضبط نفسها، وتميزها، وفخرها بأجدادها؛ وكانت تعزي تحفظ السيدة العجوز إلى جفاف قلبها. وعلى هذه النقطة، أحرزت صوفي الحنونة المتحمسة النصر. فكل الحقد الذي شعرت أورور به على أمها نسبته إلى "الجدة". وانحلت مشكلة شعورها المتناقض بطريقتين : تلقت الجدة الحقد وتلقت الأم الحب. وظهر تحوّل فيما بعد: فالجدة أصبحت المحبوبة والأم المكروهة، بسبب الخيبة التي منيت بها بسبب هذه الأخيرة. وهذه الخيبة كانت النكبة الحقيقية في حياة جورج ساند.

وانتهى الصراع بين الامرأتين بسفر صوفي التي مضت "لتعيش حياتها" في باريس. فقد تركت أورور واعدة إياها بأخذها قريباً معها إلى باريس. وانتظرت أورور تنفيذ الوعد بفارغ الصبر، و" الجدة" أدركت أن قلب الفتاة انغلق بوجهها إلى الأبد. وفي نوبة من الغيرة، بينت للفتاة البالغة الثانية عشرة من العمر بماضي والدتها التي لازالت تحبها، وأفهمتها أن أمها استمرت بسياق حياة مخجلة. وشكل اعلان أن أمها أصبحت عاهرة ضربة مشؤومة لأنوثة الفتاة.

لقد حرمت أورور من مثالية أمومية، وأحدثت في السابق رجوليتها بواسطة تربيتها، ثم بعد ذلك تعززت. وفيما بعد قامت، لفترة من الزمن، بمساع خائبة وغير مثمرة لإعادة استقرار مثاليتها الأمومية وإنقاذ بذلك أنوثتها الخاصة. وقد طرح هذا السؤال لعدة مرات: كيف تكن بطلات جورج ساند انثويات ولطيفات وأموميات جداً في حين أنها على عكس ذلك؟ ذلك أن أورور حاولت أن تحيا، بصورة عاطفية، المثالية الأنثوية والأمومية التي حرمت منها خلال حياتها الواقعية.

وها هي تستخدم وسيلة أخرى لإنقاذ أنوثتها، فقد منعت، باسم العدالة الاجتماعية، حق جميع النساء السير بالطريق الذي سلكته أمها. وبنهاية الأمر، لم يُكترث بالرجال الفاسقين. لقد كانت الأولى في نصرة الحركة النسائية. وقد وضعت برنامجاً للوصول للحقوق المتساوية للنساء في جميع المجالات. وبالطبع لم

ينبعث هذا البرنامج فقط من عقيدة منطقية؛ إنما أرضى أيضاً حاجة فتاة مجروحة الشعور في عاطفتها الأمومية. وإذا ألحت كثيراً على حقوق الأطفال الطبيعين، فذلك بالتأكيد بسبب سماعها أقاويل من جدهما عن ولادة أخيها " هيپوليت ".

و لم تفعل "الجدة" خيراً بتصميمها على تدمير المثالية الأمومية للفتاة. كما لم تتوصل لأن تحل محل صوفي في قلب أورور، فالحقد اللاشعوري للفتاة تجاه أمها أُعزي بصورة كاملة إلى جدهما. وكل ما اكسبته لها جدهما في المجال الذهني قد رُفض. كما أبت أورور منذ ذلك الحين أن تدرس وأصبحت أشبه بصبي ماكر، مبتذل، وغير منضبط. واحتجَت على كل ما هو أنثوي، وارتدت ثياب الرجال، وسعت بكافة السبل إلى تحطيم سمعتها كامرأة. وقد جلبت لنفسها إدانة المجتمع. وراح الناس يتحدثون عنها كساحرة مؤذية ويتهمونها بالتجديف وبالسحر بقصد الشر.

وكان يتكرر هذا الفرار باتجاه الرجولة كلما عانت أورور إحباطاً في الحب. ويكمن هنا المصدر الثاني لرجوليتها. وكان الأول في اندماجها مع والدها، ذلك الهدف للسياسة التربوية لجدهما. ووضع ذلك الاندماج في خدمة مواهبها الذهنية الخاصة، تلك المواهب التي لعبت دوراً في إدخالها في تاريخ الثقافة، وربما في الحصول على بعض الحقوق في الخلود. أما الثاني لرجوليتها كان يتضمن عنصراً سادياً الذي يرتد للخيبة بسبب الحقد والكره. في حين أن ذهنيتها كانت بالنسبة لها ملجأ أمام الإحباط في الحب، وقد قادهما ميولها السادية إلى الكارثة. هذين الشكلين للرجولة متلازمان جداً (ومشروطان هنا بتجارب الطفولة). وبصورة عامة، ويعد تشكل الميول الذكورية للمرأة رد فعل لإحباطات أنوثتها.

وكلما توقفت الرجولية للمرأة عن الارتقاء لمستوى النشاط الخلاق، تتلازم مع ردود فعل سادية. وتقول جورج ساند نفسها، في رسالة إلى "فلوبير"، أنه بولغ في تقدير الأهمية المرتبطة بالفارق المظهري الجسدي للجنسين وأنه ليس له معنىً نفسياً. مسكينة جورج ساند! لو كانت قد أدركت أسباب آلامها، لتفوهت بشيء آخر تماماً. وقد أدركت أن الألم الذي تسببه للرجال ليس إلا أحد نتائج الاختلاف المظهري. فغالباً ما تلجأ رجولية المرأة للعدوانية لأنها محرومة من الأدوات المظهرية للفعل الرجولي وهكذا توصل الحب الأمومي لجورج ساند إلى التدمير السادي لعشاقها

(شوبان، وموسيه). لكن هذه الأفعال الشرسة كان يعقبها أزمات تبكيت ضمير مذهلة، وشعور قاتل بالذنب يؤدي إلى اكتئاب خطر والذي جعلها تواجهه بالانتحار.

وبحسب رأيي، أو ردود الفعل السادية- الذكورية لجورج ساند على الخيبات نُقلت عن ردود فعلها السابقة على تدمير جدتها لمثاليتها الأمومية. وسوف نحاول برهان ذلك بواسطة كتاباتها الخاصة.

ففي روايتها "فاديت الصغيرة" تصف فتاة تشبه أورور الصغيرة شبهاً تاماً في مذكراتها بعد الإعلان الذي حملته الجدة. فالصغيرة فاديت تتصرف كفتى شرير سادي: "كانت البنت الصغيرة للأم فاديت تعرف لدى الجوار باسم "فاديت الصغيرة " تحقيراً لأنها عكفت على السحر المؤذ. والكل يعرف أن فاديت الغريبة الأطوار هي ساحرة شريرة".

وفي العاشرة من العمر، هُجرت فاديت من قبل أمها التي التحقت بالجيش كعاهرة. وفي العاشرة من العمر، هُجرت أورور من أمها التي سافرت إلى باريس وسارت بحياة فاجرة. وفيما بعد قالت لها جدتها أن صوفي صادفت والدها خلال الحرب، في الوقت الذي كانت منخرطة بالجيش كعاهرة. وكانت جدة فاديت عالمة بالأعشاب الطبية، وخبيرة بهذه الفنون وعلمتها لفاديت. وبدلاً من أن تحل محل أهلها، عاملتها بقسوة وبلا حب. والعدائية التي أظهرها الناس لفاديت تأتي من أنهم نسبوا للطفلة خطأ أمها. وهنا، برأي فاديت- أورور، سبب شرورها وتمردها.

لكن فاديت عندما تكبر تصبح امرأة لطيفة وظريفة؛ وتتحول عدائيتها السادية إلى موقف أنثوي، وعشقي وسهل. وحدث هذا التحول لأن حب والدها أيقظ أنوثتها. وهكذا ارتضت جورج ساند في مخيلاتها كفنانة بالأمنيات التي لم تحققها في حياتها. وأمنيتها العميقة كانت في أن تصير امرأة؛ إنما، عندما يضعها حب رجل في محنة، لا تتحقق هذه الأمنية البتة، إذ في كلٍ من حبكاتها العشقية العديدة، يكرر الالزام النفسي تجربتها الخائبة التي تبدو هي الأقوى. فليس إلا في أحلامها كفنانة استطاعت جورج ساند أن تحقق أنوثتها المجهضة.

والسؤال المطروح: هل كانت علاقات جورج ساند مع الرجال مشروطة بصورة استثنائية بعلاقاتها مع " أميها الاثنتين"؟ ألا ينبغي علينا أن ندرك، تبعاً لمنهج تحليلي نفسي علاقتها مع أبيها؟

وعندما كانت أورور طفلة، كان يهيمن على مسرح الإحداث المعاصر وجه بطولي أسر جميع التخيلات، إنه نابليون. وقد امتزج إعجاب أورور بنابليون بالحنين إلى والدها الغائب، والدها الذي كان يوجه جنوباً، على سواحل مورات، مسير الجيوش الفرنسية. ويمكننا أن نتحقق اليوم أن كل طفل والده بالجيش، ولو كانت مرتبته متواضعة جداً، يتخيل أن مصير الحرب يتعلق بهذا الأب. وموريس دي ساكس لم يكن ذو مرتبة متواضعة في جيش نابليون.

وعندما تظهر ومضات حمراء في السماء، تقول الأم للصغيرة أورور: "انظري، الحرب هناك، ووالدك بالتأكيد فيها".

وقد بنت أورور الصغيرة قلعة من أربعة كراسي وفرن قديم. وانهمكت في حركات عنيفة، تضرب عدواً غير مرئي، وتختفي في غابات وهمية، وتجمع الجثث من ساحة المعركة، مبتورة ومشوهة بضراوة، وتحارب بصورة منتصرة مجسدة بطلها، موريس دي ساكس. وفي ذكرياتها، كانت جورج ساند مدركة تماماً لذلك الاندماج مع أبيها الغائب باستمرار. وعندما ترفضنا أداة حبنا، نقلد حركات الغائب لنجد عزاءنا فيها. وهكذا كانت أورور الصغيرة تحارب وترضي دوافعها السادية بخيالات المعارك.

لقد وضعت هذه المعارك التي لعبت أورور فيها دور موريس دي ساكس أسس رجوليتها المستقبلية. والتجربة المأساوية التي عاشتها مع أميها الاثنتين قامت بالباقي.

لعل طفولة جورج ساند اتصفت بشدة حياتها التخيلية وبميلها إلى الشراسة. وكانت تمضي أياماً بحالها في قلعتها، وتقتلع القش من الكراسي. وفي الليل، تبقى لساعات مستيقظة في سريرها تمزق أهداب الستائر. وكانت الضجة التي تصدرها بمثابة موسيقا تصويرية لتخيلاتها. وكانت تقول أمها في الغرفة المجاورة: "لعلها أورور تلعب الآن بالستائر".

ومع ذلك كانت تشوشها المخاوف والمضايقات وسط هذه التخيلات المشبعة، وهوذا حدث بلوَر قلقها النفسي كطفلة:

فلقد أتى مهرج يرتدي الأحمر والذهبي ليرسخ وحدتها. تلقت أورور هذه الهدية بمشاعر ممتزجة. ولم يستطع المهرج أن يتوضع في نفس علبة دميتها المحببة

جداً، ابنتها الصغيرة. فانتابها شعور مسبق بأن شيئاً ما فظيع، مشؤوم، قد يتهدد كيانها الأنثوي الصغير في حميميتها مع المهرج. فعلقته على الفرن أمام سريرها. وراحت نظرته الذكرية تتعقبها إلى أن استغرقت في نومها، ثم استيقظت وهي تصرخ من الهلع غارقة بعرقها. لقد كانت تحلم بأن المهرج ولعت به النار، ومن قلب اللهب، تبعها هي ودميتها. وبعد هذا الحلم، عانت الطفلة من "رهاب النار" أي الخوف من كل ما هو مترافق بالنار. ثم رأت جورج ساند في ذلك الخوف تجربة تهدد كل طفل بطريقة أو بأخرى. وكانت تسميه "الألم المعنوي" الكبير، "والقلق النفسي" للطفولة. وكانت تقول أيضاً، مستبقة معلومات علم التحليل النفسي، أن هذا القلق على صلة بنوع من الاضطرابات العصبية المختصة بالمرأة والتي كانت ضرورية " لإيجاد طريقة نفسية لتعويض سبب نفسي". وعندما كانت تضع رأسها على صدر خادمهم بيير، يتلاشى خوفها. بيير هذا، الذي كانت تحبه بحنان والذي ظهرت شخصيته في رواياتها، كان بالنسبة لها يقوم مقام، والدها إلى حد ما.

هاهي الصغيرة أورور، متحصنة في قلعتها ذات الكراسي الأربع، تثخن في أعدائها تقتيلاً؛ وتشوه الدمى التي بحوزتها، ومنذ تأليفها لرواياتها وحتى الستين من العمر، وهي تمضي سعياً وراء أداة تشبعها. والرجال الذين أحبتهم كانوا بي أيديها كالدمى التي دمرتها. لقد بترتهم مطالبة برفيق أشد صلابة لتلعب معه لعبة الحياة. أما المهرج الذهبي القرمزي، والمرعب المتأجج، ويبدو أنه الذكر الوحيد الذي شعرت جورج ساند نفسها أمامه بكامل أنوثتها.

أما والدها فكان يعود من الحرب من وقت لآخر وكانت صوفي الشهوانية حينها تستأثر به بغيرة شديدة. إنه أب حنون ويميل لتدليل ابنته. وتتدخل زوجته مطالبة إياه بقسوة أكثر. والفتاة المشبوبة بالعاطفة، والتي في أشد حاجتها للحب، كانت تحس بمرارة كل ما يماثل رفض الحب.

وكانت جورج ساند متناقضة باستمرار مع نفسها؛ وما تدركه وتؤلفه فنياً بحدس لا يصدق، تهمله وترفضه برمته حين تراه في ذاتها بصورة شعورية.

وهكذا، على سبيل المثال، تحدثت عن طفولتها كطفولة مشرقة، مشعة. ومع ذلك تتضمن ذكرياتها الحقيقية نوطة كاملة من الخيبة. وسقوط بين ذراعي مربيتها،

سقوط جعلها تنـــزف دماً، وأغنية عن أغصان الغار المقطوعة، تلك هي ذكرياتها القديمة عن الطفولة. وكانت تلك الأغنية الصغيرة تملؤها حزناً مخيفاً، وبعد سنوات، ذرفت دموعها وهي تفكر بها ثانية:

لن نذهب إلى الغابة قط
فأشجار الغار قد قطعت

تقول جورج ساند: "اشرحوا إذاً هذه الغرابة في الطفولة". "ليس بمقدوري أبداً أن أمحو الانطباع الغامض الذي كنت أعاني منه عند تذكر هذه الأغنية".

مثل هذه الذكريات لمرحلة الطفولة، دم مسفوك أو أغصان مقطعة، تدوم طويلاً وتؤدي لردود فعل اكتئابية طيلة حياة المرأة لأنها تعبر بصورة رمزية عن الصدمة النسائية التي لم تجد حلاً. وكانت أورور الصغيرة تعجب بفستان أبيض وتجده أجمل شيء في العالم. لكن أمها أبدت ملاحظة غير مسيئة: " يميل لون هذا الفستان إلى الصغار" فشعرت الفتاة الصغيرة فجأة بحزن مرعب، وكأنها تواجه خيبة أمل خطيرة.

رد فعل كهذا، يكون مبتذلاً عن الراشدين والأطفال الذين عانوا الكثير من الخيبات التي تصدوا لها في كل موقف متحسّبين لإحباط جديد. وماهو ممتع أكثر هو الاكتفاء بالخيال، إذ أن الخيال يشبع كل الأمنيات. وهكذا حفرت جورج ساند بصورة لاشعورية، منذ طفولتها الوادعة، خندقاً يفصل حلمها عن الواقع.

وعندما كان عمرها أقل من أربع سنوات، كانت تحلم بالسفر إلى اسبانيا الذي كان قد تقرر. لكي ترى هناك والدها البطولي وتستقبل حبها. يا لها من خيبة أمل بقيت في نفسها! فالمغامرة لم تستجب لتوقعها. ولطالما شعرت الفتاة الصغيرة بأنها وحيدة مهجورة إلى الأبد. وقدمتها أمها لـــ "مورات" وهي مرتدية زي والدها في مخيلتها، كذلك "مورات"، ممثلاً لنابليون، برز إلى جانب والدها لتشكيل صورة بطولية. وفي خلال حياتها اللاحقة، ألقت بها حاجتها للحب، وكانت المرة الوحيدة، بين ذراعي رجل أبوي رجولي. ومع ذلك لعبت لعبتها، بقدرتها المفجعة، وإرغامها اللاشعوري على التكرار؛ "ميشيل"، الفيلسوف والمؤرخ الفني، نادته "ابني". وميشيل كان انسان رجولي لديه حاجة لامرأة كشريكة في الجنس. وما أمكن لهذه الفترة العشقية أن تنتهي إلا بزوال الغرور.

وفي اسبانيا، كانت عطشى للعاطفة، مهجورة من مواردها الخاصة، وقفت الفتاة أمام مرآة كبيرة وراحت تلعب: تارة تكون والدها، وتارة أمها؛ تارة ترتدي زي فتى، وتارة زي صوفي الأنيقة. وفيما بعد أدركت جورج ساند: أها كانت تبحث في المرآة عن مظهرين متسمين لروحها. وكانت تنادي لأحد يتمكن من فهمها. فلم تحصل كجواب إلا على صوت غريب طاف قصر "مورات". ففسرت لها أمها أن ذلك كان صدى. فتملكها الفرح، ثم توجهت أورور الصغيرة إلى صديقها الجديد: "صباح الخير، ياصدى!" كبيرة جداً كانت وحدها! وهكذا ظلت وحيدة طوال الحياة.

فالسفر إلى اسبانيا، الذي توقع قلبها كفتاة به نصراً، انتهى بمأساوية. وسقط والدها من على الحصان وجلبوه ميتاً. وأورور، التي كانت في الرابعة من العمر آنذاك، احتفظت بموقفها الغافل والرابط الجأش. لم تتقبل موت أبيها؛ فراحت تسأل من وقت إلى آخر: "متى سيعود والدي من الموت؟".

وراح حنينها لوالدها يعبر عن نفسه بطريقة لافتة جداً. شخصية غريبة خيالية رافقت جورج ساند طيلة حياها. ودعتها " كورامبيه" لقد كانت بالواقع ضرباً من الألوهية التي ابتدعتها لتركز عليها مشاعرها الدينية المضطرمة. إذ كان لديها روحاً دينية فريدة ومع ذلك ترفض أي دين موجود. وتعتقد بقدرة إلهية للحب، والهوى العشقي. وتنتظر بكل أفئدها كائناً إنسانياً وترفع بنفس الوقت إلى مصاف القديسيين الإله "إيروس" إله الحب والحواس. ويمثل لها الحب أعمق أفعال الورع. ولم هجر أبداً هذين المعتقدين، الذين لا يلتقيا إلا على صعيد الرغبة الغير مشبعة دائماً.

لقد ظهر " كورامبيه" إله جورج ساند عندما كانت في الثانية عشرة من العمر، وحيدة، بعد هجر أمها لها، تبحث عن أحد تحبه. في هذه المرحلة من الحب الكامن والمرغوب بشكل عابث، تحس كل فتاة من جديد بالرغبة التي تكنّها لأبيها. رغبة بريئة تشتق من عبادة شخصية بطولية مأخوذة من الوهم أو من الواقع. لكن جورج ساند كانت بحاجة لمثالية لم تقدمها لها الحياة. فوالدها الذي عاشت معه في أحلام الطفولة لم يتمثل لها إلا بالإله. وذات ليلة، وفي خلال أحد أحلامها اتخذت المثالية اسم "كورامبيه". وهكذا شكلت الحروف بنفسها هذه

الكلمة في ذهن الطفلة. هذا الاسم أصبح "عنوان روايتها وإلهها المعبود" . كان "كورامبيه" مركزاً لحياتها التخيلية ودام طويلاً كمثاليتها الدينية لقد رفعته إلى مصاف القديسيين وقدمت له الأضاحي؛ وامتلأت حياتها بوجودها الدائم. لقد كان قريباً منها دوماً، يراقب أفعالها، ويشاركها في السرّاء والضرّاء. وقد قدمت عطايا الحب على مذبحه، لكنه يرفض الأضاحي الدموية. فقد حرّم عليها بكل وضوح الإذعان لدوافعها السادية. وروت له حكايات لا نهاية لها، وأحلام، وخيالات، لكنه لم يكن يحب المواضيع العشقية. وفي هذه القصص لم يظهر الرجل والمرأة إلا متحدين بصداقة ترمز إلى رفض الأحاسيس الجنسية.

ولعب الإله " كورامبيه" هذا الدور طيلة حياة جورج ساند. وخلال إبداعها الفني، كان في ريشة قلمها وحبرها؛ وكان أداة إلهامها. وأصبحت هذه العلاقة الأفلاطونية مع الإله مضطرمة أكثر وشغوفة أكثر خلال مرحلة الانخطاف التي شهدتها ذات يوم. وانتهى تمرّد أورور ضد جدتها، بعد الإعلان الفاضح عن أمها، بإرسالها إلى دير. واستمرت هناك في تقمّص "الفتى الماكر" ؛ فاعتبروها كـــ "شيطان". وذات يوم وهي تلعب أمام لوحة لـــ " تيتيان" تمثل موت المسيح، تملكتها شفقة لهذا التألم المحمّل بالحزن. ومثلت أمام شبح للعذراء سمعت صوتها يصرخ: " تول، ليج " هلوسة تعرفت عليها كما هي. وأبدت بصورة كلية ذهول الانخطاف. وشعرت في ذاتها بحضور الإله يخفق في قلبها ويسري في شرايينها. وراح جسدها يهتز كله فرحاً؛ ولم يحصل لها ذلك إلا مع واحد هو الإله، كان فيها وهي فيه. وقد قارنت نفسها بهذه التجربة العجائبية مع تجربة القديسة تيريز هذه المفارقة بالقرب من الإله، هكذا " كورامبيه"، لم يكن بالنسبة لها زوج قط. ألحت بشدة على هذه النقطة.

أما أصل "كورامبيه" فهو واضح، إنه الأب المرغوب جداً، المنبعث إلى مراتب الصورة المثالية، إنه لمرة أخرى متجسد ومزوّد بجميع الخصائل التي حلم بها خيالها. إنه متبرئ من صفته كأداة جنسية والعلاقة معه تسمو إلى مستوى الاعتقاد الديني. هذا الانخطاف والنشوة التي شعرت بها ووصفتها جورج ساند هي حالة معروفة جداً في علم التحليل النفسي. إنه اتحاد مكثف حميمي جداً مع الإله الأب، إنه شكل متسامٍ من الاتحاد الجنسي (أو إذا أمكن القول أنها منه القطب المقابل).

ويعد التعبد الديني لكورامبيه الذي أبدته جورج ساند استمراراً لعلاقتها مع والدها. وبدلاً من أن تمنح كبها لرجل من لحم وعظم، تركته مقيداً بأحلام طفولتها. الصفة الأصلية والمرضية بصورة تامة للإله كورامبيه هي ألا يغادرها " أبداً "، أن يبقى دوماً بين يديها. الكلمة اللاتينية " كورام " تعني " بوجود " جورج ساند، في تلك الحقبة، ألم تكن تدرس اللاتينية بمثابرة ؟ لكن الـــ " – بيه" ليس واضحاً. أريد محاولة تفسير هذا المقطع الأخير من الكلمة بصورة تحليلية.

حينما كانت أورور صغيرة، ووالدها غائباً، حاولت أمها تعليمها الأبجدية. فبدت الفتاة مندفعة وموهوبة. لكنها عانت من صعوبة غريبة، فالحرف B لم يكن موجوداً بالنسبة لها. ولفترة طويلة نسيته بعناد في سلسلة الأحرف. وذلك رغم كل العقوبات والتوسلات. " كل من يقول A يجب أن يقول B "هكذا تريد الحكمة. ومع ذلك، عندما تُسأل تأبى كتابة وقراءة الحرف B، تجيب بعناد غريب: " لأني لا أعرف B".

أعتقد أن هذا الـــ B الذي رفضتها في طفولتها متحد مع "– بيه " الذي ظهر فيما بعد كمقطع نهائي لـــ " كورام ". فالكلمة بكاملها ربما تعني " بوجود الـــ B". وإذا الـــ B المرفوضة كانت تتطابق مع الأب الغائب، هذا الأب الذي بالكاد عرفته، فظهورها ثانية في" كورامبيه " أصبح مفهوم تماماً.

هذا التعلق لجورج ساند بـــ "كورامبيه" يبدو كان عائقاً كبيراً لحياتها الأنثوية العشقية. وكل حبائلها العشقية، عدا تلك التي فشلت مع ميشيل، لها مظهر واضح بعلاقات "الأم– الطفل". وصلتها الكارثية مع "موسيه" تعد نمطاً على ذلك. وبدأ ذلك بصداقة، وباتحاد وادع لطفل عبقري مع أمٍ مصدر إيحائه. وكانت تناديه دوماً "ولدي الطيب" "طفلي الماكر". وأحسّت بألا تسرع بمخاطرة جنسية معه، إلا أنها أذعنت لدموعه، بلطف أمومي، وأشبعت رغبته. كان موسيه دوماً "عزيز أمه" وخيار الحب الذي قامت به هنا يعبر عن تعلقها العصابي بالأم.

وقبل السفر إلى إيطاليا وختامها الشهير والرهيب في البندقية "فينيسيا"، استقبلته بأيدي أم واعدة إياه بالسهر عليه بصورة أمومية.

كانت بداية علاقتهما من نمط مبتذل جداً. وجورج ساند هي "الأم الطيبة"
عاطفية، المتفانية، والباعثة على النشاط في العمل. لقد نسيت نفسها كلياً في دور
لأم هذا. واندمجت مع الطفل المحبوب جداً. وبما أن جدة جورج ساند انفصلت
ن موريس بسبب عاهرة، بدأ موسيه هو أيضاً في فينيسيا، بخداع أمه جورج مع
اهرات. وأوضح أنه هي التي دفعته ليتصرف هكذا، بسبب برودها، وبسبب
لاهتمام الذي أولته لأشياء غيره. وقد احتجت على هذا. وبدا الاثنان على حق.
هي كانت تفعل ما تتهمه به، أوتوماتيكياً، بفورة إكراه داخلي على التكرار. وهو
كان يتصرف كطفل عصبي مزاجي يريد تعذيب أمه. وحين تحس جورج ساند
نسها متعبة، ينفعل موسيه كما يفعل الأطفال أحياناً، فيشعر نفسه محروماً ويثأر
فسه. عندئذ يحل ليل فينيسيا الشهير، حيث تتقبل جورج ساند، قرب سرير
فريد كفريسة للنشوة، معانقات وقُبل الطبيب باجيللو. وقد أنكرت الأمر، إنما لا
بغي أن نقبل إنكارها بأن اتهامات ألفريد هذيانية، إذ أنها استمرت أحياناً بدوافعها
للاشعورية بطريقة عمياء بحيث أن أخطاء الذاكرة لم تباغتها.

ومهما يكن الأمر، فإنها لا تستطيع، في علاقة، الأم والابن، أن تقتصر على
ورها العاطفي. فأمها هجرتها بقسوة، وشعرت نفسها مكرهة بدورها على الهجر
الخداع. فطبيعة هذه العلاقة عبرت عنها بوضوح رسالة من موسيه لم تتضمن أي
تباس: "ظننت أنك معشوقتي الخاصة؟ لكنك لم تكوني إلا أم. لقد خلقتنا السماء
واحد للآخر، ومع ذلك فعناقنا كان من المحرمات".

ولدى حاجتها الخالدة والغير مشبعة للحب، تنقلت جورج ساند من رجل
ى آخر. وأي علاقة لم يكتب لها النجاح، إذ كانت تختار دوماً رجلاً ضعيفاً، أو
ى صغيراً بحاجة للمساعدة. ما تريده، كان حب أب، أو رجل كبير، قوي، قادر،
وهي. وهذه الرغبة يرفضها ويترفع عنها الدين.

وعلاقتها مع شوپان كانت رداً للعلاقة مع موسيه. فلم تنقذ الفتى المسلول
لا لتتعذب بغيرتها المحتدمة. وهنا أيضاً كرّست جورج ساند جسدها وروحها،
كنها حطّمت ألعوبتها الهشة إذعاناً للمتطلبات الرهيبة للاشعورها. وارتمت بشوق
ثاً عن قوة الأب، فلم تجد إلا ضعف الطفل؛ فأحبطت وأُحبِطت بالمقابل ؛ وآلمت
آخر، وتألمت بمرارة.

إن حب أي امرأة للرجل يتغذى من مصدرين: حبها لوالدها وحبها لابنها، حتى قبل أن يولد هذا الأخير. على هذين الشكلين للحب أن يتحدا ويتضافرا نحو نفس الأداة. وعند جورج ساند، كان هذان الميلان مضطربين بصورة عميقة في نموها. وقد غاصت منذ نعومة أظفارها في حياة خيالية، ومزجت الوقائع الخارجية للمحتوى بأوهامها. ولم تستطع تجاربها العشقية أبداً أن تتحرر من هذا العائق بالكامل. وكل ميل كان بحكم قانون ذكريات الطفولة ولم يؤدِ إلا إلى مأساة. والجهد الذي بذلته لإنقاذ أنوثتها بالزواج فشل هو أيضاً. لقد أحبّت ابنها موريس محبة أمومية، لكنها اضطربت لهذه العلاقة بعلاقات مع أبناء لم يكونوا من صلبها.

لقد تطلعت للأنوثة بحيوية، لكن كل إحباط عانته بصفتها امرأة دفعها أكثر فأكثر نحو الرجولية. لقد كانت جورج ساند في ذهنيتها، و "بيفل" في عواطفها. وبيفل كان اسم أطلقته دوماً على نفسها في أحزانها التي لا تلقى العزاء، وبعد كل إفلاس جديد لأنوثتها. "غبية كئيبة وبغيضة" تلك هي الكلمات التي أشارت بها على ازدواجيتها الرجولية، هذه الازدواجية التي كانت تعتبرها مسؤولة عن بؤسها.

فيمكن للانشطار الذي أصاب الحياة النفسية لجورج ساند أن يلاحظ في آن واحد في حياتها العشقية وفي تسامياتها. وإذا كانت شخصيتها الذهنية ذكورية، فمؤلفها الإبداعي ينبثق من مصادر أخرى غير الذهنية. لقد كانت روائية أنثوية-حدسية بامتياز؛ وقد دفعت هذه الصفة إلى أقصى حد بحيث ذكرنا هذا في نمطنا الأنثوي. وبلغ انتباهها الموجه نحو ذاتها، و "نشاطها الموجه نحو الداخل" مناطق غسقية، وفي رواياتها، عرضت تجاربها النفسية الخاصة بشخصيات ابتكرتها على صورة لاشعورها. وعندما نكتشف المركبات الغريزية خلف التساميات يُسمح لنا أن نقول مرة أخرى أن ذهنها يخفي عناصر ذكورية- عدوانية وحدسها الشعري عناصر أنثوية-سلبية.

ولكي نختتم حديثنا، لننظر مرة أخرى في الصورتين لأورور- جورج ساند. إنهما تثيران بوضوح مسألة الاستعداد التبادلي الجنسي، ونحن نميل إلى اعتبار الدوافع النفسية مسؤولة عن الانشطار الحاصل بين المركبات الذكورية والأنثوية. ومهما تكون في المستقبل مكتشفات علم وظائف الغدد الصم، فإننا نعتبر أن عقدة جورج ساند الرجولية أتت من عقبات واجهتها في مساعيها التي بذلتها نحو الأنوثة.

وقد لاحظنا، في حالة جورج ساند، وجود صراعات بين الاندماجات المختلفة، تلك الصراعات التي استطاعت أن تنحل بسبب رصانة التجارب العاطفية. وكان رد فعل جورج ساند، بالتأكيد، على خيباتها العشقية بالهروب إلى الرجولة، لكن الخيبات نفسها نتجت عن عدم قدرتها أن تعيش أنوثتها.

وها نحن ثانية أمام حلقة مفرغة. وموقف نفسي يجر آخر والتسلسل الأصلي يختفي تدريجياً؛ بحيث يستحيل علينا القول عملياً إذا كانت جورج ساند رجولية لأن أنوثتها تعرضت للاضطراب، أو إذا منع تحقق أنوثتها بتصرف رجولي. ويميل أخصائيو التحليل النفسيإلى النظر لعقد الرجولة أو شهوة القضيب كسبب أولي للصعوبات النفسية للمرأة. لكن دراسة حياة جورج ساند (ويوجد غيرها الكثير، أقل جاذبية وأقل غنى، إنما متشابهة في العمق) تبين عدم دقة هذه الفرضية.

وإذا افترضنا أن الكائنات البشرية لها استعداد أصلي في التبادلات الجنسية، وأن الرجل والمرأة يأتيان من مصدر واحد، فنحن ملزمون بقبول، في الاقتصاد النفسي للفرد، أن المركبين يجب أن يتحدا لتشكيل كلاً منسجماً. وعلى المركب الأنثوي أن يهيمن مسبقاً لدى النساء، والمركب الرجولي لدى الرجال. وعندما يضطرب انسجام الميلين لدى الفرد، فينجم عن ذلك صراع داخلي. وأسباب هذه الاضطراب، كما حاولت أن أبينها، هي أسباب نفسية.

إن حياة المرأة الخاضعة لعقدة الرجولة ليست دوماً ملأى بالخيبات العشقية وبالانجازات الشعرية والذهنية. فلدى النساء اللواتي ليس لديهن مواهب جورج ساند، يتخذ عدم الانسجام بين المركبين إشكالاً أكثر بدائية. ويستبدل التسامي بالعدوانية، وفي علاقاتهن مع الرجال، تستخدم هؤلاء النساء " الحب" أو الغريزة الجنسية كذريعة لإرضاء عدوانيتهن وحقدهن.

فعند كثير من النساء العدوانيات- الذكريات، إنه الخوف من الرجال، أو الرغبة في الأخذ بالثأر المسبق من الاغتصاب المنتظر، الذي يدفعهن لقلب الموقف الطبيعي؛ إنهن يغوين الرجل، ويتخذنه، ويهجرنه. فيفلتن هكذا من قلق منتظر؛ إنهن تتخلين عن الحنان وإشباع أنوثتهن لصالح العدوانية الذكورية التي تقلدنها. تقود هذه الحالة النفسية غالباً إلى العهر (ليس فقط بالمعنى الحرفي للكلمة إنما أيضاً بصفته يعبر عن سلوك نفسي)، وبنفس الطريقة التي يحدثها إحباط عشقي اختُبر ورُفض.

مثل هؤلاء النساء تستطعن إغواء وخداع عدة رجال بالتعاقب، لكي تثأرن من خيبتهن الخاصة. وكلما رأينا دعارة تحت ستار عدواني، نجد أيضاً علامات أخرى لميول رجولية. ولا ننسى هنا نمط "كارمن" التي أخفت ماسوشيتها المضادة خلف عدوانيتها.

ولدى بعض النساء من نمط "عاهرة"، تترجم الرجولة برفض الأمومة. وللإحساس الجنسي، وبالنسبة لهؤلاء النساء نفس معناه بالنسبة للرجال؛ إنه استرخاء شهواني دون أية نتيجة أخرى. وذلك لا يتضمن أن الحياة الجنسية للمرأة لا تستخدم أبداً الغايات المباشرة للذة. لكن المزاج المقتصر على المتعة الجنسية، مع نفي شديد لأي هدف آخر، هو، لدى المرأة، عنصر رجولي.

تتواجد هذه الطريقة في الرؤية في موقف أولئك الرجال الذين تمثل العاهرة بالنسبة لهم نقيض الأم. أما لدى العاهرة، الباردة جنسياً بصورة اعتيادية، فالتجربة الجنسية العاطفية تتحول إلى قيم مالية، وقد نُخطئ هنا أيضاً في رؤية دوافع اقتصادية بشكل صافي في هذا الجشع العدواني. فقد يكون الدافع الاقتصادي أولي، إنما أحياناً، كما في حالة المرأة الماسوشية، تسويغ للأسباب العاطفية.

ولنعد إلى جورج ساند، إذ نجد فيها أيضاً مناسبة لدراسة مظاهر أخرى للرجولة. فتفضيلها للرجال الشباب شيء شخصي تماماً وفيه عودة لتجاربها الطفولية. وتختار كثير من النساء هذا النوع من الأداة ليس بعاطفة أمومية، كما هي الحال بالنسبة لجورج ساند، إنما لأنهن رغبن في مرحلة البلوغ أن تكن فتيان. إن التخيل الذي تحدثنا عنه آنفاً يتواجد لدى هؤلاء النساء بهذا التحقق. وربما تواجد لدى جورج ساند أيضاً، فهذا يأتي ليعزز الدوافع الأخرى. إن مواقف التنكر التي قامت بها جورج ساند أمام المرآة، عندما كانت تشخص تارة فتى وتارة فتاة، تظهر لنا تصويراً انطباعياً لهذه الطبيعة الازدواجية العميقة، التي تبحث عن إشباع ظاهري، راغبة بالتبادل الجنسي.

فالنساء اللواتي تحببن رجالاً صغار السن أنثويات وسلبيات جداً تحتفظن طوعاً، بهذه الطريقة، برغبتهن بالرجولة. وبنفس الوقت، تسعين، بهذا الاختيار العشقي، أن تهربن من الإنسان الرجولي الذي يهددهن في ماسوشيتهن.

تعد الحياة الذهنية معقدة لأنها تحتوي على عناصر لا حصر لها في الوقت الذي تتصرف بعدد محدود من امكانيات التعبير. فكل حدث، أو فعل، أو حركة يمكن أن تعبر عن شيء ما وعن نقيضه أيضاً. والرجولية الأكثر عدوانية قد تتواجد، عند نفس المرأة، إلى جانب العواطف الأكثر أنثوية وحنان، فمعنى فعل خاص ما ليس واضحاً دائماً.

وفي عرضنا لعقدة الرجولة، أهملنا إلى الآن مسألة رغبة القضيب وعقدة الإخصاء الأنثوية. وسنتناولها الآن بالتفصيل.

لـ "عقدة الإخصاء الأنثوية" معنى خاص في لغة علم التحليل النفسي. إنها تشير إلى الاضطرابات المشتقة من رغبة القضيب؛ إنها تبرهن في العمق عن نفسها، فالمرأة لا تتخلى عن العضو الذكري ومسعاها في رفضه هو مسعى فاشل. فالعناصر المردودة تترجم بمختلف ردود الفعل النفسية والتي تشكل بمجملها العقدة الأنثوية للإخصاء. إن الأفعال الأساسية التي تدافع في هذا المنحى قدّمها أبراهام[1]، بعد فرويد[2] وڤان أوفويجسن[3].

لقد ميز أبراهام نمطين من ردود الفعل عند النساء اللواتي لا يكبحون رغبتهم للقضيب، إنهما إشباع للرغبة أو إشباع لحاجة الانتقام. فالمرأة من النمط الأول يسكنها تخيل لاشعوري بأنها تمتلك قضيباً وتسعى لتمثل دور ذكوري. لقد سبق ولفت انتباهنا مثل هؤلاء النساء. وبشكل خاص، المرأة العقلانية الذهنية، بإعلائها شأن القيم الذهنية، تنتمي إلى هذا النوع. وحسب رأي أبراهام، تسعى هذه المرأة لإنجاز عمل ذي اعتبار في المجال الذهني لتعويض غياب القضيب. والنمط "المحب للانتقام" يريد الأخذ بالثأر من ميزة الرجل. وينجم عن ذلك مصاعب متعددة في الحياة العشقية، وإشباع عصابية مختلفة. إن وصف أبراهام والمادة التي استند إليها تصنيفه ترفع عن النقد، وأكدت التجربة بشكل واسع اكتشافاته. لقد صحح

---

[1] Abraham, K: Manifestations of the female castration complex. Selected Papers of Kabraham, Londres: Hogarth.

[2] Freud, S: The taboo of virginity. Collected Papers, Vol. 4.

[3] Van Ophuijsen, J. H. W.: Contributions to the masculinity complex of women, Internat. J. Psycho- analysis, vol.5. 1924.

بنفسه ما كان جامداً قليلاً في تمييز نمطيه ملحاً على أمر أنهما يتواجدان معاً عند نفس الفرد، مع هيمنة لأحدهما أو للآخر.

وهكذا بالنسبة لأي مبدع، تعد آراء أبراهام، لدرجة ما، أحادية الجانب. وبالنسبة لي، إنه يبالغ في إعطاء أهمية لرغبة القضيب في مظاهرها العادية والعصابية. وهو يشرك بصورة وثيقة جداً الرغبة الشعورية واللاشعورية في لعب دور المرأة دور الرجل في الخيال المنوط بامتلاك العضو الرجولي.

ويمكنني أ نألخص تجربتي الخاصة بهذا الرأي، بأن الرغبات الرجولية عند المرأة، وصعوبتها في السيطرة عليها، تنتج عن عوامل نفسية متعددة، من بينها رغبة القضيب التي لها دورها إنما لا تشكل سبباً أولياً. وحتى لو افترضنا وجود رجولية كامنة لدى كل امرأة، فإننا نعتقد أن التطور نحو الأنوثة مرتبط بتحريض بنيوي. والمواقف الصعبة الواجبة الحل خلال هذا التطور قد تشكل صدمة، لكن هذه الصدمة لا تشكل حجر عثرة في نمو الأنوثة إلا إذا ترافقت الصعوبات الطبيعية بعناصر خطرة على نحو خاص. فالصدمة التناسلية للفتاة، هذا الحدث الرئيسي في فترة معينة من نموها في نقصان عضو ملائم للخلاص من إثارتها الداخلية، لا يصح كونه نتيجة تجربة خارجية. فالإذلال النرجسي والرغبة التي تثيرها رؤية العضو الذكري يتركان انطباعاً قوياً، إنما لا يمكنهما أن يعتبروا مسؤولين عن كل المظاهر اللاحقة، الإيجابية والسلبية، الملاحظة في نمو المرأة.

وبحسب رأينا، للصدمة التناسلية معنى آخر. إنها كبت محدو سلفاً بصورة بيولوجية يمهد الطريق للأنوثة ويخلق بنفس الوقت استعداداً للصدمات، كما يحدث في كل موقف، حيث على قوى الاتجاه المعاكس أن تتجاوز العقبات. وقد ألمحنا للتطورات التي وصفت في الباب السادس، بأنها تتضمن صراعاً يعارض الدوافع الغريزية لكبتها. هذه المرحلة من النمو و " غياب العضو" الذي يصفها تخلق عند المرأة استعداداً لتحسس رغبة القضيب بطريقة صادمة، وكذلك التجارب اللاحقة التي على النمو الطبيعي أن يتغلب عليها.

قد يكون لرؤية العضو الجنسي الذكري تأثيراً صادماً، إنما فقط إذا سُبقت بسلسلة طويلة من التجارب الخاصة السابقة أدت لخلق هذا التأثير، وإذا تعثر الطور

الكابت بصعوبات ما. فليس بمحض الصدفة أن تترافق رغبة القضيب عادة بعدوانية شديدة. وليست هذه العدوانية بالنسبة لنا نتيجة رغبة القضيب إنما غضب شديد يتراكم خلال النمو السابق. ولهذه العواطف أسباب مختلفة؛ فقد تعبر مثلاً، عن مشاعر رغبة موجودة مسبقاً. وقد تصبح الفتاة غيورة جداً من أخوتها وأخواتها، والعضو الذي يمتلكه أخوها الصغير "زيادة" قد يطلق ردود فعل عدائية. فالتجربة المرئية للفارق التشريحي قد يزود ردود الفعل هذه إذن بطباع غيور على نحو خاص.

فلأن الفتى يمتلك عضواً يمسَك بصورة فعلية ويسمح هكذا بعرض الأطوار النفسية على الصعيد المادي، تحس الفتاة بصورة غامضة أنه أقدر منها على التصالح مع تحريضاته السادية، وقلقه النفسي، وكفاحه ضد الاستمناء. فالميل البشري العام في عرض الأخطار الداخلية خارجاً بطريقة يتداركها على نحو أكثر فاعلية تلعب كذلك دورها في هذا التقييم الغيور للعضو الذكري.

إن المظاهر النمطية التي ترافق رغبة القضيب هي دوماً نفسها: 1- تتهم الفتاة أمها (ونادراً أكثر والدها) بأنها غبنتها 2- تتهم نفسها بنفسها بأنها دمرت قضيبها بالاستمناء؛ 3- تخشى أن يكون قضيبها قد اختفى داخل جسدها وتتوقع، بقلق نفسي أو بأمل، أن تراه ينمو لاحقاً.

ومع ذلك، فرغبة القضيب المترافقة بأطوار أخرى، وهيمنة الواحد أو الآخر من مركباتها تتعلق بمجمل الموقف. فإذا ما اتجهت العدوانية المتفاقمة نحو الأم، فيتجه الاتهام ضدها أيضاً؛ وإذا ما انتظرت الفتاة من أبيها براهين عن الحب لم تقدم لها بعد، أو إذا نالت منه عقوبات، فشعورها واحتجاجها وميولها المحبة للانتقام تتجه ضده.

وإذا ما تعلقت تخيلات الفتاة بأطوار حصلت داخل جسدها (إذا اهتمت بحمل أمها مثلاً)، فأفكارها حول العضو الجنسي تتجه نحو داخل جسدها؛ وبعبارة أخرى، تحتفظ عندئذ بفكرة، وعادة بقلق نفسي شديد، أن القضيب مخبأ في الداخل. وتكرار ظهور هذه الفكرة في مرحلة البلوغ يؤدي غالباً إلى رغبة هاجسية بإجراء عملية. وتأكيد نانسي هذا بأن "شيئاً ما" بقي داخل جسدها بعد عمليتها، يمكننا أن نربطه ليس فقط بمخيلة الحمل، إنما أيضاً بتصور أكثر غموضاً.

فالفتاة التي تتخيل بأمنياها إرضاءات مستقبلية ستتوقع، من ناحيتها، أن ترى يوماً رغبتها بالقضيب قد أفعمت.

ويلاحظ أن الفتيات المتهيئات للعصاب الهاجسي لديهن ميل لرد عدائي على رغبة القضيب، بينما أولئك المتهيئات للهستيريا لديهن ميل بتأمل مجيء العضو؛ فإرجاء الأماني التخيلية للمستقبل هو علامة عادية للهستيريا. وإذا تواجد اهام ذاتي، فيمكن أن نرى فيه ليس فقط تأثيراً عن الاستمناء، إنما أيضاً ميلاً، فيما بعد، للشعور بالذنب.

وبصورة أو بأخرى، لا نجد امرأة لا تفشي عن بعض آثار الصدمة التناسلية تحت شكل رغبة القضيب. ولدى بعضهن ليست هذه الميول نشيطة، ولدى أخريات تؤدي إلى تشكيل مزاج أو ظهور أعراض عصابية.

فعقدة الرجولة ورغبة (أو تمني القضيب) ليست تصورات متماثلة، حتى لو اشترطت إحداهما بالأخرى. فالمرأة الراشدة التي تبدي، بسبب الطموح أو لأسباب أخرى، رغبة شعورية وتسويغية بالرجولة سمت وترفعت منذ أمد بعيد عن رغبة عضو جنسي ذكري- نشط. وتُكيل اهاماها عندئذ ضد النظام الاجتماعي أو ضد عجزها الخاص في إتمام أعمال ذكورية. ولن يكون الأمركذلك لو أن رغبة الرجولة لاشعورية، ففي هذه الحالة، حتى لو تلك الرغبة لا تأتي من شهوة القضيب، فهي تترافق على نحو أو آخر برغبة لاشعورية في امتلاك عضو ذكري. وجورج ساند، على سبيل المثال، أحزنتها دوماً أغنية " أغصان الغار المقطوعة " أو عندما تذكرت السقوط الذي قامت به بين ذراعي مربيتها. إنها تندهش من هذه الروح البشرية الغريبة التي ترتبط بذكريات رقيقة جداً. والأحداث التي تعود عليها أحياناً ليس لها وجود أبداً؛ وتتولد الذكريات الخاطئة من حاجة في منح الصدمة التناسلية محتوىً واقعي.

أيضاً هناك نساء تتخذ عندهم رغبة القضيب، أو رغبة أن تكون رجلاً، شكلاً مباشراً وأولياً. إنهن ترتدين ألبستهن كالرجال، وتتصرفن مثلهم، وكافحن معهم أو ضدهم، بدلاً من أن تدعن أنفسهن لحبهم ؛ وتُظهرن بوضوح رغبتهن في إخصاء الجنس الآخر، ولن نجهد كثيراً في البحث في أنفسهن عن علائم رغبة القضيب. وفي الأجيال السالفة، كانت تجعلن شعرهن قصيراً كناية عن "الاحتجاج

الذكوري"، وتسطحن صدورهن، ولا تكترثن إلا بالأنشطة المرفوضة عادة من الجنس الأنثوي. مثل أولئك النساء ارتددن فعلياً عن الأنوثة وشكلن نمطاً، رغبة الرجولة عنده، يمكننا أن نسلم بذلك، تكون مشروطة بالبنية نفسها. وأجدادهن هم الأمازونيات، ونرى أن هذا النوع من النساء حافظ على نفسه عبر قرون وأكّد بصورة مستقلة أنظمة اجتماعية. وفي أيامنا هذه، يعد هذا الشكل من العقدة الرجولية نادر الوجود إلى أبعد حد، حيث يمكن لفتياتنا المعاصرات أن تتصرفن وتكافحن بطريقة أكثر عقلانية وبأسلوب اجتماعي مقبول.

وهناك شكل آخر من رغبة القضيب تبدو في تناقض ظاهري لأنها بقيت ضمن حدود الساحة النسائية. فالرغبة في إنجاب طفل هي الأمر الأكثر أنثوية عند المرأة. ومع ذلك قد تتخذ تلك الرغبة شكلاً ذكورياً إذا أرادت المرأة أن تثبت أنها قادرة بطفلها على خلق شيء بنشاطها الخاص وإذا اعتبرت الطفل كمنتج من جسدها، ومتولداً منها وحدها. إنه خيال (سأدعوه "عذري التناسل") يمكن أن يُعبر عنه هكذا: "لدي طفل مولود مني فقط، وأنا أمه وأبوه. لا أرغب ولا أحتاج لرجل لأولد هذا الطفل". يظهر عادة هذا التخيل خلال مرحلة البلوغ.

ويظهر عادة علم التحليل النفسي، في الحياة التخيلية لمثل هؤلاء النساء، إنه ليس رغبة أمومية في إنجاب طفل، إنما رغبة في تعويض عجزهن الجسدي بإنجاز إيجابي خارج من جسدهن. لهذا السبب، يقلص الدور الذي يلعبه الرجل بحد أدنى لا معنى له. وتترجم هذه الرغبة الرجولية، عند النساء، بخيالات وأفعال مختلفة.

وهكذا يصبح هذا الخيال رغبة شعورية تماماً عند نمط معين من النساء اللواتي يسعين بحماس نحو الرجولية. وأحياناً، مع كون الأمر نادراً، يتحقق هذا الخيال فعلياً حين تنجب المرأة طفلاً من أول رجل عابر؛ قدور الرجل يتحدد بإخصابها. امرأة من هذا النمط تجتاز المحيط في حدسها الشعوري التام بأنها أخصبت من رجل مجهول الاسم، وتسير بمشروعها بنجاح، وامرأة أخرى، في منتهى الذكاء، تقيم علاقة مع خادم "لتنجب طفلاً قوي البنية يكون لها". وكثير من البنات - الأمهات تلدن هكذا أطفالاً تحت هيمنة رغبة لاشعورية متصرفات كإكراه[1]. تظهر هذه

[1] Deutsch, H.: Psychoanalyse der weiblichen sexual funktionen.

الأفعال أن بعض المظاهر الرجولية، وحتى الرغبة في العضو الذكري، يمكنها أن تتخذ شكلاً أنثوياً وتتوارى خلف موقف أكثر أمومية.

ونجد تصويراً مثيراً لهذا الخيال في حالة "انطوانيت بورينيون"، وهي متدينة عاشت في القرن السابع عشر. لقد طرحت بعض النظريات العلمية- الدينية ستنقذ الإنسانية استناداً لها عندما تصبح النساء قادرات على إنجاب أطفال بأنفسهن، دون الاستعانة بالرجل. وقد كتبت: "هذه الحالة من البراءة ليست من اللاجنسية، إنما نوعاً من الخنوثة" وتروي سيرها الذاتية إنها أشركت نشاطها الذهني مع الألم الجسدي الذي يدعى آلام الولادة: "إنها تشعر بآلام جسدية كبيرة وكالمغص الحاد للولادة[1]".

وكذلك لدى النساء السليمات الطبيعيات، تولد الصدمة العضوية استعداداً لردود فعل صادمة لاحقة. فالموقف الأصلي الصادم، حيث ينقص المرأة وسيلة تكشف بها عن تهيجاتها، يعود إلى الظهور كلما يتنامى التوتر بين الرغبة والقدرة على فعل شيء ما، وكلما كان على المرأة أن تقيس نفسها بصراعات داخلية وخارجية مضنية، أو حين تعود الميول المؤخرة للنشاط. إنها كذلك تنفعل لدى هذه المصاعب الجديدة، من ناحية بقلق نفسي وشعور بضعف القدرة، ومن ناحية أخرى بالتحريضات العدوانية الشديدة، وهي تبرهن بصورة ظاهرة عن الرغبة المتبقية للقضيب.

إن أشباح الماضي الغير منضبطة تظهر أيضاً في جميع المواقف حيث تتم المرأة مهماتها البيولوجية، والتي فيها يُعد جسدها. فالبلوغ، ووظائف التكاثر، وسن اليأس كلها مواقف أنثوية تعود فيها الصدمة القديمة إلى النشاط من جديد وحيث تضبط بصورة طبيعية. وتمنح الطبيعة المرأة فرصاً عديدة لطرد هذه الأشباح في التجربة الحسية والنشطة للأمومة.

---

[1] Reinach, S. : Cultes, mythes et religions: une mystique au XVII° siècle. Cité par H. Deutsch , op. cit.

الفصل التاسع

الجنس المثلي

ينبغي أن نميز نوعين من النساء المثليات، إنهن أولاً النساء اللواتي تبدين طباعاً ذكورياً قوياً في اختيار أدواتهن وفي جميع مظاهر حياتهن. فالبنية الجسدية للنساء اللواتي تنتمين لهذه الفئة قد تكون هي أيضاً ذكورية إلى حد ما. ولدى البعض منهن، بنية أعضاء جنسية ذات طابع خنثى، ونصادف لدى أخريات حالات شذوذ تظهر إلى حد ما بأمزجة جنسية ثانوية. وقد تظهر هذه الرجولية في جزء كبير من البنية الجسدية أو ببعض الخصوصيات فقط كالحبال الصوتية، أو نمو الشعر، الخ. وكثير من الحالات لا تتصف إلا بغياب بعض الخصوصيات الجنسية للمرأة، مثل النهدين. وبالرغم من الأسباب العضوية الواضحة جداً لمثليتهن الجنسية، تظهر هذه لنساء كثيراً من المشاكل النفسية. وهذا لا يفاجئنا؛ إذ أن الحكم البيولوجي الذكوري لا يظهر إلا في مرحلة البلوغ، في حين أن النمو السابق والتربية كانت تخص امرأة.

وتشمل الفئة الثانية من النساء المثليات الحالات التي لا توجد فيها أية علامة جسدية شاذة، حيث تكون فيها البنية الجسدية أنثوية تماماً. فأسباب التعاكس نفسية بشكل واضح. وهنا أيضاً، يتحدد الإحساس الجنسي في سن البلوغ. والتحقق من ميول التبادل الجنسي خلال مرحلة البلوغ يساعدنا على فهم كثير من الأمور الهامة. وقد اكتُشف، مثلاً، أن اختيار أداة المثلية الجنسية لا يكون دوماً

تعبيراً عن الرجولة. فالشغف الذي يميز مرحلة البلوغ، واحتدام حب الفتاة لصديقاتها، قد يأخذ معنىً أنثوياً كاملاً، رغم مظهره المثلي. لكن هذا الحب قد يكون كذلك ذكورياً بشدة، وميول التبادلية الجنسية قد تتأثر في المعنى الذكوري بأسباب نفسية مختلفة (خوف من التبادل الجنسي مع الجنس المقابل، اندماج مع الأب أو الأخ، الخ.).

إن المثلية التي تظهر فيما بعد تكون عادة تتمة لميول مرحلة البلوغ؛ وقد تبقى ضمن إطار الأنثوية، أو تأخذ طابعاً ذكورياً على نحو ما. هذه الفوارق يمكن أن تكون قد تحددت مما قبل مرحلة البلوغ. لكن التغيرات الخطيرة والحاسمة تقع عادة وقت النضوج الجنسي. فالفتاة أو الشابة قبل بلوغها قد تظهر احتجاجها العنيف ضد أنوثتها بالسلوك المبتذل جداً " الصبي المنقوص " وتتوجه مع ذلك، إلى مرحلة البلوغ، نحو أنوثة وادعة جداً. وعلى عكس ذلك، لا تستطيع شابة أنثوية جداً أحياناً، في بعض الظروف، أن تتفادى عواصف البلوغ إلا بالتوجه نحو الرجولة واختيار أداة حب أنثوية.

أن تكون المثلية الأنثوية في معظم الحالات محددة بصورة نفسية، هذا ما يؤكده عدد كبير من النساء المثليات واللواتي ليس عندهن أية صفة فيزيولوجية تدل على خاصة رجولية. وهناك فعل آخر جدير بالملاحظة يدافع كذلك عن الباعث النفسي في الاختيار الشاذ للأداة، وهو أن كثير من النساء اللواتي شخصيتهن العاطفية كلها ذكورية تخترن مع ذلكالرجال كأداة، وغالباً رجال أشداء في رجولتهن، في حين أنه على العكس تماماً، نساء أنثويات جداً وسلبيات تخترن نساء كأدوات، وهذا حصرياً أحياناً. ويبدو من ناحية أخرى أن النساء المثليات اللواتي تظهرن استعداداً تبادلياً جنسياً له علاقة على نحو كاف ببنيتهن الجسدية تبدين عادة اهتماماً ذكورياً واضحاً، وتسعين إلى ممارسة مهن ذكورية، وتكشفن بوضوح عن رجوليتهن، وهن ذكوريات في حياتهن العاطفية. وفي هذه الحالة، يوجد بالتأكيد عامل بيولوجي، يلعب دوره في الإطار الجنسي، ولعل الأطوار البيولوجية هي التي تفسر المثلية الجنسية. وهناك طباع جنسي ذكوري معزول قد يجرنا مع ذلك إلى الاعتقاد، في مثل هذه الحالات، أن المثلية ذات أصل بيولوجي، في حين أننا على صلة، بالواقع، .بمظهر نفسي بصورة صافية. والمثاليين التاليين سيفهماننا هذا.

لقد كان لي فرصة في اختبار امرأة في الثلاثين من العمر، غير متزوجة، وتحب ارتداء الثياب الذكورية، وتختار مهن الرجل، وتعترف صراحة بمثليتها. وبنيت ملاحظة دقيقة أنه لا يوجد لديها أي شذوذ عضوي عدا صوت رجولي لا يعد مسؤولاً عن تصرف ذكوري. والنغمة الخاصة لصوتها قادتها إلى التفكير بأنها، منذ شبابها، كان عليها أن تولد ذكراً وأن أي شخص لن يحبها؛ وبكونها فتاة تحولت إلى أضحوكة، وأصبحت محبطة، كما ابتعدت عن كل ما هو أنثوي. واحتقرت أنوثتها وتخلت عنها، فقررت هذه المرأة أن تكون رجلاً؛ و لم تكن مثليتها الجنسية تعبر عن وجود حاجة عضوية بقدر ما تعبر عن الحاجة للحب وبنفس الوقت تجنب اتخاذ الموقف الأدنى بصفتها امرأة. ومثالنا الثاني يتعلق بجندي بولوني جريح من الحر بالعالمية الأولى والذي اعتُرف به كفتاة شابة وقد عُهد إلينا بفحصه من الناحية النفسية. هذه الفتاة الشابة في الثامنة عشرة من العمر كان لها طبع جنسي ثانوي وذكوري بصورة واضحة (الشارب، وغياب الصدر، الخ.) ومثل الفتاة السابق تشعر بالدونية بصفتها امراة، فراحت تبالغ في رجوليتها، وتتحدث عن عدة أحلام حول أفعال بطولية جعلتها شهيرة وقد تعوضها عن نقص السحر الأنثوي. وقد جندت كممرضة؛ ثم بفضل مكيدة بارعة، نجحت في تغيير جنسها الظاهري وأن تصبح جندياً. وكلما أرضت رجوليتها بهذا الشكل، تبدو طبيعتها الأنثوية تؤكد حقوقها بصورة واضحة، إذ أنها وقعت في حب جندي آخر. واعتبرها رفاقها أنها مثلية لأنها ("لأنه" في تلك الحقبة) لم تستطع إخفاء مشاعرها العشقية. وعلاقتها في التبادل الجنسي والتي تابعتها في نموها اللاحق انتهت نهاية سعيدة.

في هاتين الحالتين كما في غيرهما، تمارس الطباع الجنسية الذكورية تأثيراً نفسياً قوياً دون أن تكون السبب الأول لمشاعر ذكورية جنسياً. وتحمي هؤلاء النساء أنفسهن تجاه الدونية الأنثوية بإطلاق الميول المعارضة في أنفسهن. وأخريات، عكس ذلك، تنكرن رجولتهن حتى لو نمت في هذا الاتجاه بنيتهن البيولوجية. ولوجهة النظر هذه، الملاحظة الشخصية التالية، والخاصة بامرأة خنثى مثقفة جداً، والتي لميولها المثلية الجنسية عمق جسدي واضح.

لقد كانت شابة في الخامسة والعشرين تقريباً، ذات جسد رقيق، ولها ملامح أنثوية قوية وبشرة جميلة، لكن صوتها وقور مع شعر على وجهها. وكان سلوكها

بين صديقاتها أنثوياً لا مأخذ عليه؛ وترتدي ثيابها بتأنق، وتسعى جاهدة لتتخلص من شعر وجهها، وغالباً ما تشتكي بمرارة من بنيتها الجسدية. وكانت ناجحة بصورة ممتازة في المنظمة الدولية التي تعمل بها، وتبدي طاقة كبيرة في مجال العمل الذي اختارتــه، وكل سلوكها المهني، رغم احتجاجاتها، كان ينم عن طبــاع ذكوري - نشط بصورة نمطية. وقد فاجأ كل الشابات اللواتي تحطن بها، وقوعها بشغف بغرام امرأة متزوجة، أمومية، ومتقدمة بالعمر إلى حد ما، والتي لا تبلغ بالتأكيد المستوى الذهني لهذه الشابة الذكية بدرجة قصوى. وقد تبلور تعلقها المتحمس حول تلك القصة الخيالية بأن المرأة المحبوبة بحاجة لمن يحميها من زوجها الذي لا يعطيها حق قدرها. وأبدت الشابة، في إثارتها، طاقة هائلة، وظهرت نواياها الانقاذية متغطرسة، وحاولت اختطاف حبيبتها بالحيلة. ويجعلنا هذا التصرف نفكر بوضوح ببعض أنماط الرجال الذين وصفهم فرويد[1]. أحد هذه الأنماط ينخدع بقصة إنقاذ خيالية، ويختار أداة حبه امرأة سيئة السمعة، ويقنع نفسه أن حبيبته بحاجة له وأنه بحبه يستطيع إنقاذها من العهر. ويصف فرويد أيضاً نمط رجل لا يحب امرأة إلا إذا طالب بها رجل آخر، عموماً الزوج، كخاصيته.

والشابة التي درسنا حالتها وقعت عاشقة بطريقة تتناسق بها الميول العشقية لهذين النمطين من الرجال، إنها تختار امرأة محترمة كأداة حب، لكن عليها إنقاذها من زوج محتقر.

وانتهى تعقبها المندفع بأن أصبح فاضح وعلني، إذ كلف الزوج العدالة بالمعتدية العاشقة، متهماً إياها بتشويش حياته الزوجية وجر زوجته إلى علاقات جنسية مثلية. ولهذه القصة خاتمة غير متوقعة، إذ أثارت هذه الحالة اهتمام أخصائي جنسي معروف جداً الذي اكتشف أن الشابة خنثى فعلياً؛ وقد نجح في تحويلها إلى رجل بواسطة عملية. وتبين نجاح العملية حين تطلقت الامرأة التي غازلتها الشابة وتزوجت وأنجبت من هذا "الرجل" المولود حديثاً. وأعلن هذا الأخير أنه لم تكن لديه أية فكرة عن بنيته الخاصة، وظن نفسه امرأة مثلية. وفيما بعد ألّف كتاباً ونشره بعنوان " سنوات فتاة شابة لرجل".

---

[1] Freud, S.: Contribution to the psychology of love. Collected Papers, vol 4.

كما نشر فرويد تجربة بعنوان "التكون النفسي للحالة المثلية عند المرأة "[1] حيث يروي فيها الحبكة الغرامية لفتاة عفيفة تولعت بشغف بمومس وأبدت نفس الرغبات هي أيضاً في إنقاذ الحبيبة.

إن تصرف مريضتنا يبدو لنا مقارباً لمريضة فرويد التي كانت طريقتها في الحب حسب رأيه ذكورية بشكل واضح. وقد ترك فرويد الأسئلة التالية دون إجابة: الفتاة التي تتكلم عنها هل كانت مثلية ببنيتها نفسها، أم أن تعاكسها ظهر بصورة استثنائية عن أسباب نفسية على التحليل أن يبينها؟

ومن وجهة النظر النفسية،قد يكون مثير جداً على نحوطبيعي أن نعرف ما إذا يتبع كل نمو الشابة_ الرجل الذي تحدثنا عنها تطوراً مستمراً وإذا ما عزز نمو الغريزة الجنسية خلال مرحلة المراهقة ميولاً ذكورية (وهذا ما يحدث لدى الفتى)، أو ما إذا ظهرت التأثيرات المحيطة واعتقاد المريض بأنوثته بصورة أو بأخرى رغم بنيته الظاهرية التشريحية. ولنلاحظ أن الشخص مدار البحث، مع أن أعضائه الذكرية، يظهر في تصرفه كثيراً من الصفات الأنثوية.

ومن الحالتين اللتين أتينا على سردهما، نستنتج أن العوامل النفسية ليست دوماً مسؤولة تماماً وعلى نحو مباشر عن السلوك الذكوري والمثلي للمرأة، وأن البواعث النفسية تلعب دورها. وبصورة معاكسة، ينجم عن حالتنا الأخيرة أننا عندما نكون أمام تصرف عشقي لمرأة ما تسود عندها العدوانية والنشاط، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الأسباب النفسية. وهذه يمكن أن تكون فاعلة حتى عندما تكون العلامات العضموية أقل وضوحاً مما هي عند هذه العاشقة الطريفة.

وبهذا الاتجاه تلفت أكثر فأكثر أنظارنا التجارب التي تدرس العلاقات بين الوظائف الجنسية والعوامل الكيميائية الهرمونية. ونحن لا نشرح مطلقاً مظاهر التبادل الجنسي لسبب خلقي، أو عضوي، أو ثابت، إنما لاستعداد تحرّضه أو تكبّته التأثيرات الهرمونية التي تتفاعل في هذا الاتجاه أو ذاك.

يتقرر أن مصير الدوافع الجنسية خلال سنوات مرحلة البلوغ، وبشكل عام يتناسف نمو الأنسجة الجنسية الثانوية مع التوجه نحو الجنس الآخر. ويتبع هذا القرار

---

[1] Internat J. Psycho- analysis, vol.I, 1920.

التأثيرات البيولوجية والنفسية في آن واحد، ومن المحتمل أن تصبح معرفتنا بتفاعل العاملين ذات يوم واسعة وواضحة جداً بحيث لن نسأل أي من العاملين أولي وأي منهم ثانوي. وتتحدد مهمتنا الحالية بدراسة الأطوار النفسية التي ترافق نمو المثلية الأنثوية، دون الاهتمام بمعرفة إذا ما تؤدي العوامل البيولوجية إلى النتيجة النهائية أو حتى تحددها.

ومن المؤكد في جميع الأحوال أن مرحلة البلوغ تتضمن، على نحو طبيعي، مرحلة تكون فيها القفزة الجنسية على نحو أو آخر موجهة نحو الجنسين. ويسبق هذه المرحلة، مرحلة أخرى يكون فيها الاهتمام العشقي للفرد محمّلاً على جنسه الخاص أكثر من الجنس الآخر. هذه الحالة من التبادل الجنسي أو التبادل المثلي قد تمتد إلى ما بعد مرحلة البلوغ؛ والميل نحو نفس الجنس قد يبقى مسيطراً أو حتى استبعاد الميل الآخر. في الحالة الأولى، تختار المرأة للعلاقة العشقية تارة أحد الجنسين وتارة الآخر؛ وفي الحالة الثانية، يصبح اختيارها مثلياً بصورة كاملة وهكذا تظهر المثلية في قوتها وفي مضمونها، كاستمرار لتجارب مرحلة البلوغ، مثل نموها أو إعدادها اللاحق.

ومن المفيد العودة قليلاً إلى الوراء وتذكر الأطوار التي تهم هذه المسألة، خلال مرحلة البلوغ. فمنذ مرحلة ما قبل البلوغ، الأداة التي ستجذب الاهتمام العاطفي الأكثر حدة للفتاة هي فتاة أخرى، وهي نوع من ازدواجية أناها. وتقدّم هذه العلاقة منافع مختلفة للشخصية الضعيفة للفتاة في طريق نموها، إنها تحميها على الأخص من الصلات المفرّطة في القوة التي تربطها بأعضاء عائلتها، وخاصة أمها؛ عدا عن أن أناها الغير مشبع يتثبت ويشعر بأمان أكثر وسط البالغين بفضل التحالف مع الصديقة. وتعد هذه العلاقة مثلاً نمطياً عن اختيار الحب النرجسي، أي الحب الذي أبدته للكائن الذي اندمجت معه والذي بفضله قد يتم إرضاء حبها لنفسها. والجهود المبذولة بصورة مشتركة للتثقف في المواضيع المحرّمة تعطي هذه العلاقة طابعاً آسراً، ومثيراً، ومضمون الأسرار المشتركة يضفي عليها مظهرها الجنسي.

ويشكل الاستمرار على مثل هذه العلاقة خلال الحياة اللاحقة الشكل الأكثر سذاجة والأقل تعقيداً للمثلية الأنثوية. ويتغير السر وتتجه الفضولية الجنسية نحو

مسائل أخرى مختلفة تبعاً للمستوى الثقافي للصديقتين. وقد تتغير الأدوات، لكن شروط العلاقة تظل نفسها: "صديقتي المفضلة" هي تلك التي استطيع أن أعهد لها بأسراري الخاصة جداً والتي أتوقع منها بوحاً مماثلاً؛ وتتحالف المرأة مع صديقتها ضد "الآخرين"، وعموماً ضد أفراد عائلتها، وتحس بنجاح وفشل صديقتها كأنه نجاحها وفشلها هي، الخ. وخلال الاندماج يمكن أن تنجرف المرأة بنجاحات "تبديل الأنا" وتفرّج هكذا عن مشاعرها بالدونية. إنها تخلق دنيا جديدة، ممثلة بصديقتها المعجبة بإنجازاتها، الأكثر تواصفاً مما يمكن أن تكون. في جو تبادل المعونة والإعجاب، والتكيف المتبادل للمتطلبات، وهذا التفريج الذي تشعران به لمشاعرها الدونية في ارتكابهما للخطيئة معاً واتفاقهما على مغفرة متبادلة، تجدان فيه اللذة والأمان؛ وتحتفظ بعض أنماط من النساء على مثل تلك العلاقات طيلة حياتهن. ويبقى عادة الطابع الجنسي للعلاقة لاشعورياً، إنما غالباً للحنان المتبادل طابع عشقي.

قد يتخذ الاتحاد لشخصين من نفس الجنس أشكالاً مختلفة؛ والشكل الأكثر براءة هو الأكثر شيوعاً. وهذا لا يستثني علاقة جنسية بين الجنسين، وثمة صداقات قد تستمر إلى ما بعد زواج الأصدقاء؛ وحتى الشكل ما قبل مرحلة المراهقة للعلاقة يستمر أيضاً. ومن المدهش أن نرى مراراً امرأة رصينة وعالية التربية تفضي لصديقتها، دون أي ازعاج وبكل متعة ظاهرة، أدق تفاصيل حياتها الزوجية الحميمية. وإذا لم يكن عندها ما يثير لترويه، فإنها تثير الفضول وأحياناً تبتكر (تماماً كأنها في مرحلة البلوغ) وهناك بعض التجارب تستدعي منها الهمس المحبب في أذن صديقتها.

هذا الشكل البريء جداً للمثلية هو جانب طفولي يمكن أن يؤثر على كل الشخصية أو يمثل ببساطة لدى الراشد كبتاً جزئياً، دون مظاهر أخرى؛ أما العناصر الأخرى من الشخصية فقد تكون أكثر نضجاً.

يتضمن شكل آخر من المثلية أيضاً، حباً لفتاة من نفس العمر أو أكبر بقليل. فالعلاقات بين الفتيات، في مرحلة البلوغ ثابتة، وهي من نمط أكثر رشداً وتعقيداً من مرحلة ما قبل البلوغ أو البلوغ الناشئ؛ وهي متنوعة، وملأى بالصراعات والتناقض الوجداني. وقد يكون للعلاقة طابع متسامٍ على نحو كامل، أو أنها تكون

وادعة على الصعيد العشقي وأحياناً حتى على الصعيد الجنسي الصافي. وتستمر تلك العلاقة بين فتاتين من نفس العمر، إلى ما بعد مرحلة البلوغ وغالباً ما تكون شغوفة إلى أقصى حد وتقع عادة في الإطار التبادلي الجنسي الغير ثابت. والسؤال "هل أنا رجل أم امرأة" هو التردد الذي تحدثنا عنه سابقاً يُستأنف على نحو لا شعوري بالشكل التالي: " أأحب رجل أم امرأة؟" والمناوأة بين هذين الميلين الاستثنائيين الواحد من الآخر يؤدي إما إلى هيمنة واحدة على الأخرى، وإما إلى حل وسط. ويمكن للمركبين حينئذ أن يظلا موجودين بقوة متساوية، إنما يبقى التراع من غير حل. وفي أعقاب الحيرة الداخلية هذه، تبرز ميول مختلفة تتمازج. وقد تقود منافسة القوى المتخاصمة إلى نظام لصالح المثلية أو التبادلية الجنسية. والمحصلة، الطبيعية أو غير الطبيعية، يكون في توازن القوى؛ والوحدة ليست إلا ظاهرية. حيث تبرز الملاحظة التحليلية أن هذه الوحدة لا تعبر عن قرار فعلي داخلي، وانتصار أحد مركبات التبادلية الجنسية، لكنه يتضمن قوى تستخدم كذلك المركب الأخير. وإن كانت النتيجة طبيعية (تبادلية جنسية بين الجنسين)، تظهر حالات كبت أو أعراض يكتشف فيها التحليل عنصراً مثلياً مرفوضاً، كما قد يكتشف، في المثلية عناصر تبادلية.

ساعدنا تحقيقنا النفسي مساعدة كبيرة بأن الكثير من النساء المثليات بصورة صريحة موهوبات باستعداد شديد للتأمل الباطني، وهذا ما أتاح لهن تأكيد المكتسبات المجهدة للتحليل النفسي بصورة مباشرة.

أما النساء الأخريات، اللواتي ترفضن المثلية بصورة فاعلة واللواتي لا تظهرها إلا بصورة غير مباشرة، باضطرابات حياهن العشقية التبادلية، والجهود المبذولة للتقرب من مشكلة المثلية تصادف مقاومة صعبة لأقصى حد في تخطيها. وتصرّحن بإلحاح أهن لا تحببن أبداً شخصاً ينتمي لجنسهن، وأهن تكرهن أمهاهن، وتتجنبن دوماً الصلة مع أخواهن، ويسترعي الرجال دوماً انتباههن، مع أنه، عادة، دون نجاح يذكر.

ونعلم شيئاً فشيئاً سبب ذلك. ولن نذكر إلا حالة خاصة: فثمة امرأة تغار بجنون من أخرى من نمط معين والتي تبدو، بمحض الصدفة، تنافسها كلما اهتمت برجل بصورة جادة، والتي في كل مرة تدمّر لها العلاقة التبادلية. وبين التحليل أن

المرأة كانت تهتم بالمنافسة قبل اهتمامها بالرجل، وانحصر دوره فقط في صرف النظر. فالجاذبية المثلية المرفوضة تتخذ هنا شكل غيرة تؤدي إلى تدمير الاهتمام التبادلي المزعوم. وهذا الظهور المتجدد للميول المثلية المرفوضة تحت مظهر الغيرة قد وُصفت من قبل فرويد[1].

وضمن الأشكال الأقل رفضاً، يتم الاعتراف بالعاطفة الغرامية، إنما يُنكر العنصر الجنسي. فالحب المثلي شغفه عادة أكثر وتعلّقه بالأداة أعنف من الحب التبادلي، حتى لو لم يتضمن رغبة الإشباع الجنسي المباشر. هذا الشكل المثلي مألوف جداً عند النساء كما عند الرجال؛ إنه أقل وضوحاً ولا يقع أبداً تحت قبضة القانون الذي يعتقد أكثر، مثل الرأي العام، بالطابع الأفلاطوني للمثلية الأنثوية من المثلية الذكورية. فالهوى يتطور هنا، إن صح القول، ضمن أربع جدران، وبالرغم من عنفه، يبقى مظهره الجنسي مخفياً بصورة حتمية. وميل المرأة للتسامي بإحساسها الجنسي إلى عشقية تحرّم الغاية، يظهر على نحو خاص في مثليتها.

ولنعد إلى موقف البلوغ ولنتذكر أن الميول المثلية في هذه المرحلة تتجه نحو نوعين من الأشخاص: فتاة من نفس العمر أو أكبر بقليل، أو امرأة ناضجة. وطابع هذه الأخيرة يتغير، أحياناً يكون مدرسة صارمة، وأحياناً أخرى رئيسة المجموعة وتكون عاطفية ومثالية إلى درجة متسامية. هاتان الأداتان لهما نفس القدرة على الجذب. ولهما صورة الكائن المتكامل. ومع ذلك، تقع فتيات أخريات في غرام نساء فاجرات وبنفس الشغف، إنها الحالة الواردة في ملاحظة فرويد كمثال. فخيارات الحب من هذا النوع تتوارد كثيراً بعد ذلك في الحياة بأشكال مختلفة.

إن درجة شعور أو لاشعور الميل المثلي قليلة الأهمية في تحديد شدتها أو أصلها. وإضافة على ذلك، يؤثر الإنحراف الجنسي غالباً بالنساء اللواتي استطعن الاكتفاء بيسر من الرغبات الجنسية التبادلية، لكنهن إما لا تبدين ثمة رغبات، وإما أن إشباعهن، بدلاً من أن يمنحهن السعادة، لم يقم إلا بتنمية الحاجة التي تملكنها لجنسهن نفسه.

---

[1] Freud, S.: Certain neurotic mechanisms in jealousy, paranoia, and homosexuality. Collected Papers, vol. 2.

ولقد ألمحنا إلى الاستعداد التبادلي الجنسي، ومن الناحية النفسية، لم تنقصنا البراهين عن وجوده. ويظهر هذا الاستعداد خلال مرحلة البلوغ بشدة خاصة، إنما يظهر أيضاً بفترة مبكرة أكثر بشكل أكثر سذاجة. وكان قد تأكد عند جورج ساند عندما كانت طفلة، تمثل هذين الميلين أمام المرآة، ولكي تتحول اللعبة إلى فعل حقيقي، على التبادل الجنسي البنيوي أن يشترك مع ثمة أسباب نفسية منطقية تجعل التطور الملائم مستحيلاً. فغاية النمو النفسي ليست في التمييع الكامل لهذا التردد؛ وتكمن غايته فقط في التوزيع الكمي للميول المتبادلة الطبيعية، وتوجيه المركبات التي تقود إلى المثلية نحو غايات متميزة للمرأة ولإحساسها الجنسي الطبيعي. لقد أصرينا على أهمية العلاقة الإيجابية مع شخص من نفس الجنس، وخاصة في المراحل الأولى من البلوغ. هذه العلاقة هي هامة ليس فقط لأنها حماية من الحركة النكوصية نحو الأم، إنما أيضاً لأنه، بفضلها، ينمو المركب المثلي بصورة ملائمة أكثر مما إذا كان مرفوضاً أو غائباً. في مثل هذه العلاقة، الاستخدام الجيد يحدث فائضاً غير نافع للميول المثلية. وهذا من ناحية لأن هذه الميول مشبعة، ومن ناحية ثانية لأنها متسامية، ومن ناحية ثالثة لأن الفتاة الشابة قد تفعّل المشاعر المتناقضة وجدانياً والتي امتلكتها تجاه أمها، الخ. وتعلمنا التجربة أن درجة معينة من النشاط الفعلي تحمي على نحو أفضل من اللجوء إلى الخيال، وبالنتيجة، ضد نمو غير طبيعي للميول المثلية.

إن الإحساس الجنسي التبادلي الخلقي، بصفته في خلفية المثلث، لا يكتسب معنىً غير طبيعي إلا إذا تعرّض لتأثيرات غير ملائمة. ولن نتحدث هنا عن أشخاص لديهم خنوثة كالحالة التي ذكرناها، أو ظواهر فيزيولوجية تحيد عن النمو الجنسي. سنهتم على العكس بدوافع نفسية نعتبرها مسؤولة عن المثلية الأنثوية. فحتى خلال مرحلة البلوغ الأكثر طبيعية، نرى تماماً، أن الرغبات الجنسية التي لازالت لاشعورية للفتاة تتذبذب ضمن المثلث النفسي، بين قطبي التبادلات الجنسية، بين جذب ونفور. فقط الجذب، هو مشروع إرضاء الرغبات؛ وقطب النفور، هو النقص، والقلق النفسي، وتنبه مشاعر الذنب. وبحسب التعقيد الاعتيادي للأطوار النفسية، لا يتوزع الجذب والنفور بصورة متساوية؛ وكل من هذه العوامل يعمل في اتجاهين، من حيث أن هذا التوازن الثابت يعبر عن نفسه في تردد جنسي تحدثنا عنه. وتكمن أحد أسوء النتائج الممكنة لهذا التوازن في حالة من الجمود المتصلّب

بنرجسية بلا أداة. فكثير من الاضطرابات التي تظهر في مرحلة البلوغ، مثل فقدان الحس، أو ضياع الشخصية، أو انطباع أن يحس المرء نفسه غريباً، تتوافق مع هذا التردد أمام الاختيار المثلي أو التبادلي الجنسي، ويؤدي إلى نوع من التحجر في الحياة العاطفية. فكبير هو الخوف الذي تثيره الرغبات الجنسية المحسوسة، ومميزة مؤثرات التردد الداخلي، ومؤخرة عناصر الحياة العاطفية، وكثيرة سمات الصلات القديمة مع الأهل والمنقولة إلى أشخاص المثلث. وفي كل محنة لتحقيق التخيلات والرغبات الغرامية، واختيار أداوت الحب سيتبع ذلك الارتباط بالأهل المستمر والمكثف.

إن قوة هذا الارتباط، واستمرارية هذه المؤثرات، سيتعلق قبل كل شيء بالحوادث الواقعية لمرحلة البلوغ. وفي هذه المرحلة من الحياة، يكون دور الأهل لازال مهماً جداً، وتحويله على أشخاص آخرين يحدث بطريقة اعتيادية. ولنتذكر التجارب الصادمة لإيلين ولإيفلين. لقد توضعت تلك التجارب برمتها ضمن الإطار العائلي. وهكذا أحد القطبين الذين تحدثنا عنهما هو الأب أو من يقوم مقامه، والآخر الأم أو من يقوم مقامها. والمصير اللاحق للمثلث يتعلق بالطريقة التي تتحسسها الشابة للانسحاب من الحب، ومن ميلها لردود الفعل القوية من حقد وتعويضها بالحب، وخوفها من أحدها أومن الآخر، وعناصر عشقية لحنانها لأهلها، ومشاعر بالذنب تعطيها عدائية تجاههم. وبعبارة أخرى، ستحدد محصلة هذه المشاعر تأثير الجذب والنفور للقطبين. كما أن التجارب الصادقة لمرحلة البلوغ التي تلعب الدور الأخير في إقرار المثلية أو التبادلية الجنسية تتعلق على نحو خاص جداً بالحوادث العائلية. وهكذا يمكن لولادة طفل جديد خلال مرحلة بلوغ الفتاة أن يكون صادماً على نحو شديد. ولقد سبق وأشرنا لموقف آخر صادم، حين يبتعد الأب بخجل عن ابنته التي كبرت. وفشل العلاقة المتسامية الموجودة بين الأب والبنت قد تجرحها بعمق وتدفعها لارتداد يؤدي إلى الحقد عليه. وقد يتطور هذا الموقف بطرق مختلفة، إذ أحياناً تدخل الفتاة بصراع صريح مع أبيها بسلوك تافه، وتنطلق تخيلات العهر التي وصفناها، وقد يمضي بها ذلك لدرجة الفجور. وفي أحيان أخرى يصبح فيها التسامي مفرطاً، ويقوم على اهتمامات قديمة، وتتبنى الفتاة هنا موقف التحدي هذا: "أنا لست بحاجة إليكم، لأني أستطيع الآن أن أفعل ما تفعلون". وإذا تعدى هذا الاندماج على المجال الجنسي، فالخيبة التي تعانيها الفتاة من أبيها تؤدي إلى نمو الميول المثلية.

وتظهر الملاحظة، على ما يبدو، أن الخوف من الأب خلال مرحلة البلوغ قد يزيد الصلة الماسوشية الموجودة بينه وبين ابنته. وقد يطلق هذا الخوف أيضاً آلية للدفاع وصفتها أ. فرويد[1] كاندماج بالمعتدي. والفتاة الآن لا شيء يخيفها في الأب، فهي قوية مثله ورجولية أكثر منه. هذا النوع من الاندماج، القادم من الخوف، هو سبب مألوف للمثلية. والصداقة التي تكون في البداية غير عدائية والتي كانت تربط الفتاة بفتاة أخرى تكتسب طابعاً سادياً - ماسوشياً؛ وفي حالات أخرى، هناك تغيير بالأداة، فمبادرة الاختيار آتية من الفتاة العدوانية، وميل الصديقة الجديدة إلى الخضوع يكمل التحالف.

وأحياناً تكون العلاقة المتسامية مع الأب بأن تمثل الابنة فيها دور الابن. وعندما تتعمق العلاقة، يتمادى دور الابن ليطول امرأة. وفي هذه الحالات، لا تتظاهر الفتاة بأساليب غرامية كفتى عاشق، بل تسعى أيضاً لنيل إعجاب هذه المرأة وليس إعجاب أهلها.

هناك إشارة نمطية جداً للمثلية الأنثوية المتميزة تكمن في تبادل الأدوار بين الشركاء، حتى ولو كان أحد الأدوار على الأرجح نشيطاً وسادياً والآخر سلبياً وماسوشياً. فيمكن للنساء أن تلعب الدورين بسبب السهولة التي بها تندمجن بأداوت الحب من جنسهن. وهذا الأمر هو أحد الدوافع القوية التي تشترط المثلية الأنثوية.

وتقع العلاقة المثلية غالباً في مثلث مؤلف حصرياً من النساء، حيث تكون المرأة المثلية وفيه بصورة اعتيادية إلى إحدى شريكتيها، وتحل محل الأخرى. وتظهر ملاحظة عدة حالات من هذا النوع أن الشابة المثلية تأخذ دور الشريك العدواني (باندماجها عادة مع الأب) تجاه إحدى صديقتيها، ودور الأداة الذليلة والخانعة (فتى أو فتاة) تجاه الأخرى.

ونرى على نحو مألوف أزواجاً من الصديقات تعطين لبعضهن أسماء مذكرة، دون الإدراك الجيد للأحاسيس الجنسية الموجودة في مودتهن. مثل هذه العلاقات لا تتنكر، وخاصة حين تتضمن على تساميات مشتركة دون أي إيجابية جنسية نشيطة

---

[1] Op. cit.

مباشرة. من الضروري، لكي يسود الانسجام في مثل هذه العلاقات، ألا تشتمل على مركبات سادية – ماسوشية قوية جداً، كما هي الحال غالباً.

ولو احتفظت صديقتها طابعها الأنثوي، فللفتاة المثلية حرية التصرف لتأخذ الدورين، أنها تستوعب كل الصفات الذكورية وتتمتع بنفس الوقت بالأمل، والإثارة، والتبعية والورع الي تتضمنه أنوثتها الخاصة التي أخفتها على الصديقة. ويكتب " توماس مان" في رواية "The transposed Heads":

لم تكونا، بنهاية الأمر، ذائبتين في كائن واحد مثل "سيڤا" التي هي حية وميتة في آن واحد، عالم زمني وخلود في "الأم"، لكنهن تظهرن هنا ككائنين؛ وهكذا كانتا كصورتين الواحدة للأخرى. ولكل منهما شعور ذاتي ضجر من نفسه ومع أنا كلتاهما كانتا مدركتين أن كل أمر بمجمله محدد بما ينقصه، وكانت الواحدة للأخرى، بسبب اختلافاتهما، أداة فضول.

الاختلافات في التشابه، وعدم التماثل في التماثل، والشعور بالانشطار عن الذات، والتحرر بجزء من الذات يتزامن صونها وأمنها في امتلاك الأخرى، يعد ذلك كله في الجذب الذي تمارسه التجربة المثلية.

يظهر التحليل أن الافتتان المثلي العارم للفتاتين لع غالباً نفس التطور. وفي البداية هي قصة حب خيالي تبادلي جنسي شغوف والذي فشل بطريقة أو بأخرى. وتستمر القصة الخيالية، إنما مع تعديلين: الانتظار السلبي لرغبة الآخر تصبح رغبة إيجابية، وبدلاً من أن تختار الفتاة أداة ذكورية، تصبح هي نفسها رجلاً بالاندماج. والفتاة الخيالية التي تكتب لنفسها رسائل شغوفة في الحب والتي تتذوقها كما لو أنها صادرة عن شاب ليست مختلفة جداً، من الناحية النفسية، عن تلك التي تكتب رسائل حب لفتاة أخرى. وكل حركة من الحركات التي تقوم بها الفتاة المثلية في حياتها العشقية تعبر عن أمل تبادلي جنسي غير مشبع. وكلما كانت الفتاة شغوفة بحاجتها النرجسية بأن تكون محبوبة، كان ولعها الشديد بأن تنذر نفسها " للآخر" أكثر حيوية. وإذا غامر تغزلها بأن يتكلل بالنجاح، فإنها تنسحب، لأن كل ما قامت به يقع على صعيد خيال أخرج كمسرحية. وهكذا يكمن السبب لمثل هذه التجربة العشقية إما في إحباط تبادلي جنسي، وإما، في معظم الأحيان، في الخوف

من تحقق التبادل الجنسي وفي الميل الذي تحمله الفتاة المراهقة للبحث عن عواطف ليس بأسلوب مباشر إنما عبر الاندماج.

في رواية "المتسكعة " تصف كوليت بشكل لافت هذه العلاقة:

تشكل امرأتان متعانقتان لوحة كئيبة تمس ضعفاً مزدوجاً؛ وربما التجأتا لذراعي بعضهما للنوم عليها، أو للبكاء، أو للهروب من الرجل الشري جداً، ولتذوق ما رغبتاه أكثر من أي لذة، اللذة المرة بأن تشعر أنفسيهما متماثلتان، منسيتان، وعديمتا الأهمية.

هذه العلاقة، عندما تخص أخت، تصبح عميقة جداً في الغالب، وخاصة إذا كانت الفتاتان من أعمار قريبة، أو إذا لم يكن لديهما إلا أخوة وأخوات أكبر، أو إذا جعلهما صراع الأبوين متعلقتين جداً الواحدة بالأخرى، أو إذا كانتا وحيدتين. يكون هذا الحب، على الأرجح، مترافقاً بدرجة ملموسة من الكراهية المفرطة في التعادل والغيرة، غالباً ما تستمر إلى مرحلة البلوغ، وهو حب شغوف بحيث قد يؤدي لتعقيدات مأساوية. ومن ناحيتي، عرفت حالتين من الانتحار المزدوج؛ تعلق بأختين بينهما حب مأساوي، جنسي بصورة علنية.

ونجد أيضاً في تخيلات أخرى "عملية إنقاذ" في هذه المغامرات المثلية. "فالأخرى" تكبحها مدرستها أو عائلتها، وتسير بحياة لا تليق بها، وعليها أن تتحرر بفضل معونة الفتاة التي تحبها. هكذا يعبر عن نفسه الميل المتمرد لأن يتحرر بنفسه في تخيل تحرير الصديقة.

وأحياناً ترغب فتيات بنساء فاجرات بموجب فضولية لاهبة؛ في حالات الحب هذه، تتحقق تخيلات العهر عند الفتاة بالاندماج مع الحبيبة المعشوقة. وهناك طالبات تترددن على بعض البيوت سيئة السمعة، وقلبهن يخفق من القلق النفسي، والجذب الذي تمارسه التريلات في هذه البيوت، المعروفة فقط عن بعد، وقد يكون قوياً جداً. هذه الألاعيب العشقية السابقة لأوانها قد تدوم وتترسخ.

تقودنا دراسة هذه المسألة إلى تحقق لافت من أن الميول الذكورية للمرأة ليست مسؤولة دوماً، بل وفي معظم الأحيان، من مثليتها. ومن المتوقع أن العوامل النفسية التي تكمن في تشكيل العقدة الرجولية هي أيضاً من أسباب المثلية. يبقى أن

نعلم دوماً، في حالات السلوك الإيجابي الذكري القوي، ما إذا كانت العوامل البيولوجية على بساط البحث في نهاية الأمر. ففي الغالبية العظمى للحالات، الرجولة الغير نفسية أو البيولوجية لا تشكل باعثاً وحيداً للمثلية، حتى عندما تميل المظاهر نحو هذه النتيجة.

وهناك شكل من المثلية تكون فيها الرجولة على نحو خاص رائعة المنظر. ونود الحديث هناك عن نساء إيجابيات تحاولن إغواء نساء أخريات بوعدهم بملذات مدهشة. "حاولي لمرة واحدة معي إذن" هكذا اعتادت المرأة من هذا النوع أن تقول لأداة حبها؛ " أي رجل في العالم لا يستطيع أن يمنحك بقدر ما أمنحك أنا".

وهي تلح على هذه النقطة بأنها لم تخيب أبداً شخصاً من الناحية الجنسية. تتصرف هذه المرأة كرجل، مع أن هدفها في الواقع ليس فيه من الذكورية في شيء. وهي توجه مساعيها بدقة نحو هؤلاء النساء اللواتي تتطلعن، على نحو لاشعوري إلى نوع من الإشباع قادرة أن تمنحه امرأة إيجابية بصورة أفضل من الرجل. وفي قولها "أي رجل" تلمح بصورة لاشعورية أن هناك بعض الممارسات يلعب فيها النهدان دوراً أساسياً. وفي هذا الشكل من الأحاسيس الجنسية، لا تكون الحركة الرجولية في الواقع إلا وسيلة إغواء وذريعة، لأن الغاية الجنسية المطلوبة هنا تنتفي منها كلياً الغاية الذكورية.

هذا النمط من المثلية، حيث رغبة أن تكون رجلاً لا تشكل مشكلة، يبدو أكثر بلوغاً للاستقصاءات التحليلية، لأنه متزاوج مع اضطرابات عصابية، بينما الأشكال الذكرية تعطي غالباً فرصة أقل للعلاج النفسي طالما أن غالبية هذه النساء تتقبلن التعاكس ولا ترغبن بالشفاء منه.

هناك امرأة خضعت للعلاج التحليلي النفسي بسبب مصاعب عصابية والتي تعرض مشهداً ما للتعاكس ومع ذلك دون تحقق علمي. إنها تدرك تماماً أن إمكانياتها وتخيلاتها العشقية كانت ذات طابع مثلي؛ ولقد أحست بالإثارة الجنسية عند تقبيل بعض النساء اللواتي تكن لهن الحب. وكانت علاقتها مع هؤلاء النساء أحادية الزوج ومقتصرة على شخص واحد، إنما أفلاطونية على نحو صاف، حتى حينما كانت تعلم أن هؤلاء النساء تظهرن ميولاً فاسقة مماثلة لميولها. وكان يستحيل القول أنها انجذبت لنمط خاص للمرأة، وفي كل الأحوال لم يكن النمط

الذكوري؛ وكانت مريضتنا شقراء وأنثوية جداً. ولم تكن تحس بعدائية تجاه الرجال، بل كان لها مجموعة من الأصدقاء الرجال، ولا تكره كونها متمايزة ومتزلفة لهم. وقد تزوجت، بجاذبية، لرجل مظاهره ذكرية صريحة وأنجبت منه عدة أولاد؛ ومشاعرها تجاههم أقل شدة من الاعتيادي إلا أنها أمومية.

ولم تستطع البوح لماذا مثليتها لم تصبح أكثر إيجابية، وأكثر إلحاحاً؛ ما تعلمه فقط أنها تشعر نفسها مكبوتة بشدة أمام هذا الميل وكانت تشرح ذلك بالعقلنة، والخجل، وإلزامات العائلة، والخوف من أن تكون مذلولة من الناحية النفسية. وهي تتذكر أنها شعرت بالحب تجاه النساء منذ مرحلة بلوغها؛ وقد بدأت هذه المشاعر آنذاك بصورة كلاسيكية، بقسوة خاصة؛ فالفتاة كان يستبد بها جميع الأحوال اثنين من المشاعر، شعور بالحماية، ومن ناحية أخرى، خوف من المرأة المعنية بالأمر، ومن الناحية الفعلية، لم تكن عشقية لرجل أبداً؛ وجذبها زوجها في البداية بشخصية الإيجابية والذكرية. لكنها سرعان ما خاب أملها، إذا لم يستجيب لتوقعها، كما تقول. حيث كان ينقصه الشغف في المجال الجنسي؛ وكان يبقى سلبياً في مواقف أرادت منه فيها أن يكون مسيطراً.

وخلال سنوات عديدة، عانت من الاكتئاب ومن مشاعر القلق النفسي الخاصة، حيث لم تجد الشجاعة لاتخاذ موقف متسلط مناسب تجاه النساء اللواتي استخدمتهن. وبالفعل، كانت تتوقع الكثير من خادماتها وكانت منهكة عندما هؤلاء تخيبن توقعها،لكنها كانت عاجزة تماماً عن إعطائهن الأوامر أو توجيه اللوم إليهن. وكلما كان هناك تغيير في طاقم المستخدمين وكان عليها مواجهة حضور خادمة جديدة، يتزايد قلقها النفسي وصراعها الداخلي. بالإضافة لأنها كانت تضمر الحقد عندئذ لزوجها بصورة شعورية لنخوته الضعيفة في حمايتها ومساعدتها. فكثير من النساء، حتى لو لم تكن مثليات، تعانين من مثل هذه الصعوبات مع خادماتهن النساء. وتدل هذه المصاعب دوماً على وجود نزاع غير متميع مع الأم. تلك هب كانت كما سنرى حالة مريضتنا.

وأصبحت اكتئاباتها منذ عدة سنوات أكثر فأكثر تكراراً ومترافقة بأفكار الانتحار. وقد سبق وقامت بعدة محاولات عابثة، والأخيرة أوشكت أن تكون مشؤومة.

ولو سيطرت على هذه المرأة ميول سادية قوية، لظهرت شخصيتها الشعورية مختلفة جداً. فلقد كانت وديعة ولطيفة، لكنها أبدت ملامح طباع هاجسي على نحو ظاهر، كالهم المفرط بأصول اللياقة والحشمة. وعلاقتها مع طبيبة التحليل حامية جداً ولم تتضمن طيلة الوقت إلا الوداعة، والاحترام، والشعور بالأمان. وكانت سعيدة جداً، كما لو أنها عثرت أخيراً على ما يشبه أماً عاطفية ومتفهمة تستطيع منحها ما رفضت أمها منحها إياه. فأمها كانت قاسية وشخصية باردة الطبع بحيث كرهتها على الدوام. وبعد وفاة هذه الأم (التي ظلت على قيد الحياة عدة سنوات قبل بداية التحليل)، كان عندها اكتئاب خطير استسلمت خلاله لإحدى محاولاتها في الانتحار.

وقد حصل لها، خلال العلاج، عدة أزمات اكتئابية. وكانت مترافقة دوماً بأحلام متميزة وتصحبها إلى يوم ومادة محددة جداً. ودون الدخول في تفاصيل هذه الأحلام، أستطيع القول أنها أشبعت عملياً كل ما كنا نعرفه عن الرمزية الرحمية؛ لقد تعلقت بكهوف مظلمة، وبتصدعات كانت تزحف من خلالها، وبأماكن مريحة وظليلة حيث كانت تشعر أنها في بيتها حيث أطالت الإقامة بشعور من السلام والاسترخاء. وظهرت هذه الأحلام في لحظة كانت تتسلط عليها رغبة شعورية بالموت. وكانت تكرر باستمرار بأنها لو لم تمتلك ثقة كبيرة في التحليل النفسي لكان لا شيء يمنعها عن قتل نفسها. وكانت صورة خاصة تراود أحلامها، إذ ترى نفسها طفلاً مقمطاً بأشرطة أو بضمادات. وبمساعدة هذه الأحلام، أمكن العثور على اثنتين من الذكريات التي ظلت حتى ذلك الوقت خافية عن الشعور. إحداها كانت تخص حادثاً ظهر مباشرة بعد محاولتها الأولى الانتحار (بالسم). وخرجت من لاشعور عميق في حين كانت لازالت مقيدة على نقالة، رأت الطبيب التي مال نحوها بابتسامة طيبة، فأدركت أنه أنقذ حياتها (وكان ذلك بالفعل)، وفكرت: "هذه المرة، أنقذتني، إنما بنهاية الأمر لن تستطيع منحي أية مساعدة فعلية".

وكانت الذكرى الأخرى تتعلق بعملية خطرة خضعت لها أمها. لقد رأت أمها، منقولة على نقالة باتجاه غرفة العمليات، مغطاة كما كان عليها أن تكون فيما بعد بعد محاولتها الانتحار.

وطفت رويداً رويداً ذكريات طفولتها على السطح وبينت الحقد القاتل، والمرفوض حتى الآن، لهذه المرأة تجاه أمها. وتعود هذه الذكريات إلى الحقبة التي كان عمرها فيها بين أربع إلى ست سنوات، وكانت تمارس الاستمناء فعلياً الدرجة الطبيعية، وما طبيعة التخيلات التي رافقته بلا شك. إنما من المؤكد، بحسب رواية المريضة، أن الأم لجأت إلى الطريقة التالية. لقد ربطت يديها ورجيليها، وثبتتها بعيدان سريرها، ووقفت إلى جانبها تقول لها: "تسلي الآن إن كنت تستطيعين!".

أثار هذا اثنين من ردود الفعل لدى الطفلة، أحدهما غضب جنوني فائق الوصف ضد أمها التي منعتها بالعنف من أن تتحرر في نشاط قاهر. والثاني كان في هيج جنسي شديد بحيث حاولت أن تشبع نفسها بفرك مؤخرها بسريرها، دون مراعاة وجود أمها، أو ربما لتعطي درساً طليقاً لحقدها.

وأفظع ما في الأمر، أن الأب، تحت تسلط الأم، كان يحضر المشهد بصورة سلبية ولا يقدم أية مساعدة لابنته رغم العاطفة الحنونة التي يكنها لها.

وفي أعقاب ذلك الحادث، توقفت مريضتنا عن الاستمناء ورفضت بهذا إحساسها الجنسي لفترة طولية. كما دفعت بنفس الوقت كرهها لأمها، ذلك الكره الذي لم يظهر بكامله أبداً.

لا أعتقد أن هذا المشهد مع الأم كان صادقاً في هذا الاتجاه بتحديده اللاحق للموقف المثلي لهذه المرأة. فكثير من المؤلفات حول الانحرافات الجنسية اتجهت خطأً في جعل مثل هذه الحوادث تلعب أدوار المسبب. وبالنسبة لنا، ينبغي النظر، مركزين على هذا المشهد، في كل الميول التي تشترط الحياة الجنسية لمريضتنا في مجملها. إن اللوم الذي وجهته لأمها بمنعها من الاستمناء وُجد كذلك بالتأكيد بدون هذا المشهد. وكان على رد فعل الحقد ضد الأم، المرتبط بالبنية العدوانية للشخص، أن يظهر أيضاً في مواقف أخرى من طفولتها، وكذلك لوم الأب على عدم حمايتها ضد أمها. لكن هذا المشهد حمل هذه الميول لدرجة محددة وأصبح هكذا نوعاً من النموذج الأولي، بالنسبة للحوادث اللاحقة.

وانطلاقاً من هذه الحقبة، اشترك كل هيج جنسي بتحريم الأم وبتحريضات عدوانية شديدة جداً ضدها. وقد قاومت الشخصية النفسية بكاملها للشخص

بتحريضات الحقد هذه، وبرد فعل أظهر عندها شعوراً شديداً بالذنب تجاه أمها، مع تحول كرهها إلى حب ماسوشي. ويفسر ذلك الخوف الذي كان عند هذه المرأة بأن "تكون مستبعدة"، خوف نتج عنه، بحسب رأيها، عدم جدارتها بإقامة علاقة مثلية. لقد كانت خائفة بالفعل من ارتباطها الماسوشي بأمها. ونفهم أيضاً لماذا خافت من النساء اللواتي استخدمتهن ولماذا لامت زوجها لعدم حمايتها ضد هؤلاء النساء. والإشراك الكائن فيها بين حادث الطفولة، والعملية الخطيرة لأمها، ومحاولاتها الخاصة بالانتحار ترجمت بوضوح في أحلامها. وعندما أحست أن الطبيب عطوف وأنقذ حياتها إلا أنه كان عاجزاً عن مساعدتها، عبرت عن خيبتها تجاه والدها التي لم تتجاوزها أبداً.

وعلى العكس توقعنا، لم تبد هذه المرأة المثلية صراحة أي أثر للعقدة الرجولية. وبالتأكيد، كانت قد تجاوزت، خلال مرحلة بلوغها، فترة أبدت فيها ميلاً قوياً لنشاط من نمط رجولي. وقد أظهرت اهتمامات كانت، بالنسبة لجيلها على نحو خاص، غير مألوفة بالنسبة لفتاة من طبقتها الاجتماعية. إنما هذا العنصر الذكري كان آنئذ متسامياً بتألق، وبقي هكذا.ولعب اندماج هذه المرأة مع أبيها دوراً كبيراً في فضولياتها الذهنية، إنما ليس في ميولها المنحرفة.

وبفضل العلاج، تحررت من ضيقها النفسي ومن إدانتها لنفسها (كانت تعتبر نفسها في السابق مذنبة جداً)؛ وقد توصلت أيضاً لتجاوز عصابها الخطر. وتوقفت حالاتها الاكتئابية على نحو كامل وأصبحت سعيدة. كما اختفت الرغبة بالموت، التي طالما رافقت شعورها بالوحدة وتطلعاتها الغير مشبعة. وقد وجدت السعادة بعلاقة غرامية، غير مكبوتة هذه المرة، مع امرأة. وكانت هذه العلاقة، بالشكل ذاته، مرتبطة بصورة واضحة بعناصر نفسية من مرحلة الطفولة الأولى. وهي لا تتضمن أي تقابل رجولة- أنوثة، إنما، بشكل أساسي، تقابل إيجابية- سلبية. مع تفهم شعوري للموقف، وتأخذ المرأتان علاقة أم - طفل، حيث تارة تكون إحداهما الأم وتارة الأخرى، نوع من الكوميديا بدورين مزدوجين. ويتعلق الإشباع الجنسي المنشود في هذا الحب المثلي بالفم والأعضاء التناسلية الخارجية. وهو يمضي دون القول بأن هذه التجربة تقع أدنى مما يطلبه التحليل النفسي من شخصية راشدة؛ وفي مثل هذه الاجتياحات المستخدمة للإشباع الجنسي، يرى

التحليل خطراً وليس شفاء من العصاب. إنما الهدف العلاجي لا يمكن أن يتحقق أحياناً بحل وسط. وفي هذه الحالة، لا يصحب التحليل المريضة إلى التخلي عن مثليتها والتوجه نحو الرجال؛ وهكذا فمهمته الفعلية لم تتم. إنما وصلت هذه المرأة التعيسة، والتي كانت على حافة الانتحار، إلى حالة تضبط فيها خوفها وعدائيتها تجاه أمها، لقد تمكنت من تذوق الحنان والإشباع الجنسي. ويتضح أن حلاً أفضل لعلاقة أمومية مشؤومة يبدو مستحيلاً.

لعلنا نتفهم التاريخ التطوري لهذه المرأة، حيث قبلت أيضاً، بعد مرحلة من التردد الجنسي أن تحب رجلاً إذا أظهر قوة تكفي لإنقاذها من خطر أمها، وقد تخلت عن هذا الأمل، فكل الرجال هم ضعاف مثل والدها (زوجها، وطبيبها الذي كان يتبسم لها) ؛ ربما كان عليها الاحتفاظ بكرهها القاتل لأمها ومعاقبة نفسها على ذلك بعقاب الموت. وقد لا تتكمن من أن تكون سعيدة وتحيا إلا إذا بادرت بمصالحة أمها. وهذا لم يكن ممكناً في طور تراجعي معقد يعود بها إلى مرحلة من حياتها كانت أمها فيها أداة حب ولازالت محبوبة ونافعة. وقد تحول الكره إلى حنين عميق للأم عبّر عن نفسه برموز الموت (الأحلام، ومحاولات الانتحار) وبحب مثلي. وفي تحقق هذا الحب، رقّمت الأحداث التي أدت إلى كره الأم، فالأم التي حرّمت الإشباع الجنسي بالاستمناء، عليها الآن أن تتوقف عن تحريمه، لا بل وافقت عليه بمساهمتها به بنشاط. الرفض القديم لحب الأم، وعقوباتها القاسية، كوفئ بإشباع، وذلك بآن واحد في تجربة سلبية حيث الأم الجديدة، تمنح بدلاً من أن تحرم، وفي التجربة النشطة حيث تلعب المريضة نفسها دور الأم.

وقد يبلغ الإشباع من المثلية حداً عالياً في مثل هذه العلاقة. وهذه الأم هي التي تصوغها غالباً الطفلة الصغيرة على النحو التالي: " لو كنت صغيرة ولو كنتُ أنا كبيرة " تتحقق في موقف حيث تستطيع الطفلة أن تفعل لأمها ما كانت تفعله لها فيما مضى.

ويتعلق الشكل الذي تتخذه المثلية في حالات مشابهة، بالمرحلة من النمو حيث تكون العلاقة مع الأم قد تكوّنت. وإذا كانت الغاية معالجة الصدمة التناسلية أو شهوة العضو الذكري، سيستقر نشاط انتصابي وعلاقة مثلية تأخذ طابعاً ذكورياً. وإذا على العكس علاقة أم – طفل المتكررة كانت أكثر طفولية، كما هي

حالة مريضتنا، فإن النشاط سيتوضع في المناطق الجسدية المرتبطة بإشباع الحاجات الغريزية للطفولة الأولى. إن إيثار المنطقة الفموية في الأنشطة العشقية للنساء المثليات يرتبط مع هذه العلاقة الأمومية.

لقد أنكر غالبية الكتّاب تكرار هذا الشكل من المثلية الأنثوية، الشكل الذي عثرناعلى أثر له في الحنين المرفوض للأم. هؤلاء النساء تنشدن علاقة أم – طفل، بأدوات الحب المثلي، واللواتي تعترفن بها إلى حد ما بصورة شعورية. فالنوم معاً متعانقتين بصورة متلازمة، ومص نهود الواحدة للأخرى، والملامسات الجنسية والفموية، والممارسة المكثفة للإثارة الفموية المتبادلة للأعضاء التناسلية، تلك هي أشكال الإشباع المنشودة لهذا النمط المثلي.

فالمرأة التي عالجتها تحليلياً كانت تقسم هذا الدور المزدوج بين نمطين من الأدوات أحدهما يتمثل بفتاة عديمة الأهمية ومحتاجة وتأخذ دور الطفلة وتأخذ الدور الثاني امرأة أكبر عمراً، وذات طاقة عالية ومتسلّطة والتي تأخذ مريضتنا أمامها دور الفتاة الصغيرة التي لا سند لها. يستقر هذا النوع الأخير من العلاقة عندما مريضتنا هذه، التي كانت نشطة جداً وطموحة بصورة احترافية، تحس بصداقة متسامية لامرأة أخرى، وتتخذ خلال فترة قصيرة موقفاً بالكاد أن يتصف بالتنافس، ثم راحت تفشل في عملها بصورة عصابية على نحو واضح بحيث تصل إليه باتخاذ وضعية التبعية تجاه المرأة الأخرى. وهكذا، مثلاً تبادر إلى عمل تقني مع امرأة أكبر عمراً؛ وفي النهاية تأخذ دور سكرتيرة، مع أنها قد تكون أكثر موهبة من الاثنتين. وقد تكررت حوادث جنسية خلال هذه التعاون فتكون دوماً المرأة الأخرى التي أخذت دور المحرّض النشط.

وإليكم قصة هذه المرأة. لقد كان عندها عدة أخوات وأخوين، والذي إحداهما فقط، يكبرها بأربع سنوات، لعب دوراً في حياتها. وعندما كان عمرها تسعة أشهر فقط، أنجبت أمها فتاة أخرى، والتي كانت منافستها بالرضاعة الأمومية. وظلّت لفترة طويلة في موقف منافس مع هذه الأخت والتي تتبع خطاها دائماً، وبالطبع بالإفراط في التعويض. وقد سمعت قولاً، وهي لازالت غضّة، مفاده، عندما يكون فارق العمر صغيراً جداً بين أختين وهناك تشابه واضح، فإحداهما فقط ستتمكن من الزواج وإنجاب الأطفال. حينئذ تخلّت عن دور المرأة لصالح أختها؛ ثم

وهي مراهقة، عندما تطلّق أبويها بعد ولادة الطفل الأخير، تخلّت لصالح أختها عن المطالبة بالبقاء مع أبيها، وبقيت مع أمها.

وقد أبدت وهي صغيرة جداً بعض ردود الفعل القائمة على ميول عدوانية، والتي ظهرت قبل ولادة أختها الجديدة (كانت حينها في السادسة من العمر)، دللت على عصاب هاجسي؛ إلا أن ردود الفعل هذه لم تتطور بصورة ذات شأن. وخلال حمل أمها في تلك الحقبة، لامت نفسها بشدة لأنها لم تكن لطيفة مع أمها بالنبة للمولود القادم والذي كان أختها الأصغر والتي،حسب قناعاتها، كانت تصلي لها كل ليلة ولأمها.

وكانت تتعلق ردود فعلها على نحو خاص بأمها الحامل وبالطفل المنتظر. وسيطرت على هذه المرأة طيلة حياتها مشاعر الذنب واشترط تشكيل طباعها بمساعيها لتعويض الكره القاتل الذي تحسّه لأمها ولأختها القادمة باللطف.

وخلال حملين تاليين لأمها (كانتا أيضاً بنتان) تكرر رد الفعل نفسه، والموقف النفسي من الطفلة لم يتعدل إلا بولادة أصغر أخواتها، وعندما كان عمرها إثنا عشرة سنة. والفترة التي خلت، خلال طفولتها الأولى، كانت تعتقد دوماً أن والدها رجل غامض، وغريب وقوي، وفي حضوره لم تستطع منع نفسها من إحساس الخجل والقلق النفسي؛ لكن موقفها تغير شيئاً فشيئاً، لأن الأب أصابه مرضاً في القلب والذي انتهى بمنعه عن العمل. ومنذ ذلك الحين، شهدت العائلة مصاعب مادية، وحرّض ذلك الفتاة على الرغبة في اتخاذ مكانة الأب. وسرحت بتخيلاتها إلى أن وصلت لمواقف متسامية في إعالى عائلتها. وبالفعل، حققت فيما بعد هذه الخيالات بقوة عملها.

ورغم اندماجها مع أبيها، وموضوع غيرتها من رجولة أخوتها، وموقفها في فترة ولادة أختها الأصغر، كانت أنثوية بصورة تامة. وكانت تعشق لعب دور "الأم الصغيرة" حينذاك، وتطالب أن يُعهد لها بالكامل رعاية المولودة الجديدة. وهنا كانت تتصرف تماماً مثل باقي الفتيات. وفي تلك اللحظة، كانت علاقتها مع أبيها طبيعية أيضاً. وبعد تنزيلها عن العرش من وضعيتها المتسامية والصعبة البلوغ، تمكنت من تجاوز خوفها وأحبت المولودة بحنان.

وبالعودة إلى أبيها، وقعت في مصاعب جديدة. فشعورها بالذنب تجاه أمها كان مفرطاً في أهميته لتتحمل عبء إحساسها بالمنافسة معها في حب والدها. وتخلّت أيضاً عن هذه المنافسة، كما تخلّت في السابق عن منافسة أختها الأصغر، وعادة هذه المرة حتماً إلى أمها.

تتعلق مثلية هذه المرأة بأسباب نفسية على نحو جلي. إنها تنفي، مثل مريضتنا السابقة، كرهها الطفولي لأمها وغيرتها من المولودة الجديدة بإحياء مواقفها القديمة التي ثبتت بوضوح في عالمها العاطفي وبتزويد هذه المواقف، على خلاف ما كانت عليه في السابق بصورة فعلية، بمزاج مشبّع. وفي تجاربها الجنسية مع نساء أكبر منها سناً، لعبت دور الطفل الذي يعيش ثانية لذة أن يكون محبوباً من أمه ويتغذى في حضنها. وكان يحمل موقفها السلبي والخاضع لهؤلاء النساء الأكبر منها، آثار علاقتها القديمة والشعور الثقيل بالذنب مع أمها.

وقدمت لها علاقاتها العشقية مع نساء أصغر مناسبة لإشباع رغبات أخرى. فهذه العلاقات لا تتطابق فقط مع الجزء النشط للعلاقة الأصلية أم_ طفل حيث تندمج مع الأم التي تغذي، إنما تستفيد من عناصر جديدة مستعارة من فترة بلوغها، اللحظة التي ولدت فيها أختها الأصغر. لقد جعلت من نفسها بطلاً لهذه الأخت (والتي لعبت تجاهها دوراً أمومياً فعلياً، بتسامٍ راسخ بصورة حتمية)، لكنها كانت مثلية بصورة غير متسامية تجاه أداة حبها، وتجاه فتاة أخرى من عمر أختها الأصغر. وفي هذه العلاقة، كانت تارة أم ترضع طفلها، وتارة طفلة ترضع نفسها. وخلال هذه التجربة الجنسية، توصلت إلى تحويل كرهها لأمها إلى حب، لأن حضن أمها قدّم لها؛ وفي نفس الوقت، استطاعت أن تكون أماً نشيطة تغذي وتحول هكذا عدوانيتها تجاه أمها إلى نشاط.

وفي هاتين الحالتين، للمثلية الأنثوية[1]، اللتين ذكرتا باختصار، نرى أن الانحراف الجنسي الغريزي ينجم ليس عن استعداد بيولوجي، إنما عن أحداث الطفولة. ونظراً للحميمية العميقة التي تتضمنها علاقة أم – طفل، قد لا ندهش عندما نرى أن هذا الحنان للأم، المعزز بشعور الذنب، يمكن أن يهيمن على الحياة

---

[1] Cf. Deutsch, H: On female homosexuality, Psychoanal, Quart. vol. I, 1932.

العاطفية لمرأة ويمارس تأثيراً على رغباتها الجنسية. وفي الحالة الأولى، كانت الحاجة للأم مترافقة برغبة الموت. فتحويل هذه الرغبة إلى إشباع جنسي كان إشارة الخلاص لمريضتنا، إنه إثبات للحياة التي حمتها.

لقد اخترنا هاتين الحالتين من بين عدد كبير من الحالات الأخرى. وعندما نقلب الملاحظات التي جلبناها من أخصائيي المسائل الجنسية، أدهشنا ميلها المميز في تفسير التعاكس بأسباب بيولوجية تماماً مع إهمال الدوافع النفسية الأكثر عمقاً. ويبدو على نحو خاص أن الدور الذي تلعبه العلاقة الأمومية يبقى غير ملاحظ لمعظم الكتاب. فإحدى النساء، مثلاً، التي ذكرت "هافلوك إيليس" قصتها تروي أن تجربتها العشقية الأولى، في عمر السادسة عشرة، كانت مع امرأة:

كنت أشبه بيتيمة عثرت على أمها؛ وبفضل هذه المرأة، تقلّصت عدائيتي ضد الراشدين وجعلت، للمرة الأولى، امتلك احتراماً ما للذين يقولون... حبي كان نقياً على نحو كامل وكنت لا أفكر بهذه المرأة إلا كأم. ولم تكن تحدث في ذاتي أدنى شعور أعتبره جنسي. كنت أحب الاحتكاك معها، وتأخذني أحياناً بين ذراعيها أو تجلسني على ركبتيها. وفي المساء، تأتي لتتمنى لي ليلة سعيدة وتقبلني من فمي[1].

فضلاً عن ذلك، تروي هذه الفتاة أنها أحست بعواطفها الجنسية الأولى في هذه العمر، وأن هذه العواطف كانت مشتركة بشخصية مدرسها. وخرجت ثانية من كل هذه القصة على نحو واضح والتي سعت في أن تجعلها طويلة قدر المستطاع وإلغاء الإحساس الجنسي من علاقاتها العشقية مع النساء؛ ومع ذلك، في أعقاب ذلك أصبحت مثلية بشكل صريح.

شخصية أخرى لـــ"هافلوك إيليس" أبدت أولى مشاعرها في حب مدرستها:

وجه المدرّسة كان جميلاً جداً، إنما حزين، وتفكر الفتاة بها باستمرار، مع أنه لم يكن لها معها أي احتكاك شخصي.

حب هذه الفتاة كان دوماً نذراً للنساء الأكبر منها، *والمشاعر التي أحست بها كانت الشفقة، والرحمة، والحنان، للشخص الذي كان يبدو حزيناً جداً وواهناً جداً. هوذا المظهر الذي جذبني دوماً*[2].

---

[1] Ellis, H. : Op. cit., vol .I, pt. 4, p. 238.
[2] Ibid. , p. 227.

تحدثت "هافلوك إيليس" عن امرأة أخرى كان لها، خلال مرحلة طفولتها، مشاعر كره تجاه أمها هي الأعنف، وخاصة بسبب الألم الذي تعاني منه كونها فتاة، لقد امتد هذا الكره للعالم بأسره، ولم تتصالح مع الإنسانية إلا بفضل حب عشقي لإمراة أمومية.

وواحدة أخرى أشركت حبها بمشاعر الشفقة واتبعتها بصورة ظاهرة بمشاعر الذنب.

هذه العلاقة العميقة اللاشعورية بالأم عبرت عنها غالباً القصائد وقصص السيرة الذاتية لنساء مثليات؛ ونادراً ما اكتسب ضينهن المؤلم والوادع لحب أنثوي طابعاً ذكورياً.

وإذا علقنا أهمية أولية على هذه الصلة الأمومية وادعينا، عند عدد كبير من النساء المثليات، أن الحاجة للتوحد مع الأم هو الأمر السائد، فإن التجربة التحليلية تعلمنا أن هذه الصلة الأولية يجب أن تعزز بعناصر أخرى لكي تفسد بصورة قوية ومباشرة حياة المرأة الراشدة. وتكتسب هذه العناصر الإضافية في مرحلة البلوغ فعاليتها الحاسمة. وفي الموقف الثلاثي، يمكن لجاذبية الأم والحنين الخالد الذي تحمله الفتاة أن يتأكد بقوة أكبر من المطلب البيولوجي للتبادلات الجنسية. والتأثير الملائم أو غير الملائم للأب يحدث دوماً إحساساً، خلال مرحلة البلوغ،على الصلة الأمومية الأصلية. فحب الأب قد ترفضه الفتاة لأنها ترتابه؛ أو لأن الأب يقصّر في منح الحب المتوقع؛ وقد يرجّح هذان الاحتمالان حاجة الفتاة للحب باتجاه الصلة الأمومية القديمة، كما أن شعورها بالذنب، والحاجة في إحساس المصالحة مع أمها، يعززان الجذب في الحقل المغناطيسي الأمومي.

وقد دحض تحقيق معمق هذا الرأي والمقدم غالباً للمحللين النفسيين بأن العلاقة الطفولية للفتاة مع أمها تنتهي بالكره وأن لارتباط اللاحق يتشكل من حب صغير متبقٍ ومن كره متراكم. وهانحن نقرأ بيتين من الشعر في كتاب " عشاق وأبناء" لـــ D.H.Lawrence يعبران عن حقيقة عميقة:

الابن يظل ابني حتى يتخذ لنفسه امرأة
لكن ابنتي تظل ابنتي طيلة أيام حياتها

فلا يظهر خطر التحول المرضي إلى المثلية إلا إذا ترافق هذا الحب بإفراط في العناصر الطفولية التراجعية أو مركبات عدائية. وعدا عن ذلك، فهذا الحب هو أحد مصادر غنى حياة المرأة.

الفصل العاشر

تأثير العالم المحيط

إن التكيف مع الواقع هو الغاية الرئيسية لكل تربية؛ وهو غاية العلاج التحليلي النفسي أيضاً. ويحتاج الفرد لكي يتكيف، أن يقيّم العالم الذي يعيش فيه إلى حد ما، والإشباع الذي يجب أن يناله من هذا العالم يتبع بدوره الحالة الانفعالية التي يكون فيها. فالجسر الموجود بين الفرد ومحيطه يكون، منذ بداية حياته، في علاقته العاطفية مع محيطه. ويُشترط قبول الواقع من ناحية بالحب وبالحاجة للحماية، ومن ناحية ثانية بالخوف من العقاب ومن الوحدة العاطفية. ويعلمنا التاريخ التطوري للفرد الوسائل التي بواسطتها يتعلم كيف يضبط بـــ " الحب" عدوانيته الأولية ضد العالم المحيط والمخاوف التي يحسها فيه. والمركبات العدوانية للحب تبدو لنا مألوفة؛ مثل الغيرة، والشعور بالتنافس، وكره الخصم، ترافق كلها الكائن الإنساني من المهد إلى اللحد. وتتغير أدوات هذه العواطف ويمتد الميدان الذي ترتع فيها الصراعات العاطفية شيئاً فشيئاً. وتكرر دوماً علاقات الفرد مع الوسط الثقافي الذي يحيط به إلى حد ما علاقاته القديمة مع العالم الصغير لطفولته، بنشر جديد مُراجع بالتأثيرات الخارجية.

وفي البنية الاجتماعية التي ورثناها من عدة قرون، تشكل فيها الأسرة الجو الأول للفرد وترسم مستقبله مسبقاً وبصورة أشمل موقعه الاجتماعي. ويمكن لمشاعر

المنافسة، التي تعتبر غالباً كنتيجة للظروف الثقافية، أن تلاحظ في أوج ازدهارها ضمن الإطار العائلي، وضمن العلاقات التي تكون لأفراده فيما بينهم. وتتجلى هذه المشاعر بصورة خاصة وشاملة جداً بحيث لنا الحق أن نرى فيها جزءاً من البنية الإنسانية الطبيعية. وهي لا تصف فقط الطبيعة البشرية؛ إذ تظهر أيضاً بالحيوانات الداجنة بوضوح كامل. فالكلب الموهوب بأفضل فطرة يهاجم منافسه بغضب شديد، ليس فقط لأنه انتزع منه عظمة، إنما أيضاً عندما يحس أن صاحبه منح منافسه مودة أكثر منه. فقد يهمل حتى الغذاء الموضوع أمامه، هذا الغذاء الذي يشبع غريزة بقائه، إذا رأى منافسه يتلقى المداعبات. ويمكننا أن نرى أيضاً ردود الفعل هذه عند حيوانات أقل تدجيناً. فتظهر الملاحظة المعمقة لعلاقات الصداقة الموجودة بين البقر ضمن القطيع، مثلاً، أن لهذه الحيوانات، في بعض الظروف، تصرفات تقارن بتصرفات البشر. فاللحس المتبادل للجلد، على سبيل المثال، يتوافق مع حاجة فيزيولوجية، إنما ليس هناك من شك أنه يوجد خلال هذا الطور أحاسيس بالمتعة. وتبين حياة البقر ضمن الجماعة، بالارتباط بهذه الأحاسيس، خصوصيات تذكرنا بالمنافسات البشرية.

فالجو العائلي حيث يعيش الأطفال يساعد على ميلهم لمنافسة ملأى بالغيرة. وللتكيف مع الواقع، يستخدم المراهق كل القابليات التي وهبته الطبيعة إياها، والتي هذبتها التربية بدرجة لا يكون، في الحياة الاجتماعية، غير محتمل بعدوانيته المفرطة ولا عاجز بالكبت. فقوة الغرائز غالباً ما تتخطى تأثير التربية؛ وغالباً ما يتضح أن مقتضيات الوسط الاجتماعي صعبة لدرجة مفرطة، ويتبين أن قدرة الكائن الشاب على التكيف وعلى السيطرة عما يحيط به غير كافية. فهناك مشاعر الدونية، والوحدة والخوف من ناحية، ونمو القوى العدوانية من ناحية أخرى، قد تنهك حد التغاضي عند الفرد، فيدخل عندئذ بصراع مع نفسه أو مع المجتمع. ويمكن للصراعات النفسية التي رافقت نموه كله، والتي في بعض الظروف لا تعرض توازنه للخطر، أن تتكثف في مصادفة مقتضيات الثقافية أنهكت إمكانياته ومسألة معرفة ما إذا كان الفرد هو الضعيف جداً أم أن العالم المحيط فائق التطلبات تذكرنا تماماً بمسألة الدجاجة الأولى أم البيضة الأولى. والصعوبة نفسها تخص العدوانية، وروح التنافس، وجميع العيوب البشرية التي بولغ فيها بواسطة تهييج الحياة الاعتيادية. ونحن

نلمح هنا إلى الصعوبة الكبيرة في إشباع مختلف الحاجات الغريزية وتطلعات الأنا، على سبيل المثال في أعقاب موانع داخلية وخارجية للتسامي، الخ.

ويخلق كل وسط ثقافي بصورة طبيعية صيغته الخاصة في التعبير عن الأطوار النفسية الثابتة للإنسان ويعين المركبات المختلفة لبنيته النفسية بطريقة معينة. ويؤدي هذا إلى اختلافات ثقافية، وعرقية، وقومية؛ ويمكن لهذه الاختلافات أن تعتبر كواجهة تتوارى خلفها المركبات الخالدة، والعميقة، والمتغيرة، والغريزية بطريقة كمية فقط، للحياة النفسية. بيد أن العوامل الثقافية قد تكون قوية لدرجة أنها تعدل السلوك البشري تعديلاً كبيراً بل وتؤثر في المظاهر الغريزية الأكثر عمقاً والمشروطة بصورة بيولوجية. وقد تطبع صيغتها على البنية العضوية وتحفظ تحت تبعيتها ليس فقط تكرار ثقافة حالات العصاب، إنما أشكالها السريرية. وهكذا فالموضوع المتعارف عليه أن بعض أنماط العصاب تسود مسبقاً في بلد ما في حين حالات أخرى تسود مسبقاً في بلد آخر قد تفسّر بكل تأكيد بالاختلافات الثقافية. وزيادة على ذلك، فقد لوحظ أن بعض مرحل التاريخ وصفت بهيمنة مسبقة لمرض نفسي أو لآخر؛ كما لوحظ تعديلات في فترات زمنية قصيرة نسبياً. على سبيل المثال، الحالات الدرامية للهستيريا، القوية الأعراض، كانت نادرة لأقصى حد خلال السنوات التي أعقبت عام 1930؛ وتماماً قبل بداية الحرب، ثم عادت هذه الحالات لتصبح أكثر تكراراً.

ومن البديهي من ناحية أخرى، أن المنافسة بين الأفراد، وكل ما يؤدي إلى قضية، يعزى الاتهام به إلى النظام الاجتماعي الفردي. وبصورة عقلانية، يمكننا أن نأمل رؤية الإقلال من هذه الروح التنافسية، ضمن منظمة جماعية للمجتمع، التي أصبحت وحشية جداً في علاقة الأفراد فيما بينهم وفي علاقاتهم بالمجتمع. مثل هذه المنظمة قد تحوّل المنافسة الفردية إلى منافسة فئوية وتصبح هكذا محتملة أكثر. فالجماعية تقدم لنا بصورة أكيدة حماية أفضل، ضد التنامي الشديد للمشاعر الفردية، ومن أية منظمة فردية بشكل صاف. وهناك صيغة جديدة لمجتمع يمكن أيضاً أن يقود إلى الإقلال من عدد وخطورةً حالات العصاب. فحتى اللحظة، التحقيق الذي نقوم به في الدول التي يمكن لتجاربها الاجتماعية أن توضح لنا هذا الموضوع غير مكتمل بعد.

ومن المؤكد كذلك، أنه غير مرضٍ الاستفادة من روح الخضوع عند المرأة، الروح المتمسكة بسلبيتها، لتسخير رغباتها الجنسية الخاصة، فلقد استثمر الرجل ميزة الضعف الجسدي للمرأة ودونيتها في الصراع الاجتماعي. فما علينا إلا ملاحظة الدول الرأسمالية الأوروبية حيث يستغل العمل الصناعي الأنثوي بلا رحمة. وقد اعتبر المذهب المادي النظام الاقتصادي مسؤولاً عن استغلال المرأة وأهمل تماماً الميل اللاشعوري الذي تتعرض له المرأة لقبول هذا النظام بصورة سلبية. وفي غضون السنوات الأخيرة فقدت أصوات الاحتجاج المرتفعة ضد اللامساواة الاجتماعية وسياسة الجنسين، كثيراً من عنفها لأن مطالب المرأة أصبحت، رويداً رويداً، في الدول الديمقراطية، أمراً بديهياً. وتكمن مهمتنا الآن في تنظيم المساواة الاجتماعية بصورة تأخذ بعين الاعتبار الفوارق البيولوجية والنفسية بين الجنسين. ومن الجدير بالاهتمام الشروع بدراسة ثقافية_ تاريخية للمرأة، من زاوية التحليل النفسي، وبحث الشروط التي تثبتت والتي أعطتنا فرصة لملاحظة تأثير التغيرات الاجتماعية على ردود الفعل النفسية للمرأة.

فحين تُدرس الفوارق بين الجنسين ذات الصلة بمسألة العدالة الاجتماعية، يجب أن نهتم أولاً بالمسائل الجنسية. ولازال مبكراً جداً الحكم على نتائج الحرية الجنسية للمرأة والاستحسان الذي منحته المجتمعات الجماعية لنظام تعدد الزوجات، لأن الوثائق حول هذا الموضوع تبدو متناقضة. ومع ذلك، سندرس من وجهة النظر التحليلية النفسية، تلك الوثائق التي تبدو لنا الأكثر مساساً بالموضوع.

كتاب "مسالك الحب" للزعيمة السياسية الروسية البارزة " ألكسندرا كوللونتاي" يدرس لب المشكلة التي تشغلنا هنا. ومع أن الكتاب ليس مؤلفاً أدبياً عظيم الشأن، إلا أنه وثيقة ثقافية وتاريخية هامة، لأنه يعبر بإخلاص عن أفكار النساء والفتيات الروسيات خلال الفترة الأولى من الثورة. ويعلمنا هذا الكتاب بعض الأطوار النفسية ويظهر لنا بنفس الوقت تأثيرات التغيرات الثقافية القاسية على هذه الأطوار. وكانت المؤلفة قد احتلت وضعاً حكومياً هاماً خلال الانقلابات الثورية في روسيا وامتلكت هكذا فرصة دراسة حياة كثير من النساء. فحتى حين تعرض الحالات التي وصفتها كقصص خيالية، نحسها قامت على الملاحظة المباشرة لشخص جهد في أن يكون موضوعياً. ومما يجعل كتاب هذه المرأة

على نحو خاص من الأهمية أنه يقدم قضايا الساعة دون التعبير عن أية رغبة في حلها. وتبدو هي نفسها جاهلة إذا ما الصراعات التي تحدثت عنها هي فقط مآسي فردية أم نتيجة الانقلاب الاجتماعي. وهي لا توافق ولا تدين؛ مع أنها واثقة بالعظمة وبالقيمة الخلاقة للثورة. وهي تمتنع عن الحكم على الصيغ الجديدة في الحب وفي الحياة.

وقد وضعت حياة ثلاثة أجيال. وشخصياتها الرئيسية، ثلاث نساء عندهن إيمان متعصّب بالتقدم الثوري وتتصورن حياتهن بالعمل متفانيات لمثلهن الاجتماعية. واستناداً للمراحل اللواتي اجتزنها، تنتمين لأحزاب سياسية مختلفة والتي لها برامجها ومناهجها المختلفة؛ إنما هن الثلاثة ترغبن بشوق في تحرير الشعب الروسي وحياتهن ملأى بنشاط التضحيات في سبيل مثلهن الأعلى.وعلاقتهن العاطفية المتبادلة لا شأن لها بعاصفة صراعات الحزب. وما فرّقهن، هو عجزهن عن الرؤية بنفس الطريقة، والعشقية، والمجال الموجود ما وراء مهماتهن الاجتماعية، ألا وهو المجال الشخصي للمرأة. فكل واحدة منهن تتبع إذاً رأيها ضد رأي الأخريتين وتسعى لتفسير الاختلافات التي تواجهنها بالاختلاف الموجود بين الأجيال. وترى أصغرهن، أن الكبرى من بينهن انفعالية؛ وهذه الأخيرة تعاني من نقمة أخلاقية من الأخرى، وبدأت تشك بنفسها، وتتساءل بخيبة أمل إذا ما منعتها معتقداتها القديمة فعلياً من تفهم الأخلاقية الجديدة لابنتها إنها عملياً عاجزة عن الدفاع عن عبارة الاحتقار الفظيعة، " حكم مسبق برجوازي" ، إذ يشوشها ويدفعها إلى التساؤل إذا لم تكن، في نهاية الأمر، ملأى بالأحكام المسبقة.

وهي تعلم أنها وُضعت في موقف مشابه تجاه أمها، وأنها أحست كذلك بهذا الشهور بأنها كانت "متقدمة" والجيل السابق ممتلئ بـــ "الأحكام السلفية". نريد أن نخضع حياة هؤلاء النساء لتحليل نفسي مختصر على أمل أن نجد فيها تفهماً أفضل لمشكلاتهن التي لم تفهمنها هن أنفسهن. وسنحاول أولاً تحديد درجة سوء التفاهم بين الأجيال الثلاثة والآتية من أن التأثيرات الخارجية تصوغ نفسيتهن بطريقة مختلفة.

تلك المرأة من بين هؤلاء النساء التي تصف الصراعات التي تواجهنها، تمثل الجيل المتوسط، وبسبب ذلك، فهي تتلقى الهجوم من جانبين. وأولغا سيرجييفنا

فاسيلوفسكايا هي ابنة ماريا ستيبانوفنا أولشيفيز، التي وُصفت لنا بوضوح. واستناداً لوصفها كانت ماريا العقلانية النمطية لسنوات 1890، وهي ناشرة لكتب علمية شعبية والمبشرة التي لا تلين لتربية الشعب. وهي تتمتع باعتبار كبير في أوساط الشخصيات السياسية الليبرالية لعصرها. ومع أنها لم تساهم أبداً بالحركة الثورية السرية التي كانت تتهيأ، قدّمت لها خدمات جليلة، وكانت قريبة بأفكارها من نورودنيكي، وهو حزب ثوري في أعوام 1880. وكانت شخصيتها قاسية وتوحي بالخوف. وتتكلم دوماً بجفاف، ودقة، وتدخن السجائر. وترتدي ثياب بسيطة ومخالفة للموضة، بما يبقي عليها هيئة "سيدة"، ومعتنية بيديها، ولابسة قرطاً من الذهب مع ياقوتة، الخ. وكانت هيئتها تختلف تماماً عن النمط المهمل من الثوريات "اللاشرعيات".

وتتعلم أولغا من هذه الأم الصارمة صاحبة الضمير والذمة والتي كانت، في شبابها، خائبة في الحب. وبلورت هذه التجربة القانون الأخلاقي الصارم الذي كانت قد فرضته مسبقاً على نفسها. وهي تحتقر وتدين كل أولئك الذين لا يحيون بموجب هذا القانون والذين لا يشعرون ولا يفكرون مثلها بما يخص القضايا الأخلاقية الجنسية. وينشب صراع بين الأم والبنت، ليس بسبب التباينات السياسية، إنما بسبب تصوراتهما المختلفة عن الأخلاق، وخاصة بما يخص تجاربهما الغرامية. لقد كانت ماريا ستيبانوفا دوماً، في حياتها الشخصية، "تقدمية" ؛ فقد تحررت أولاً من تبعيتها لأهلها، وتزوجت ضد إرادتهما، وفيما بعد، حين أصبحت عاشقة لرجل آخر، حطمت ارتباطات زواجها وأمومتها. وبموازاة هذه التقلبات، عملت بلا كلل وبإرادة حديدية في مسألة التربية الشعبية. في حين أن زواجها الأول أدانته بدرجة ما من السلبية، وتغير موقفها برمته في زواجها الثاني. سيرجي ايفانوفيتش، زوجها الثاني، كان مثقفاً روسياً، عقله مشوش ومثالي وليس له باع في الحياة العملية، والذي كان يتحدث بعاطفة عميقة عن بؤس الفلاحين وضرورة العمل على تحسين أوضاعهم. كما تتحدث أولغا عن أبيها بطريقة فيها شيء من الهزء مثل "هذا البطل تشيخوف". وسقطت هذه المثالية بتبعيته كاملة لزوجته النشيطة ذات الطاقة العالية، وأصبح ثورياً تافهاً ضعيف الشخصية خاضعاً لتأثيرها، وسافر إلى المنفى معها، وساعدها في عملها. وبنفس الوقت تمالك من الناحية

الأخلاقية، وأصبح مترهلاً وبديناً، وجعل يشرب الخمر. وانتهت حياته الزوجية مع ماريا في اليوم الذي ضبطته فيه زوجته المتكبرة بالجرم المشهود مع آريشا راعية البقر، وعلم أنه جعل هذه الفتاة تحمل منه. وقامت ماريا بالطبع بما أملاه عليها قانونها الأخلاقي؛ وسرعان ما غادرت زوجها، واصطحبت ابنتها أولغا غير مكترثة بقدرها الشخصي، واستمرت بالعمل من أجل القضية. ومع أنها أكدت فيما بعد أنها أحبت سيرجي وظلت وفية له، لم تبدِ إطلاقاً أسفاً عليه. وعلمت أولغا هذه القصة من فم أمها نفسه والتي احترمتها وأعجبت بها على الدوام.

ولم يكن بوسع الليبراليين الروس إلا القبول عندما غادرت أولغا زوجها وطفليها فجأة، مشبعة حاجتها للحرية. وبنهاية الأمر، أحدثت تلك الفلسفة الليبرالية التي وضعت حقوق الفرد الأعراف الاجتماعية وطالبت بتحرر المرأة من ارتباطات الزواج البرجوازية ذات نظام أحادية الزوج لصالح الخيار العشقي الحر؛ ومع ذلك، وبنفس الوقت تصان مؤسسة الزواج.

وفي أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية تقبلوا عموماً هذه الأيديولوجية في الحقبة التي كانت فيها ماريا بطلة في روسيا. والتزمت " لانورا ديبسن" بالتعبير الأدبي عن ذلك. وهكذا ارتهن المصير الشخصي لماريا ستيبا نوفنا بدرجة كبيرة بالميول الليبرالية التي كانت موجودة في عصرها والتي دافعت عنها.

وأظهر تحليل نفسي معمق جداً أن شخصية ماريا موهوبة بطبيعة نشيطة وفردية غزيرة ومتمردة. وأن عليها أن تفرغ طاقتها في نشاط ما، أو في عمل بلا هوادة في خدمة المجتمع. ولقد فشل زواج لانورا ديبسن لأنها تؤمن بحقوقها تجاه نفسها، وهذه العقيدة نفسها حددت سلوك ماريا ستيبانوفنا. هذه المرأة اللطيفة ذات النفس الرحبة، والمتسامحة إزاء كل فعل مخالف للمجتمع، والتي كانت غير متسامحة بشكل مطلق عندما يوضع مبدأ شخصي على بساط البحث. وإذا تتبعنا تتطور حياتها، نكوّن انطباعاً أنها ترغب في إلحاق عواطفها بمُثلها. ولا نعلم إذا ما أبدت شعوراً إنسانياً من الغيرة عندما اكتشفت علاقة سيرجي. ومن المحتمل أنها بددت مباشرة من نفسها أي شعور،وأن قانونها الأخلاقي أملى عليها سلوكها تماماً، بملاءمته مع مَثَلها الأعلى. ولذلك ما نصفه بأنانية جامدة، وبإماتة ذاتية

نرجسية، وبعدم التسامح تجاه أداة الحب، عند أشخاص أقل مثالية وفكرهم أقل ارتقاء، يستأهل العذر بل والإعجاب في الحالة التي هو فيها.

ولقد عرفنا كثيراً من هذا النوع من النساء، إذ ظهرن في مختلف مرحل التاريخ. وعندما نُلحق حياتهن العاطفية الشخصية بالثورة الاجتماعية، فستتصرفن على نفس المنوال إن كان لصالح ديانة ما أو أيديولوجية أخرى محافظة أو ثورية. وبالنسبة لنساء من وسط ماريا، الإله غير موجود، فديانتهن هي الأخلاق الشخصية والثورة؛ وكل ما تتطلبه الثورة يجب التضحية من أجله، والرغبات الشخصية يجب أن تُتبع به.

إن ماريا ستيبانوفنا، والنساء اللواتي يشبهنها، لسن أبداً بلا عقائد أو أنظمة، حتى لو تعلق الأمر بحياته الحميمية. فالإلهام والقوة اللواتي تحتجنها لإنجاز أنظمتهن، تأخذهن من ذواتهن ومن العالم الذي يحط بهن في آن واحد. فأن يستهدف النظام غاية محافظة أو ثورية فتلك قضية ثانوية. لأن هؤلاء النساء هن بشكل استثنائي أمناء لمَثَلهن الأعلى، ولو كلف ذلك حياتهن. وعلاقتهن العاطفية تمثل لهن كذلك مثلاً أعلى وتبقين أمناء لعواطفهن سواء لازلن تحسسن بها أم لا. حيث بقيت ماريا وفية لزوجها الثاني لأنها أحبته ذات يوم، وحتى حين يكون حبها في خدمة المثل الأعلى للحرية. ويصعب القول إذا ما لهؤلاء النساء عواطف شديدة في الانطلاق، واستغراقهن اللاحق بأنشطة مثالية أو اجتماعية، أو دينية، تحرمهن من جزء كبير من حرارتهن العاطفية، أو بالأحرى إذا ما كن غير جديرات منذ البداية بمشاعر قوية حقيقية، وتكيفن هكذا حاجاتهن العشقية بيسر لمثلهن. فالجو العاطفي الذي يحيط بهن بجمد أصلاً، والتوحد المنسجم مع الرجل لا يمكن أن يتحقق إلا كما فعلت ماريا، أي بفضل تفانٍ علم مع شيء ما لا شخصي.

وهناك، في علاقة ماريا الغرامية، خصوصية غالباً ما نصادفها. إنها نموذج أولي للمرأة النشطة، والنشطة بإفراط دون شك، والتي تختار رجلاً سلبياً أنثوياً كأداة لحبها، والذي تسخره بيسر كوسيلة لأفكارها الخاصة. وعادة، تتدمر شخصية الرجل؛ وخلال "الاحتجاج الذكري" الذي يُصاغ بعد ذلك، يبدأ في كره المرأة التي عبدها ويحول حاجاته العشقية نحو كائن أدنى يظهر الاحترام والإعجاب لرجوليته الضعيفة. هذا ما حصل مع زوج ماريا ستيبانوفنا، هذه الثورية النشطة،

والغير متسامحة، والمفعمة بالمبادئ، والتي توجد، على اعتبارها نمط نفسي، في أية مرحلة من مراحل التاريخ، في كثير من الأوساط والظروف الاجتماعية. وما يتغير فقط، هو محتوى "المبادئ"، والواجهة المتكيفة مع العالم المحيط، استناداً للوسط واللحظة التاريخية. فالمرأة دوماً هي المرأة. انسجام ودي، واندماج عشقي بالزوج، وحرارة أمومية تجاه الأولاد، تلك هي الصفات التي قد تقود، إذا اقتضت الضرورة، إلى إهمال المبادئ، والتي عادة تكون غريبة عن هذه المرأة. وأحياناً أمثال هذه المرأة تزود بدرجة من العشقية التي تقربها من أحد الأنماط الأخرى من النساء الأنثويات اللواتي وصفناهن؛ وأحياناً تُحاط بعصبة من الأولاد وتشبه نمطنا الأمومي النشط، إنما تتكرس عاطفيتها في معظم الأحيان لقيم بعيدة كل البعد عن المجال العاطفي الشخصي.

ونحن لا نعلم لماذا تجسد ماريا هذا النمط من المرأة، كما لا نعلم ما هي العوامل المؤدية لهذا النمو. لكننا سنفهم جزءاً كبيراً من حياة ابنتها أولغا من معرفتنا بأمها.

فأولغا سيرجييفنا لم تشارك واقعياً في الحركة النسائية. ومن ناحيتها ماريا ستبانوفنا لم تشارك نهائياً أيضاً، كما لم تكترث بتحرير المرأة على نحو مباشر. وقد طالبت بتساوي الحقوق للجميع، ولنفسها أيضاً على اعتبارها امرأة، إنما نشاطها الاجتماعي كان في خدمة مُثُلٍ لا تأخذ بالفوارق الجنسية، وفي خدمة تربية الجماهير على نحو خاص. وقد شغلت ابنتها أولغا مكانة بارزة في الجمهورية السوفيتية وهي منظمة لها شأنها. والعقيدة الجديدة لهذه المرأة، هي "الحب الحر". وفي حين أن مثالية أمها كانت في زواج يتم أقراره بحرية، آمنت أولغا بمثالية في أن تبقى علاقات الزواج المتعارف عليها حرة. وحين كانت فتاة صغيرة، اعتنقت الأفكار الثورية ودرست المشاكل الاجتماعية. وقد دفعها إلى ذلك جو البيت، وعند بلوغها، لم تكن تشبه الفتيات العاديات في الصف اللواتي يصبحن عادة ثوريات بفكرهن الاحتجاجي ضد وسطهن. وبعيداً عن معارضة المثل الثورية لأولغا، شعرت ماريا ستيبانوفنا بالفخر بابنتها لنشاطها السري. لكن أولغا تحقق ثورة حميمية خاصة تتحرر بواسطتها من تأثير أمها وتتبنى أفكاراً سياسية وأخلاقية أكثر راديكالية. وفي حين أن أمها كانت " نارودنيك"، أصبحت أولغا ماركسية

بتأثير من " البلشفيك". وقد عاشت، مخالفة لنصيحة وإرادة أمها، "في وفاق مع مبادئها"، في اتحاد حر مع رفيق أكبر منها سناً، .C والذي كان دليلها السياسي ومربيها.

وليس من المدهش أن تحب أولغا رجلاً أكبر منها سناً وأن تستسلم لتأثيره. إنها من هذه الناحية تشبه كل المراهقات مهما كانت ظروفهن الاجتماعية التي تعشن فيها. إلا أن فكرة أولغا عن " الحب الحر" تعبر فيها عن النظام الاجتماعي الجديد. ولا ينبغي أن ننسى أنه بعد فراق أهلها حُرمت الفتاة من والدها؛ واستناداً لروايات أمها وربما ذكرياتها الخاصة، كان والدها ضعيفاً، وسلبياً، وعاجزاً جسمياً، وقد اختارت أداة حبها متناقضة مع أبيها.

وبعد أن افترقت عن .C، الذي أُرسل إلى المنفى، قبلت موقعاً حكومياً عند .M، وهو مهندس متزوج. ولم تكن تحبه، إذ لم تجده ذكياً، ومستواه الذهني لم يصل إلى مستواها. لقد كان سعيداً مع زوجته بصورة ظاهرة، وهي "دمية ترتدي الدانتيل والفرو" له منها خمسة أولاد ذوي صحة جيدة. وسئمت أولغا من هذا الجو المشبع بالسعادة العائلية. وقد أغاظها حب هذا الرجل لزوجته الجميلة، واهتمامه بصحتها، وكان يطيب لها جعل هذه المرأة تتألم وتبكي بسلوك عدواني. وتتحدث كثيراً عن الحياة في المنفى، وعن المهمات الكبرى الملقاة على عاتق الثوريين، وعن الآلام التي يعانون منها في سبيل مثلهم العليا، وتهزأ من السعادة الطافحة بالبرجوازية. وقد اعترفت فيما بعد أن كرهها لهذا الثنائي السعيد كان شديداً ومدرَكاً، بحيث كانت تخامرها فكرة اصطحاب الشرطة، لأي سبب كان، لكي تقتحم حميمية هذا البيت المنسجم.

إننا نعرف تماماً هذا النمط من السلوك، العدائي للظروف الاجتماعية المحيطة. وفي نظامنا الاجتماعي الديمقراطي كذلك، تحتج المراهقات ضد الجو المطبق لبيتهن، وتلمن أهلهن لفكرهم المحافظ، وتعاملن الناس المتزوجين الذين تعرفنهم كـــ" أشخاص مقيتين وغير مستنيرين"، وتعبرن عن تمردهن على مختلف الأساليب التي تتباين ومستواهن الثقافي. ويتخذ كل ذلك أحياناً شكلاً أكثر سمواً بانتسابهن إلى جماعات راديكالية؛ وأحياناً أخرى، تظهرن تحررهن من الوسط العائلي بـــ "الحب الحر"، وهو سلوك لا يستجيب دوماً لضرورات داخلية كما لا يترافق دوماً

مع مشاعر السعادة. وإذا لم تتوصلن إلى تجاوز هذا الموقف الشبابي بامتياز، فإنهن ستكررنه في أول فرصة ضمن وسط آخر. أما فتيات الطبقات الأكثر فقراً اللواتي تتفاعلن مع صراعاتهن العائلية بطريقة مبالغ فيها توضعن في نزل عائلية. ولدى تناولنا وثائق المكاتب الاجتماعية التي تهتم بالشبان، غالباً ما نفكر بأولغا التي عاشت في منـــزل المهندس. والفتيات اللواتي قرأنا قصتهن هناك نقلهن صراعاتهن العائلية إلى النـــزل، وامتعضن من الزواج السعيد لوراء النـــزل، فتغوين الزوج، أو بحسب طباعهن تتهمنه بالتحرش بهن.

ووقعت أولغا بغرام جارف بـــ M، هذا الرجل الذي تكرهه وتحتقره، وقد دمرت بيته بلا روادع. إنما واجهت عندئذ صراعاً في نفسها لم تعرف أسبابه. وقد أتى هذا الصراع من أنها أحبت رجلين،.M و .C، ولم تستطع هجران أي منهما. وبصفتها بلشفية، احتقرت .M المتأنق؛ ومع ذلك فقد كانت أقل حركة عدم اكتراث من ناحيته تجعلها تتألم ألماً رهيباً، وعندما يطلب منها أن تكون له، توافق على ذلك كما لو أن ذلك نابع من كيانها. وبنفس الوقت، تفكر بعشيقها الأول بحنين ومودة شديدة، والآن هو في المنفى. وروحها تتلهف إليه، وهو الأقرب منها من الناحية الروحية؛ وبدونه حياتها باردة وفارغة. إنها تنشد نصيحة أو دعماً من والدها، وكما توقعت فقد طلبت منها أمها أن تترك أحد الرجلين. فأخلاقية نظام وحيد الزوج لماريا، والذي يحتّم الحب لرجل واحد، لا يشتمل على صراع ما. وهكذا بقيت أولغا معلقة، بمثلث الحب مابين حب " أرضي" وحب "سماوي"، وعاجزة عن الاختيار. وكثيراً مانلاحظ في مثل هذا الصراع، استحالة اتخاذ قرار عاطفي، وهو بالنسبة لنا مؤشر لطباع عصابي. هذا الانشطار، نشهده كثيراً لدى الرجال، فيما بين حب شهواني وآخر روحاني نجده أيضاً لدى النساء؛ وحالة أولغا تشير لنا على ذلك.

وحين أصبحت أولغا حاملاً من .M، اعتقدت أمها أن هذا سيصحبها على اتخاذ قرار. لكن أولغا تفاعلت مع نصيحة أمها بطريقة توضح تماماً موقفها المعقد، وكلما اتخذت الأم موقفاً مناصراً لعاشق جديد، كلما أولغا شعرت نفسها متعلقة أكثر بالقديم. وأصبح الأمر بالنسبة لها كأن أمها و.M انتهى بهما الأمر إلى تشكيل حلف ليبرالي برجوازي ضد المعسكر البروليتاري الذي تنتمي إليه هي و.C.

وسنوقف تحليلنا هنا عند صراع أولغا. فما يهمنا أكثر، هو أنها بالعقيدة الراسخة، تسعى، لأن تعطي مشكلتها العشقية والنفسية تفسيراً اجتماعياً، وتعتبر التباين في وجهات النظر مع أمها وكأنه آت من انتمائهن لجيلين مختلفين. وفي هذه الحالة، الأمر الوحيد الذي يجب أن ننظر إليهً، برأينا، على أنه نتيجة تأثير جارجي، هو أن أولغا، عندما تدمر بيتاً وتبقة على علاقة مع رجلين في آن واحد، لا تريد إظهار أي كبت ناتج عن نظام اجتماعي لقيم أخلاقية. وليس لديها أي شعور بذنب اجتماعي، لأن مثلها الخاصة، مرتبطة مع فلسفتها، ومنسجمة مع الأفكار الأخلاقية لعصرها. وهي تعيش في وسط يؤيد الحب المتزامن لعدة رجال ولا يعترف مطلقاً بحقوق الزواج على أنها في دستوره. وهي تتعارض مع أمها في هذا الشأن وتعطي بهذا صورة عن الصراع بين جيلين. لكن أصل وحل صراع كهذا لا علاقة له بالوسط الاجتماعي، لا عند أولغا ولا عند مريضاتنا العصابيات. فقد توصل مثلث أولغا إلى الفشل لأسباب نفسية، لأن لا .M، البرجوازي، ولا .C، الماركسي، يريد أن يشارك رجل آخر بالمرأة التي يحب. فكلاهما ينسحبان، .M في صفقة رابحة، و .C في الحرس الأبيض، للانتقام، تماماً كما فعل ذلك أي برجوازي رجعي.

وبعد ذلك، تنقذ أولغا خيبتها وجفاف ما تبقى من حياتها العاطفية، وبالتوازي مع نشاطها المضني من أجل "القضية"، تتمتع بالترف الأناني لعلاقة حب صافية. وهاهي تعيش، باتحاد حر مع الرفيق .R، الأصغر منها سناً، والسلبي والعرضة للمرض. وهي تصفه بنفسها كتابع لها؛ والكل يعلم، ممن يحيطون بهما، بأنها متفوقة عليه تماماً وأنه يتقبل سلطتها الكاملة من جميع النواحي. وهي تعبأ بمسؤوليات هامة في منشأتها الصناعية، وتهب نفسها بالكامل لعملها، وهي معتبرة تماماً كما كانت أمها.

وهناك نقطة مشتركة أخرى بينها وبين أمها، فبعد جهود عابثة لإيجاد شكل آخر للحب غير الشكل الذي عرفته أمها، توصلت، مثل كثير من النساء الأخريات اللواتي تعشن في ظروف اجتماعية مختلفة تماماً، إلى الاندماج الكامل مع أمها؛ وهاهي تتمثل دوراً نشطاً كدليل مرشد تجاه الرجل. وبصورة ربما أقل ابتذالاً وأقل مأساوية، يصبح مصيرها تماماً كمصير أمها، وتحيا هذا المصير ثانية في "سوء تفاهم"

يتعارض مع الجيل التالي. سو التفاهم هذا الراسخ نفسياً والذي تسعى، مرة أخرى، أن تفسره أولغا اللاشعورية باختلافات في الأيدولوجية الاجتماعية. "لا يمكنكم ملامتي"، هكذا صرخت في خيبتها، "إلا في كوني متخلفة في ظروف جديدة تحدث نفسية جديدة ".

بإمكاننا أن نجيب هذه المرأة، الذكية جداً، والنشيطة جداً، والتي نذرت نفسها لقضية عظيمة جداً، ومع ذلك لاشعورية جداً، على الشكل التالي: " كلا، لم تقم هذه الظروف الجديدة إلا بإظهار نفسية قديمة بمظهر جديد".

ولأولغا بنت اسمها جينيا، وتعطينا لمحة عن "النفسية الجديدة" للجيل الثالث. فبعد أن انفصلت أولغا عن ابنتها لعدة أعوام، تزوجت آنذاك، وأخذت ابنتها لبيتها. وكانت الشقق السكنية نادرة جداً آنئذ في الدولة السوفيتية، فوجدت الأم والبنت وزوج الأم، من الطبيعي في تفكير واقعي بالتبني، أن يعيشوا معاً حجرة وحيدة. وكانت جينيا، قوية وذات طاقة عالية، وعملت من أجل القضية بطريقة فعالة لأبعد حد. كما وجدت فيها أولغا رفيقة تدعمها وتعتبر نفسها تجاهها ليست أم إنما صديقة. ثم اكتشفت ذات يوم أن جينيا والرفيق .R، صديق حياتها، على علاقة عشقية. فموضوع الزنى هذا، الذي برز هنا بين ابنة الزوجة وزوج الأم، موجود في مختلف الحضارات وفي عهود متباعدة بعضها عن بعض، وفي الأساطير القديمة والقصص الدرامية المعاصرة.

وكانت ردة فعل أولغا لهذا الاكتشاف كما هو متوقع. فقد أصابتها خيبة أمل، وأحست نفسها قد هُزّئت، وطُعنت في حبها لـــ .R، لكنها أصيبت بالذهول بشكل خاص من سلوك جينيا. ومما بدا لها ذلك فظيعاً جداً ولا يمكن قبوله، وهو موقف جينيا، ولا إنسانيتها، والعقيدة التي أملت عليها أن تعطي لنفسها الحق لتفعل ما فعلته، حق يمنعها من المساعدة بحجج ذهنية جامدة. دون أن تبدي أي أسف أو رحمة لأمها أو أقل نوع من أنواع الحب والهوى يلزمها بأسف عن علاقتها بـــ .R؛ أو أدنى رغبة للخروج من هذا الموقف. بل إنها على العكس راحت تتهم أمها بأنها "طراز قديم" وأنها لا تجيد تفهم الآخرين وقد تمادت في فلسفتها الماركسية في إلغاء الملكية الشخصية في الحب، وتنكر على أمها حق "امتلاك" الرفيق .R، وصرّحت أن لهما الحق في إطلاق العنان لدوافعهما.

وأصبحت جينيا حاملاً، وأيقنت أولغا أنه من الرفيق .R. فصرحت جينيا، بواقعية بدت وقحة للأم "الرجعية"، بأنها لا تعلم من هو أب هذا الطفل، إذ أنها استسلمت كذلك لرجل آخر.

وأكثر ما أقلق أولغا، وأكثر ما عسر عليها فهمه، هو تأكيد جينيا القاطع أنها لم تحب أي رجل أبداً. وتروي لأمها أيام كانت فتاة شابة أنها سلمت نفسها لعدة رجال عندما كانت تذهب إلى الجبهة حاملة الهدايا إلى الجنود. فهي لم تكن تحس بحاجة جسدية لأن تتصرف هكذا، لكنها تجد في ذلك ضرباً من اللذة السهلة الخالية من الصراع والمسؤولية. فلو باعت نفسها كما تفعل العاهرة، أو اغتصبت لكانت قضية أخرى. إنما في الوقت الذي تتصرف فيه بملء إرادتها وبأفعال تعود عليها بالمتعة، هذا الأمر، برأيها، لا علاقة له بأي حكم أخلاقي. وتصيغ جينيا هذا التفكير النمطي الذي تشاركها به الفتيات الحديثات: " لو كنت شاباً في العشرين ونمت مع نساء في الجبهة، فمن سيعترض على ذلك؟".

أليس لها نفس حقوق الرجل؟ ألم تكن غير مبالية أبداً بواجباتها تجاه المجتمع؟ هل نسيت مسؤولياتها تجاه الحزب؟ أليس هنا المقياس الوحيد في مباراة التصنيف؟ فمع أي رجل، أو مع كم رجل نامت، هذا لا أهمية له. هي حامل دون شك، وهي تقضي بأنه من الصواب ألا ننجب أطفالاً للعالم خلال هذه المرحلة من الاضطرابات. لكن القانون الجديد يسمح بالإجهاض. وتحس جينيا نفسها بريئة إلى حد كبير. ولا يخطر ببالها الأخذ بعين الاعتبار لآلام أمها؛ إنها لا تعتمد بأن أندريه (الرفيق.R) قد يصبح مختل العقل، ولا أن الحمل له معنىً نفسي؛ إنما، بالنسبة لجينيا، لا ترى مشكلة في الحب ولا في الألم ولا في السعادة ولا في تأنيب الضمير. وهي جازمة في قناعاتها بأنها تستطيع الحصول على المتعة عندما ترغب بذلك. فأندريه السلبي لا يعني لها شيئاً في الواقع سوى كونه ذكراً. وعلاقتها معه هي نتيجة طارئة للسكن في غرفة وحيدة؛ وهي تحس نفسها ملزمة بحماية هذا الرجل الضعيف. وبالنسبة لعشيقها الآخر، آبراشا، تحبه أكثر إنما له سلطة ما عليها، وعليها طاعته، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً آخر؛ وهو يجذبها تحديداً لأنه تحس بوجوب الخضوع لإرادته!

ومع ذلك، وبحسب العبارات الخاصة التي أدلت بها جينيا، فهي ليست غير جديرة بالشعور الذي تحسه. إنها تحب أمها على طريقتها وتتألم حين تكتشف أو أولغا "رجعية" جداً. كما تحب الرجال على طريقتها أيضاً؛ على سبيل المثال، بالنسبة لـــ لينين، إنها تقدس حياته تقديساً. وتحب الرفيق جيراسيم أيضاً. سيكرتير الحزب، وليس لها معه أية علاقة شخصية، وهو رئيسها في العمل السياسي. وتطيعه حتى عندما يخطئ. أليس من المثير أن هذه الفتاة الباردة والنشطة والمتفوقة لا تتكلم عن الحب إلا بخصوص الرجل الذي يجبرها على إطاعته ؟

فإذا اعتبرنا جينيا كممثلة عصرها، لـــ " الأنثوية الجديدة " لأوائل سنوات 1920، فسنرى، على العكس، أنها رغم المظاهر، تؤكد تصوراً عن الأنوثة قد ترفضه هي نفسها على أنه رجعياً إلى أقصى حد، واستناداً لهذا المفهوم يبرز مجدداً أن خضوع الجنس الأنثوي الدائم خلال التاريخ الإنساني يعود إلى الميل الأنثوي النوعي للخضوع للمقتضيات الأخلاقية للفترة الراهنة. وفيما يخص الحب، تكون هذه الفتاة الثورية والمنطقية والفعالة كائناً سلبياً دون أن تدرك ذلك وترضخ بصورة أوتوماتيكية لتأثيرات "الأيديولوجية الجديدة". كما تخضع لسلطة إيحاء الحداثة، بأسلوب انعكاس إن صح القول، دون الاكتراث بأن هذه الحداثة تمثل تأثير أرباب العمل على الأشخاص.

ربما من الخطأ الاعتقاد أن جينيا، بسبب قيود النظام الاجتماعي البرجوازي التي دمّرت، أصبحت الآن " كائناً حراً "، بالمعنى الجنسي والسياسي. فهي تلح على نحو واضح على الفارق الموجود بين أفعالها وفجور العاهرة. فهي تتصرف بدافع المصلحة، بينما جينيا بدافع المتعة. وتخضع هكذا أفعالها لسلّم القيم الخاصة بجيلها. الأمر الذي يجعلها لا تحب شركاءها في الجنس ولاتمتلك أية رغبة لحب سعيد لا يبدو لها غير متكامل؛ بل على العكس، هي تتحدث بزهو وافتخار عن حياة الفسق التي ترى نفسها فيها "حرة". وهي تدري بأنها عاجزة عن الحب إنما تعبر عن حماسها للأفكار ولعملها وتعتبر انجازه كمكافأة. فروحانية الحياة الجنسية، وبعض الصفات الأكثر رهافة، والطباع الفردي لأداة الحب، ليست هنا عناصر ضرورية لعلاقة الحب لجينيا. أما العشقية الأنثوية، وحب نظام أحادي الزوج،

يبدو، بالنسبة لموقف جينيا، نوعاً من القصص الجن الخيالية التي ولدت في ظروف ثقافية خاصة والتي هي تابعة لتلك الظروف.

ومع ذلك، في الواقع، نمط حياة جينيا العشقي ليس جديداً علينا كما تعتقد هي ورفاقها. فلقد لاحظنا سلوكيات مماثلة في ظروف سياسية واجتماعية مختلفة كلياً. ونعرف مثلاً تلك النساء الباردات جنسياً واللواتي تسرن بنظام تعدد الأزواج وتغيرن باستمرار أدوات الحب، تماماً كما تفعل جينيا، ولهؤلاء النساء، بسبب بعض الأسباب النفسية، حاجة باستمرار لشيء جديد في تجاربهن الجنسية بغرض وقاية أنفسهن من ملل العادة. وأخريات تندفعن نحو تجارب عشقية جديدة بالزوال السريع لعواطفهن، وأخريات أيضاً تتسربن لارتباط ما لاشعوري في علاقات غير ثابتة، ودون التوصل إلى تهدئة شوقهن. كثيرة هي الأسباب الممكن تواجدها والتي تنبعث عادة من مصادر نفسية عميقة. ولا تبدو أنها حالة جينيا؛ ويتملكنا انطباع بأن حياتها الجنسية منفصلة بالكامل عن روحها. إنها تشبه أولئك النساء والشابات اللواتي لا تمتلك أفعالهن الجنسية أهمية واقعية تذكر ولا تتصورن الإحساس الجنسي كتجربة عاطفية عشقية أو شهوانية. وبما أن عواطفهن مشمولة على نحو ضئيل جداً في أفعالهن الجنسية، فليس هناك من حد كمي لنظامهن التعددي. وتنكر جينيا وجود نظام زوج أحادي حر مبرر نفسياً إلى جانب النظام الأحادي المفروض من المجتمع البرجوازي الذي تكرهه. وذلك لأنها عاجزة عن إقامة علاقة ما بصورة عاطفية. وهي تسوغ عجزها بأيديولوجية اجتماعية. كما تعتقد أنها تتبع بحماس ثوري القيادة الجديدة للحرية الجنسية، وبهذه الناحية تمتلك الحق بصورة أكيدة إلى درجة ما. إنما لا تجد جينيا في ذاتها الأسباب الفردية العميقة التي ترغمها على قبول الأخلاقية الجديدة دون شروط.

وإذا أردنا فهم الدوافع الفردية لجينيا، علينا أن نختبر تاريخها كله. فالقليل الذي نعلمه عنها يوضح لنا حالتها على نحوٍ كاف. لقد كانت طفلة بلا أب، ومنذ طفولتها الوادعة، حُرِمت من جو الحنان الأموميّ. وعاشت فترة من الزمن مع برودة ووسوسة جدتها، ثم، مع عدد من "الأصدقاء"، هذا ما قالته أولغا لنا. وكان هؤلاء الأصدقاء ثوريين بكل تأكيد وكرّسوا أنفسهم للقضية بكل حرارة عواطفهم. فأي منهم كان لديه الوقت وحرية التفكير الضروريات لأن يشغل نفسه

بموضوع رقيق كالحياة العاطفية لفتاة؟ وكذلك هذا المظهر من حياتها كان مهملاً دون أدنى شك؛ فهي لم تتعلم إلا حب "المُثُل"، وليس الكائنات الإنسانية. وقد أكدت أنها تحب أمها؛ إنما يتعلق ذلك بنوع من الحب الطفولي الذي يقبل بفرح كمزوّد لأشياء محببة وكنموذج مثالي، لكنها عاجزة عن أخذ مشاعر وآلام هذه الأم بعين الاعتبار. وحين تؤكد جينيا أنها تحب الرجال، تذكرنا بشكل واضح بذلك الشغف النمطي للمراهقات النرجسيات اللواتي تشركن حنينهن لأداة دون حبها بالواقع. وفي القصص الوهمية العشقية لماري باشكير تسيف، يأخذ الدوق من الناحية النفسية نفس دور لينين أو الرفيق جيراسيم في ذهن جينيا. وفي هذا النوع من الاختيار في الحب، ليس لاختلافات المستوى الذهني أهمية نفسية كبيرة. ومع ذلك، تظهر جينيا من وقت لآخر سلوكاً أنثوياً جداً، إذ لا تمتلك مشاعر شديدة نحو الرجال إلا عندما يمكنها أن تخضع لسلطتهم المطلقة.

نحن نرى طباع شاذ عاطفياً والذي أوصلها لأن تحس نفسها متفوقة بتسويغ اجتماعي - أيديولوجي لأفعالها العصابية أو الغريزية. فرغباتها الجنسية ليست متحررة من ارتباطاتها بتغيير المقتضيات الخارجية؛ وهي ليست متغيرة أكثر بطباعها بسبب التأثيرات الاجتماعية. إنها تمثل لنا فقط تأثير أيديولوجية على أطوار نفسية محددة سلفاً، وبجزء كبير منها لاشعوري، عند شخص حياته العاطفية طفولية وبالمحصلة شاذة.

ومع ذلك، فانطلاق ونمو ردود الفعل التي أظهرتها، وعلى نحو خاص غياب مشاعر الذنب عنها، تأتي من الظروف الاجتماعية. فصعوبة السكن، والرغبة العارمة للقيام بشيء ما من أجل القضية، وضيق الوقت المخصص للعلاقات العاطفية، وبكلمة مختصرة، الجو العصيب للثورة، كل ذلك أدى إلى صنع جينيا متعددة. ويأخذنا انطباع بأن هؤلاء النساء تجدن، في معظم الأحيان، أنفسهن في دائرة ذهنية ما؛ إنهن ربما نتاج جيل يعتبر، حتى في وسط أقل راديكالية، العمل والأيديولجيات، والأمور الذهنية، كتعويض عن نقص في عمق حياته العاطفية.

لقد استخدمت ماريا استيبانوفا وأولغا سيرجييفنا وجينيا أيديولوجييتهن الاجتماعية لتغطية وتسويغ دوافعهن الفردية تماماً، وغالباً باسلوب مفيد للصالح العام. وبالنسبة لماريا، تندمج رغبة التحرر الفردي والإيمان بحق المرأة في إدارة شأن

حياتها الخاصة مع مثالية اجتماعية تحل محل العواطف الغرامية الحارة. أما أولغا فترى مظهر الحرية في الانشطار العصابي لمشاعرها العشقية وتسمح لنفسها بيسر أن ترضي عدوانيتها ضد امرأة أخرى، دون أي شعور اجتماعي بالذنب، لأنها ترى أفعالها كأفعال الباعث على التقدم. وجينيا، الأكثر طفولية من الثلاثة، تقلب ماضيها العاطفي رأساً على عقب، وتصبح على نحو مناقض للمنطق بطلة في أكبر خطوة نحو تحرير المرأة كما تدعي[1].

وبهذا، فالمسائل النفسية الفردية ليست واضحة دوماً كما لدى هؤلاء النساء الممثلات لأجيال ثلاثة أنثوية. ومع ذلك، لنقل أن العلاقات المتواجدة بين العوامل النفسية والميول الثقافية أو الاجتماعية يمكن أن تؤدي إلى حالات من النمو تبدو محددة بشكل حصري بتأثيرات المحيط. ويحل أحياناً العنصر الاجتماعي محل الميول النفسية المرفوضة، حتى بإتجاه مخالف لتلك الميول. وفي مرات أخرى، تخدم الأيديولوجية المرأة التي تناضل من أجلها في تسويغ أفعالها الخاصة؛ وغالباً ما تقوم بجهود بائسة لتكيف صيغة حياتها مع المثل الموجودة دون أن تكون مدفوعة إلى ذلك بأية ضرورة نفسية واقعية.

في وصف كوللونتاي لبطلاتها، يوجد أمران تجدر ملاحظتهما. أولاً، من اللافت أن الرجال الذين ربطت هؤلاء النساء حياتهن بهم هم من الفقراء السلبيين الدونيين، والخاضعين لهن. هل في هذا مصادفة صرفة ؟ومن ناحية ثانية، لهؤلاء النساء موقف خاص جداً تجاه الأمومة. فماريا تصطحب ابنتها معها عندما تغادر زوجها دون أن تتساءل ما إذا كان من الصواب أم لا أن يفترق طفل عن والده. وترفض أولغا فكرة الإجهاض بقوة، وتفارق طفلها لتكون حرة في العمل من أجل القضية. أما جينيا، فتجهض نفسها دون أن تتأثر على الإطلاق بالناس الأمر الذي يحدث لدى امرأة طبيعية. فليس لديها وقت لإنجاب طفل ولا لأن تحب. نجد هنا

[1] كلمة "طفولية" مستخدمة هنا بمعناها النفسي الصرف ولاتتضمن أي حكم ذي قيمة اجتماعية. وفي بعض الظروف، يأتي نمط السلوك من مصادر طفولية من الناحية النفسية، مثل التمرد على السلطة، وقد تكون أكثر تطابقاً مع الواقع وأكثر عقلانية من سلوك "راشد" مزعوم، ويتلاءم مع المقتضيات الاجتماعية. فهناك أفراد غير ناضجين كانوا غالباً في طليعة التطور الاجتماعي، كما أن التقدم يحصل بواسطة فرد غير راض يناضل في سبيل حريته .إن كون عبوديتهم تكمن في ذاتهم ويسقطون أسبابها على العالم الخارجي هو أمر يسيء للقيمة الاجتماعية لأفعالهم.

إذن كيف تتحول هذه المواقف لثلاثة أجيال! هل هذا تقدم، وهل يجلب هذا التقدم حرية أكثر وإمكانية السعادة للنساء، أم أن هذه الحرية اكتسبت مقابل عجز عن الإحساس المكثف بالسعادة الأنثوية؟

ولنلاحظ هنا أنه خلال العقدين الأخيرين، خضع موقف الثورة الروسية تجاه الزواج والأمومة لتغيرات عميقة. فمنذ عدة سنوات، شُجب الفسق والطلاق في الاتحاد السوفيتي. وأصبح الإجهاض ممنوعاً، ووفر القانون الأمان للأمهات والأطفال. وتم التوجه أكثر فأكثر، خلال العقد الأخير، نحو نظام الزوج الوحيد الصارم ونحو احترام الحياة العائلية.

وقد اتخذت كتاب الكسندرا كوللونتاي كمثال لأنه يستجيب بصورة خاصة على عرض مشكلتنا. ودوائرنا الاجتماعية تضم في وثائقها أعداداً لا تحصى لقصص النساء اللواتي حوّلن صراعاتهن النفسية إلى الظروف الاجتماعية المحيطة. فهذا الغطاء الاجتماعي مؤثر لأن يسعى المرء لإيجاد حل اجتماعي لمشكلة. وقد يحصل المرء هكذا، لفترة من الزمن، على نتائج مرضية، لكن سرعان ما يتكشف المركب النفسي الأقوى ويغذي صراعاً جديداً مع المحيط.

تتواجد ماريا، وأولغا، وجينيا، اللواتي تنتمين لثلاثة أجيال مختلفة، في كل جيل؛ وتتمايزن بطباعهن بالإفراط تارة بعنصر نفسي وتارة بآخر، وبحسب التأثيرات الداخلية أو الخارجية. وبنهاية الأمر، ربما لا تختلف هذه الأنماط الثلاثة للنساء الواحد عن الآخر. فبالطريقة التي تحللن بها مشاكلهن الأزلية فقط تبدو تلك النساء، اللواتي تمثلن أجيالاً مختلفة، متأثرات على نحو جزئي بالبنية الاجتماعية.

لقد اجتازت المرأة الروسية نار الثورة، وتحرر نشاطها، إلى أبعد مدى، من الإلزامات الاجتماعية، واستمرت في الكفاح إلى جانب الرجل من أجل غاياتهما المشتركة. كما بلغت المرأة الأمريكية هدفها الاجتماعي بسبل سلمية أكثر للتقدم الديمقراطي. إنما أنثوية هاتين المرأتين تقود صراعاتهن الصامتة على جبهة نفسية واحدة، مختلفة كلياً عن الجبهة الاجتماعية، وهذا ما يحصل دوماً لنساء من جميع الأعراق، وجميع اللغات، وجميع الثقافات.

لندرس الآن بعض حالات النمو التي يمكننا ملاحظتها بطريقة مباشرة أكثر. حيث نحيا نحن أيضاً انقلاباً اجتماعياً قد يؤدي إلى تحولات سريعة في السلوك البشري.

ولنتذكر أن، خلال المرحلة التي فصلت بين الحربين العالميتين، تأثر الرأي العام الأمريكي ببعض التغيرات الملحوظة عند الشباب من الجنسين. ولم يكن الأمر يتعلق فقط بتفاقم القوى العدوانية وبالروح التنافسية التي لا تطاق والتي بالكاد أن تدع للجيل الأخير الوقت لكي يتنفس. فمظاهر أخرى أكثر رجعية من روح التنافس هذه تعلقنا كذلك. علاوة عن النشاط الذهني والرياضي المتنامي باستمرار والذي يخدم تلك النوايا المحبة للقتال، نلاحظ عند هؤلاء الشبان فقر عاطفي محزن وطباع سطحي على نحو مذهل. ولم نتمكن من منع أنفسنا من الإحساس بأن هؤلاء الشباب رغم إفراطهم في النشاط، يتجهون أكثر فأكثر نحو السلبية، في حين أن النشاط المتنامي للشابات، وميلهن نحو الذكورية، يترافقان بنفس النقص من التعمق وبنفس الفتور العاطفي. بينما يفضح إفراط نشاط الفتيان السلبية والفراغ العاطفي المتخفي خلفها بطابعة التعويضي الخارق، تظهر ذكورية الفتيات لسوء الحظ ليس فقط تحريرهن الاجتماعي، إنما أيضاً فقر حياتهن العاطفية، نتيجة عملهن الذهني الشديد. هذا الطور النمطي للعقلانية الذي وصفناه كمظهر وقتي للمراهقة يلعب دوراً لدى الجنسين بطريقة أشد من ذي قبل ولفترة تطول لما بعد البلوغ. ولن ندري القول بدقة أسباب هذا السلوك، إنما نتحقق أن هذا المشهد النفسي حوّل بالكامل بواسطة الحرب. ومن الصحيح أننا لا نستطيع الحكم إلا بصورة سطحية على الملاحظات التي جُمعت منذ البداية عن الأعمال العدوانية.

وحين نحاول فهم التحولات النفسية الجماعية التي تمس الشبيبة على نحو خاص، لا ينبغي علينا أن ننسى أن الحرب كانت موقفاً عصبياً وأنها فتحت جميع المخازن الحاوية على مخاوف النفس البشرية. وكلما كانت الأزمة حادة أكثر وغير متوقعة، كلما أفزعت الروح بعمق أكثر، بنفس الطريقة التي تثير بها، الظواهر الطبيعية المفاجئة من رعد وبرق، مخاوف الطفل. فحتى لو ضبط الخوف بشكل بارع وكانت ردود فعل الفرد عن الحرب منطقية وعقلانية، فإن هذا الخوف عامل لا ينبغي أن يغيب عن الأبصار.

هناك طرق مختلفة لتخطي الخوف؛ فينبغي تمييز فيه ردود الفعل الفردية للظواهر الجماعية. ورويداً رويداً، الزمن يمر، وتتسق الصيغ الفردية لرد الفعل أيضاً بمظاهر جماعية. فإحدى الطرق لضبط الخوف، هي الطريقة المتبعة زمن الحرب من

قبل الأفراد والجمعيات، وتكون في مساهمة فاعلة بالأحداث. ويجبر الواقع كل امرئ على اللجوء، برضا أو بعدم رضا، إلى هذه الطرق وشبان الجنسين هم أولئك الخاضعين أيضاً إلى هذه الإلزامات. فالارتيابية العقلانية وبرودة الأعصاب تقع بين نارين: مقتضيات الواقع المنطقي والحاجة الذاتية لمحاربة الخوف المتفاقم على نحو نشط. وتقود هذه الحاجة إلى حركة نفسية جماعية.

وفي قلب هذه التظاهرة الجماهيرية، سنوجه انتباهنا أيضاً بشكل خاص نحو الظواهر الفردية. فلدى النساء خاصة، اللواتي هن أقل خضوعاً من الرجال للضغوط الخارجية، نلاحظ بشكل أفضل مجموعة الطرق الفردية التي تستهدف التغلب على هذا الموقف. ولدى بعض النساء، للصراع النشيط ضد الخوف طابع هاجسي، ولدى أخريات طابع هستيري. ففي الحالة الأولى، وتحت ضغط الأحداث الخارجية والقلق النفسي الداخلي، يتجاوز الشعور بالذنب الحد والحاجة للألم والتضحية بالنفس للقضية العامة تعبر عن نفسها بمختلف الطرق، على سبيل المثال، التخلي عن نشاط مشبع وقبول عمل صعب له صلة مباشرة بالحرب. وغالباً ما تتضمن هذه التضحية في الحرب مخاطر مباشرة، وهذه هي الحاجة التي تشترط اختيار هذه المهمة أو تلك. ولا ندري لأي درجة نساء هذا النمط تضحين بأنفسهن وتستأهلن أن يُعتمد عليهن. وتؤكد لنا المعلومات الواردة من مسارح العمليات أن هذه الفئة من النساء اللواتي يساهمن بنشاط في الحب تتميزن عن غيرهن بطريقة خاصة جداً. إنهن تنجحن على نحو خاص في التغلب على الخوف بفضل نشاطهن التطوعي وتجدن في ذلك تهدئةً لشعورهن بالذنب.

أما الطرق "الهستيرية" في التغلب على الخوف فهي أكثر تنوعاً. وهنا أيضاً تلعب التضحية دوراً هاماً، إنما تأخذ طابعاً أكثر شعورية، وأكثر جذباً، وأكثر نشوة. ولدى الشابات الصغيرات، تنطوي هذه الرغبة في التضحية بالنفس على مخاطر جنسية؛ هذا الأمر سيجعل كل جندي شاب يواجه الموت يتهيج بعمق خياله المضطرم جداً بهؤلاء الفتيات. وتشعرن أن عليهن بذل كل ما بوسعهن للرجل، الذي كرّس نفسه للموت في خيالهن، بما يجلب له "آخر أفراح حياته". وازدادت مخاوفهن الشخصية بالدوافع العامة للخوف التي يتضمنها جو الحرب، ويمتد ضبط الخوف بالنشاط لديهن إلى جميع المجالات، بما فيها المجال الجنسي. ويتضمن هذا النشاط عادة تراخ في التبعية تجاه السلطات القديمة يترافق بميل للعصيان، وبخاصة

ضد الأم. وقد رأيت عدة فتيات تغادرن عائلتهن في أزمة من الهيجان لأن أمهن أنّبتهن للانقطاع عن عملهن المدرسي لصالح الانخراط في "عمل الحرب" المرهق وغالباً دون فائدة تذكر. وقد زودت الحرب هؤلاء الفتيات فرصة تسويغية قوية لإرضاء ميلهن للفرار الموجود في كل منهن.

وحين ندرس ردود فعل النساء أوقات الحرب، يجب أن نميز الحالات التي تقع في المناطق الغير خطرة من تلك التي تتاخم الجبهة. وعندما يبتعد الخطر، تُعاش الحرب بالخيال، وما لم يُحدث الاحتكاك بالظروف الخارجية تكيفاً مع الواقع، فسنلحظ مواقف غريبة غالباً ما تذكرنا بتلك التي تحدثنا عنها عند دراسة مرحلة البلوغ. فالفتيات من هذا النمط تستخدم الحرب كتسويغ وتحقيق لبعض الخيالات التي تُرفض في ظروف مغايرة. ولحسن الحظ يمكننا أن نراقب السلوك المعاكس؛ حيث كثير من الفتيات اللواتي تكتفين سابقاً بترك حياتهن تسير دون إيلاء أي اهتمام خاص بالأمور العامة، تصبحن "متيقظات"، بفضل الحرب، لنشاط طوعي وتنجزن عمل الحرب على نحو مفيد حقاً. إنما في هذه الحالات نفسها، يكون تأثير الضرورة الواقعية محدوداً، وثمة انشغال مرضٍ ومفيد نراه يُهمل ما أن يتم التغلب على الصعوبات الداخلية والخارجية التي أوجبته. والإلزام المشروع الذي فرضته حكومة الولايات المتحدة على العمال في البقاء في موقع عملهم يحقق في مثل هذه الحالات مهمة تربوية جديرة بالاعتبار.

وكلما اقترب الخطر أكثر، كلما نشطت مساهمة المرأة في الحرب، وهذه ليست إذن مجرد طريقة لضبط الخوف. فخلال جميع الحروب، أثير نشاط النساء عندما تعرّض أولادهن وأزواجهن وبيوتهن للتهديد؛ لأنهن غالباً ما تستخدمن نفس الطرق، ونحن معرضون للخلط بين مختلف الغايات النفسية اللواتي تستهدفنها. فنشاط المرأة، في الدول التي تُضرب في الحرب، يتنبه بغرائز الحماية الأمومية الأكثر عمقاً؛ وهذه الغرائز تستلف غالباً قناعاً ذكورياً. ففي عام 1812، قامت الفلاحات الروسيات، إلى جانب أزواجهن، بحرب عصابات، لابسات غالباً ثياب الرجال؛ وتتصرفن تماماً اليوم بنفس الطريقة. فهن لم تكن قد عرفن شيئاً عن مقتضيات مساواة المرأة، والحرب الماضية، وربما تقلن مرة أخرى بحزن: " لاريب في أنه لا يحبني طالما أنه لا يضربني".

إن علم نفس المرأة، الذي يتعرض بصورة إرادية للمخاطر المباشرة للحرب، هو مختلف. فالرغبة في ضبط الخطر على نحو نشيط لها طابع أكثر فردية. وهذه الرغبة موجودة في السابق لكنها هنا أكثر قرباً من الخطر، وأكثر نشاطاً في الطرق التي تستهدف التغلب على الخوف. ويروي شهود عيان أن أفعال هؤلاء النساء لها غالباً طابع شدة هوسية مرضية. وتجتاحهن فجأة حالات قلقة، وبخاصة في أوقات هدوء نشاطهن المهني؛ وغالباً ما تدفعهن هذه الحالات إلى الشروع في الشرب والتخلي فجأة عن كبتهن الجنسي. كما أن الإشاعات التي حول فجور النساء العاملات في مناطق الحرب مبالغ بها بلا شك، لكنها ليست بلا أساس. وأسباب ذلك عديدة وعميقة. وتُدفع كثير من النساء على القيام "بتجارب" بسبب قلقهن وخوفهن؛ ولدى أخريات، ما يدفعهن فجأة لتجاوز كبتهن الجنسي وهو موقفهن التافه والوقح. هؤلاء النساء تعتقدن أن هذا "يشكل جزءاً من عملهن" وأن تتصرفن بشكل إجمالي كالرجال، يعني، الشرب، والتظاهر بالابتذال وعدم اتخاذ أي" حكم مسبق" جنسي. إنهن تجعلننا نفكر بــ جينيا، التي وهبت نفسها للجنود، وليس لحاجة جنسية، إنما لحاجة مساواة.

وبالإجمال، فإن الشعور الثابت بالمساهمة في الحرب على نحو نشيط ومباشر يصبح ضرورة نفسية سواء بالنسبة للفتاة أو المرأة الأكبر سناً. وتساعد هذه المساهمة أحياناً على التكيف مع الواقع، وأحياناً على الشعور بالذنب، وأحياناً أخرى على الشعور النرجسي بالأهمية الخاصة. ولدى الفتيات الصغيرات، يجذب نشاط الحرب غالباً في دوامته كل خيالات مرحلة البلوغ. وكل مخاوف تلك المرحلة من النمو الأنثوي، كالخوف من التجربة الجنسية، والخوف من المخاطر القادمة لوظيفة التناسل، والقلق النفسي الثائم على الشعور بالذنب والاستياء من الذات، كل ذلك يتحد في خوف واحد، هو الخوف من الحرب الذي يستحوذ على كل المخاوف الأخرى.

ومع هذا فليس هن الفرائس الوحيدة للخوف؛ فكل الكائنات البشرية تحس به؛ وبعضهم يشعر به، والبعض الآخر ينكره. وبالنسبة للكثيرين، إنه الخوف من الموت، والذي يبرر الواقع؛ وبالنسبة لآخرين ليس هو إلا مشيئة القدر، وتحد يطرحه هذا الخوف من الموت الذي يتوارى دوماً في نفس الإنسان، إنه خوف

مرفوض ومؤجل للمستقبل البعيد. وتساعد الحاجة المتنامية للنشاط، في جميع الأطوال، على الضبط العقلاني لهذا الخوف.

وبالتوازي مع هذه الطرق النشيطة للتغلب على الخوف، نلاحظ علامات، متعددة وغير منقطعة، تبهن على تفاقم القوى التراجعية في الجو الحرج الذي نعيشه. فنساء راشدات تختبر مراهقتهن مجدداً بجميع الأشكال؛ وأمهات (خاصة حينما تُجير على فراق أبنائهن) تغذي حياهن التخيلية تماماً بنفس الطريقة التي تقمن بها بناهن المراهقات. وفي ساعات الوحدة، تثرن بالتفاصيل تلك الحكاية الخيالية عن البطل الذي يقابل الموت البطولي في ساحة القتال، وهذا الحكم الماسوشي للفتاة هو في منأى تماماً عن انشغالاهن اليومية الواقعية، وغالباً الاستحواذية جداً. هذا البطل هو الآن الابن الغائب. أعرف امرأة في عمر الخمسين والتي، بعد سفر ابنها إلى الجبهة، أُصيبت بشكل خطر من رهاب الخلاء حيث كانت تحيا جميع مخاوف مرحلة بلوغها. فعندما كانت فتاة شابة، عانت لفترة من الزمن من ذعر نمطي من المسافات الخالية وأقامت في المنـــزل لتحمي نفسها من تحقق رغبات معينة. والخطر الذي يهددها الآن، هو في تعقب ابنها إذا رضخت للحنين الذي كان يتملكها، وهو تأثير مُدان بأنه مناف للعقل في عقلها كراشدة. ومنذ خمس وثلاثين سنة، لم تعد تعرف الخوف، وحتى عندما افترقت عن ابنها، لعله التوتر من الحرب الذي أحيا في نفسها عاطفة المراهِقة لدى المرأة المسنّة.

فالفتيات والنساء اللواتي لا تلتزمن بنشاط في الحرب، سواء لأهن سلبيات دوماً، أو لأن الخوف يشلّهن، تكن مهددات بشكل طبيعي بأخطار كبيرة أيضاً. أو لأهن تلتجئن إلى الاحتماء في بيتهن، دون الاشتراك في أنشطة الحرب، أو أن المساهمة التي تقدمنها ذات طابع ورع وسلبية كاملة. إهن تتعرضن على نحو خاص لأخطار جنسية حيث أهن تتعرضن على نحو خاص لأخطار جنسية حيث أهن عاجزات عن تحمل أعباء مسؤوليتهن. وتمثلن غالبية أولئك الغير متطوعات "أمهاء الحرب" واللواتي يصبح قدرهن شيئاً فشيئاً من مشاكلنا الحالية.

ولعل مشكلة " أمهات الحرب" هذه على جانب من الأهمية بحيث نتوقف عليها من الناحية النفسية حيث هنا يكمن العامل المسؤول غالباً في علم نفس "رجل الحرب". وعلى حد ظن أولئك العائدين من الجبهة، تكون الرغبة الجنسية

عنيفة على نحو خاص ومباشرة قبل الدخول بالأحداث، ووسط الاستعدادات الحربية، أو خلال فترات الهدوء في المعركة. والمراقبة المؤكدة عدداً من المرّات أوحت الفكرة التالية، أنه أمام خطر الموت الوشيك، ترتفع الحاجة عند الرجل ليؤمن خلوده، وبطريقة لاشعورية تماماً، ويصبح الفعل الجنسي عنده مرهوناً بالوظيفة التناسلية. " أنتِ أنا، وأنتِ أيضاً، الآن. أنتِ كل ما سيبقى مني" هذا قول لـ" روبير جوردان" في كتاب "همنغواي" " لمن تقرع الأجراس". لقد جرى التفكير بهذه الكلمات الرمزية بطريقة واقعية جداً من قبل الكثير من أولئك الذين ظنوا أنفسهم منذورين للموت. وفي تلك اللحظات ذات التوتر الشديد، للكائنات البشرية ميل في إحساس الحياة بطريقة أكثر بدائية، أي ليس فقط بصورة منطقية بل أيضاً بصورة رمزية. فالطريقة الرمزية للتغلب على الموت تؤدي إلى الحمل، وهي ليست مرغوبة بصورة شعورية إنما بصورة واقعية جداً لدى الفتيات اللواتي، بتعاطفهن مع هذه الرغبة اللاشعورية للرجل، تتوصلن إلى طلبها الغير معبَّر عنه وتدعن أنفسهن تخصبن من " الجندي المجهول". ويغرّر بهن ليس لمناسبة إثارتهن الجنسية الخاصة، إنما لأنهن تخدمن رغبة الحياة عند الآخر. ويلعب هذا الدافع كذلك دوراً هاماً لدى كثير من الشبان المتزوجين أو لدى فتيات غير متزوجات واللواتي تعجلن في الحمل من زوجهن أو من عشيقهن قبل أن يلبي هؤلاء نداء العلم. وتشكل الرغبة في الاستمرار هكذا بعلاقة مع الغائب وتأمين مستقبل مشترك معه عاملاً أكيداً لهذا السلوك، إنما خطر الموت الذي يحث على رغبة تخليد الحياة هو عامل أكثر قوة مع أنه لاشعوري.

ووسط جو أزمة الحرب، يحس الرجل، الذي خالجه شعور بالخوف من الفناء أكثر من أي وقت آخر، بإحساسٍ مكثف، أنه في ظروف أخرى الإضفاء الجسدي والروحي الذي يحققه من ذاته في المرأة بواسطة الفعل الجنسي، ويظهر هذا الشعور في تلك الحاجة اللاشعورية لإنجاب طفل. وأولئك الذين يتأملون تأملاً باطنياً يدركون فيما بعد هذه الحاجة التي أظهروها ويعطوننا معلومات حول هذا الموضوع قد لا نحصل عليها من جهة أخرى إلا من كتّاب أو من مجانين.

ومن المثير، في هذه المسألة، التذكير بوصف ستريند بيرج لتجاربه الخاصة. فخلال أزمة غيرة مرضية، اجتاحه، بصورة سلبية، شعور أحس به بطل همنغواي

وجنودنا بطريقة إيجابية. كان يعتقد أنه فقد جزءاً من روحه في تجربته الجنسية مع امرأة حكم عليها بعدم الوفاء. كان يائساً لأن دمه امتزج بدم تلك المرأة وكرّس لها زخم حياته؛ أراد أن يتراجع ويطالب بتلك الحصة من ذاته التي لا يستطيع العيش من دونها. ويبدو أن الناس السليمين من الناحية العقلية يحسّون، في بعض الظروف، بعواطف ستريند بيرج التي عانى منها خلال خلله العقلي. ولكي يهيئون أنفسهم للموت من الناحية النفسية، يناشدون معونة جميع الآلهة في الحياة. إما بالنسبة للمرأة، فالرغبة في تخليد العلاقة الجنسية مع الرجل بواسطة طفل حاضرة لديها دوماً، وليس فقط زمن الحرب، ومفاهيم الموت والقيامة التي تنطوي على الفعل التناسلي متجذرة بعمق في روحها. ويترافق هذا حالياً باندماج المرأة بالرجل (خاصة عندما تكون العلاقة الغرامية جيدة) والمناشدة الموجهة لآلهة الحياة تظهر في هذه الحمولات المتعددة التي تطرأ في ظروف غير ملائمة وعلى عكس الإرادة الواعية للمرأة.

فـــ" أمومة الحرب" هي ليست نتيجة لحاجة المرأة للحب إنما لشكوكها في موضوع (شخص) الحب. وتُبرم الزيجات على جناح السرعة لإسكات هذه الشكوك. وتأمل المرأة أن يوطد الطفل المنتظر علاقة أسسها غير مؤكدة، بينما يقضي شعورها الأخلاقي اللاشعوري أن تمنح هذا الرجل الذي سوف يجابه حياة قاسية وخطرة ما أمكن من الراحة والأمان. إن أخطار الحرب والأهمية التي تضفيها على الرجل تبدل وتحسّن العلاقة وذلك يشترك مع الحمل، علاقة الحب هذه التي تفرض نفسها، في تسهيل مهمة المرأة.

وبصورة عامة، تستخدم سلوكيات ردود فعل الحرب كل الوسائل الموجودة تحت تصرف الناس بصفتهم أفراد. وليس إلا بموجب تماثل التطورات عند كثير من الأفراد حتى تحقق هذه السلوكيات ظاهرة جماعية.

لقد أفهمتنا هذه الحرب لأية درجة يتعلق دور المرأة في المجتمع بالوسط المحيط. فجمهور من النساء يغادر البيت، منشغلاً بخدمات مختلفة، ومرتدياً زياً موحداً أولاً، وقد جذبهم دولاب آلة الحرب، وكان عملهم فيها فعالاً، وحتى ملفتاً للانتباه. إنما منذ اليوم، وبعد زمن قصير نسبياً، نلاحظ لدى هؤلاء النساء حنيناً لـــ" البيت"، وهن لا تستمرن بعملهن إلا بمقدار حماس أيديولوجي أوحي

لهن به أو أن ضرورات الحاجة المادية أجبرتهن على ذلك. وحتى لو كان هناك دوافع قوية عاطفية لخدمة القضية، فكثير من النساء تحس بالحاجة المتنامية لتجارب شخصية أكثر، وعاطفية على نحو مباشر أكثر، الحاجة لذلك الجو الحيوي حيث قد تلعبن فيه دورهن الأنثوي السلبي وحيث قد تكن مبدعات أكثر من أنشطة الحرب التي التزمن بها للضرورة القصوى.

لم يستحوذ ذهن المنافسة بعد على المرأة كلياً. فالدوافع العشقية والعاطفية لازالت تهيمن عليها، مع اعتبار الدوافع العدوانية. فطموح النساء المستنفرات يتخذ الشكل الموجود لدى الفتاة المراهقة: "انظر كم أُحسن ما أفعل، أحبني أكثر من الأخريات". فالرسم الصغير الذي نرى فيه فتاة ترتدي زياً موحداً وتشير بأصبعها إلى رئيسها قائلة: "انظروا، أليس هو مدهش؟" يعبر عن موقف واقعي بشكل ساذج.

تأثير آخر لجو الحرب على النساء قد يوحي بمخاوف فيما لو لم يكن لحسن الحظ وقتياً، فقد أصيبت المرأة في توازنها العاطفي عندما تطلب عملها بذل عواطفها لدرجة مفرطة. وعندما تكون النساء نشيطات جداً، لا تتعاملن مع إمكانياتهن العاطفية بشكل صحيح. وتفضلن إفقار أنفسهن بالإحساس الذاتي عن أن تغني أنفسهن بعلاقاتهن الشخصية المنطقية.

لن ندع أنفسنا ننبهر بنشاط النساء في الحرب، هذا النشاط المفيد والفعال والذي يقال أنه "طبيعي" في حين يجدر أن نقول عنه زائد الحدة. إننا نصفق لــ"فعاليتهن"، وقدرتهن، إنما لا ينبغي علينا أن ننسى أن كثيراً من الأمور التي تعطينا انطباع "النشاط" ليس لها دوماً تأثير كقوىً إيجابية نشيطة. وبالتوازي مع التكيف النشيط مع الواقع والعمل النشيط في سبيل أيديولوجية وطنية سياسية واجتماعية، تلعب غالباً تأثيرات خارجية وداخلية دوراً أصلياً بدائياً. فهناك تقبلاً سلبياً للجو. ويكون الدافع السلبي والماسوشي الذي غالباً ما يتوارى خلف إنجاز نشط في خدمة " الجوهر الأنثوي الأصلي" دوماً.

ومما هو بعيد عن الشك أن كثيراً من النساء تتخذ فرصة في أن تكون ذكوريات، فرصة تقدمها لهن الحرب، لإشباع سر الرغبة اللواتي تمتلكنها. فالزي الخشن والسروال السميك رموز للرجولة ليس فقط للنساء إنما للرجال أيضاً، بالنسبة للرجال ضمن النطاق الذي يشعرون بع أنفسهم سلبيين وأنثويين، وبالنسبة

للنساء ضمن نطاق ميلهن النشيط والذكوري. لدى الرجال، إنه رد فعل ضد أخطار داخلية محددة؛ ولدى النساء، للزي الموحد مقصد مضاعف؛ إشباع عقدهن في الرجولة، وحماية إزاء الأحكام الاجتماعية المسبقة والتي تشعرن أنفسهن تجاهها أكثر قوة عندما تتمثلن مظهراً ذكورياً.

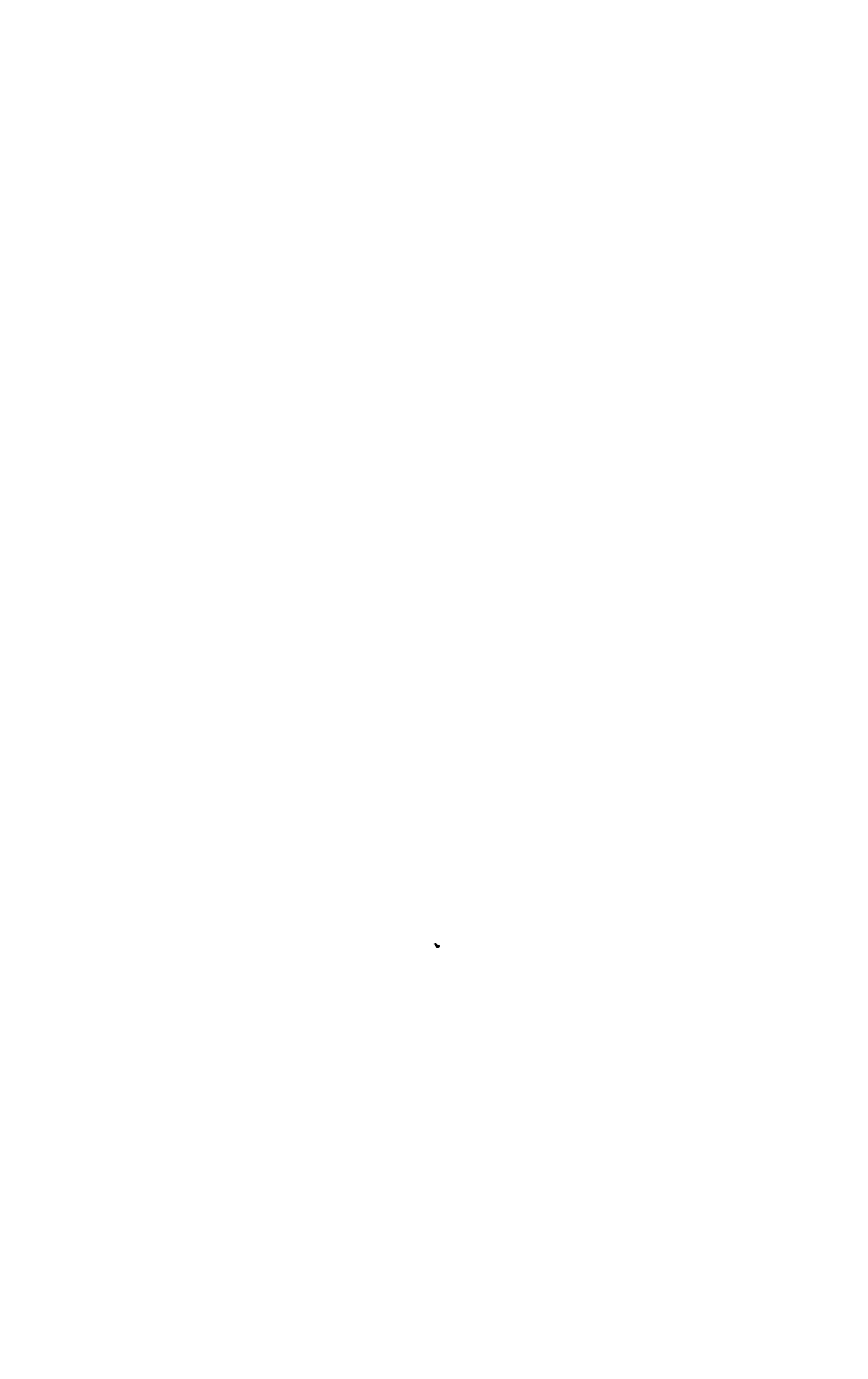
لعل التكهنات، وخاصة في أحقاب الانقلابات السريعة الغير متوقعة، تتبين أنها عادة غير دقيقة. ومع ذلك نتشبث بالقيام بها؛ وسنقتصر على مواجهة التطورات الممكنة لما بعد الحرب في مجال علم النفس الأنثوي. ونستطيع من أجل ذلك استخدام تجربتنا في الماضي.

هناك شاهد مباشر للتطورات اتخذ مكانته في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى، لقد رأيت بأية طريقة تظهر الاختلافات الجنسية. ولن نتحدث هنا عن تزايد الميول السلبية- الأنثوية عند الرجال. لقد اتضحت ذكورية النساء بطريقة لا جدل فيها في تبنيهن لمهن ذكورية، وفي تغيرات مظهرن، من ملابس، وتصفيفات شعر، الخ. وفي الجهود الحثيثة التي قمن بعا لإعطاء جسدهن قواماً ذكورياً. كما تلجأن إلى حميات تنحيف وهزال، تلك الحميات الغريبة التي تؤدي أحياناً إلى الموت، للتغلب على بنية جسدية مرتبطة بالأنوثة. كما تنتشر الأنشطة الرياضية، والعقلانية المتطورة جداً، ومبدأ الطفل الوحيد في الطبقات المتوسطة الأوروبية، وهي أساليب عينية ظهرت من خلالها نزعة الابتعاد عن الأنوثة. ولا نعتقد أننا نخدع أنفسنا عندما نقول أن النساء اللواتي ساهمن بنشاط في المجهود الحربي لم تكن متحمسات لهذا التوجه في حياتهن. والنساء الشعبيات وصغار البرجوازيات، أولئك اللواتي حللن واقعياً محل الرجال في المهن الشاقة في المصانع وفي سكك الحديد، الخ.، أرجعن مكانهن للرجال مع شعور بالارتياح والفرج وعجلن في العودة إلى بيتهن العائلي. ويبدو أنه في هذه الطبقات الاجتماعية، رغم البؤس المتنامي والبطالة، ترتفع أعداد الولادات بعد الحرب.

وخلال الحرب الحالية، تبذل النساء في بلدنا جهوداً على نطاق أوسع وبصورة لا مثيل لها. وفي أعقاب هذه الحرب، سيهتم عالم النساء بكامله بقضايا الصالح العام وسيكون جديراً في المساهمة كلياً بما كان حتى هذه اللحظة نشاطاً ذكورياً. وستصبح عقدة الرجولة أقل كرهاً، حيث سيحل محل الصراع العصابي

تسامٍ أفضل سيكون تجاهه العالم الخارجي متساهلاً أكثر. إنما ستعود غالبية النساء اللواتي جعلتهن الحرب أكثر نشاطاً من أي وقت مضى وبأكثر ما يمكن من السرعة والفاعلية نحو حياة أنثوية محافظة جداً والتي كانت مهيمنة دوماً، دون مراعاة الانقلابات الاجتماعية والثقافية. وستتكيف الصيغ الخارجية لهذه الحياة مع المتغيرات الاجتماعية التي لا يمكن توقعها حتى هذه اللحظة.

ومع اعترافنا الكامل بأهمية العوامل الاجتاعية، نؤكد ثبات بعض المظاهر النفسية للمرأة وأنها لا تخضع للتأثيرات الحضارية إلا ببروز أحد مظاهرها. فالأنثى البدائية آنتونويه، وديميتير الخصبة، وبالاس أتينيه المرأة بلا أم، والأمازونية الخنثى، وجميع هؤلاء النساء اللواتي خلقهن خيال الميثولوجيا؛ ومع ذلك فهن موجودات واقعياً في جميع المجتمعات. وتظل تظهر تلك النماذج من الروح الأنثوية مجدداً وباستمرار، ودائماً نفسها ودائماً مع ذلك مختلفة، تماشياً مع الثقافة، والعرق، ودرجة التطور التاريخي للمجتمع. فالواجهة قد تتغير، أما الجوهر الأنثوي فيبقى ذاته عبر جميع الأعاصير.



الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	7
الفصل الأول: مرحلة ما قبل البلوغ	13
الفصل الثاني: مرحلة البلوغ الناشئ	33
الفصل الثالث: مرحلة البلوغ والمراهقة	101
الفصل الرابع: الحيض	153
الفصل الخامس: العشيقة	183
الفصل السادس: السلبية الأنثوية	213
الفصل السابع: الماسوشية الأنثوية	231
الفصل الثامن: المرأة "النشيطة" عقدة الرجولة	265
الفصل التاسع: الجنس المثلي	303
الفصل العاشر: تأثير العالم المحيط	329

2007/1/759



عِلم نفس المرأة

الطفولة والمراهقة

إن ذهن الفتاة الصغيرة الطبيعية ينمّي فيما يتعلق بوالدها تخيلين واردين كثيراً وواعيين تماماً. إنها ترى أولاً في والدها رجلاً مميزاً يستحق أفضل مصير وهو ضحية الأم المعادية التي فرضت عليه المهمة الحزينة لتحصيل المال. أما هي، ثانياً، فتاته الصغيرة، فهي التي تناسبه بصورة أفضل، وهو الملزم بكل أسف أن يتخلى عنها. ففي حالات عديدة، إن الهدف الأول لحب امرأة صحيحة نفسانياً هو رجل متزوج يستجيب لحبها ولكنه لا يستطيع أن يكسر روابطه القديمة. وهو الذي ستبقى غالباً متعلقة به طول حياتها، إن مثل هذا الرجل تستنسخه وضعية الأب. وإن تخيل رغبتها الموجعة والآلام التي تتقاسمها المرأة معه، تغذي غالباً تعلقاً أميناً أفضل من التكامل السعيد.

المؤلفة

ISBN 00953-463-48-4

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع